

محمّد المجدوب

علماء ومفكرون عرفتم

الجزء الأول

الطبعة الرابعة

دار الشواف

علماء و مفكرين عرفتم

- أصدرته عام ١٩٩٢ م دار الشواف
- طبع بالمطبعة الفنية - عابدين - القاهرة. ت: ٣٩١١٨٦٢
- حقوق الطبع محفوظة
- الناشر دار الشواف للنشر والتوزيع

دار الشواف للنشر والتوزيع

الرياض - العليا - شارع الثلاثين - شرق بنده ت : ٤٦٢٢٦٣٠ - ٤٦٢٢٦٦٧ فاكس : ٤٦٢٢٨٦٦
Riyad - Olaiya, Thalatheen St., (East to Panda) Tel.: 4622630 - 4622667 - Fax.: 4622866

إهداء

إلى الرجل الذي وقف سنه السبعين كلها على خدمة بيت الله، وعلى تعليم أجيال المسلمين في طرطوس - سورية - كتاب رهم وسنة نبهم، فكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من الجهاد الدائب لتبليغ الناس محكمات دينهم، من العقيدة والعبادة وأساليب التعامل الشرعية اليومية، في دروس لا تكاد تدع له متسعاً لشؤنه الخاصة، فعمت بخيراتها الرجال والنساء، آباء وأمهات وأبناء وحضرة، على السواء.. فلا يكاد بيت في ذلك البلد يخلو من أثر هذا الخير، إما مباشرة منه، أو نقلاً عنه.

إلى أحد أولي شيوخين تلقيت عنها كتاب الله، وأحد اثنين بدأت على يديها دراسة اللغة الكريمة التي بها وعن طريقها أتذوق وأنفهم كلام الله.

إلى روح عمي الشيخ عبدالله المجذوب أهدي هذا الكتاب. تقديراً لفضله وإحياء لذكراه.

عليه رحمت الله

محمد المجذوب

هَذَا الْكِتَابُ

إنه إحدى الثمرات الطيبة التي جنيها من مقامي في طيبة المباركة، ولعله الكتاب العشرون الذي وفقني الله إلى إخراجه حتى الآن خلال الأربع عشرة سنة، التي طويتها في ظل الجو السعيد العابق بذكريات الإيمان والعزة والجلال، وفي خدمة الجامعة الإسلامية التي:

رَدَّتْ إلى طَيِّبَةِ الْعُظْمَى رسالتها فكلُّ صُغْبٍ به من نَفْحِهَا أثرٌ

● ومدينة الحبيب، منذ شرفها الله بحبيبه، صلوات الله عليه وسلامه، هي ملتقى أهل الإيمان من كل مكان، فالجوار فيها معرَّضٌ أبداً لنفحات الخير، التي منها لقاء من لم يكن يتوقع لقاءه في الحياة الدنيا من كبار حملة العلم ودعاة الهدى، الذين يتشوق إلى لقائهم بما علم من آثارهم.

● ولقد سعدت، والحمد لله، طوال هذه السنين بمشاهدة العديد من هؤلاء الفضلاء، الذين زادني الصلة الشخصية بهم علماء، ولهم تقدير، فأضاف ذلك إلى الحب القديم صداقة جديدة، فكان من هذا وذاك معظم هذا الكتاب الذي أقدم له بهذه الكلمة الوجيزة.

● كان التخطيط الذي صممته لهذا المشروع يشمل العشرات من الأخوة، ومن مختلف أرجاء العالم الإسلامي، ولكن ظروفاً قاهرة حالت دون تلقي إجابات الكثيرين ممن بعثت إليهم بالاستطلاع أو سلمته إليهم.. هذا إلى تأخر المنشود من بعضهم، حتى لم يبق ثمة متسع من الوقت لصياغته وضمه إلى ما أمكن إنجازَه. وبذلك اضطررنا إلى إيساع التصميم حتى يكون الكتاب أكثر من مجلد تقدم منه لهذه الطبعة القسم الأول، على أمل أن يوفقنا الله إلى استئناف العمل في تأليف الجزء الثاني، وعسى أن يكون ذلك قريباً منه وتيسيره.

● أما المنهج الذي بنينا عليه هذه التراجم فقد كان قائماً على نماذج من الأسئلة، يكتب المترجم أو يلي علينا خطوطها الكبرى، ثم نعمد إلى صوغها

وفق ترتيبها في الاستطلاع، رابطتين كل جزء منها بما يتصل به من عوامل البيئة أو التربية أو الأحداث المؤثرة، أو بها جميعاً، فتبرز بذلك صور هذه العوامل كلها من خلال الربط التحليلي، حتى يتبين القارئ في يسر مجاري العمل الإسلامي في البيئات التي تتصل بحياة المترجمين.

● ولقد أمكن، والله الحمد، الحفاظ على روح ذلك المنهج الإقليلاً، مما يتعلق بالترتيب. وذلك أن بعض الأخوة، أمتع الله بحياتهم، قد غفلوا عند تسطير الإجابة عن جدول النماذج، فحال ذلك بيننا وبين الالتزام المقرر. وهكذا اختلف نظام العرض، وتعددت مسالكه، مع الارتباط التام بأهداف المنهج من حيث التحليل والتصوير. ولعل ذلك كان خيراً إذ جاء أكثر تلويحاً.

● وأما ترتيب الفصول فقد آثرنا له مراعاة حروف الأسماء وفق النسق الهجائي، بدلاً من تاريخ الورود أو حجم العروض.

● بقي أن نذكر القارئ العزيز بأن كل الذين تناولنا الحديث عن حياتهم المباركة هم ممن لقينا وعرفنا، إلا واحداً فقط هو الشيخ عبد الرحمن الإفريقي، الذي حال الأجل دون لقائه، وإنما سوغ الكلام عنه ما انطوت عليه حياته الخصبه من أحداث تلفت النظر، وتسترعي التأمل الطويل، في ما وراءها من التدبير الخفي الحكيم. ويعود الفضل في معرفتنا ذلك إلى تلميذه الوفي فضيلة الشيخ عمر محمد فلاّته، الأمين العام للجامعة الإسلامية.

● هذا، ومع أنني كبير الرجاء بأن يلقى كتابي رضى أهل الفضل من القراء في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فيسرني كل السرور أن أتلقى ملاحظاتهم عليه، لأنتفع بها في الطبعة المقبلة - القريبة - إن شاء الله.

والله أسأل أن يكرم عملنا بالقبول إنه خير مسؤل

المدينة المنورة - قُباء - ١٠/١١/١٣٩٧هـ

محمد المجذوب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله وصلى الله على عبده الأكرم محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وتابعهم باحسان .

وبعد فهذه الطبعة الثانية أقدّمها إلى القاريء العزيز مصدحة ومزيدة، ولو كان الأمر إليّ لكان عليّ أن أتولى تقديمها قبل سنوات، إذ نفذت تلك الطبعة، وتوالى الطلب على الكتاب، حتى بلغ بعضها نسبة غير متوقعة.. ولكن الأمور تجري على قدر لا يملك الإنسان منه شيئاً إلا أن يشاء الله .

ثم لقد كان المقرر أن تخرج هذه الطبعة مع الجزء الثاني من الكتاب، وفيه كذلك تراجم عشرين من رجال الدعوة المعروفين في العديد من أنحاء العالم الإسلامي، إلا أن تكاثف الأعمال وتراكم المشاغل في مؤلفات أخرى لم يكن بد من إنجازها حالاً دون ذلك، مع أن مادة الكتاب توشك أن تكون جاهزة كلها... فعسى أن يبارك الله في بقية العمر فنستدرك ما فات، وبذلك يقدر لنا لقاء آخر في هذا الجانب مع القاريء العزيز بمنه وتوفيقه .

ولله الحمد من قبل ومن بعد ولا حول ولا قوة إلا به .

المدينة المنورة - ساحة مسجد قُباء .

١٤٠٣/٧/١ هـ

١٩٨٣/٤/١٤ م

محمد المجدوب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

لا أزعج أن هذه الطبعة وهي الثالثة من «علماء ومفكرون عرفتهم» يشكل دليلاً على أن هذا الكتاب قد أحرز من الرواج ما كنت أتوقع له ، وذلك لسبب واحد هو أن مجموع النسخ لكل من طبعته السابقتين لم تتعد - فيما أعلم - حدود الثلاثة الآلاف ، مع أن إقبال القراء عليه لم يكن قليلاً ، ولكن موقف بعض الناشرين منه لم يكن على المستوى المنشود ، حتى ليسك أحدهم عن إعادة طبعه لتأمين المقادير المطلوبة منه إلا أن ينزل مردودي منه إلى أدنى الحدود.. وهي محاولة على قسوتها تستحق الشكر بالقياس إلى مانعائه لدى بعضهم من إجحاف قد يجعل العشرة الآلاف من المطبوع ألفين ، ويهوى بالاستحقاق من عشرات الآلاف إلى ما يقارب الصفر.. ولولا إسعاف القدر بكشف المحجوب لما وقفنا من حقوقنا هذه على عين ولا أثر..

ولعل الله أن يجعل هذه الطبعة أكثر توفيقاً وأوفر نسخاً على يد «دار الاعتصام» ، التي تولت نشر الجزء الثاني من الكتاب ، ثم رأت أن تستجيب لرغبة القراء الذين يريدون الحصول على جزأيه جميعاً ، ففوضت لها الأمر ، وهاهو ذا يقدم إلى القارئ مع أخيه الثاني ، ويبقى الجزء الثالث الذي ينتظر اللمسات الأخيرة ليأخذ طريقه إلى المطبعة التي لا يعلم إلا الله أي مطبعة هي ، وأين مكانها؟؟..

والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات.

المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِقَرْنَةِ الطَّبَعَةِ الرَّابِعَةِ

هذا المجلد الأول من «علماء ومفكرون عرفتهم» بدأ صدوره من بيروت ثم مالبت أن انتقل إلى جدة ليخرج في طبعة ثانية، ثم إلى القاهرة ليأخذ سبيله إلى نالمة، وهاهوذا اليوم يستقر في الرياض ليحظي بعناية «دار الشواف» الحديثة في طبعة رابعة.. ولو استجاب الناشر لطلب القراء لحقق الظهور في طبعات، ولكن لكل شيء أجل ولكل أجل كتاب.

ولعل هذه الكلمة تكون آخر ما أسطره في تقديم هذه الطبعة من الكتاب بعد أن أشرفت من العمر على المحطة التي صَوَّرَتها بقولي في قصيدة (لحظة آمن) من ديواني الثالث (آلام وأحلام):

إنني أسمع صوت الموت هذراً بسأذني
وأري بسبي كل شيء هادماً ما كان يبني

ولم يبق لي من أمل في هذه الدنيا سوى أن يستجيب الله دعائي فيجعله وأخويه من الأعمال التي يحبها ويرضاها، ويرزقها من يتولاها بعدى بجميل الرعاية فيجدد حياتها كلها آذنت بالنفاد في طبعات جديدة تحقق لها صفة الدخول في زمرة الباقيات اللاتي أخبر

عنهن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه عليه بقوله - في صحيح مسلم - : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » .

ودعوة سالحة من قارئ صالح بعض ما ينطوي عليه مدلول هذه البشري النبوية الكريمة .. والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا به ..

المدينة المنورة ١٩ / ١ / ١٤١٣ هـ .

محمد المنجدوب

الأستاذ أحمد محمد جمال

هو الكاتب الإسلامي المعروف بأثاره المتصلة أحد محمد جمال ، ينتهي نسبه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عضو مجلس الشورى في مكة المكرمة ، وأستاذ الثقافة الإسلامية في جامعة الملك عبدالعزيز في مكة وجدة .

يقول الأستاذ : إن جدأ له قد هاجر إلى الهند ، ثم عاد إلى مكة حيث استقر ، وتكاثر نسله ، واتصل مقامهم في جوار البيت الحرام حتى اليوم ، وإن بعض ذرية هذا الجد قد شغل منصب القضاء في جاة .

إلا أن الأستاذ لم يذكر لنا تاريخ تلك الهجرة فنعلم أهمي في موجة الفتح الإسلامي الأول للقارة الهندية ، أم هي من الهجرات الأخر التي شملت العديد من علماء العرب ، الذين قصدوا إلى الهند في مختلف العصور ، لطلب العلم أو لتدريسه .

ويذكر الأستاذ أن ميلاده كان في مكة عام ثلاثة وأربعين وثلاث مئة وألف ، ويعني ذلك أنه قد استوفى حتى الآن السادسة والخمسين من عمره المبارك ، على الرغم من أنه يبدو للناظر دون هذه الحدود . فالأستاذ سليم البنية ، وافر النشاط ، محتفظ بالكثير الكثير من خصائص الشباب والله المهد .

نشأته :

ووصف الأستاذ بيئته التي فيها نشأ فيقول : إنها محافظة ومتوسطة . وبالطبع إنما يريد بالتوسط حالتها المادية ، ولعل ذلك من العوامل التي ساعدتها على استمرار (المحافظة) ما دام الطغيان - في الغالب - مقارناً للفنى بشهادة العليم الحكيم .

وكنا نود لو تبسط المترجم بالحديث عن الجانب العلمي من حياة أسرته ، لئى الى أي مدى كان لذلك أثره في اتجاهه .

إن وجود قاهر من هذه الأسرة في جدة لا يثبت غلبة اللون العلمي عليها ، ولكن لا ينفي أن يكون لهذا اللون حضور في حياتها غير مقطوع . وبخاصة إذا ذكرنا أثر الشعور الأسري في كيان الفرد المسلم ، الذي يعلم أنه مشدود برباط النسب إلى أحد عظماء التاريخ الإسلامي كالفاروق وإخوانه تلاميذ النبوة . أضف إلى ذلك أثر الجو المكى ، الذي لم يتخل قط عن روح العلم المتميز بصدوره عن منبع الوحي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم عن تراث المهتمين من أئمة التابعين .

دراسته :

وعن دراسته العلمية يقول الأستاذ : إنه بدأها في المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة ، وكان آنذاك بثابة الثانوية الوحيدة هناك .

وطبيعي أن امرءاً في مثل مواهب الترجم لا يروى نهمة إلى المعرفة استكماله مقررات أي المعاهد ، وإنما يتخذ منها نقطة انطلاق لاستكشاف جديد من العلم في كل يوم ، وهكذا مضى الأستاذ يلتمس الموارد الشبية من مظانها الخيرة . فعلى المرحوم العلامة السيد علوي مالكي ، المدرس السابق بالمسجد الحرام ، تلقى بعض تفسير القرآن العظيم . ومن أفكار الإمام الشهيد حسن البنا قيس غير يسير من أصول الثقافة الإسلامية العلية . وكان ذلك من البواعث الحثيثة للأستاذ

على التزام سبيل العاملين لخدمة الإسلام في حاسة ونشاط يتميز بها كل متأثر
بمدرسة الشهيد البنا .

علومه المفضلة :

ويركز الأستاذ في جواب الفقرة السادسة على إشارته دراسة القرآن والتشريع
الإسلامي على سائر العلوم الأخرى . ويقول: إنه منذ عشر سنوات يقوم بتدريس
مادة (الثقافة الإسلامية) بجامعة الملك عبد العزيز .

وانقطاع الأستاذ إلى هذا الاتجاه تعبير طبيعي عن تكوينه الفكري
والروحي ، فدراسته بالمعهد العلمي في مكة حددت سلوكه في طريق الثقافة
الإسلامية الخالصة ، وبخاصة في ذلك العهد الذي كان التعليم فيه مقصوراً على
بقية من مشايخ الحرم ، الذين لا سبيل للتفريق بين دروسهم وسلوكهم .

على أن من الواجب الحتم تذكير القارئ بما أشرنا إليه في أكثر من موضع ،
وهو أن انقطاع المفكر إلى هذا الضرب من الثقافة القرآنية لا يعني انفصامه عن
مجالات الفكر الأخرى كما قد ينبادر إلى بعض الأذهان ، ذلك أن الثقافة الإسلامية
لا تعرف الفصل بين الدنيا والدين ، فكل علم يساعد على إثراء المعرفة هو علم
شرعي إسلامي دون خلاف . وإني لأعتقد بأثر من أشد الناس جهلاً للإسلام
أولئك الذين يقيمون الحواجز بين ما يسمونه علوم الدين وعلوم الدنيا ، فيوهمون
طلابهم أن الإقبال على علوم الشريعة يقتضي الإعراض عن علوم المادة . ولو أن
هؤلاء أنعموا الفكر في الآيات الكونية من كتاب الله ، لأدر كوا أن أحق الناس
بتفسيره أعلمهم بقوانين المادة ، بعد الإحاطة بأصول التفسير والحديث والعربية ،
وما إليها من وسائل المعرفة الأولى .

وعلى هذا فكل متقف إسلامي هو في الوقت نفسه متقف عالمي . ولا شك
أن المتتبع لأثار الأستاذ لا يفتقد إلى يقين عنه هذا اللون في كل ما يكتب ، تحتوي في ذلك
مذكراته الدراسية ومقالاته الاجتماعية ، التي لا يفتأ يوافي بها الصحف والمجلات

بحثاً في دققة ، أو تحقيقاً على زلة ، أو تمعناً لفرية ، وهو في كل أولئك حاضر .
الدليل ، نافذ الحججة ، عميق النظر ، متعدد الأسلحة ، تشعر وأنت تلاحق
أفكاره انه يطل بك على آفاق واسعة من المعرفة البشرية . فيذكرك بالسابقين
من رجال الفكر الاسلامي ، الذين أطلوا من خلال الوحي على مسارح الثقافة
العالمية جميعاً . وليس في ذلك من غرابة بالنسبة إلى مفكر شق طريقه على
ضوء الإسلام ، ثم تولى تدريس الثقافة الإسلامية في وسط جامعي ، فهو يحافظ
التوق العلمي من جانب ، وحاجته المتجددة إلى تتبع الأحداث الفكرية العالمية
من جانب ، لا يستطيع الانفصال عن مجرى الثقافة العامة ، بل لا يستطيع إلا
الاتصال المستمر بمطياتها القديمة والحديثة . ولا ريب أن ممارسة المترجم للعمل
الصحفي - مع أخيه الأستاذ صالح - في جريدتي « حراء » ثم « الندوة » قد
كانت أحد العوامل الفعالة في تفتيق مواهبه وتخصيفها معاً ، إذ لا مندوحة
للصحفي من ملاحقة الأحداث ، وتحليلها ، والربط ما بينها ، والتفطن إلى
مدلولاتها البعيدة ، حتى يصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من وجوده .

مؤثرات فكرية :

وحول السؤال الخاص بالأحداث التي أثرت في تكوينه الفكري والروحي
يحصص الأستاذ إجابته في تحلف المسلمين ، ويحدد سبب التخلف بجرم للثقافة
الإسلامية ، التي يقرر أنها « نظرية علم وسلوك ، وليست مجرد معارف
ومبادئ ، » .

والإجابة تابعة من كيان الأستاذ كله ، فإذا كان لكل إنسان مؤثراته
الخاصة التي توجهه إلى هذا أو ذاك من مسالك الحياة ، فلا جرم أن حصر
مؤثرات الفكر المسلم في أوضاع الأمة التي هي مجال عمله ، ومركز اهتمامه
بالدرجة الأولى . ذلك أن المفكر الأصيل هو الوحيد الذي لا يستشعر معنى
للعيش إلا في نطاق الجماعة ، وعلى مدى صلاحية هذه الجماعة يتوقف نجاحه أو
إخفاقه في تحقيق أحلامه المنشودة . وتركيزه على التخلف مجزئ ، عن الكثير من

التمبير ، لأن مجرد تصور واقع المسلمين في مؤخرة الركب البشري يؤكد استجاعتهم لسائر أسباب الضعف دون تحديد . هذا إلى أن التخلف ينطوي على فقدان الوعي لحقائق الإسلام ، وهو الطابع الذي يميز سواد المسلمين في كل جزء من وطنهم الكبير ، ولذلك ربط هذا التخلف بسبب واحد هو عجزهم للثقافة الإسلامية ، ليؤكد فراغهم الفكري من الإلمام اللازم بحقائق الإسلام . وتتضح الفكرة أكثر عندما يملل رأيه بخصائص هذه الثقافة المهجورة ، إذ يرينا إياها مزيجاً من الفكر والتطبيق ، على خلاف ما يعمد في النظريات العلمية التي لا تتجاوز نطاق المعارف المحضة .

وأي قلب أخلص للحق لا ينتظر ألماً لواقع هذه المئات من ملايين المسلمين ، وقد اقتصر سوادهم الأعظم من علاقتهم بالإسلام على تلك الهوية التي تعطيتهم حق الدفن بمقابر المسلمين ، ثم جاءت الطامة الكبرى بذلك الجيل الجديد من أبنائهم الذي غملت أدمغته بمحاضن الغرب الصليبي ، أو الشرق الماركسي ، فلم يكنف بموقف الجاهل من أهل ، بل راح ينفذ توجيهات أعدائه بإعلانات الحرب على كل ما يمت إلى الإسلام بصلة ، دون أن يكلف نفسه تعرف حرف واحد من نظامه الخالد .

وهنا أحب أن أشارك قضية الأخ الأستاذ أحمد جمال نفثته اللاذعة بهذه الأبيات التي أتخذ منها أنشودة يومية أرددها على نفسي كلما واجهت الجديد من مصائب هذه الأمة ، وما أكثرها :

يا خليلي خليلاني وأتجأ	في أتاجي أطيافهن وحيدا
قد عصتني الدموع ، لكن قلبي	في جعم الأسى يذوب وثيدا
وجراح الإسلام من كل صوب	قاتلاني وإن بدوت جليدا

أحداث وأراء :

وبذكر الأستاذ أن من أهم الأحداث التي واجهها أثناء عمله ما تمرهن له من

سجن بسبب انتقاد اجتماعي نشره في مجلة مصرية عام ١٣٦٨ هـ. ثم فصله من الوظيفة عام ١٣٧٧ بسبب مقالات كتبها عن فلسطين ، وفيها يخطئ العرب لعدم قبولهم مشروع التقسيم في حينه ولأنهم لو قبلوه يومذاك لكان للفلسطينيين الآن دولة قائمة ، ولا استطاعوا وهم على أرضهم أن يذفوا باليهود إلى البحر .

وكان يودنا لو أوضح لنا الأستاذ موضوع ذلك النقد الاجتماعي الذي أفضى به الى السجن قبل أكثر من ربع قرن. فان مواطن الخلل في جسم المجتمع الإسلامي أكثر من أن تحصى ، وكلها تتطلب النقد والعلاج ، ومهما يكن من شيء فإن كلنا الصدمتين اللتين تعرض لهما من سجن وتسريح إنما جرتها عليه صراحته في إبداء الرأي الذي يؤمن بصحته ، وتلك إحدى النتائج الطبيعية بالنسبة إلى كاتب يستشعر مسؤوليته أمام كل حالة تتصل بمصلحة أمته . على أننا نستمع الأستاذ عذراً إذا ناقشنا رأيه في قضية فلسطين بخاسة ، لأن أوجزه بوضوح ، بخلاف الصدمة الأولى التي أشار إليها من بعيد .

إن مقالاته عن فلسطين جاءت بعد نكبة التقسيم بما يقارب العشر من السنين ، وقد تمخضت هذه السنين عن مئات الأحداث ، وتكشفت عن العديد من التطورات ، فالحكيم بخطأ الرفض الذي أجمع عليه العرب في حينه ضرب في فراغ ، إذ لم يعد للتخطئة من مردود سوى تثبيط المهتم في مواصلة الكفاح ضد الغاصب ومن ورائه .

ثم: لماذا يعتبر انتصار الدولة الفلسطينية - لو قامت - على اليهودية العالمية من الحتميات الحاسمة ، ولا يذكر التقدير الآخر الذي لا يقل عن ذلك توقعاً .

لا يابها الأخ العزيز . إن إجماع العرب على رفض التقسيم في حينه كان هو الواجب الذي يعتبر كل شذوذ عنه خيانة قومية ، وانما طراً الفشل من الثغرة التي أحدثها مندوب إحدى الدول العربية في مؤتمر عاليه ، الذي عقد في أعقاب الهدنة الأولى فراح يضغط على زملائه لقبول توجيهاً أميركية بقبول الهدنة

الثانية ، حتى اضطرم إليها نحت ثقل التهديد بانسحاب دولته من المعركة .
وهو موقف لم تكتب تفصيلاته حتى الساعة وبإلأسف !

أجل أيها الأخ العزيز ليس رفض التقسيم هو الخطأ الذي تنوهمه ، بل إن
تخلخل الصف العربي في مواجهة الأحداث الدولية ، وتوجيه الضربات المتتالية
إلى قوى الجهاد الإسلامي الخالص ، وهو في ذروة فاعليته ، هما المسئولان عن
الكوارث التي أعقبت الهدنة الثانية وما تلاها من النكبات حتى اليوم .

إننا مع الرفض لكل وجود سياسي ليهود في ربوع الأقصى ، ومع كل مقاومة
مخلصة تزلزل الأرض تحت أقدامهم في كل مكان وزمان . ولن يضرنا أن يستمر
تزييفنا الدموي طويلاً في هذه المعركة الطويلة ، إنما المهم أن نصمد ، وأن نثبت ،
وأن ننهض بتبعاتنا في الجهاد حتى يأتي الله بالفتح الموعود .

وما أروع وأشرف كلمة ذلك الزعيم الإفريقي : « الموت وأنت رافع الرأس
أشرف من الحياة وأنت خافضه » .

ولنتذكر دائماً قول ربنا من فوق سبع سموات : « ولا تنهوا وتدعوا إلى
السلم وأنتم الأعلىون والله معكم ، ولن يتركبكم أعمالكم » .

ثم إن إشارة الأستاذ إلى تسريحه من الوظيفة بسبب هذه المقالات يشدنا إلى
التنظر في نوع هذه الوظيفة وأثرها في تركيبه الفكري . ولكن المؤسف أننا
لا نعرف عنها شيئاً ، فلا نعلم بالتالي شيئاً عن مردودها في نفسه وانعكاساتها في
نتائجته العلمي والأدبي .

على أن وجوده عضواً في مجلس الشورى بمكة حتى الآن ولعدة سنين لا بد
أن يكون له آثاره في مشاعره ، ومن ثم في ذلك التكوين الفكري الملحوظ في
أعماله العلمية .

ومجالس الشورى في نظام المملكة السمودية بمثابة المجالس الإدارية في مراكز
المحافظات ، فهي تتبع للمعامل فيها أن يتعرف الكثير من خصائص مجتمعه ، فإذا
كان هذا العامل من أولي الفكر الحي أمدهت بمزيد من التجارب المحركة . فكيف

إذا كان ذلك المجلس في البلد الحرام ، الذي هو مثابة العالم الإسلامي على اختلاف ألسنته وتقاليدته وألوانه؟.. وعلى هذا فلا مفر للتعرف بهذه الشخصية من أخذ هذا الجانب من حياته بعين الاعتبار .

نشاطه العلمي :

ويحدثنا الأستاذ عن نشاطه في مجال العلم بإيجاز ، فيشير إلى عمله في التدريس بجامعة الملك عبد العزيز في مكة وجدة ، وإلى المقالات والأبحاث والمؤلفات ، وإلى محاضراته في المؤتمرات الإسلامية والمواسم الثقافية داخل المملكة وخارجها .

وإنه لنشاط مبارك يقف دونه الكثيرون من المدرسين الجامعيين ، الذين حبسوا أنفسهم في حلق الدروس وتأليف المذكرات - إذا اضطروا إلى ذلك - فإذا حشنتهم على الانتاج ووجهت نظرهم إلى الأحداث التي تتطلبه خدمة الإسلام ، وإيصاحاً لحقائقه ، ورداً لكيد العادين عليه ، لو اوا رؤوسهم ضيقاً بما يسمعون ، وتمتموا في جهد بليغ : حسبنا دروسنا وما نعمانيه في تحضيرها !.. وحق في قاعة الدرس قد يضيقون ذرعاً ببعض المسائل (الحساسة) فلا يستنكفون أن يقولوا : ما هذا جثنا .. فدعونا نأكل العيش !

أجل ، إنه لنشاط مبارك أن تمتد جهود الأستاذ إلى كل هذه المجالات . وما كان ليتحقق له ذلك لولا شعوره بضخامة التبعة التي ألقاها القدر على عواتق أمثاله من رجال الفكر الإسلامي في هذه الظروف التي يحق لكل ذي علم مؤمن أن يردد فيها قول الشاعر :

تكاثرت الظباء على خراش فما بهري خراش ما بصيداً

وثمة نقطتان لا نرى إخضاعها لمسا آثره من الإيجاز في الإجابة على هذه الفقرة . أما إحداهما فتركيزه في مذكراته الدراسية على ما يمكن تسميته بأحداث الساعة ، مما يقع عليه خلال تتبعاته الدائبة من مذاهب وأفكار تتصل

بالإسلام من قريب أو بعيد . فالمطلع على هذه المذكرات يدرك بدهشة أنه تلقاه
صور حية من واقع الفكر الإسلامي المستمد من نور الله ، لكأن صاحب هذه
الصور مكلف حراسة الثغور ، فهو لا يفتأ ساهراً عليها مراقباً لما يراد بها ،
دافعاً عنها بكل ما يملك من أسلحة وقوة . وبهذه الروح يكتب الأخ مقالاته ،
وينظم محاضراته وأحاديثه ، فلا تعرب عنك خصائصه هذه في كل ما
تقرأ له .

وثانية التقطين رحلته العديدة مندوباً من قبل رابطة العالم الإسلامي إلى
مختلف ديار المسلمين لدراسة أحوالهم على الطبيعة ، وتوثيق مشاعر الأخوة بينهم
وبين الشعوب التي تمثلها الرابطة من عالم الإسلام .

وبدئني أن لهذه الرحلات أثرها الفعال في تمييز أفكار الأستاذ ، واكتسابه
المزيد من الخبرة في معالجة أدواء المسلمين ، ورصد ما يحيط بهم من عوامل
وأحداث . ولكل ذلك انعكاساته الحية على آثاره الأدبية والفكرية لا يخطئها
الناظر ولا السامع .

مؤلفاته :

يذكر الأستاذ من مؤلفاته الكتب التالية : « على مائدة القرآن » في أربعة
أجزاء ، و « مفترقات على الإسلام » ، و « محاضرات في الثقافة الإسلامية » ،
و « نحو سياسة عربية صريحة » ، ثم كتاب عن المرأة بعنوان « مكانك تحمدي
أو تستريحي » ، ويقول إن له ديواناً شعرياً باسم « الطلائع » ختم به حياته
الشعرية ، فلم يعالج الشعر بعده .

أما الكتاب الأول فهو باكورة اتصالي بآثار الأستاذ ، وكان ذلك قبل خمس
عشرة سنة ، إذ وقعت على الجزء الأول منه في إحدى المكتبات ، فاستهواني
عنوانه ، وقرأته فأعجبت به ، ووددت لقاء مؤلفه .. ثم شاء الله أن يكتب لي
المعجزة إلى ربوع الحرمين ، وأن يجمعني به في ظلال البيت المطهر ، فلم يزدني

لقاؤه معرفة به ، إذ وجدت العقل الذي طالمني في كتابه هو نفسه العقل الذي أطالعه في حديثه . حتى ملاحظه الشخصية الراضية لم تفاجئني ، لأنني تنورتها من قبل خلال تعابيره الواضحة الصافية .

وثاني مؤلفاته - وهو من ثمراته الجامعية - كنت أتابع ما ينشر من بحوث في بعض المجالات ، فأتجاوب معه في معظم بل في كل ما تتناوله من شئون وشجون . وكذلك كتابه الخامس عن المرأة ، وكان أول ما أهدي إلي من مؤلفاته ، قرأته في إنعام فوجدتني أتلقى وإياه في الكثير مما ذهبت إليه في كتابي « تأملات في المرأة والمجتمع » ، ولا عجب فإني وإياه لكتبا وصف أبو غنام صلته بان طاهر :

إن مختلف نسباً يؤلف بيننا أدب أقتناه مقام الوالد
أو يفترق ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد

ويبقى مؤلفه في السياسة العربية ، وهو ما لا أملك خبراً عنه فأدلي برأيي فيه . والبحوث السياسية أكثر ما تكون تشعباً واختلاف وجهات نظر ، ومن يدري فقد تتمدد بنا مواطن الاتفاق والافتراق حوله . . ولكن مها يكن من شيء فالمنطلق الإسلامي الواحد ككفيل بتقليص نطاق الخلاف ، حتى نكون - أنا وهو - كما يقول شوقي على لسان ابن الملوّح :

اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية

ومثل ذلك موقفي من ديوانه « الطلائع » فقد أخطأني التوفيق إلى الاطلاع عليه ، فلا رأي لي فيه ، غير أن المتوقع أن يكون من شعر الكاتين الذين تغلب عليهم النزعة الفكرية ، وبقل فيه نصيب العاطفة والخيال . ولعل هذا هو السبب الذي أقنع الأستاذ بالإنصراف عن الشعر بعد الديوان ، ليهب نفسه كلها للجانب الفكري من مواهب الحياة .

الطريق إلى البناء :

وعن مستقبل الجيل الإسلامي الجديد يجيب فضيلته قائلاً : « إذا استيقظ القادة والسادة والكبراء ، وأخلصوا في تربية الجيل الجديد ، وتوجيهه نحو الإسلام عقيدة وشريعة وخلقا ، فسوف يكون جيلاً صالحاً نافعاً . وإلا فالمعكس هو المنتظر ! » .

فالصديق العزيز هنا يشترط لتكون الجيل الصالح تحرك (القادة السادة الكبراء) لتولي هذه المهمة ، وهو يعتبرهم ثامن ، ولا بد من استيقاظهم للقيام بهذا الواجب العظيم .. ومع تقديري العميق لأفكار الأستاذ أجدني عاجزاً عن الإحاطة بمراده ، والسبيل الموصلة إلى تحقيقه .

فأولاً - من الذي يتقدم لإيقاظ هؤلاء النيام ؟ ومن يضمن لنا أنهم مؤهلون لتلك المهمة القادحة ؟

إن الأستاذ ليشاطرنا اليقين بأن بلاء المسلمين في هذا العصر إنما جاءهم من جهتين ، الأولى : جهل الكثير من أولئك (القادة السادة الكبراء) بتفوق الإسلام على كل نظام ، وقدرته - لا تنفذ على العطاء الذي لا ينتهي إلى حد .

الثانية : امتلاء هؤلاء من الإيمان بأن لا حياة ولا قوة ولا نجاح إلا بالإقبال المطلق على فضلات الشرق والغرب ، هكذا على العمياء دون ما مقارنة أو تمحيص .. فلا ضمان لشيء من ذلك إلا بالتبعية الضرورية لهذا الجانب أو ذلك .

ومن هنا يتولد لدينا السؤال التالي : إذا كان هذا واقع (القادة السادة الكبراء) من الإسلام فكيف يتوقع منهم أن يقوموا بتربية الجيل الجديد على مبادئ الإسلام ؟ والقاعدة التي لا خلاف عليها أن فاقد الشيء لا يعطيه ؟

إن حصر مهمة الإنشاء للجيل الصالح في أيدي هؤلاء الأصناف أو المصنف الواحد ذي الأبعاد الثلاثة يقتضي بداهة أن يكونوا هم أنفسهم ناشئين في هذا الجو الصالح . فمن أين لنا بهم ، ومن لنا من يتولى تنشئتهم وفوجيهم على تلك الأسس الصالحة ؟

الحق أن القضية لا تزال هي اللفز الذي حير عقول السابقين واللاحقين ،
(إصلاح فساد الراعي أم إصلاح فساد الرعية ؟)

وما السبيل العلمية لإصلاح فساد الراعي ونجاحه في هذه المرحلة المضطربة
من حياة العالم الإسلامي ؟

العالم الصالح :

وكان في بفضيلة الأستاذ يحاول الرد على هذه التساؤلات فيختم إجاباته الإثني
عشرة بالكلمة التالية :

علماء المسلمين هم - مع الأسف الشديد - شركاء السادة والقادة والكبراء في
مسؤوليتهم عن انحراف الشباب ، وصدق ابن المبارك في ما يروى عنه أنه قال :
« صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس :
الأمراء والعلماء » .

يقول الأستاذ : « وفي مقدمة العلماء المدرسون على مختلف مراحل التعلم من
الابتدائية إلى الجامعية ، فمسئوليتهم أكبر ، وواجبهم أعظم ، وأثرهم أعمق .
فأعطني علماء ومدرسين صالحين أعطك جيلاً جديداً مسلماً صالحاً ناجحاً بإذن الله
وتوفيقه » .

إنه يشير بأصابع الاتهام ، وفي غاية من الصراحة ، إلى علماء المسلمين وهو ،
وإن لم يوضح مضمون التهم بالتفصيل ، يكاد يحدد ما يكونهم شركاء (القادة
السادة الكبراء) في كل انحراف يمتور شباب المسلمين عن جادة الإسلام . وبعيد
عن الظن أن يقصد بالعلماء إلى مجموعهم ، لما يلمه من بقاء الكثير منهم فوق
مستوى الشبهات ، محافظين على أمانة النبوة . ظاهرين بالحق ، يقيم بهم الله حجه
على الظالمين والزائغين ، على الرغم من سيول البلاء المتدفقة عليهم من كل صوب .
وإنما يقصد إلى أولئك الساكتين عن الحق ، خشية على أنفسهم أو أهلبيهم أو
أرزاقهم ، وإلى الآخرين الجحوظين في موكب الباطل ، يتفنون للطواغيت مع
الهاتفين ، ويفتنونهم تايسواً تصرفاتهم الناشئة ، وهم يعلمون أنهم كاذبون مظلون .

وأخيراً يعجبني تركيز الصديق الفاضل على مسؤولية المدرسين في هذا الصدد، إذ يعتبرهم أكبر أضرار حتى من المنافقين في إفساد الشباب . وهي قولة صدق من حقها أن تبرز سمات هؤلاء الذين يقول فيهم أمير شعراء العصر - رحمه الله - :

وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة جاءت على يده البصائر 'حولاً
وإذا المعلم لم يكن عدلاً صرى روح العدالة في الشباب ضيلاً

ونحن معك أيها الصديق العزيز في تقريرك الحكيم ، الذي يمحصر مسؤولية البناء الاجتماعي ، المنشود في أعناق العلماء .. لأنهم كانوا ولا يزالون وسيظلون وريثة النبيين ، وكل من سواهم فهمج رعايا أتباع كل ناعق ، بشهادة أمير المؤمنين ورايغ الراشدين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

الشيخ جابر أبو بكر الجزائري

غلبت عليه الكنية فعرف بأبي بكر الجزائري، وأبوه هو موسى بن عبد القادر ابن جابر. وُلد بقرية (لبوة) على أربعمين كيلو متراً من (بسكرة) التي يدعونها عروس الجنوب الجزائري، وذلك عام واحد وعشرين وتسعمئة وألف للبلاد.

أبواه جزائريان من أسرتين محافظتين مشهورتين بالصلاح، ويكثر فيها حفظ القرآن. وقد توارث آباؤه تعليم كتاب الله في تلك البيعة، وانفرد والده من بينهم بالتصوف.

نشأ المترجم يتيماً إذ توفي والده وهو في السنة الأولى، فكان في حضنة أمه مكفولاً من قبل أخواله وأعمامه.

بيئة الشيخ :

أما بيئته هذه فصحرائية تقع في الواحات الغنية بالمياه والنخيل وأصناف الشجر. ولهذا فهي ذات جو جاف يشتد برده شتاء، وتعتظم حرارته صيفاً.

ومن الناحية الاجتماعية يفتقر الجدل على هذا الوسط، فلا يعرف من اللهو سوى لعبة الكرة، التي يمارسها اللاعبون في فصل الربيع، الذي تكثر فيه فرص

الراحة . ولكونها بيئة زراعية قلت فيها أو انعدمت الصناعات الحضرية .
والصناعة الوحيدة هناك هي التي تتولاها النسوة من غزل الصوف ونسجه ،
ويختص الرجال بعمل الزراعة ، في حين يقوم الأولاد برعاية الماشية ، إلى جانب
ما يتعلمون في 'كتاب القرية من كتاب الله .

دراسة المترجم :

بدأ الشيخ دراسته في قريته على هذا النحو ، فكان حفظه للقرآن الكريم
باكورة زاده من العلم ، ثم أضاف إليه حفظ الأجرومية في النحو ، ومنظومة
ابن عاشر في الفقه المالكي . . ومن ثم انتقل إلى (بسكرة) التي سبقت الإشارة
إليها ، فدرس على أحد شيوخها نعم النعمي . وفي أثناء ذلك قدم قرية (ليوة)
شيخ فاضل يسمى عيسى متوفي ، فماد إليها ليدرس عليه العربية والفقه والمنطق
ومصطلح الحديث وأصول الفقه .

وكان الشيخ قد دخل في هذه الفترة مرحلة الشباب ، فرحل إلى العاصمة
ليعمل مدرساً في إحدى المدارس الأهلية . وهناك بدأت مرحلة جديدة في
حياته ، إذ جمع إلى عمله في التدريس مواصلة الدراسة على الشيخ الطيب العقبي
من إخوان العلامة المجاهد الكبير ابن باديس ، وكان للعلامة العقبي شهرته أثناء
ذلك في ميادين العلم والإصلاح ، فلزم دروسه في التفسير طوال سنوات . . فكان
لهذه الملازمة أثرها الكبير في شخصية المترجم ، إذ يعتبره من أفاضل مشايخه ،
والموجه الأكبر لسلوكه في النهج الإسلامي الصحيح .

ثم جاءت هجرة الشيخ إلى الحجاز فيما بعد ، فاستأنف هناك مسيرته في طلب
العلم والتعلم جميعاً ، وقد لازم في المدينة حلقات المشايخ : عمر بري ،
وعمد الحافظ ، ومحمد الخيال ، ورئيس قضاتها وخطيب مسجدها النبوي الشيخ
عبد العزيز بن صالح . ثم بعد سنة من ذلك التاريخ حصل على إجازة من رئاسة
القضاء بمكة المكرمة للتدريس في المسجد النبوي ، حيث لا يزال يقوم بهذه

المهمة حتى حكتابه هذه السطور . وأثناء ذلك كان قد سجل انتسابه إلى كلية
الشريعة بالرياض وقال شهادتها العالية (الليسانس) عام ٨١ هـ .

أحب علوم الشيخ إليه :

وعلم الشيخ كلها حبيبة إليه دون استثناء ، لأنها الأسس التي تنهض عليها
ثقافة المسلم . وما عداها - حتى المنطق - لا يعدو أن يكون أدوات
مساعدة لتفصيل بجهل ، أو بيان غامض ، أو تأكيداً لحقيقة أشار إليها الرحي
من قريب أو بعيد .

إنها مرتكزات المنهج الإسلامي في طلب المعرفة ، منذ أن وضعت أصوله في
صدر الإسلام ، حتى عهود الانحراف التي صرفت المسلمين إلى مناهج القرب
الخاوية من روح الإيمان ، فعزلت عضولهم عن هذه المنابع الربانية ، لتعشوها
بتنف من المعلومات الطيارة ، التي لا تكون عالماً ، ولا تنشى ، باحثاً ، وتكاد
تقتصر مهمتها على تضخيم جوائز الفرور .

وعلى هذا فليس بوسع الشيخ أبي بكر أن يخرج من نطاق حبه أيأ من العلوم
التي كونت شخصيته وطبعت وجوده .

ولعل هذا هو السبب في إخفاله الجواب على سؤالنا السادس ، الذي لم تلف
أي إشارة إليه في ما كتب لنا من إيضاحات .

الأحداث وأثرها :

وعلى السؤال السابع من استطلاعنا يقول أبو عبد الرحمن: إن أهم الأحداث
تأثيراً في تكوينه الفكري والروحي هو الاستعمار الفرنسي وضغطه على الأمة
الجزائرية ، ومحاولة القضاء على الروح الإسلامية فيها نهائياً .

وقد آثرنا إثبات عبارته التي أطلقها هكذا دون تعيين لضروب الأحداث
وحدودها ، وهو تمبير لا يمكن تجزئته ، ولا يحسن تبديله ، لأن الاستعمار شر
كلي لا يستطيع الفصل بين لون ولون منه . وعندما نتذكر أن هذا الاستعمار

إنما دخل الجزائر ليبقى إلى الأبد، ولو كلفه ذلك إبادة أهلها واستئصالهم جميعاً، كما فعل الأسبان بمسلي الأندلس وعذراء ماليزية - الفلبين - وفي المكسيك أثناء غزورهم للقارة الأميركية ، حيث فتكوا بكل حي من أصحابها الهنود الحمر ، فلم يبقوا منهم على طفل ولا شيخ ولا امرأة .

إلا أن الفرنسيين كانوا أبعد نظراً من الإسبان ، فرأوا أن يكتفوا باستئصال بعض القبائل من الجزائر ، ويسلطوا على بقيتهم رعى التحويل ، فيخرجوهم من الإسلام إلى النصرانية ، ومن العربية إلى الفرنسية ، بكل وسيلة ممكنة دون تفريق بين ما يجوز وما لا يجوز ، ولو بخطف آلاف الأطفال لإنشائهم على النصرانية ، أو بتشريد السكان من بيوتهم ومزارعهم لإحلال الدخلاء مكانهم ، ثم قذفهم إلى جوف الصحراء ليختاروا بين الموت جوعاً أو قبول التحويل المفروض بقوة الحديد والنار ، وبذلك يوفرون لأنفسهم جيشاً عرمرماً من الخدم والأيدي المسخرة لتحقيق مآفاتهم ، وللموت في الحروب دفاعاً عن مصالحهم الاستعمارية في المواطن الأخرى من بلاد المسلمين .

وعلى هذا فنحن نفهم مراد الشيخ من حصره الأحداث المؤثرة بتشكيله في نطاق الاستعمار كله .. ذلك لأن النشأة التي عاشها في ظلال القرآن وعلومه ، وفي صحبة المصلحين من الشيوخ الجهاديين ، لاستيقاظ الإسلام والعربية في تلك المعركة الطويلة الرهيبة ، ستتحوذ على سائر تصرفاته ، وتطبع وجود كله ، فلا يستشعر الحياة إلا بها ، ولا يتصور الوجود إلا من خلالها . وهكذا وجد نفسه على ثغرة من ثغر الإسلام ، جندياً في صفوف الجهاديين ، لا سبيل له إلى أن يغفل عن سلاحه أو موقعه لحظة واحدة .

بهذه الروح عاش ما عاش في وطنه الأول ، يسهم مع تلامذة ابن باديس في تحريك الطاقات الإسلامية ، وإلهاب مشاعر الكفاح في سبيل الله ، لتنظيف التراب الجزائري من دنس الاستعمار ، وللحفاظ على دين الله ، الذي صممت الوحشية الصليبية على استئصاله من جذوره .

وهل ثمة من مصنع للتكوين الفكري والروحي أكبر أثراً من هذا التحدي الدائب الرهيب .

إن روح الكفاح هذه قد طبعت الشيخ أبا بكر بيسمها المميز ، فهي منطلقة في جهاده الذي لا يفتر أبداً لخدمة الإسلام والدعوة إليه .

وإني لأنظر إلى هذا الصديق من خلال نشاطه العجيب في هذا المضمار ، فأشعر كأنني أضع يدي على مكمن الطاقات الجبارة ، التي ميز بها الله الشعب الجزائري ، فأفقدته على الثبات في وجه السيول الهائلة من أرزاء أفظع استثمار طوال قرن وثلاث قرن ، فلم يلبث ولم يهن ، ولم يفت في عزيمته فقدانه مسسات الآلاف من صفوة شبابه ، حتى جاء نصر الله ، فانتزع حقه في الحرية والكرامة ، على الرغم من وقوف العالم الاستعماري كله في صفوف جلاديه .

الشيخ في خدمة العلم :

أخطر ما يمول عليه أعداء الإسلام ، في كل زمان ومكان ، هو تفريغ العقول من معانيه السليمة حتى يتهاها أصحابها لقبول أي توجيه يرمي إلى القضاء عليه . رأينا ذلك في الدعاة الأولين للفرق المضللة كالفرمطية والبابكية والسبئية ، وعشرات الدعوات الهدامة في تاريخ الإسلام ، ونراها اليوم ماثلة في سائر المذاهب التي تهاجم هذا الدين عن طريق المحدثين بها من أبناء المسلمين أنفسهم ، كالكفاديانية والشيعوية والوجودية والفرسوية ، ولا أستثنى من ذلك الطريقة التي استطاعت عزل الملايين ، بل مئات الملايين من المسلمين ، عن منابع الوحي ، ينحويهم إلى أدوات مسخرة لتنفيذ أغراض الدجالين ، الذين أوهمهم أن لا سبيل للاتصال بالله إلا عن طريقهم وحدهم .

وهكذا تستعمل طاقات هؤلاء المحدثين ركاباً من العقبات التي تعرقل حركة الجهاد الحق ، ثم لا تلبث أن تكون ألعاباً ناسفة في كيان المجتمع الإسلامي كله .

كذلك فعل غلاة التشيع في تدمير الحضارة العباسية، يوم فتحوا قموحنة التتار أبواب بغداد، فحاصروا خلال الديار، وجعلوها خلال ثلاثة وثلاثين يوماً مقبرة للمؤمنين من الأبرياء، بعد أن كانت عاصمة الدنيا.

وعلى غرار ذلك فعلت الماسونية اليهودية حين دفعت عملاءها من أبناء المسلمين لتقويض عرش الخلافة، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فزقت وحدة المسلمين، وجعلت من الأمرة الواحدة أعداء يتصارعون ثم لا يتهادنون.

وليس من عنة تعترى هذه الأمة إلا إذا 'مخضت'، تبين أن وراءها فقدان الوعي الإسلامي، الذي لا يلبث أن يجعل من جاهل المسلمين غشاء تتقاذفه مختلف التيارات.

ومن هنا كانت كل محاولة لتجميع المسلمين عن غير طريق التوعية الصحيحة عبثاً لا مردود له سوى الذلة والهزيمة والاستمرار في مهامه الضياع.

وعلى هذا الأساس نهضت حركة ابن باديس في الجزائر، حروباً على الخرافة والبدع وتثبيتاً للعقيدة السليمة، وتوجيهاً إلى منابع الوحي من قرآن وسنة وبيان عربي كريم.

وفي ظلال هذه المدرسة نبت مترجمنا الشيخ أبو بكر، ومن مناهلها استقى وعلى ضوئها مضى في خدمة أمته.

لقد شارك الشيخ في مختلف ألوان النشاط الإسلامي، فعمل في (حزب البيان الجزائري) ثم في (شباب الموحدين) ومارس التعليم لكتاب الله مدة أربع سنوات، ثم في تعليم الأحداث من بنين وبنات لمدة سبع سنوات في العاصمة الجزائرية، وعمل في الصحافة فأنشأ مجلة «الداعي» التي لم يصدر منها سوى بضعة أعداد، كانت كاسمها دعوة إلى توحيد الأحزاب والجمعيات الجزائرية، وإهابة لتكوين «جماعة المسلمين». وبعد احتجاج «الداعي» أسندت إليه إدارة جريدة «الغراء» والناطقة بلسان شباب الموحدين... واستمر على إدارتها

حتى ترك الجزائر مهاجراً إلى الحجاز عام ١٣٧٢ هـ^(١).

وما هو ذا لا ينفك دائماً على خدمة العلم وطلبة العلم منذ أتت حل هذه البقعة المباركة قبل ثماني عشرة سنة ، علّم أثناءها في مدارس المملكة ومعاهدها ، حتى التحق بالجامعة الإسلامية للتدريس فيها منذ افتتاحها في عام ١٣٨١ هـ. وذلك إلى جانب دروسه المستمرة في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ، مسجد رسول الله ﷺ وموضع لوائه .

نشاطه في التأليف والدعوة ،

ومثل الشيخ أبي بكر في نشاطه الفياض لا يستغرب أن يكون له غير قليل من الإنتاج العلمي في حدود تخصصه .

فلاشخص من المؤلفات التعليمية رسالة في الفقه المالكي عنونها «الضروريات الفقهية» وكتاب «الدروس الجغرافية» وقد ألفها لطلاب المدرسة التي كان أحد معلميها في الجزائر .

ويشير الشيخ من مؤلفاته - حتى كتابة هذه الأسطر - إلى كتيباته الكثيرة التي يسميها «رسائل الجزائري» ويقول : إن منها ثلاثاً وعشرين مطبوعة في الإسلام والدعوة ، ويخص بالذكر منها رسالة «لا إله إلا الله» و«الصيام» و«الحج المبرور» و«الأخلاق» و«الدستور الإسلامي» وقد جمعت كلها في مجلد واحد يقع في سبعمئة من الصفحات .

وهناك رسائل أخرى مستقلة هي : «كيف يتطهر المؤمن ويصلي» و«اتقوا الله في هذه الأمة» و«إلى الفتاة السعودية» و«هؤلاء هم اليهود» و«نصيحتي إلى كل أخ شيعي» و«الفضاء والقدر» و«عقيدة المؤمن» و«الدولة الإسلامية» .

(١) استخرجنا هذا التاريخ استنتاجاً من قوله انه ما زال بعد الهجرة مدى ١٨ عاماً ينشط في خدمة العلم .

وأحب مؤلفاته إليه هو « منهاج المسلم » في سبعمئة صفحة ، وهو كتاب شامل لكل ما يعوز المسلم من فقه وآداب وأخلاق وعبادات ومعاملات ، وقد كثر الإقبال عليه من مختلف أنحاء العالم الإسلامي فطبع في المشرق ثماني مرات ، واليوم يقدم طبعته التاسعة بالمغرب لتخرج في حرف مشكول .

ويصف الشيخ كتابه عن « الدولة الإسلامية » بقوله في المقدمة : إنه « يرسم الصورة الصادقة لما تكون عليه الدولة الإسلامية في عصر الحضارة والتقدم العلمي ، الذي غير كثيراً من معالم الحياة ، وبدل جوانب كثيرة من مظاهر الفكر البشري ، ويعطي العالم البشري نموذجاً للحياة السميدة الفاضلة التي جاء الإسلام بتحقيقها للناس أجمعين ، متى آمنوا بربه ديناً ، وعملوا به منهجاً ، وحكموا به قانوناً ، وتصدوا به نظاماً » .

والتأمل في هذا المؤلف - الذي لا يتجاوز الـ ١٢٦ صفحة - يوافق مؤلفه على هذا التقديم له ، إذ أنه أودعه تصوراته عن المجتمع الإسلامي المتكامل نظرياً وعملياً ، فهو يبدأ بالجانب النظري فيعرض لمبادئ الإسلام وأصوله وأركانه .. وآثارها في تكوين الفرد والمجاعة .. ثم ينتقل إلى التطبيق فيبني بنا في سياحة لطيفة ضمن حدى المدن - التي يتخذ منها أنموذجاً للدولة المنشودة - وأول ما يواجهنا منها المسجد الذي يطيل زيارته ، لاطلاعنا على فاعليته في بيان الدولة ، إذ هو مركز للتجمع ، ومصصح للساوك ، وموجه للنفوس .. وطبيعي أن يكون لهذا التركيز على المسجد صلة وتقى بعمل الشيخ في مواعظه بالمسجد النبوي . ومن ثم يعرج بنا على مستشفى البلد ليرينا مدى عناية الإسلام بالصحة العامة ، ثم إلى سائر المرافق الأخرى . وله مع كل واحد من مديريها حديث مفصل عن عمله وأهدافه ، ومن مجموع هذه الأحاديث تشعر أن كل شيء في ذلك البلد معد لتكوين الوسط النموذجي للمجتمع المسلم كما يتصوره الشيخ ، إذ يتخذ من هذه المحاورات فرصة لإطلاق أفكاره الإصلاحية في كل ما يراه واجباً وضرورياً . ويوسع القارىء أن يتبين في سهولة الملامح الأصيلة لثقافة الشيخ وتصوراته عن جوانب الحياة الاجتماعية - فيقف على آرائه

في كل ما يسبها من الأعمال والصناعات والتجارات ، والتعلم .. وحتى
الملاهي ..

يقول عن الأمة - ص ٥٣ - : «هي الحقل العام للعمل الحكومي، والمرحى
الصالح للإنتاج والتقدم ، وفيها يظهر مدى صلاحية الحكومة وقدرتها ومدى
عجزها وفسادها.. فالأمة بمثابة المرأة التي يظهر فيها وجه الحكومة على حقيقته
مشرقاً أو دميماً . وليس هو أجهزة الدعاية من صحافة وإعلام وإذاعة
وتلفزيون ، كما هي عليه أكثر حكومات الناس اليوم ، حيث الكذب والتزوير
وتشويه الحقائق ..

وخلاصة القول .. إن الحكومة هي الحاكم والقانون والأمة ، إذ لا حكومة
قوية رشيدة بلا حاكم قوي رشيد ، ولا حكومة صالحة بلا قانون صالح ،
ولا حكومة عظيمة بلا أمة عظيمة .

وبلاحظ أن تعريفه للأمة خاص ، فكان الشيخ يجعل الحكومة هي الأصل
والأمة فرع منها ، بخلاف ما اتفق عليه ذور الاختصاص من أن الحكومة هي
السلطة التنفيذية في الدولة إلى جانب السلطين التشريعية والقضائية ، وتتعدد
مهمتها في النطاق التطبيقي للنظام العام . وبذلك تكون الأمة مرآة النظام كله
لا الحكومة وحدها ..

وفي هذا الكتاب آراء للشيخ تتمشى لو يعيد فيها النظر عند الطبعة الثانية .
ففي ص ٥٥ (يرتنا إمام المسجد يتصرف من صلاة المغرب إلى الدرس ... فما
ينقطع عنه ولا ينفص عنه الناس طوال ٥ ساعتين كاملتين ، حتى نودي لصلاة
العشاء ..)

واستمرار الدرس - والعامه بخاصة - ساعتين أمر يتود وهيبض .. وهو
مخالف لما عرف في عهد الوحي والصحابه وأن بعدهم من التابعين . وحسبنا في
ذلك قول ابن مسعود (رض) الذي أخرجه البخاري في كتاب العلم « كانت
النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة الأمة علينا » .

ولو كانت الإطالة من المستحبات لكانت خطبة الجمعة أولى بذلك لكثرة
الاجتهامين لها ، ومع ذلك فمن هدي النبوة خلافه لقوله ﷺ في ما رواه مسلم عن
عمار (رض) « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة - علامة - من
فقه ، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة .. »

وفي ص ٥٨ يقف بنا عند أجهزة الإذاعة ، فإذا هي « تذيب طول النهار
وشطراً من الليل ، ونسمع في كل أرجاء البلاد ، لوجود سماعات في كل شوارع
المدينة وساحاتها ، تنقل صوت الدولة وبرامجها الإذاعية . »

وهذا أيضاً غير معقول ، وما أعرف هناك دليلاً يؤيده من عمل السلف ،
فضلاً عن أنه سيجمل الحياة في مثل ذلك الجو الصاخب بالمواعظ عبثاً لا بطاق .
وفي ص ٥٩ يربنا أهل تلك المدينة النموذجية ، ما إن يفرغون من تناول طعام
المساء - بعد الصلاة - حتى يسقطوا على فرشهم نائمين .. ولو أن فضيلة الأخ
- حفظه الله - لاحظ ما يعانيه النائم عقب الطعام من إرهاق ، ولو سأل طبيباً
عن حصيلته في الصحة .. لتحول إلى هؤلاء ينصحهم بأن يبكروا في عشايم
وأن يتخبروه خفيفاً ، وأن يمحوا بينه وبين النوم فسحة كافية .

وقصارى القول أن في هذا الكتيب مجهوداً طيباً ونظرات جديدة بالتأمل
والتقدير ، وهو يذكرنا محاولات أفلاطون في كتابه « الجمهورية » والفارابي في
مؤلفه الآخر « أهل المدينة الفاضلة » وإن اختلفت السبل في كل من الثلاثة ،
إذ ذهب الأولان في سبيل من سبقهم من الفلاسفة ، وشق الشيخ طريقه ،
بتفكيره الذاتي وتجاربه الخاصة ، على ضوء الإيمان بحقائق الإسلام .

هذا وإن المتبع لتناج الشيخ الصديق في رسائله وبحوثه ومحاضراته
ومقالاته ، على اختلاف مناسباتها وأغراضها ، ليس عن كتب خاصته الأصيلة
فيها جميعاً ، وهي غيرته اللاهية على دين الله .. فهو يكتب ما يكتب تحت ضغط
الشعور بالمسئولية الكبرى أمام الله . إن التناظر إلى هذا الرجل قبل أن يعرفه
لا يكاد يلح في هيكله الضئيل البسيط ، ونظراته الهادئة الموحية بالطيبة ، أي

ميزة غير عادية .. إلا أنه لا يكاد يستمع إلى درس له في حلقة القاعة بالمسجد النبوي ، أو يطالع أياً من رسائله ، حتى يتغير رأيه إذ يوقن أن في تلك البردة ، التي قلما يفارقها ، فضلاً من المواهب الموفقة إلى كثير من الخير ..

إن الشيخ أبابكر صكتة من الطاقة المهركة ، وقد وفقه الله بتوجيهها إلى خدمة الدعوة ، ففيها لذته ، وبانتصارها سعادته .. وشد ما توجهه كل عقبة تعترض طريقها . ولو أتيح لامرئ متابعه أحوال الشيخ لتساءل في دهشة : « أليس لهذا الرجل من عمل سوى التحرك لخدمة الإسلام ؟ » ..

وذلك شأنه في معظم أحواله وأوقاته في البيت وفي المسجد وفي الجامعة ، فإذا جاء فصل الصيف أخذ طريقه إلى الجزائر والمغرب وغيرهما ليواصل مهمته هذه التي لها خلق .

شيخ وصديق :

ومن توفيق الله للشيخ أن جعل حديثه في شئون الدعوة قبولاً في الأسماع والقلوب ، فما إن يفتح الكلام حتى ينجذب إليه الانتباه ، وتتفاعل معه النفوس . ومرد ذلك إلى انفعاله هو بما يدعو إليه ، تصديقاً للحكمة القائلة : « ما خرج من الجنان فمقره الجنان ، وما خرج من اللسان فلا يتجاوز الآذان » . وما أراني مبالغاً إذا قررت أن الشيخ أبابكر من أوفر المدرسين الإسلاميين نجاحاً في دروسه ، لا لأنه فوق غيره علماً وخبرة بل لأنه في قلوب طلابه وحسن تأنيبه في معاملتهم .. فهو شيخهم في أداء المحاضرة ، ولكنه أبهم وأخوم ، وأكثر أصدقائهم اهتماماً بشؤونهم .. فلا غرابة أن يبادلوه ودّاً يودّ ، واحتراماً باحترام .. وهذا الضرب من العلائق الروحية بين الأستاذ وتلميذه ، هو الذي تفتقده وتدعو إليه ، ونلاقي العنت من يخالفنا فيه ، لأنه لا يرى للمدرس من مهنة تتجاوز حدود الدرس ، فلماذا فرغ منه فرغ من كل اتصال بطلابه ، فكانه يحقق في ذلك مبدأ المتني في معاملة القرين :

والخود مني ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تحجاب

أجل .. إنها ظاهرة أخرى من تلك الخاصة التي أشرنا إليها آنفاً ، فهي تطبع دروسه ومواعظه وصلاته بالناس ، وتسيطر على مؤلفاته ، صغيرها وكبيرها .. فكما يستقطب القلوب بحديثه ، يستولي على قناعاتها بكتاباتاته ، ولا تفسير عندي لذلك سوى ما أسلفته من تفاعله الحار مع أفكاره ، ولو كانت هذه الأفكار أحياناً قصيرة الموجة ، محدودة المدى .

وشيء آخر في مؤلفات الشيخ هو تصويرها لآفاقه الفكرية والنفسية ، إذ رسم للقارىء مدى اهتمامه بشئون المسلمين ، وتبعه لأحداث العالم الإسلامي .. فهي أفكار حية لا تقوم على التكرار والشروح ، بل تتناول كل ما يراه أنفع للمسلمين ، وأكثر مأساً بحاجاتهم .

رأي الشيخ في مستقبل الجيل :

وننتهي إلى الاستطلاعين الأخيرين حول مستقبل الجيل الإسلامي ، ومسئولية علماء الإسلام بإزائه ، ويؤكد لنا الشيخ أنه شديد التشاؤم بشأنه ، وهو كالكثيرين من العاملين في ميادين الإصلاح ، يرى أن هذا الجيل يواجه امتحاناً عسيراً من المتصدر عليه أن يخرج منه بالتجاح المنشود ، ما دام على شأنه الراهن مجرداً من الوعي الضروري لحقائق دينه .

وطبيعي أن ذلك التشاؤم عائد إلى ما يحيط بهذا الجيل من المؤثرات الجاهلية ، التي لم يتروك لها بالحصانة العاصمة . فهي تهب عليه من هنا وهناك ، في المنهج الدراسي ، والكتاب المنشور ، والصحافة الضالة ، ووسائل الإعلام المخططة في مكاتب الصهيونية العالمية والموجهة لتدمير المقومات الإسلامية .

ويقترح الشيخ لتدارك هذا الوضع تدبيرين لا مندوحة عنها إذا أريد إنقاذ الجيل الإسلامي من مخنته الرهيبة .

أما أحدهما فنمظمة عالمية للشباب الإسلامي تلفه برباط وثيق من تعالم دينه ، وتوفر له كل ما يعوزه لبناء شخصيته المتميزة من وسائل الإصلاح التي تعده للعمل والجهاد .

ونبغي التدبيرين خلافة إسلامية تجنده في خدمة الإسلام ، وتقلّوه شعوراً
بواجبه نحو أمته ، لتهوض بها إلى مركز القيادة العالمية .

ونحن مع عميق اقتناعنا باقتراح الشيخ لا يسعنا إلا أن نتساءل : أليس عليه
أن يوضح لنا الطريق الموصل إلى هذين التدبيرين !..

أما منظمة الشباب الإسلامي فقد بدأت طلائعها في أكثر من قطر ، وإن
كان بعض الداعين إلى هذا التجميع في بعض أقطار المسلمين لا يحملون نحو الإسلام
مثل شعور الشيخ وتصوره للإسلام . ولكن الذي يحسن أملنا بمستقبل هذه
التنظيمات أنها صائرة حتماً بمشيئة الله إلى التصاعد نحو الأفضل ، بما تستفيد من
الخبرات المتجددة ، وبما يطمئ على العالم من ضياع لا خلاص منه إلا بالعودة
إلى الله .

ولكن الطريق إلى استعادة الخلافة الراشدة يظل مغلفاً بالغموض ،
فلا نعرف أين يبدأ .. وحق الخلافة نفسها لا تزال حتى الساعة حلم الأقلية من
مفكري الإسلام .



تذليل

يقول عبدالله بن مسعود (رض) من كان مستنقلاً فليستن بمن قد مات... أولئك أصحاب محمد ﷺ ... فتشبهوا بأخلاقهم وطريقتهم ..^(١)

وما أبعد هذه النظرة وأعمق لأن الحي لا يؤمن عليه تغير العمل والرأي ، وأنت لن تستطيع استكمال مفهومك عنه إلا أن يستكمل نصيبه من الحياة .

وأخونا الداعية الفاضل أبو بكر أحمد الله بحياته ، وثبته على سبيل الصالحين من سلف الأمة ، بأخذه كما يأخذ الكبيرين غيره من رجال الدعوة ، بعض الرضى عن عمله عندما يرى النعاف طلبه العلم من حوله ، وعندما يشاهد مؤلفاته في العقيدة والأخلاق يسع مدى انتشارها هنا وهناك .. فلا يرضى أن يقف عند حدود مادته التي أنقها ونفع الله بها ، فإذا هو يتجاوز اختصاصه إلى ما ليس من اختصاصه ، فيكون ما لا ممنوحة عنه من الاضطراب والالتباس . وكان ذلك في أعقاب الهزة التي فوجيء بها عالم الاسلام يوم أقدم حاكم مصر على خرق الاجماع وتمزيق الصف ، بالفائه نفسه في أحضان بيغز دون سابق إنذار أو تشاور .. ثم كانت المفامرة الكبرى بعقده مع ذلك العدو ما سمي بعد ذلك بميثاق (كامب ديفيد) .. ذلك الميثاق الذي أخرج مصر الشقيقة من المعركة ، وأطلق أيدي المجرمين ، ومن وراءهم ومن حولهم أخيراً في أعناق الفلسطينيين وأنصارهم ، يقتلون ويدمرون ويقبمون المذابح التي أذهلت العالم حتى في قلب اسرائيل ...

وفي عمرة من الشوة بإصغاء مستمعيه إلى دروسه في مسجد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، راح يعلن موافقته على عمل ذلك الخارق للإجماع ، وبيارك عقده ذلك الميثاق المدمر المتبر ، الذي فتح سدود الرزايا على جماهير العرب والمسلمين ..

١٦ دروة درينا

وحجته في ذلك - وهذا قوله - أن اليهود ذوو قوة ، والعرب والمسلمون في ضعف يُعجزهم عن حربهم ، فلا مانع والحالة هذه من مسالمتهم اتقاء شرهم .. وقد نسي هذان الله وإياه أن قومه يملكون أعظم عناصر القوة في العالم ، وإنما يفتقدون القدرة على تنظيمها واستغلالها .. فبدلاً من أن يلقوا بأيديهم لعدوهم كان عليهم أن يبذلوا بناء وجودهم على أساس من وصية ربهم في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ۖ وَأُولَ طَرِيقِ الْقُوَّةِ تَنْظِيمِ صَفْوَتِهِمْ وَفَقَّ قَوَانِينِ الْأَخُوَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ثم تربية الأجيال على روح الاستشهاد في سبيل الله ، ثم إقامة الاقتصاد على قواعد الوحدة المتكاملة ، ومن ثم يأتي الرأي الموحد في تنظيم العلاقة مع دول العالم على أساس المقابلة بالمثل .

ولو أن أختانا الشيخ ابا بكر قد أحاط فكرياً بهذه الحقائق ، ثم اطلق بيانه المؤثر في الدعوة إليها ، لجمع لنفسه بذلك خبري الدنيا والآخرة ان شاء الله .

ولكن ... وما أوجع لكن ... أبي الكثرة من دعاة الإسلام في هذه الأيام أن يتجاوزوا في زادهم التفاني نطاق الكلام في حدود الأساسيات الإسلامية . فإذا ما أرادوا الحديث عن النظم الواقعية ، والتبارات الفكرية ، والمذاهب السياسية ، عرَّضوا أنفسهم للمأخذ ، وجازوا بكل قول فظير .. ورحم الله أئمة السلف ، الذين كان الواحد منهم موسوعةً من العلوم ، إذا تكلم في أحدها حسب السامعون أنه وحده موضع تخصصه ..

ومع أن الكثرة من الذين استمعوا لأفكاره الغريبة هذه لم يكونوا موافقيه ، فقد منهم من معارضته في حينها خشيتهم اتساع الخروق ، لذلك آثروا محاورته على حدة .. وجاءته وغودهم إلى منزله تناقشه ، إلا أن مصرباً من ذوي الرؤية الإسلامية لم يستطع ضبط شعوره . فوقف يحاوره في المسجد النبوي مؤكداً له أن عملية (كامب ديفيد) لا تعدو كونها طعنةً نجلاء في صميم قضية القدس وفلسطين والمسلمين أجمعين ...

والمعجب المعجاب أن يلتقي أخونا الشيخ أبو بكر مع صاحب (كاسب
ديفيد) على الحافظ النفسي الواحد في كلا موقعيهما .

أما حاكم مصر فقد أسكرته نشوة الانتصار في اقتحام الجنود المؤمنين
خط بارليف عام ١٩٧٣ م تحت راية (الله أكبر) فراح ينسب كل توفيق أصابه
جيش مصر برعاية الله إلى نفسه .. وحتى الجيش نفسه لم يمد يضيفه إلى مصر
أو الإسلام ، إذا أشار إليه ، بل يضيفه إلى ذاته البقرية وحدها ، فيقول جيشي
فعل وجيشي يفعل و....

وأما أخونا الشيخ فقد عرّضنا لحافره المشابه ، إذ جعله الرضى عن النفس
لا يبالي أن يقول بما لا يعلم من أمور السياسة ، التي لا يفقهها إلا أهلها ...

وأخيراً ليت فضيلة الأخ اقتصر في (نظرياته) الاجتهادية على ذلك الموقف
الذي يرفضه كل محبيه من ذوي الفكر الإسلامي ، ولكنه أضاف إليه ما
ضاعف أساهم ، إذ تناول في بعض هذه الدروس إخوة وأبناء له في الله كل
ذنبهم أنهم يطالبون بتحكيم شريعة ربهم في ديارهم ، لينموا من الأمن والعافية
بمثل الذي تنعم به هذه المملكة السعيدة . فإذا هو يضم صوته إلى جانب جلاذيتهم
من الطواغيت ، الذين لم يضمنوا عليهم بألوان العذاب في أقية السجون .
وبأنواع المخترعات من التهم ، التي لا أصل لها إلا في معاجمهم المستوردة من
مدارس الماركسية واليهودية والصلبية ، التي تفرق في كل شيء وتتفق أبدأ
على حرب الإسلام ودعائه ، فلا تنفك تنبذهم بألقاب « المتطرفين والحنفاء
والأصوليين والسلفيين » وما إلى ذلك من مصطلحات سلخها الإعلام الموجه من
معانها الأصلية ، ليسبق عليها الأصابع المنفرة حتى لدى الكثير من (العليين)
الذين لا يزالون يشتمطرون شأبيب الرحمة على السادات وسلفه (المعلم) ..

ويا ليت أخانا الفاضل قرأ في العدد /٣٠/ ٨٢/١ م من جريدة الشرق الأوسط
شهادة (محمد نجيب) الرئيس المصري لأول حكومة ثورية بعد انقلاب
يوليو ٥٢ م حيث يقول : (ان معظم المؤامرات التي أعلنت الثورة اكتشافها

لقلب نظام الحكم في عامي ٥٤/٥٣ م كانت وهمية ... ولأول مرة في التاريخ أعلن مقسماً أن مؤامرة اطلاق الرصاص على عبد الناصر في الاسكندرية كانت وهمية - أي مخترعة - من أولها إلى آخرها ، ومرتبطة بواسطة رجل من أجهزة المباحث كوفيء على ذلك فيما بعد بمنصب من المناصب الحساسة ..) .

أقول لبيت الأخ الشيخ قرأ هذه الشهادة الحاسمة ليستيقن أن كل تهمة توجه إلى جنود الإسلام يجب أن تكون موضع الريبة على الأقل .. وليس هذا خاصاً بمهد ثوري دون عهد ثوري آخر ، بل هو الطابع الأصلي لكل حكم يقوم على الحديد والنار في ديار الإسلام . ولا تعليل لذلك سوى خوف أصحابه من أهل الإسلام الذين جعلوا ولاههم لله ورسوله ولكتابه فيؤمنهم من قضى نعيه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً .. ﴿

ولا أشك لحظة في أن فضيلة الشيخ - وأمثاله من العاملين للإسلام - لو قرؤوا تلك الشهادة الفاضحة لغيروا موقفهم من أبنائهم ، أولئك الشباب الذين رضوا أن يحترقوا ليضيئوا لأمتهم سبيل العودة إلى الله ، التي لا سبيل سواها لاستعادة مكانة المسلم في ميزان الحياة ، ولا مأمل غيرها لإنقاذ الإنسانية المتخبطة في حبال البغاة الطغاة ... ويومئذ سيقوم من أوساط هؤلاء المشايخ الفضلاء من يكتب للمسلمين قصة (عودة الوعي) التي سبقهم إلى كتابتها عن عهد عبد الناصر توفيق الحكيم .

وقه الأمر من قبل ومن بعد ...

تعلیق علی التذییل

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد - أخي الأديب الكبير ،
والمصلح القدير الأستاذ محمد المجتوب - هل تسمح لي - عفا الله عنك أن
أقول لك مقسماً بالله تعالى أن كل ما ذكرت في تذييلك المذكور آنفاً أو أعلاه
هو خلاف ما أخوك الجزائري عليه ، وما يعلمه الله تعالى منه . وإنما أوقعك
فيما قلت في تذييلك : ظاهر قولي ، وسوء النقل عني ، مع شيء من عدم صلاح
النية وبعض سوء الظن في . وإلا فالجزائري المسكين ، أهدأ إخوانك المسلمين ،
عن الرضا بحاله ، إذ هو لا يعتبر حاله مجردة عن حال أمته وهي ترسف في
الأفلال ، وتعيش في أسواء الأحوال .

كما أن الجزائري المذبذب الروح والجسم معاً لم يكن ليرضى أبداً بوجود
حكم يهودي على أي شبر من أرض الإسلام فضلاً عن صلح مع اليهود يطيل
مدة احتلالهم لأرض هي من أهل أراضي المسلمين وأقدسها . وإنما قال ما قال
عن الاتفاقية اليهودية المصرية ، مما ظاهره الرضا وباطنه السخط والأسى لبيين
الأول الضمف عن تحمل وقع الصدمة وشدة سوء واقعها في نفسه ، والثاني
مبالغة بعض العرب في التشيع على السادات وتقييح عمله مما انعدم معه كل
معنى للمخلوق والإنصاف في حين أن ما هم فيه ، وما هم عليه لا يقل قبحاً وسوءاً
مما يقبحونه على السادات ، ويشتمون به عليه . مع العلم أننا لو تجردنا من
المواقف الموجهة ، واتبعنا الحق ولم نتبع الهوى ، لرأينا أن صلحاً مع اليهود ،
وقد قهرونا وأذلونا جائز شرعاً وعقلاً معاً . ودليل الجواز الشرعي هو عقد
الرسول ﷺ مع طوائف اليهود الثلاث بالمدينة معاهدة صلح وعدم اعتداء
وحسن جوار حتى تقضوا بأنفسهم فاستوجبوا القتل والإجلاء والإبعاد .

وأما الجواز العقلي ، فإن العقل يتطلب من العرب وهم من ذكرته في فونهم البشرية ، والعسكرية والاقتصادية أن يبتوا اليهود فيفضوا على دولتهم ويخضعوهم لحكم الدولة الإسلامية التي طالما عاش اليهود في ظلها سعداء آمنين قروناً طويلة .

ولما لم يشأ العرب ذلك لأن ذنوبهم قد أحاطت بهم فمستهم التحرك نحو السعادة والكمال فإن من الخير أن يصلحوا عدوهم صلحاً مؤقتاً ريثما يتوبوا إلى بارئهم فيتوب عليهم ، فينطلقوا من إسارِ ذنوبهم ، وينتفخوا من حكم شهواتهم واهوائهم ، ويومئذ يقهرون عدوهم ويستردون بلادهم ، وهاماتهم مرفوعة ، وكراماتهم موفورة .

هذا يا أخي الأستاذ عما بدا لك من رضائي بحالي ، ودفاعي عن اتفاقية كاسب ديفيد .

أما قولك : اني تجاوزت ما هو لي من الدعوة إلى ما ليس لي من السياسة فاعلم يا أخي الفاضل أني قد قضيت أربعين سنة أتعاش مع السياسة والسياسيين وقد صدقت لي نظريات سياسية لا تعد كثرة ، وصححت لي آراء كدلت أعجب بها وبدل لذلك إصداري صحيفتين بالجزائر : الداعي - واللواء . وأنا لم انحط الثلاثين من عمري وأن تفضلتم بقراءة عدد واحد من جريدة اللواء تجل لكم أني لا أجهل السياسة وكيف وقد شاب راسي لا عن كبر ولا كبير ، ولا عن فرح ولا ترح ، ولكن عن هم السياسة وأنعائها تلك التي يتولاها من ليس بأهل لها ويحرمها من هو أهل لها . وكم كنت أتمثل بقول القائل : إلى الله أشكر أننا بمنازل ، نحكم في آسادهن كلاب . حيث كان الاستعمار الفرنسي يسوس بلادنا وأمتنا سياسة هوجاء انعدم فيها كل معنى للانسانية ، والكرامة الآدمية .

أما إمامتك يا أستاذي إلى أنني تعرضت بالظن للإخوان فاعلم أني حتماً غير راض عن سلوك أكثر الإخوان الحاليين الذين شوهوا دعوة الإخوان الصادقين من السالفين الأولين ، وهطوا بها إلى مستوى أصبح الفرق بين الإخوان الموجودين والذاهبين الأولين في الكمالات الروحية ، والصدق والإخلاص في الدعوة

الإسلامية كما بين القصر والرمس ، والوحشة والأنس . ومع هذا فليست بطاعن في أحد ولا بمعترض بسوء لأحد ، وليس المسلم بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء . وإني حقاً لآسف حزين على إخوة الإيمان والوفاء الذين ذهبوا وآه على تلك الأخلاق الذاهبة ، والمروءات الزائلة ، وصنائع المعروف الغابرة . وآه على ذلك الحب الذي كان يمنحه الإخوان لكل من يدين بالإسلام ، وآه على تلك المواطن الجياشة التي كان يداوي بها الإخوان السالفين جراحات كل المسلمين .

فيكائي على السالفين ونحبي على السابقين ، إخوان الوفاء والصفاء ، والبذل والعطاء ! !

أما إخوان اليوم يا أخي المجدوب المحبوب فإنهم وإن مسنى منهم نصب وغوب ، إذ آذاني بألستهم صغارهم ، وأبغضني - بلا موجب - بعض كبارهم . فإني لا أكرهم ولا أبغضهم ، ولا أحب لهم إلا الخير الذي أحبه لنفسي أو أشد ، وهذا خلقي - والحمد لله - مع كل أحد . ومن هنا كان لي الحق أن أعتب عليهم أو أنحي باللائمة على بعضهم . وإن مثلي ومثلهم كمثل المقاتلة :

أدعو على ابني وقلبي : يقول يا رب لا . لا

والسلام عليك وعليهم يا مجدوبنا المحبوب ، ما لازم الصفاء القلوب . وما تاقت نفس أئمة إلى المرغوب المحبوب !

أخوكم المحب : أبو بكر جابر الجزائري في ١٤٠٣/٣/٢٣ هـ

تَعْقِيبٌ صَغِيرٌ

ليت فضيلة الأخ قد أوضح مضمون اتهامه لأولئك المظلومين فلم يكتف
بالقول (أنهم شوَّهوا دعوة الإخوان الصادقين...) دون إعطاء أي دليل على
ذلك . ولو أنه كان يملك بعض الدليل على ما ذهب إليه لما أمسك عن عرضه
تسويفاً لموقفه ..

ولكن

غفر الله لنا وله ...

المؤلف

١٤٠٣/٣/٢٧ هـ

الشيخ محمد بن محمد الأنصاري

أبو عبد اللطيف حاد بن محمد الأثري .

وُلد عام ١٣٤٣ هـ . في مدينة (تاد مكة) التي كانت تعرف بـ (السوق) من (مالي) بإفريقية الغربية .

ولأسرته شهرة في (تديكتو) عاصمة المنطقة الشرقية من مالي ، ويفتخر نسبها إلى بني نصير الأنصاريين آخر من حكم غرناطة ، آخر معاقل الإسلام في الأندلس .

وقد عرفت هذه الأسرة في وطنها المالي بالعلم والفتيا والقضاء قبل الاحتلال الفرنسي وبعده .

دراسته :

بأمر الشيخ دراسته في (تاد مكة^(١)) بين الجزائر ومالي في وسط إسلامي صرف ، يتوارث أساليب السلف في بث العلم . فحفظ القرآن عن ظهر قلب وهو في الخامسة عشرة ، ولما بلغ التاسعة عشرة كان قد غيب الكثير من مشون الفنون التي سينفرغ لها ، وعلى عدد من مشايخ تلك البيئة جعل يواصل دراسته ،

(١) وسماها عندهم (هذه مكة) لأنها واقعة بينها بين أربعة جبال .

فأخذ عنهم العلوم الأساسية من العربية والتوحيد والفقه والحديث والتفسير والبلاغة وأصول الشافعي في الفقه . وعن بعض هؤلاء المشيخة تلقى المنطق ، الذي لا ينفك موضع العناية لدى الشيوخ في الكثير من بلاد المسلمين ، ودرس هناك بعض مبادئ الفلك ، التي تعتبر لديهم من مميزات الثقافة .

ويظل بنا فضيلته على ظروف هذه المرحلة ، فإذا هي على غاية من القسوة بالقياس إلى ما يتمتع به طلابنا اليوم من الميسرات ، إذ كان يسهر الليالي يقرأ ويكتب على ضوء القمر أو وهج النار التي توقد لهذا الغرض عند انتشار الظلام . وكان على طالب العلم مثله أن يدون ما يقرأ ويحفظ ، بأقلام ينحتمها بيده من الميدان ، ويعداد يصنعه من هباب القدور ممزوجاً بصمغ الشجر . . فلا عجب أن يكون للعلم قداسته في تلك البيئة بإزاء الجهود الفادحة التي تبذل لتحصيله .

ويخص بالذكر من أساتذته في هذه المرحلة عمه الشيخ محمد أحمد بن محمد الذي يلقب هناك (البحر) لقبه في العلوم ، ثم خاله محمد أحمد بن تقي ، وابن عمه موسى بن الكسائي ، والفرضي حمود بن محمود الشريف الحسني .

ويقول الشيخ : « سمعت من هؤلاء بالأسانيد المتصلة إلى المؤلفين في معظم ما درست عليهم من العلوم » . وقد أجازوه في ما سواها وفق الطريقة المألوفة في الثقافة الإسلامية من قبل .

وبعد قدومه المملكة السعودية اتصل الشيخ بثلة من أهل العلم ، أخذ منهم ، وحصل على إجازة بعضهم . ويذكر من هؤلاء الشيخ عبدالحق العمري ، والشيخ عبد الشكور (الهنديين) ، والشيخ عبد الحفيظ الفلسطيني ، والسيد قاسم ابن عبد الجبار الفرغاني ، والشيخ أبا بكر التنبكي ، والشيخ ابن تركي ، والشيخ محمد الخيال (النجدية) والشيخ عمار المغربي ، والأستاذ محمد الشعراوي البنجيري المرتقوري ، ومحمد بن عيسى الفارابي الجاوي المكي ، والشيخ الأثري عبيد الله المباركفوري . تلميذ المباركفوري صاحب تحفة الأحوذني « شرح الترمذي » .

ويقول الشيخ إنه جمع أسماء شيوخه من القارتين - آسية وأفريقية - مرتبة على الحروف الأبيجدية في ثبوت خاص .. هذا وقد التحق الشيخ بدار العلوم الشرعية بالمدينة المنورة عام ١٣٦٩ هـ في قسم التخصص بالحديث .

أثر البادية :

وفي استطلاعنا الشيخ عن أثر البيئة في نشأته لم يزد على الإشارة إلى طوابعها العلمية . وطبيعي أن المتأمل في هذا العرض السريع لصور تلك البيئة لا يفوته إدراك العوامل التي تعاونت على تكوين شخصيته ، وحددت هذه الشخصية معالم السلوك وطرائق التفكير ، والإتجاه الملتمزم الذي صار إليه !!

ولعل في مقدمة هذه العوامل واحداً لم يشر إليه في ما كتب إلينا وهو طبيعة البادية التي أحاطت بنشأته ، فقد علمنا من أحاديث فضيلته الخاصة عن تلك البيئة ما لا يصح إغفاره عند ترجمته .

إن البادية هي أول ما فتح عينيه عليه من بقاع مالي ، وبالتالي من مشاهد الدنيا ، والبادية بما تنطوي عليه من قوة واتساع واستثارة للجهد الشخصي ، وبعد عن فنن الحواضر ومغامرها .. وقدرة فائقة على الاحتفاظ بخصائص الفطرة أقرب ما تكون إلى السلامة ، ذات آثار لا سبيل لناشئ فيها إلى التخلص منها .

ولقد أتبع لنا أن نرافق الشيخ الصديق في بعض الرحلات الجامعية فأطرفنا بالكثير الشيق عن تلك الحياة الحافلة بروح الفروسية ، في صحبة الطبيعة الصافية ، والأنعام الناعية ، إلى جانب المناهل الروحية ، التي طالما أمدته بما يعوزه من غذاء العلم والمعرفة .

والذين يعرفون الشيخ عن كسب مثلنا يشعرون بهذه المؤثرات في مظهره وحديثه وتصرفاته .. وحق في نبراته البريئة من كل تكلف . وأن ملامح البادية أول ما يبطأ الناظر إلى الشيخ حماد .

هيكمل نحيف أقرب إلى الطول ، ووجه أسمر متمم لا تكاد الابتسامة تقارقه ، يخيل إليك أن سمرة أثر من لفتح الشمس .. ينظر إلى محدته بعينين سوداوين ، يتم صفاؤها عن ود وذكاء وبساطة معاً ، ومع أنه تجاوز نطاق الشباب ، وأطلت من خلال لحية أشعة الشيخوخة ، فما يزاله النشاط الذي يميز سكان الريف وراكبي الإبل .

وكم قلت لإخواني وأنا ألاحظ هذا الهيكل الضامر النشيط: إنه ليذكرني بمجنود الدعوة أيام زحفوا من هذه الجزيرة يفتحون أرض الله لدين الله .

وما أن يتحدث إليك حتى تأخذ هذه الصورة في استكمال عناصرها النفسية ، من خلال تلك الصراحة الفطرية ، التي لا تكاد تقع على مثلها إلا في النادر .

من هذه الصراحة في دروسه مثلاً ، وبخاصة في حصص التوحيد ، شدته على الغائبين بالجهاز ، وقسوته على المخالفين لمذهب السلف في تقرير صفات الله تبارك وتعالى .

فأقول بالجهاز في القرآن طاغوت بنظر الشيخ .. والانصراف عن صريح البيان إلى ملتويات التأويل في صفات الخالق سبحانه ، طاغوت .. لأنه في كلتا الطريقتين عدوان على حقائق الوحي .

وهو حين يسوق هذه الأحكام لا يلجأ إلى اللف والدوران ، ولا يقدم علاجه المر مغلغلاً في (برشامة) على طريقة المنفلوطي .. بل يصبه في زبراته الصارمة ، فتزول على أسمع المخالفين - وما أكثرهم - كاذعات السياط، تسيهم ما وراءها من الأدلة الدامغة ، فيذهبون يشبهون عنه ما لم يقله ، لأنهم لا يستطيعون الفصل بين حجته وشدته .

لقد بلغني ذات يوم أن طالباً قد أشاع عن الشيخ القول بأن الله يدين كيديه .. وأنه جعل يده يديه أثناء ذلك ويهزهما توكيداً لهذا التجسيم ، والعباذ بالله .

ولقيت ذلك الطالب فبينت له خطأه في ما ينقل عنه ، لأن مذهب الشيخ إنكار كل تجسس وتعطيل .. وإنما كان يمد يده إشارة إلى أن الله يدين حقيقتين لا كيدينا ، إبطالاً لما يراه المعطون والمشبهون .. وبقليل من التروي تذكر الطالب الواقع ، ورجع عما رمى به شيخه .. وطبيعي أنه لم يدع عنه تلك الفرية بسوء نية وإنما أخذ بوقع ذراته فاختلط عليه الأمر .

وعندما نذكر أثر الحياة البدوية في طباع الشيخ لا ننسى أن نضيف إليه موحيات العزلة التي عاشها مع قومه في تلك البيئة ، إذ كان للاستعمار الفرنسي أثره الآخر في إثارهم إياها ، حفاظاً على دينهم وعريبتهم ، فما يكادون يتصلون به إلا على حذر أو كفتاح ، وبذلك حوا أنفسهم وذرائعهم من أرجاسه فلم تتسرب إلى أخلافهم لوثة من مبادئه ، ولم يتسلل إلى ألسنتهم حرف من لغته .

ومن هنا كان احتفاظ الشيخ بخصائص تلك البيئة في كل تصرفاته حتى اليوم ، فلم تغيره الأحداث قط ، على الرغم من كل التغيرات التي أحاطت به منذ هجرته إلى المملكة السعودية عام ١٣٦٦ هـ . وما أحسب في مستطاع أي تطور سلخه من تلك الخصائص مها تبلغ من التأثير في سواه .. فهو من هذه الناحية كالكثيرين غيره ممن استولت مؤثرات البادية على كيانهم فلم تغيرهم الحضارة ، ولم يرضوا أن يتغيروا قط .. وقد سبق لأحمد بن الحسين - التنبي - أن عاش الحياتين البدوية والحضرية ثلاثاً وخمسين سنة ، فالتهم الكثير من علوم الحضرة ولايس الكثير من خصائص الحضارة ، ولكن ذلك عجز عن أن يغير من خلقه وأسلوبه البدوي قيد شعرة .

شيوخه المؤثرون :

وفي جواب الشيخ على سؤالنا الخامس بشأن الرجال الذين تركوا أثرهم في حياته ، ذكر الشيخ محمد عبد الله بن محمود المدني ، إمام المسجد النبوي السابق ،

وكذلك الشيخ الكبير محمد بن ابراهيم آل الشيخ مفتي المملكة السعودية الراحل ،
رحم الله الجميع .

ولعل الشيخ قد خص بالذكر هذين القاضلين لمودة خاصة ، أو لأور قريب ...
والذي نراه أنه لا بد أن يكون لكل من مشايخه الذين عني بذكرهم أثره في
توجيهه وتكوينه .. ذلك لأن الدراسة على المشايخ ، في نظام التعليم الإسلامي
الذي توشك الطرائق المستحدثة أن تجهز عليه ، إنما هي في الواقع - كما أسلفنا -
أسلوب من التربية العقلية والتفيسية . فهو من جانب تدریس للعلوم المطلوبة في
تركيز وتعميق ، ومن جانب آخر ، تطبع خلقي بمسلك الشيخ ، الذي أخذ
نفسه بوقار العلم ، الحامل لطابع القداسة ، من حيث صلته بكتاب الله وسنة
رسوله ﷺ .

وقد لاحظ القارئ تعدد الجنسيات التي نسب إليها أولئك الشيوخ ، إذ
تصورهم يثلون معظم العالم الإسلامي .. ومعلوم أن هؤلاء (الدوليين) الذين
لقيهم الشيخ في ظلال الحرمين ، ليس ضرورياً أن يكونوا مستعمري الاتصال
بمواطنهم الأصلية ، بل لعلمهم من المقيمين أو المولودين في هذه الربوع المطهرة ،
ومها يمكن من اختلافهم في الهوية والأنساب فهم ملتقون على خاصة واحدة
هي خلوص النية في طلب العلم ونشره ابتغاء مرضاة الله ، وكفى بهذا امتيازاً
يجعل من هذه البيئة مركز إشعاع روحي لا مثيل له في سائر أنحاء العالم ..
ولا غرابة إذن أن نجد أختان الشيخ حماداً ثمرة طيبة مباركة لكل هذه المؤثرات
المباركة الطيبة .

علومه المفضلة :

وما أرى القارئ إلا قد أحاط سلفاً بالذي سيكتبه الشيخ في الجواب على
سؤالنا المتعلق بالعلوم المفضلة لديه .. فالتوحيد النابع من مفهومات السلف ،
والحديث النبوي ، بكل ما يتصل به من علم بالرجال ومراتبهم ورواياتهم
ومؤلفاتهم ، ثم الفقه ، وبخاصة القائم على الدليل من كتاب الله ، والثابت من

سنة رسول الله ﷺ .. وما لا يتم ذلك كله إلا به من علوم العربية وأدبها وغريبها .. هي الفتون الأثيرة والملتزمة عند الشيخ . وهو لو شاء أن يخالف الطريق إليها لما وسعه ذلك ، لأنها سرت في دمه من أول طلبه للعلم ولم يجد عن سبيلها قط حتى طبعت عقله وخلقه جميعاً .

والذي يفهم من أجوبة الشيخ ونعله من صحبته أن الحديث الشريف يستقطب معظم جهوده ، بل هو المحور الذي حوله يدور سائر الفتون التي يعمل في خدمتها . ويتجلى ذلك مبكراً في البحوث التي كتبها وألقاها مما نشر وما لم ينشر .

نشأته العلمي :

ويتحدث الشيخ عن نشاطه في خدمة العلم وطلابه ، فيقول بأنه قد بدأ ذلك أيام الطلب ، إذ ولع في جمع المعلومات المتنوعة في الحديث والتوحيد ، نشر بعضها وظل يعضها بغيرها مخطوطاً .

ثم يذكر هذه القائمة من مؤلفاته :

- ١ - سبيل الرشد في تخريج أحاديث ابن رشد في أربعة أجزاء .
 - ٢ - فتح الرهائب في الألقاب .
 - ٣ - إنحاف ذوي الرسوخ بن دانس من التبوخ .
 - ٤ - كشف اللثام عما ورد في دخول مكة دلاً لإحرام .
 - ٥ - كشف السر عما جاء في شد الرحل إلى القبر .
 - ٦ - البت في الطواغيت الست .
 - ٧ - دفع الاشتباه عن حديث (آمن صلى في مسجدي أربعين صلاة) .
 - ٨ - الإعلان بأن (لعمرى) ليس من الأيمان .
 - ٩ - الأجوبة الوافية عن أسئلة الألفية .
- إلى رسائل أخرى كثيرة في الحديث والتوحيد ، ولعلها مشروعات لم تستكمل بعد .

على أن أحب مؤلفاته إليه كما يقول هو كتابه الذي يسميه (بلغة القاضي والداني في شيوخ الطبراني) . وقد استوعب أربعة أجزاء مرقمة على حروف الهجاء .. وهو يرد سبب إثارة هذا المؤلف الذي لا يزال ينتظر النشر إلى ما عناه في تأليفه من المشاق .

ونظرة فاحصة إلى عناوين هذه المؤلفات تدنا بما لا ينبغي أن نخجله عن مسلكه العلمي وذوقه الأدبي . فأما الناحية العلمية فتؤكد لما أشرنا إليه من ألوان تخصصه ، وبخاصة في خدمة الحديث ، الذي هو قطب الراسخ في كل ما يكتب . ذلك أن مؤلفاته كلها لا تخرج عن البحث في الحديث وفقهه ورجاله .. حتى التاسع وهو الخاص بقواعد العربية لا يعتبر بعيداً عن ذلك الاتجاه ، إذ هو لم يُصنَّ بالقواعد من أساسها إلا لعلاقتها الوثقى باختصاصه الأكبر .

وشيء آخر هو أن الشيخ لا يقف عند حدود العمل التقليدي في مسيرته العلمية ، كما يفعل أولئك الذين لا عمل لهم سوى أن يعيدوا ويبدئوا في ما سبق إلى تقريره فلان وفلان ، على طريقة (ما ترك الأول للآخر) بل هو على الضد من ذلك يحاول الانتفاع بحلل معطيات النص ، ولو خالف بعض الأكبر من الباحثين فيه . ولتأكيد ذلك ألقت نظر القارئ إلى عناوين الثالث والرابع والسابع والثامن من مؤلفاته . فالبحت في موضوع التبدليس ليس جديداً ، ولكن فيه مجالاً جديداً من الرأي في رجال رموا بالتبدليس فاختلف في تعويم رواياتهم ، فلا بد أن يكون للشيخ تقرير في أنواعهم وأعيانهم ومدى الانتفاع بها .. وفي الحديث عن دخول مكة إزالة للباس كثير كلام الفقهاء به . وفي حديث الأربعين صلاة في مسجده عليه السلام أخذ ورد كثير من حيث سنده وفقهه .. وقد ذهب إلى تضمينه بل رده . شيخنا أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني . فالشيخ حماد مع تقديره الكبير للشيخ ناصر وسابقه في هذا الصدد لا يرى مائماً من خلافهم ما دام يظن الدليل في غير جانبهم .. وهكذا القول في (العُمري) التي يتوقف على معرفتها حكم شرعي في الإباحة أو الحظر .. وقد

أوضح الشيخ في العنوان ، دون أي لبس رأيه بأنها ليست من الخلف بغير الله ، بل هي ضرب من اللغو الذي جرى عليه العرب دون قصد إلى اليمين .

ومن هنا يتبين لك أن الشيخ ، مع شدته في الحفاظ على مذهب السلف في الأصول لا يسمح للتقليد بالسيطرة على تفكيره في كل ما يتسع للاجتهاد .

بقي أن نذكر القارىء باللون الأدبي الذي يصوره اختيار الشيخ لأسماء كتبه . فلقد صيها جميعاً في قوالب السجع ، على طريقة المؤلفين في الأندلس وما بعد العصر العباسي . ولا غرابة في هذا ، فالشيخ مع تبصره في اللغة ثم يمر الأدب من الاهتمام أكثر مما يحتاج إليه في نطاق الدراسات الأخرى ، فإذا أميل عليه ففي حدود التفقه لمدلولات الألفاظ والتراكيب ، وما يصحب ذلك من التنقيب عن الشواهد . . وهذا الطراز من أهل العلم لا يكادون يتجاوزون نطاق الأدب القديم إلى أي لون آخر جديد .

الحفاظة المعجبية :

ولاستكمال الصورة العملية للشيخ نرى لزاماً أن نعرض للقارىء انطباعاتنا عن ثقافته بصورة أكثر تركيزاً .

في رحلة جامعية صحبناه فيها إلى ينبع - على الساحل ما بين مكة والمدينة - وفي إحدى الندوات العملية بالخم ، استمعنا إلى فضيلته يتحدثنا عن فاتحة الكتاب .

وأشهد ، لقد تدفق كالسيل الهادر يقذف أفانين الدرر . . فما تلكأ ولا أرتج عليه ، فكأنما يقرأ في كتاب ، لا يفادر صغيرة ولا كبيرة من كنوز هذه السورة ، فهو يتحف سامعيه من هذه الكنوز بما تتسع له المناسبة .

ربما أورد خلال حديثه ما يتسع لأكثر من تفسير ، فاكتفى بوجية منه لا يفره عليها بعض الحضور ولكنه لم يدع قلباً هناك إلا ملاءه رضى وانفعلاً وإعجاباً .

وبعد عام أو أكثر حدثني فضيلة الأخ الأستاذ محمد الصبّاغ - المدرّس

في جامعة الرياض - عن مثل إعجابنا به ، وذلك أنه سمع يحاضر في عجم الجامعة عن معاني الفاتحة فسحّر وبهّر .

وقد لاحظت من خلال حديث الأستاذ الصباغ ما خيل إليّ أنني أقع على ميزة أخرى للشيخ حماد ، هي قوة المحافظة ، التي تستغف باستحضار كل ما يعلمه عن الموضوع الواحد في المناسبات المتباعدة . وهي ميزة يكاد ينفرد بها بعض المتقوين من علماء الإسلام في أفريقية الغربية .. وهي بقية من الخصائص التي عرفت في سلف هذه الأمة ، حتى كان منهم من يحفظ نصف مليون حديث بأسانيدھا .. وقصة الإمام البخاري مع علماء بغداد أشهر من أن تذكر في هذا الصدر . وقد كان شيخنا عماد الأمين الشنقيطي صاحب « أضواء البيان » ، تتمده الله بواسع رحمته ، أنموذجاً عجبياً لهذا الحفظ العجيب .

وقصارى القول في تقافة الشيخ أنه واحد من بقية الجليل ، الذي نقل ولا يزال يتقل إلينا تراث الإسلام الحي ، وفق النظام التعليمي الذي امتاز به أهل العلم في حضارة الإسلام .

وبهذا كان أنموذجاً للرجل الذي وفء وجوده كله على خدمة العلم ، فلا يفتك بين تحقيق للكتاب ، واستنباط لحكم ، واستقصاء لدليل .. حتى ليكاد ينسى حق نفسه .. بل حتى أي فن آخر في هذا المضمار .

أهم الأحداث في حياة الشيخ :

رحول الفقرتين ٧ و ٨ من الاستطلاع قرر الشيخ أن أهم الأحداث التي عاصرها كانت في الحرب العالمية الثانية ، إذ ضاعف الفرنسيون ضغطهم على قومه ، وشددوا تضييقهم عليه ، حتى اضطر إلى الهجرة من مقط رأسه إلى المملكة السعودية ، التي يصفها بأنها البقية الباقية للإسلام على وجه البسيطة .

ولاستكمال الحديث عن الشيخ لا مندوحة من تسجيل بعض الجوانب من حياته كما نعرفها ويعرفها الكثر وملازمته من الطلاب والإخوان ، لتوافر القاريء صورة مركزة عن الخصائص التي تميزه .

لقد وهب فضيلته نفسه للعلم ، فهو يقضي جل يومه بين كتبه وطلابه إلى وقت متأخر من الليل ، يحقق ويناقش ويوجه . وقد أضاف إلى ذلك - أيامنا هذه - انشغاله بطلبة الدراسات العليا الوافدين إليه من مختلف أنحاء المملكة ، والمتزدين عليه من طلابه في الجامعة الإسلامية .

وهو إلى ذلك شديد الحرص على لقاء العلماء من زوار المدينة ، فإذا بلغه قدوم أحدهم هرع إليه للاجتماع به والمذاكرة في كل ما يتصل باختصاصه . ومن هنا كان بعده عن حياة الناس خارج هذا النطاق ، فلا يكاد يعرف شيئاً من مشاغلهم الدنيوية ، بل لا يكاد يعرف الأصول التي تعارفوها في شراء الحاجات اليومية ، فلا يساوم بانعاً ، بل يؤدي إليه ما يطلبه دون جدال . ولعلي لا أسوء الشيخ إذا قلت للقارئ أن قارورة من الطيب اشتريتها أنا بأربعة ريالاً قد اشترى هو أختها بمئة ريال . على أن الشيء الوحيد الذي يمتاز بإتقانه في هذا الجانب هو شراء المطبوعات والمخطوطات ، التي يوشك أن يؤثرها بمعظم موارده ، حتى تجمع لديه منها مكتبة عامرة لا تقل عن خمسة آلاف كتاب ، وكلها في التوحيد والحديث اللذين ينقطع إليهما هذه الأيام .

وفي هذا الجو المميز يعيش الشيخ بأخلاق السلف من أهل العلم ، تواضعاً كريماً ، وخلقاً حلماً ، ودعماً تحبب به كل من عرفه من طلبة العلم في مختلف أقطار العالم الإسلامي .

نماذج من نظمه

وحق الآن كان حديثنا عن الشيخ تلخيصاً لعبارة ، أو استنتاجاً من فقرة ، أو لحة عن فكرة . وقد آن لنا أن ننقل إلى القارئ صورة أصيلة من قلمه الذي هو أقدر على رسم ملامحه . وقد اخترت الأبيات التالية من منظومتين تفضل بهما . وإنما آثرناهما لما تحمل من طوابع أدبه وتخصسه .

إنها جزء من منظومة (علمية) في موضوع طريف هو ضبط الأسماء المتشابهة لرواة الحديث ، تيسيراً لطلبة العلم ، الذين قد يجدون صعوبة غير قليلة في ضبط

هذا الضرب من المؤلف والمختلف . وقد بلغت أبياتها كما أخبرنا اثنين وخمسين .
وهناك بعضها :

إقرأ أسيداً بضم الهمز منحصرأ	في أربع تستفد ما يشبه الدررا
منها سليل ظهير ، ثم من سبأ	إلى حضير أبي يحيى بذا اشتهرا
والساعدي له في الصحب منقبة	بمالك وسموه أيسنا ذكرا
في غير ما مر فتح الهمز ملتزم	لدى ذوي الحدق في ذا النوع منتشرأ
أما أنيس أبو رهم فهمزته	مفتوحة ، وانضمام غيره سطرأ
كذا بديل ففتح الباء يلزمه	مع كسر دال بموضعين فانتظرا

ففي الأبيات كما ترى طبيعة العالم الذي ينتمي متن النظم إلى غايته التعليمية ،
دون أن يعبا بخصائص الشعر من العاطفة والخيال وما إليها . والذي أتيج لنا
الإطلاع عليه من منظومه في غير هذا النحو يكاد لا يختلف عنه كثيراً من حيث
الصياغة والروح ، وما ذلك إلا صورة من واقعه النفسي الذي سيطر عليه
التخصص في نطاق معين فلا يحسن تجاوزه إلى ما سواه .

أراء تناقش :

ونختم هذه الترجمة بأراء الشيخ في مستقبل الجيل الإسلامي ، وواجب علماء
الإسلام المعاصرين نحوه .. وقد أوجز الجواب على هذه النقاط بما يلي :
إن الغزو الفكري وما وراهه من المفريات الوافدة من خارج العالم الإسلامي
يشكلان خطراً كبيراً على مستقبله ، ويبدو من تعبير الشيخ أنه شديد القشائم
في ما يتصل بهذا الجانب ، ولكنه مع ذلك غير يانس من إمكان الإصلاح
(إذا قيض الله لهذا الدين حماة مخلصين ربانيين ..) فهو يعمل كثيراً على وجود
الحماة من طراز خاص ، إلا أنه لا يخبرنا كيف وأين ومتى نجدهم ؟ ..

وفي رأي الشيخ كذلك أن أمضى الأسلحة التي تمكن علماء الإسلام من
الوقوف بوجه الزحف الهدام ، هو تركيزهم في مخاطبة القلوب على كتاب الله
وسنة نبيه ﷺ .. ويزيد على ذلك القول بأن لا يسمح لأي شاب ولا شابة

أن يخرج في تعاليمه ودراساته عن هذين الأصلين، إذ هما في رأيه السبيل الوحيدة لتكوين المجتمع الإسلامي المتكامل .

إلا أن كلامه في هذا الصدد يظل ينظرنا يحتاج إلى تفسير .. فالتركيز على الكتاب والسنة حقيقة لا مناص من استيعابها في بناء الجيل الإسلامي المنشود، ولكن لا مندوحة عن التساؤل « كيف يستطيع العلماء إيصال معاني الكتاب والسنة إلى القلوب؟ » لقد ورد في الأثر وصف كتاب الله بأنه « نبا من قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله » .

ومعنى هذا أن لا بد من تفصيل مجمل، وإيضاح مشكل، وإبراز كنوز، وتجلية عاصم، لإثبات تفوقه، وكونه الهادي أبداً للتي هي أقوم .. فقبل أن ندعو العلماء إذن لمهاربة الإلحاد وصيانة الجيل من الفساد، علينا أن نعدّم لهذه المهمة العالمية بكل ما يساعدهم على تحقيقها .. وأنى لهم ذلك إذا لم تتوافر فيهم صفة القوم الذين بشر بهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إذ قال : « إن الله يبعث على رأس كل مئة سنة لهذه الأمة من يجدد أمر دينها »^(١).

أما طلب الشيخ ألا يسمح لأي فرد من أبناء المسلمين بالخروج عن تعاليم الإسلام .. فذلك أمر فوق طاقة العلماء بعد أن فاتهم القطار، وسيطر على أزمته التربية والتعليم والإعلام من لا يعلم عن دين الله تقيراً ولا قطميراً .

(١) رواه أبو داود في آخر سننه

الشيخ عبد الرحمن الأفرقي

لا شك أنه مركز مرموق ، يود كثير من الأفارقة أبناء وطنه وجلدته أن يحصلوا على مثله .. فليس بالشيء اليسير أن يكون أفرقي سكرتيراً في مصلحة الأنواء الجوية .. لأن وظيفة كهذه لا يبلغها الملون إلا بعد جهود مضنية ، يثبت فيها تفوقه في الدراسة ، وحصوله على أعلى الشهادات ، ووجه خاص من مدارس التبشير ، التي ليس سوى شهادتها مؤهلاً يمكن الأفرقي من الحصول على وظيفة مرموقة .

ولقد كان من حكمة الله أن وهب لهذا القوي حظاً غير قليل من الذكاء ، استرعى انتباه الفرنسي المسئول عن مقاطعته ... وكان ذلك يوم مرّ هذا بقرية (فزا) وأقبل على 'كتّابها الأهلي الوحيد يتفقد تلاميذه ، وراقب ما بأيديهم من الكراريس خشية أن يكون فيها ما ليس في مصلحة الاستعمار . وجعل يوجه إلى الصغار بعض الأسئلة بلغتهم السونغوية فتأتيه الأجوبة معبرة عن مستوياتهم المختلفة ، حتى جاء دور عبد الرحمن هذا ، فإذا أجوبته فوق مستوى غلام في الثانية عشرة ، وإذا هي لا تقف عند حدود الدروس التي يتلقاها من شيخ الكتّاب حول الأصول الدينية من عقيدة وعبادات ، بل تتجاوزها إلى انطباعاته عن القرية وأهلها وأعمالهم وعن الأخلاق والسلوك ...

بما أثار إعجاب المسئول ، فسأل عن اسمه وبيته ، واستدعى والده الشيخ ، فأبلغه رغبته في تحويل ولده الذكي إلى أحدث المدارس المصرية في حاضرة لأقليم ، ليتزود منها بالعلوم التي تعده لمستقبل سعيد يحمد عليه .

وجعل عبد الرحمن يستعيد من أعماق ذاكرته مشاهد ذلك اليوم ، الذي غادر فيه قريته الساذجة المنفية على أحضان الجزيرة ، التي من حولها يتعانق النهران الخيران : النيجر وجوليبا ، فينشران الخصب والجمال في كل شيء . وقد تجمع حوله الكثير من سكانها شيوعاً وشباناً وأحدائاً من رفاقه في الكتاب .. يودعونه في تأثر لم ينقصه البكاء . ولعل أشد هذه الذكريات تفاعلاً في قلبه منظر أبيه الشيخ الصالح الوقور ، وهو يمبح دموعه ويوصيه بتقوى الله ، والحفاظ على دينه في تلك المدرسة التي قال له : إنها لم تنشأ إلا للقضاء على عقيدته الإسلامية .

وها هي ذي ثلاث عشرة سنة تطوي على ذلك اليوم ، قضى ثماني منها في نطاق ذلك المعهد التبشيري الصارم ، يتدرج في فصوله بتفوق ملحوظ ، حتى نال كلتا شهادتيه الإعدادية والثانوية ، وانتقل من حيز الدرس إلى حيز التدريس ، إذ عُين في المعهد نفسه معلماً للغة الفرنسية ، التي أحسنها كأحد أبنائها ... وبعد ثلاث سنوات من التزامه ذلك العمل لم يجد بداً من البحث عن مسلك آخر ، ينفذه من ذلك الجو الذي لم يعد قادراً على تحمل ضغوطه المرهقة ، وقد أتمح له ما أراد حين تيسر له أن يشارك في مسابقة لوظيفة في مصلحة الأنواء الجوية ، فأحرز الدرجة الأولى . وما هي إلا أشهر قليلة حتى رقي إلى مركز السكرتير فيها ، حيث لا يزال إلى اليوم قائماً بهذه المهمة ، وقد أحاط بها خبيراً ، حتى بات مديرها المساعد الذي لا غنى عنه .

وما إن تعرض لذهنه صور ماضيه في ذلك المعهد حتى يعتره غير يسير من الانفعال ، لأنه لا يستطيع أن ينسى ذلك التركيز المستمر على تصغير الشخصية الأفريقية وتكبير الصفات الأوروبية ، سواء في مناهج المعهد ، أو في

سلوك الأوروبيين ، من المكلفين بالتدريس أو الإدارة .. ووجهه أخص ذلك
لتعامل المكشوف على الدين الإسلامي ، الذي لا يدعون مناسبة تعرض لهم
إلا استفلوما للظمن عليه ، وإلصاق التهم بدعائه السابقين واللاحقين ، مع
التوكيد على أن كل تخلف في أوضاع الأفارقة إنما مرده إلى هذا الدين ، الذي
أكروهوا على اعتناقه - بزعمهم - بقوة الحديد والإرهاب .. كما أن كل تقدم
حضاري حققته الشعوب النصرانية إنما مرجعه إلى دينهم ، الذي شق لهم سبل
التفوق ، وذلك لهم العصي من السنن الكونية .

وعلى الرغم من قلة المعلومات التي يحملها عن دينه ، الذي نوجه إليه كل
هاتيك الاتهامات ، لم يجد مجالاً للاقتناع بزاعم هؤلاء المبشرين ، الذين لا ينسى
كلمة والده : إن مهمة مدارسهم هي القضاء على عقيدة المسلمين .

أجل .. إنه لا يسعه إنكار واقع التخلف الذي يتمثل في حياة المسلمين ،
من الناحية العمرانية والاقتصادية بخاصة .. ولكنه مع ذلك لا ينسى أن المسئول
عن ذلك ليس دينهم ، بل التحيز الذي يلتزمه المستعمرون ، فيحولون به بين
المسلمين وبين كل وسيلة تؤدي بهم إلى النهضة الصحيحة . ثم هل يستطيع هؤلاء
المزورون أن ينكروا على قومه تلك الفضائل الخلقية التي ترفعهم درجات فوق
سوية مستعمرهم !..

إنهم فقراء ... ولا يملكون شيئاً من السلطان ، الذي يؤمن لهم المدارس
الصالحة ، المساعدة على إبراز مواهبهم ، ولكنهم يملكون كل ما من شأنه توفير
السعادة الروحية التي لا يتذوق طعمها هؤلاء ، الذين يتبجحون بتفوقهم
الصكوري والمادي !.

إن لديهم التواضع ، والوفاء ، والحب ، والتطلع إلى مرضاة الله .. ووضوح
الرؤية التي بها يعرفون ما أحل الله لهم ، وما حرم عليهم .. فيقبلون على طاعته ،
ويحجمون عن مصيته جهد ما يستطيعون .. ويتقربون إليه بكل ما ينفع عباده
على اختلاف ألوانهم وألسنتهم .

أما هؤلاء المستكبرون ، المدلون بالوانهم وبتفوقهم الصناعي ، فلا يكاد يلمح لديهم شيئاً من هذه الفضائل .. إنهم لا يباليون سوى منافصهم وشهواتهم ، فلا حلال ولا حرام ، ولا حق ولا باطل ، ولا فضيلة ولا رذيلة ، وإنما هي المصلحة والهوى ، اللذان على أساسها يقيمون علاقتهم مع سائر الناس .

إن شعوره الحاد بهذه الفوارق العميقة ، بين أهله وهؤلاء الدخلاء ، هو الذي ينجس عليه حياته في (باماكو) ، ويجول بينه وبين الاطمئنان النفسي . لقد قضى أكثر من نصف حياته حتى اليوم في صحبتهم ، يعايشهم ويحاورهم ، ويتلقى علومهم ، ويساعدهم في إدارة مصالحهم .. ولكن هذه السنين على طولها لم تستطع أن تقطلع من أعصابه حب البساطة التي نشأ عليها في مققط رأسه ، وإيثارها على التعقيدات المصطنعة التي تتمثل في كل ظاهرة من حياة هؤلاء المتفطرسين ، الذين لا يستطيعون أن يكتبوا شعور الاستكبار على كل مخلوق لم يجبل جلده من طبيعتهم . ولعل ذلك عائد بالدرجة الأولى إلى استمرار صلته بقريته (فقا) التي اعتاد أن يقضي في أحضانها إجازاته الطويلة جميعاً .. فيتاح له أن يظل على ارتباط وثيق بتلك المشاعر التوهيجة أبداً ، والتي توحى إليه بأنه مسلم قبل كل شيء ، وأن من حق الإسلام عليه أن يحافظ على ذاتية النقية ، فلا يشوهها بالفساد ، التي ينشرها أولئك المستعمرون حينما حلوا ، كما يتسلل الطاعون إلى الناس الأصحاء عن طريق الجرذان الموبوءة .

ولقد كان لهذه الإيحاءات العميقة أثرها البعيد في تماسك شخصية عبدالرحمن ، فلم تتخلخل كما تخلخلت شخصيات الكثير من فتيان قومه ، الذين تولى تربيتهم أولئك المبشرون ، ولا انهار أمام المفريات كما انهاروا . وهذا ما ركز عليه اهتمام عارفيه من معلميه ورؤسائه الفرنسيين ، فكان منهم الكاره له والمعجب به . وقد طالما عانى من كليهما ما يحزن ويسر . على أن كل ما مر به من ذلك قد تضاهل بإزاء الصدمة الجديدة التي فوجيء بها صباح اليوم .. وقد ضاعف من وقعها صدورها عن رئيسه نفسه ، ذلك المرئسي الذي اقتضرت علاقته به على

شئون الوظيفة وحدها ، فلا يكاد يتجاوز معه حدودها طوال العامين الذين طوَّاهما في دائرته .

لقد دعاه هذا الرئيس المعجوز ليلبغنه رضاء عن نشاطه ، وليسمعه لأول مرة كلمة الشكر على نجاحه في ضبط الوثائق ، وتنظيم أضايرها ، وحفظ أرقامها ، وتصنيف أنواعها .. وكأنه استكثر عليه أن يكون أهلاً لكل هذا الإطراء ، فقال : يوسفيا عبد الرحمن أن يظل مثلك متشبهاً بتقاليد المتخلفين !

وأدرك الفنى (المالى) مراد صاحبه ، إلا أنه آثر أن يتجاهله فأجاب : « لو أوضحت ما تقصد إليه .. ويبدو أن الرجل قد ألقى في كلمة مرؤوسه ما يشجع ، فأشار إليه بالجلوس ، ثم أثبت في وجهه عينيهِ الزرقاوين العابتين ، وسحب مصة طويلة من غليونهِ الملتهب ، ثم قال : إسمع يا عبد الرحمن .. ألا ترى معي أنك تلتزم بالإسلام أكثر مما هو ضروري !.. إن الملونين من زملائك يكتفون بالانتساب إلى هذا الدين ، أما أنت فلا ترضى إلا أن تربط تصرفاتك بقيوده الجامدة الثقيلة .

وكانت صراحة مزعجة ، تركت أثرها بارزاً في ملاحظه ، التي يطلب عليها الهدوء عادة . ودون تردد رد على صاحبه بثل صراحته : الإسلام دين رباتي سمح ، لا يقيد المؤمن به إلا عن المفاسد ، ثم يطلق مواهبه في ميادين الخير والعمل الصالح إلى أقصى حدود الإمكان !..

- هذا دفاع عاطفي ، ولكنه لا يستطيع تغيير الحقيقة ، وهي أن الإسلام ديانة المتخلفين ، بقدر ما يعلم الناس أن النصرانية ديانة المتقدمين والمتفوقين .

- ولم لا يكون كلام الرئيس هو العاطفي !.. لقد درست الكثير من تعاليم النصرانية ، ووقفت على أصولها ، فلم أجد فيها ما يخاطب العقل ، بل هي مجرد استسلام لأقوال رجال يمثون سلطة الكنيسة .

- « سلطة الكنيسة ! » وأطرق قليلاً كأنه يلاحق أبعاد هذه الكلمة ..
ثم ما لبث أن استأنف يقول :

- نعم ، نعم . وهذا سر تفوقها ، لأن هذه الأقوال لا تحمل طابع الإلزام . فأنت تستطيع أن تكون نصرانياً دون أن تدخل الكنيسة .. أو تتقيد بسلوك معين .

- ولكن هذه ليست ميزة يا حضرة الرئيس . إنها تؤكد على أن النصرانية ليست وحياً إلهياً ، بل هي مجرد اجتهادات شخصية ، يقوم بتحصيرها طائفة من ذوي الاختصاص .. كأي شأن بشري آخر .

- حسناً .. أليس الاجتهاد المتطور أبعث على التقدم ، من الجود على أحكام لا تسمح للإنسان بالتحرك إلى أبعد من حدودها المغلقة ! .. أجل يا سكرتيري العزيز .. إن الإسلام محاولة صارمة لتجميد الحياة ، فأين هو من نصرانيتنا التي لا تعرف الحدود ، ولا تسمح بالجود !

ولم يكفد الفرنسي يفرغ من عبارته حتى بسط راحتيه على نضده ، ثم نهض واقفاً إيداناً بانتباه الحوار ، فلم يسع الفتى الأفريقي إلا أن ينهض بدوره ليفادر المكتب ، وفي صدره انفعالات ، وفي رأسه أشتات من الأفكار ، شد ما آلمه ألا يجد مجالاً للتعبير عنها .



وكانت (ففا) تهباً لوداع أبنائها الذين سمحت لهم السلطات الاستعمارية بالسفر لأداء فريضة الحج .. فلم يتردد عبد الرحمن في اختيار طريقه . وما هي إلا أيام حتى كان واحداً من قافلة تشق طريقها عبر السودان باتجاه البلد الأمين . وعلى الرغم من طول المسافة ، وتوالي الأيام عليه في هذه الرحلة الشاقة ، لم يمسه السأم ، ولم يكفد يستشعر التعب ، بل على الضد من ذلك كان يمارس غبطة روحية لا يستطيع وصفها ، ولا سبها عندما يستمع إلى هؤلاء المئات من بني قومه

يحارون بالدعاء والتسبيح والشكر لله الذي أتاح لهم هذه الفرصة .. فلا يسعه سوى الإنسجام في هذا الجو المشرق فيردد ما يرددون . فإذا ما ارتفع نداء مؤذنينهم للصلاة من مختلف الجوانب خيل إليه أنه لا يسمع الكلمات التي ألف سمعها في (فقا) و (باماكو) فحسب ، بل إنه يعيش معانيها الكبيرة بانفعال لم يحس مثله قط . ويتعاطف ذلك الانفعال أثناء اندماجه في صفوفهم للصلاة ، وتعمق غبطته وتوسع حتى ليفلت من إرادته زمام دموعه .

وبهذه الروح الجديدة استقبال عبد الرحمن مطالع البيت ، الذي دعا الله عباده لحبه ، وبهذه الروح الواسعة الشاعرة جعل يلاحظ أمواج البشر المتلاطمة حوله ، وقد امتلأ القضاة بالأريز المتصاعد من قلوبها تكبيراً لله وتحميداً وتمجيداً ، حتى إذا وافى موعد التجمع في بسيط عرفات ومينى ، كانت نفسه قد انصهرت نهائياً في الروح الحكلي ، الذي استعوز على تلك المئات من الأثوف ، فجعل منها كياناً تاماً ، متعهد الزبي والشعور والانجاء... قد تجرد من مفريات الدنيا ليفرغ إلى مناجاة واهب الوجود ، في ضراعة المؤمن الذي عرف مبدأه وغايته ، فهدي إلى الحقيقة الكبرى ، التي طالما شغلت عنها ثقافات الحياة .

لقد استبان عبد الرحمن ، من خلال ذلك الحشر الهائل ، الكثير من أصرار هذا الدين ، الذي أراد مبدع البشرية أن يكون الوسيلة الوحيدة إلى سعادتها الحقة ، وإلى تفنيت الفوارق المصطنعة التي أقامها الطغيان بين مختلف الأجناس والألوان . ومع أن مشاهد هذا التلاقي العظيم لم تخل من بعض المنغصات المؤذية لقلبه ، فإنها لم تزد إلا إيماناً بجلال الإسلام وقدرته الحارقة على السمو بالإنسان ، إذ استيقن أن كل خلل في ما شاهده هناك إنما يمود إلى جهل صانعيه وقلة حظهم من الوعي ، الذي من شأن هذا الدين أن يضيء به عقول أتباعه ، حتى يكتفوا القدوة العليا للجنس البشري كله .

وعز على القتي الماي الموهوب أن يفارق مكة الحبيبة بمثل هذه السرعة ، التي يعتمد إليها الحجاج في أعقاب فراغهم من المناسك . وزاد من شعوره هذا

ما سمعه من مواعظ ، كان يلقبها على وقود (مالي) وما جاورها بلغتهم السونفوية ، ذلك الشيخ الملون الوقور ، الذي علم من بعض تلاميذه أنه مهاجر من إفريقية لطلب العلم في الحرمين ، وقد بارك الله جهاده فأصبح أحد الناشرين لعلم رسول الله في مسجده .

لقد كانت مواعظ من طراز جديد ، تفرع القلب والعقل جميعاً ، فتثير السامع من ناحية ، وتقنعه من ناحية أخرى ، فإذا هو سعيد بما وفق إليه من الإيمان ، محاز بنسبته العملية إلى هذه الهوية العالمية ، التي كرم الله بها المسلم ، فسأ به إلى ما فوق حدود المنافع العابرة التي تمزق الناس .

وانطلق في أعماقه سؤال حائر : أليس هذا هو المعين الذي يجب أن تروي منه القلوب العطشى إلى المعرفة ؟ فلم المجلة إذن ؟ وما يمتك الالتحاق بإحدى هذه الحلقات ، التي يروج بها المسجد الحرام ، فتفيض على عالم الإسلام أشعة هادية شافية !

وأطرق يتأمل في واقعه ، ويزن طاقته ، ويفكر في ما سيتعرض له من حاجة فيما لو قرر المقام لبضع سنين . . . وكأننا فتح بذلك منافذ نفسه لنفحات من الجهول ، ما برحت تنساب في أعراقه حتى غمرت وجوده ، ثم لم يلبث أن نهض ليؤدي ركعتي الاستخارة ، ويدعو الله أن ينقذه من التردد إلى ما هو خير له وأفضل ، في عاجل أمره وآجله .



وكان على عبد الرحمن بعد اعتزامه البقاء أن يستجيب لأشواقه المتطلعة إلى زيارة مسجد رسول الله ﷺ في ذلك الحرم الآسر ، الذي منه انطلقت أروية الخير إلى أنحاء العالم . وهناك في تلك المدينة ، التي إليها بأرز الإيمان كما تآرز الحية إلى جحرها ، أحس الفتى بقوة غامضة تشده إلى كل ذرة في هذه البقعة المباركة ، ولا سيما ذلك المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم . وسرعان

ما وجد في روضته المكرمة روحاً من الأنس سرى عنه الكثير من مُحرق
الفراق لأهله ولمرتج صباه ... ولم يلبث أن اندمج في إحدى الحلقات العلمية ،
التي تنتشر كالتنجوم بإزاء هذه الأساطين الحاملة لقيابه . ومن ثم جعل يتنقل
بين الواحدة والأخرى ليتخير ما هو أحوج إليه من تلك الدروس ، التي ما يرح
يتهددها الدعاة الهداة من أعلام هذا المنطلق النبوي ، فيتداولون مشاعلها جيلاً
عن جيل ، وإماماً عن إمام ، إلى إمام الأمم صاحب الرسالة الأعظم .

بيد أن ضعفه في لغة القرآن قصر به عن الإحاطة بما يسمع ، فلم يجد بدأ
من أن يبدأ من الصفر . وهكذا أقبل على دراسة العربية حرفاً فكلمة فعبارة
فكتاباً ، حتى إذا استوثق من قدرته على الفهم لزم حلقة أحد فقهاء المالكية ،
فترود بما يحوج قومه من فروع هذا المذهب ، الذي درجوا عليه وأسلافهم .
واستمر على ذلك مدى أربع سنوات ، لم يجد بعدها بدأ من العودة إلى أهله ،
فحزم أمره وودع شيوخه وزملاءه ، وانتهى إلى جدة ليمتطي منها إحدى
السفن القافلة إلى إفريقية . ولكن القدر تدخل في اللحظات الأخيرة فإذا هو
راضب عن السفر ، ومصمم على الإقامة ، إلى أن يتروذ بما يكفي للخروج من
مثل هذا المأزق الجديد .

لقد شاء الله أن يجمعه في فندق متواضع بأحد المسافرين مثله . وسر هذا
أن يكون رفيقه من أهل العلم ، فراح يستوضحه عن دراسته وشيوخه ،
والعلوم التي آثرها باهتمامه ، ثم قال له : « ليتك عنيت بمقيدة السلف عنايتك
بفقه مالك » .

وكانه لم يفطن إلى أبعاد ما يريد الرجل فلم يزد على أن قال : لم أر ضرورة
للإيمان في هذا الجانب من العلم فكلنا وهه الحمد مسلون موحدون .

ولكن الرجل لم يقتنع بجواب رفيقه فأردف : المقيدة أساس الإسلام يا بني ،
ولو أنت أنعمت الفكر في واقع المسلمين ، والعوامل التي أدت إلى تمزيق وحدتهم
على مدى التاريخ ، لأدرت أنهم لم يؤتوا إلا من قبل الخلاف على العقيدة !

- الخلاف على العقيدة !

- أجل .. إن الله ابتعث رسلة لتحرير الإنسان من كل عبودية لغيره ،
وهذا التحرير ضمن لعباده السادة والكرامة . غير أن الشياطين
لم يعدموا وسيلة لإفساد هذا المنطلق الرباني ، فدرسوا في عقيدة الناس
بذور الضلال ، حتى هبطوا بسوادهم إلى هاربة الهوان والشقاء .

- ولكن الله تدارك الناس برحمته ، فردهم بخاتم أنبيائه إلى جادة التوحيد .

- ذلك ما حدث للصدر الأول من هذه الأمة ، إذ طُهرت عقيدتهم من كل
شائبة ، فكانوا الدم الجديد في شرايين الإنسانية . ولكن هذه الحال
لم تستمر إلا ريثما تدفقت على المسلمين سموم الأفكار الدخيلة ، من ضلالات
قارس الهند واليونان وأساطير أهل الكتاب ، فإذا هي تقصد على
الكثيرين عقولهم ، وتشوه فطرتهم ، فتدفع بهم بعيداً عن حقائق
الإسلام .

- ومع ذلك .. أليس المسلمون هم وحدهم الثابتين اليوم على هذه الحقائق ؟

- دعني أسألك يا بني .. هل تعلم أن في المسلمين من يرفض الإقرار بما أثبتته
الله لذاته من الصفات ؟

- لو مثلت لذلك .

- حسناً .. إن ربك يقول : « ما قدرُوا الله حق قدره ، والأرض جميعاً
قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه » . وقد جاء في
الصحيحين « إن الله عز وجل يجمل السماوات على أصبع ، والأرضين
على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء على أصبع ، وسائر الخلق على
أصبع ، فيقول : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ،
أنا الكريم .. ومن هذا يتبين بالنص القاطع أن الله يداً وأصابع ..
فهل يقر بذلك كل مدع للإسلام ؟

وفي دهشة عميقة كان عبد الرحمن يتلقى كلمات صاحبه ، وقد أخذ منه
المعجب أنه لم يفكر بهذا الأمر طوال وجوده في المدينة . ثم راح يتمم في نفسه :
لعل مرد ذلك أن الناس هناك لا يجدون أية مشكلة في فهم هذه الأصول .

وتابع الرجل حديثه : ثم دعني أسألك أيضاً ، أثناء حياتك في المدينة ،
ألم تر قط مسلمين يتمسحون بمحدران المسجد النبوي ، يتوهمون في ذلك الخير
لأنفسهم ؟ ألم تر قط مسلمين يستغيثون ببعض الموتى لدفع ضرر أو جلب نفع ؟
أو لم تشهد ذات يوم أو تسمع أن مسلمين يسوقون النذور إلى القبور ، رجاء
التوفيق وطلباً للشفاء ؟

وبصورة عفوية أجاب عبد الرحمن : بلى والله .. رأيت وسمعت الكثير من
هذا وذاك .

- أفيتفق هذا مع العقيدة الصحيحة التي بعث الله بها أنبياءه ؟ يا بني ،
إن الله قد ميز الإنسان بالكرامة حين خلقه على صورته ، فإذا رضي
لنفسه مثل هذا الهوان تجرد من امتيازهِ الرباني ، وهبط إلى أدنى
درجات الحيوان .

يا بني .. إن فقهِ مالك لن ينفعك ولا قومك ، حتى تحققوا في
أنفسكم قول مالك : « لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » .

ومرت تلك الليلة على الفتي المالي بطيئة ثقيلة ، لم تدع للكروى سبيلاً إلى
أحفانه . فلما وافاه فجرها أخذ ممته إلى المسجد القريب ، حتى إذا قضيت
الصلاة عمد إلى أمتعه فعاد معها إلى البلد الذي لا يستطيع أن ينساه .

واستأنف الفتي من جديد ما انقطع من حياته في ظل المسجد النبوي .
ولكنه لم يقصر حضوره على فن دون آخر ، فعمد أولاً إلى التبحر في أصول
العقيدة ، فلزم مدرستها الذي وقف بوساطته على طريق السلف في فهم كل ما
يتعلق بأسسها وتفصيلها ، وكان لا مندوحة له أن يستزبد من علوم العربية ،
التي كان شيخه هذا حريصاً على تمكينه منها . وأعجب الشيخ بتلميذه النجيب ،

فضمه إلى دار الحديث ، التي أنشئت لتعليم الإسلام المصفى ، حيث يتولاه بالرعاية عبيدها الدهلوي ، الذي ما لبث أن شمله بحبه وتقديره ، فأخذ بيده إلى أقصى ما تبلغ مواهبه . وعن مشايخ هذه الدار تلقى ما ينقصه من مختلف العلوم العربية والشعرية ، وبخاصة الحديث ومعطلمحاته ، ذلك الفن الذي أولع به ليصبح من ثقائه المعدودين .

و ذات أصيل بينا كان عبد الرحمن في حلقة الشيخ (ألفا هاشم) أستاذ شيوخه سعيد بن الصديق ، وافى ساعي البريد يقدم إلى الشيخ الكبير رسالة واردة إليه باللغة الفرنسية . ولم يكن باليسير العثور على من يحمل رموزها . وتوقع الشيخ أن تكون منطوية على استفتاء قد ينفع الله بجوابه بعض المسلمين ، لذلك آسفه ألا يجد من يحسن ترجمتها له . ثم أودعها جيبه الداخلي ومضى في درسه حتى استوفاه ، فانقض أفراد الحلقة ولم يبق سوى عبد الرحمن ، الذي راح يسأل الشيخ : هل يسوغ لمسلم أن يستعمل لغة أعداء الإسلام في حرم رسول الله ؟

وتبسم الشيخ ضاحكاً من قوله وأردف: أنسيت يا عبد الرحمن أن رسول الله قد عهد إلى بعض صحابته بتعلم لسان يهود ؟ .. وددت يا بني لو أني أحسن الفرنسية .. إذن لأمرعت بقراءتها ، ورجوت أن يكون ذلك من العمل الصالح .

وفي بساطة بالغة أجاب الفقيه : إذن فاسمح لي بالرسالة ، وسأقدم إليك ترجمتها في الحال .

وانفرد عبد الرحمن بالرسالة في جوار إحدى الإسطوانات الحالية ، وخلال دقائق أنشأ الترجمة المنشودة ، وعاد بها مع الأصل إلى الشيخ .

وسرعان ما انتشر خبر الفقيه والرسالة على أفواه الناس .. وجاءته العروض بتعيينه للترجمة ، ولكنه اعتذر عن القبول ، لأن الوظيفة قد تشغله عن مواصلة

الدراسة ، بخلاف الأعمال الأخرى التي ألف اللجوء إليها للإستعانة بها على سد حاجته ، وعلى مساعدة أمثاله من المهاجرين في طلب العلم .

وهكذا استمر الفقه في السبيل التي اختطها لنفسه ، يخصص للمعلم أوقاته المناسبة ، ويعطي العمل الضروري ما يقتضيه من الزمن والجهد ، غير ملقزم منه صورة ثابتة ، فحينئذ يرى ناقلاً للماء ، وأنا أجيأ في بعض الهابز ، وثارة مساعداً لحياط.. وهو مع ذلك مكب على الدرس لا يكاد يفارق القلم والكتاب كلما وجد إليها سبيلاً . وبهذه المهمة اجتاز الاختبار ، وقال اجازات العلماء ، ثم أصبح أستاذاً في الدار التي فيها تخرج ، ومدرساً بين العلية من مشايخ الحرم النبوي ، يلتف حوله بقناة العلماء فيجدون لديه شفاء الفليل ، وورد إليه الاستفتاءات من أنحاء العالم الإسلامي فيؤلف فيها ما ينير السبيل.. وكان عليه أن يكف عن العمل الجسدي ليفرغ لخدمة العلم : وبخاصة بعد أن أجري عليه من الرزق ما يسد خلته ، ويؤمن له الاستمرار على عادته ، في مساعدة أولى الحاجات من الطلبة وفقراء المهاجرين من أبناء جدته .

على أن «دار الحديث» - تمثيلاتها من مؤسسات البر والعلم القائمة في رحاب الحرمين - لم تسلم من أرزاء الحرب العالمية الثانية ، إذ انقطع عنها معظم المدد الذي كانت تتلقاه من أفرقاء العالم الإسلامي ، وحجاج بيت الله الحرام ، قبات على طلابها ومشايخها أن يبذلوا جل إمكانياتهم لطلب الرزق ، ريثما يكشف الله النعمة .. وكان نصيب الشيخ عبد الرحمن أن ينقل سكناه إلى ينبع ، بتوجيه من الإمام عبد العزيز آل سعود ، للقيام بالإرشاد والتعليم ، وبذلك أتيح له أن يعد مجال نشاطه إلى مناطق هي أحوج ما تكون إلى العقيدة السليمة والتوجيه الصحيح .. فلم يقصر عمله على البلد وحده ، بل شمل به الأنحاء المهاجرة والبعيدة ، ثم لم تكف نضع الحرب أوزارها حتى كان الشيخ قد سجل هناك أروع نجاح في تصحيح المفاهيم ، واقتلاع البدع ، في أسلوب من الحكمة طوع له الأفكار ، ومكن له في القلوب . وبعد أربع سنوات من الجهاد الدائب أعيد إلى المدينة

بأمر الإمام ليجدد شباب الدار التي أحبها ، وليسهم مع بقية العلماء في سد الثغرات التي أحدثتها وفاة العديد من إخوانهم .

وكانت مآثر الشيخ ، في التدريس والإصلاح والتأليف العلمي ، قد سار ذكرها ، فأصبحت ثقة أهل الفضل من الحكام والعلماء داخل المملكة وخارجها ، لذلك لم يكاد ينشأ أول معهد علمي حديث في عاصمة المملكة - الرياض - - حتى اختير للتدريس فيه . ولما برزت للوجود أول كلية جامعية للشريعة هناك ألحق بها لتدريس علوم الحديث .. ولكن الشيخ لم يستطع الانقطاع عن المدينة التي خالط حبها شفاف قلبه ، فما يكاد يظفر بإجازات الصيف حتى يبرز إليها ، ليجدد صلته بمسجدها المبارك ، وبعلمائها الصالحين ، وبطلبتها المجاهدين .

ودرت أخلاف الرزق على الشيخ المهاجر .. فدرت معونته للمهاجرين ، حتى ليكاد ينسى مسؤوليته نحو بيته وذريته ، فإذا قيل له: دع بعض هذا لآلئك . قال : إني تارك لهم خيراً من ذلك .. الله .

على أن الجهود التي أرقق بها جسده وأعصابه طوال السنين الست والعشرين ، التي فضاها في هذا المهجر الحبيب ، ما لبثت أن أسلته إلى ضروب من الأدوية لم تُجد فيها براعة الأطباء ، فاستقبل أجله المقدور راضياً مطمئناً ، وهو يوصي ذويه وتلاميذه بالصبر ، وأن لا ينسوه من الدعاء والاستغفار .

وصدق الله ظن الشيخ ، فتولى عنه رعاية بنيه الأربعة وبناته الأربع ، ففهمهم بالفيض من نعمائه ، وساق إليهم ضروب التوفيق من حيث لا يحتسبون .

الشيخ عبد العزيز بن باز

عبد العزيز أبو عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن بن باز . أحد الثلاثة المقدمة في علوم الشريعة الإسلامية ، ومرجع المستفتين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

وُلد في الرياض عاصمة نجد يوم الثاني عشر من ذي الحجة عام ثلاثين وثلاثمئة وألف للهجرة ، في أسرة يغلب على بعضها العناية بالزراعة ، وعلى بعضها عمل التجارة ، وعلى كثير من فضلائها طلب العلم . ومن أعيان هذه الأسرة الشيخ عبد المحسن بن أحمد آل باز ، تولى القضاء بالحلوة (الحوطة) والإرشاد في الهجرة الأوطاوية في قبيلة مطير . ومنهم كذلك الشيخ المبارك بن عبد المحسن ، تولى القضاء في بلدان كثيرة من المملكة ، منها : الطائف ، وبيشة ، وحرمة ، والحلوة .

وبالإجمال فإن الطابع الغالب على هذه الأسرة هو طابع الجد في ممارسة الخير سعياً في نشدان الكسب الحلال ، ومذاكرة في مسائل الدين ، والتزاماً لفضائله . فهي بيئة إسلامية تذكر الناس وتعلم الجاهل ، وتنبه الغافل .

وقد شاء الله أن يحجب عن المترجم ضياء البصر وهو في مطالع الصبا^(١) ، فضعف ذلك من أثر هذه البيئة المنزلية في نشأته الخلقية ، إذ طالت ملاسته إياها فكثر اقتباسه من فضائلها ، وانطباعه بسلوكها ، ثم أتم الله عليه نعمته فوصله بطائفة من صفوة أهل الصلاح ، عنهم أخذ العلم ، وبهم تخرج ، فجمع بين الحسنيتين ، مما جعله أمودجاً حياً لما تصنعه التربية الكريمة إذا التقت بالثقف السديد .

نشأته العلمية ومشايخه :

كان القرآن العظيم ولا يزال هو النور الذي يضيء حياة الشيخ ، به بدأ دراسته فحفظه عن ظهر قلب قبل أن يبدأ مرحلة البلوغ ، وعنه ، مع سنة رسول الله ﷺ ، يصدر في كل ما يأتي وما يذر .

وحفظه لكتاب الله بأمر انطلاقه في طلب العلم ، وجهاده فيه ، فما ينفك عالماً ومتعلماً ، وواعظاً ومذكراً ، لا يكاد يجد في غير سبيله هذه متعة ولا فائدة

لم يجلس الشيخ وقته على أستاذ واحد ، بل اتصل بالعديد من المشايخ يتلقى عنهم العلم كلا في حدود تخصصه . وكان أكثرهم من الأسرة التي لا تزال قائمة على رعاية الأمانة ، التي تداولت رايتهما منذ حاملها الأول مجدد القرن الثالث عشر محمد بن عبد الوهاب عليه رحمة الله .

(١) في كتاب الأدب العربي لسنة الثانية من الجامعة قسرت قول امرئ القيس في فخره (له .. سابقا نعاماً) بأنه قصير الساقين طويل الفخذين ، وهو ما ذهب إليه الأصمعي ، فاعترض مراجع الكتاب ، ذلك بأن المكسر هو الصواب . وقال الشيخ يومئذ أنه كان قد رأى في حدائثه النعام بالرياح ، وفي ظنه أن ساقها أطول من فخذها .. ومن هنا نعلم أن فقدان البصر كان بعد استنباذه للأشكال . بل إن أحد المرافقين للشيخ يؤكد لنا أنه لم يفقد البصر إلا في التاسعة عشرة من سنه .

ويعتد الشيخ من أساتذته من هذه الأسرة المباركة الشيخ محمد بن عبد اللطيف ابن عبد الرحمن ، ثم الشيخ صالح بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن حسن ، ثم الشيخ محمد بن ابراهيم بن عبد اللطيف ، مفتي المملكة السعودية إلى عهد المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز رحمهم الله .

ويشيد المترجم بمشايخه هؤلاء وآثارهم في عقله ووجدانه ، وبخاصة تشجيعه على المثابرة في تحقيق الخير والعلم والتبحر في عقيدة السلف .

أما مشايخه من غير آل الشيخ فيذكر منهم الشيخ سعد بن حمد من آل عميق ، وكان قاضي الرياض أثناءئذ . ثم الشيخ حمد بن فارس ، وكان وكيل بيت المال فيها ، ثم الشيخ سعدو البخاري بككة المكرمة ، الذي أخذ عنه علم التجويد . على أن أطول سنيه الدراسية تلك التي قضاها في التلمذ على سماحة المغفور له الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ ، الذي استمر يلازم دروسه نحو عشر سنوات ما بين ١٣٤٧ هـ - ١٣٥٧ هـ . إلى أن رشحه رحمه الله للقضاء .

عمله في القضاء :

ولي القضاء في منطقة الحرج ما بين عامي ١٣٥٧ - ١٣٧١ هـ . حيث قضى في عمله ذلك أربع عشرة سنة ونيفاً ، كان خلالها كاشفاً في كل مكان ، مصدر خير وبركة وإصلاح لكل ما حوله ومن حوله . وقد ساعده على ذلك - كما وصف - طيب قلوب الناس وتقديرهم لأهل الفضل ، وميلهم الفطري إلى العدل .. فكما ينظر في القضايا المروضة عليه في المحكمة ، فيقيم قسطاس العدالة بين المتقاضين ، كان يولي اهتمامه مصالح الناس في كل ما يهمهم ، ويكتب إلى المسؤولين في كل ما يراه ضرورياً لإصلاح المنطقة ، فيجد لديهم من التجاوب ما يحقق رغبته الخيرة في الإصلاح العام .

عمله في التدريس :

ومثل الشيخ المترجم لا يستطيع الانقطاع عن إشاعة العلم كما وجد إلى ذلك

سيلاً .. وهكذا حرص على نفع الطلبة أثناء قيامه بمهمة القضاء . وتعد تجربته في هذه الفترة درساً ذا قيمة عملية ، إذ يقول لنا : « إن من الصعوبة بكان محاولة الجمع بين القضاء والتدريس » .

ومرد ذلك في تقديرنا إلى أهمية كل من العملين . فالقاضي ، الذي يجب أن يكون في فريق اللجنة ، لا يسهه الوقوف عند حدود دراسته ، بل لا بد له من مواصلة البحث والدرس وملاحظة النفوس والأحداث ، لكي يأتي قضاؤه موافقاً لأصح الأحكام الشرعية .

وكذلك شأن المدرس ، المقدر لأمانة العلم ، لا يسمح لنفسه بإطلاق الآراء دون تثبت ، ولا يرضى لها التفاعس عن الاستزادة من ضياء المعرفة ، إذ هو موثق بأن العلم هو الوسيلة المثلى لتحقيق امتياز الإنسان بين سائر عتار الأرض ، لأنه إنما يخشى الله من عباده العلماء ... وقد يضاف إلى هذا وذلك ما يقتضيه القضاء من سلوك خاص قد يمزج صاحبه عن الناس وبخاصة العصاة ، حتى لا يطمع أصحاب المصالح بلطفه الذي لا يمكن عزله عن أهل العلم .

ومن هنا كانت صعوبة الجمع بين هذين الأمرين في تقديرنا ، لأن كلا منهما يتطلب من صاحبه التفرغ التام ، فكل تكامل في أحدهما إنما يتم بالحيف على حق الآخر .

ونحن حين ندلي بهذا التقدير إنما نضع في حسابنا أهل العلم والقضاء في مفهوم الإسلام .. وإلا فالأمر أيسر من ذلك ، حين تتجاوز هؤلاء إلى غيرهم من الذين يتخذون من القضاء حرفة ، ومن التعليم مهنة ، فيعدد كل منهم أبامه ليقبض راتبه .

وتخلى الشيخ عن عمله في القضاء عام ١٣٧١ هـ . ليفرغ للتدريس في المعاهد والكلليات ، مفتتح عهداً بالرياض . وقد استمر هناك إلى عام ١٣٨٠ هـ . إذ انتقل بعده إلى (طيبة) المباركة نائباً عن أستاذه ، سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي المملكة ، في رئاسة الجامعة الإسلامية سنة افتتاحها ، ثم لم يفارق الجامعة

إلا عام ١٣٩٥ حيث عهد إليه برئاسة إدارتها . فأصبحت الرياض مقره الدائم ، لا يكاد يقادره إلا بحضور المؤتمرات التي يكلف رئاستها ، أو الأداء المعزوة ، أو الحج ، الذي لا أعرف له انقطاعاً عنه منذ صحبته .

جهوده في خدمة الجامعة :

لما زار الملك فيصل بن عبد العزيز - تقمده الله بواسع رحماته - الجامعة الإسلامية للمرة الأولى عام ١٣٨٤ هـ . أتيح لي أن ألقى في استقباله قصيدي التي نشرت في الصحف وفي ديواني الثاني « همسات قلب » ، وفي كتاب الأدب لسنة الأولى من الجامعة بعنوان « دنيا ودين » ، وقد جاء فيها الأبيات التالية ، التي عرضت فيها انطباعاتي عن الجامعة ورسالتها في العالم :

هذي الحديقة من أغراس بيتكم	وقد أنى ينعمها واخولتق الشعر
رَدتْ إلى طيبة العظمى قيادتها	فكل صقع به من نفعها أثر
فانظر إلى أمم الدنيا بساحتها	في وحدة لم يشب إيلافها كدر
جاءت طلاب الهدى من كل ناحية	ظمأى إلى النور تحذوها المني الكبتر
فيومها دأب في الدرس منصل	ومعظم الليل في تحقيقه سهر
لا ترتضي الرأي إلا أن تؤيده	طريقة المصطفى والآي والسور
جيل الهداة الذي تهفو لمطلعه	سوح الكفاح ويرنو نحوه القدر

وها هي ذي إحدى عشرة سنة تنقضي على ذلك اليوم فلا تزيدني إلا تأكيداً لهذه التوقعات ، التي أشرت إليها من رسالة هذه الجامعة . فيها استعداد مهبط الوحي مركزه المشع على عالم الإسلام ، وإلى خريجيهما المنتشرين في مختلف القارات ، وبخاصة أفريقية الإسلامية ، تتطلع الأنظار .. وعلى فروعها المتلاحقة من الكليات المختلفة بتعلق الكثير من آمال المهلين من سائر أنحاء العالم .

(٦ علماء ومفكرون ج ١)

وما لا خلاف عليه أن للشيخ بن باز أثره العميق في كل تقدم أحرزته الجامعة تحت إشرافه نائباً لرئيسها ، ثم رئيساً مستقلاً لها بعد وفاة رئيسها الأول الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - تغمده الله بعفوه - .

إنه ليستفقد الفصول بين الحين والآخر ، فيستمع إلى دروس المشايخ ، ويلقي توجيهاته الحكيمة هنا وهناك ، وقد يلحظ في دروس بعضهم ما لا يأتلف مع أفكاره الوثيقة ، فيعقب على ما سمع بما يؤدي الغرض في منتهى الكياسة والتقدير .

ويتردد على قاعات المدرسين فيسألهم عن صحتهم وراحتهم ، ويحاورهم في شؤون التعليم ، ويشجعهم على المزيد من الجهد في خدمة الطلبة ابتغاء ما عند الله .

ويدعو المدرسين في مطلع كل عام دراسي لاجتماع عام يضم أساتذة المعاهد مرة ، وأساتذة الكليات الأخرى ، فيتداول معهم أمور الجامعة ، وضرورة الانتفاع من الخبرات الماضية ، مؤكداً على وجوب الاهتمام بأصول العقيدة ، التي يعتبرها الشيخ منطلق العمل لتكوين شخصية الطالب ، ثم العناية بلفظة القرآن التي عليها يتوقف نجاحه في الفهم عن الله ورسوله . . وبخاصة في هذه الجامعة التي معظم طلابها من غير العرب ، فلا سبيل لتثبيت العربية في ألسنتهم وأقلامهم إلا عن طريق القدوة والمحاكاة ، فعلى المدرس إذن أن يجتنب كل لغة ملحونة ، وأن يلتزم الفصحى وحدها في كل حوار مع الطلاب .

وهكذا الشأن في نهاية العام الدراسي ، إذ يعقد مع المدرسين اجتماعاً عاماً آخر ، فيتدارس وإياهم شؤون المقررات وملاحظاتهم عليها ، ورأيهم في مسيرة الدرس ، وفي سلوك الطلاب ، وما قد جموه من الانتطاعات أثناء العام ، ويحشهم على الكتابة عن كل ما يرونه مفيداً للجامعة ، ليعرض على مجلس الجامعة لدراستها والانتفاع بكل صالح منها .

وفي « دار الحديث » التابعة للجامعة تلقى المحاضرات الأسبوعية من قِبل الأساتذة في مختلف الموضوعات ، على مدار العام الدراسي إلا فترة المذاكرة^(١) .
وبشرف الشيخ نفسه على محاضرات الموسم هذه ، لا يكاد يغيب عن إحداها إلا تحت ضغط الضرورة ، ولا تعد المحاضرة تعقياً منه بوضع غامضها ، ويوسع بعض جوانبها على قدر ما يرى لها من الأهمية .

فإذا كانت المحاضرة له اختار لها الموضوع الذي يسر به القلوب والعقول .. حتى إذا جاء موعد الأسئلة حول بعض النقاط أفاض على مستمعيه بما يكفي وبشفي .. وكثيراً ما ينتهز السامعون هذه الفرصة ، فيوردون على الشيخ ألوان الاستيضاحات التي تحمل صفة الاستفتاءات ، فتأتي أجوبته عليها جامعة مانعة لا تلبث أن تتردد على الأقواء .

وقد كتب عنه أحد الأساتذة في مقدمة محاضرة ألقاها الشيخ عن سيرة المصلح الإسلامي الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : « وفي العقائد حكان - الشيخ بن باز - مثال الاعتدال ، لا هو من أولئك المتطرفين الذين يطلقون عبارات الشرك على كل صغيرة وكبيرة ، ولا هو من المتساهلين الذين يفضون النظر عن صفات الأمور ، بل إنه لينبه على الصغيرة والكبيرة ويضع كل شيء في موضعه » .

والذين يعرفون الشيخ مثلنا عن كتب يدركون هذه الخاصة في أسلوبه ، ومرد ذلك فيما نرى إلى سجيته السمحة التي تعامل ، حتى المهالفين ، بروح الطيب الذي يعلم أن ثقة المريض به أول أسباب الشفاء .

وفي العالم الاسلامي :

ولا يقف نشاط الشيخ العلمي عند حدود الجامعة وحدها ، على الرغم من عظم أعبائها ، بل إن نشاطه هذا ليمتد إلى الأقاليم البعيدة من وطن الإسلام

(١) تحركات المحاضرات أحياناً إلى القاعة الخاصة في الجامعة نفسها .

ومهاجر المسلمين .. فهناك المدرسون الذين ينتدبهم باسم الجامعة للتدريس في أكثر من مدرسة وجامعة ، وبخاصة في الهند وإفريقية وباكستان .. وهؤلاء المتفوقون من متخرجي الجامعة الذين يقدمهم الشيخ إلى مجلس الدعوة الإسلامية بالرياض من أجل انتدابهم لخدمة الدعوة في بلادهم وغير بلادهم ، وقد تجاوز عددهم حتى اليوم المئة ، وهم يعملون ليل نهار في تعليم المسلمين دينهم الحق ، وتحصينهم من التيارات الهدامة ، سواء منها الطرقية الضالة أو القاديانية المرتدة ، أو التبشيرية الخادعة .. وقد اطلعت ، بحكم عملي في لجنة القبول والمعادلات بالجامعة ، على رسائل من مشايخ أفرقة يشكرون الجامعة على أن هداهم الله للتوحيد الخالص عن طريق أولئك المبعوثين الجاهدين من خريجيها .

ولقد بذل الشيخ قصارى جهده لإمداد المسلمين بالكتب التي هم بحاجة إليها في نطاق التدريس أو المطالعة .. واستجابت المؤسسات الحكومية لاقتراحاته ، فوضعت لتوزيع الكتب نظاماً شاملاً يتيح لكل منها أن تسهم في هذا المضمار بالقسط المناسب . وفي دار الطلبة التابع للجامعة الإسلامية يجده اليوم مركز خاص ، يتلقى الكتب والمطبوعات الإسلامية من مختلف الدوائر المعنية بالدعوة في المملكة ، ليقوم بتوزيعه على الجهات المحتاجة في مختلف أنحاء العالم .

وهكذا أصبحت الجامعة الإسلامية بفضل الله ، ثم بجهود هذا الداعية الصالح ، مركز إشعاع لا على نطاق المدينة المنورة وحدها ، بل على مستوى العالم الإسلامي كله .

يضاف إلى ذلك عمله الجاد في مد نشاطات الجامعة ، فهو لا يرضى الوقوف بها عند حد مها يبلغ من الجلال ، بل يريد لها ترحكاً متصلاً في طريق النمو .

أقسام وكليات :

لقد بدأت الجامعة عام واحد وثمانين ذات مرحلتين ، ففي جانب مهاد للدراسة الإعدادية والثانوية ، وفي الجانب الآخر كلية لعلوم الشريعة .. وهي

الآن تضم مع المعهدين شعبة خاصة لتعليم العربية لغير العرب ، وإلى جانب كلية الشريعة أربع ، إحداهن لأصول الدين والدعوة ، والثانية لخدمة القرآن الكريم باسم (كلية القرآن والدراسات الإسلامية) وهي الوحيدة من نوعها في العالم كله ، وقد استقبل افتتاحها بموجة من الاستبشار في أنحاء العالم الإسلامي ، وتلقت الجامعة فيها تهنئة أكابر علماء الإسلام ، ثم ثلاثة للعربية وآدابها ، ورابعة للحدِيث الشريف .. هذا غير القسم الخاص بالدراسات العليا .

ومع أن بعض هذه المنشآت قد تم بعد انتقال الشيخ إلى عمله الجديد الضخم في الرياض ، إلا أن التخطيط له سبق انتقاله ، وكان له الأثر البعيد في التوجيه إليه ، ذلك أنه يرى للجامعة رسالة علمية تستدعي تجهيزها بكل الإمكانيات التي تساعد على أدائها .

وقد أعانه الله على هذه الخطة بإدارة تشاركه نظرته إلى رسالة الجامعة ، وبتقدير من المسؤولين لإخلاصه وفضله ، يدفعهم الإستجابة إلى كل ما يطلب من الإعتمادات المالية لتحقيق هذا الطموح .

بقية السلف :

والحديث عن المترجم لا يكون مستوفى إذا لم يوف الجانب الخلفي عنه حقه .

لقد أشرت قبل قليل إلى سجيته السمحة التي يعامل بها ، حتى المخالفين .. وكانت إشارة عابرة لا بد من الوقوف عندها ولو لحظات ، ذلك لأن الرجل بسجاحته وحلمه وبعيد أمانه ، يكاد يكون صورة نموذجية للتوجيه النبوي القائل : « تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ولا تكونوا جبابرة العلماء » .

إن السكينة والوقار أبرز صفات الشيخ ، وهما أول ما يواجه به الناس القرباء منهم والبعداء ، جلساءه الأذنين أو زواره العابرين .

يقول أحد الثمراء في مدوح له :

يا من له ألف خل من عاشق و صديق
أراك خلّيت لنا من منزلاً في الطريق

وما أعلم أحداً أحق بهذا الوصف من الشيخ ابن باز .. إن الناس ليتكبريون حوله أيتا وجد، في المسجد ، في المنزل ، في الجامعة .. وأنه ليصفي لكل منهم في إقبال يخجل إليه أنه المختص برعايته ، فلا ينصرف عنه حتى ينصرف هو .. ومراجعوه من مختلف الطبقات ، ومن مختلف الأرجاء ، ولكل حاجته ، هذا يقصد إليه من أطراف المملكة يسأله الفتيا في أمر ضاق به العلماء ، وذلك يفضي إليه بحاجة لا يقني فيها سوى العلماء الكرماء .. وربما كان بين هذا وذلك من لا يستحق اهتماماً ولا إصغاء ، ولكنه لا يعدم منه الرعاية التي تجبر قلبه . وقد يكون بين المراجعين من يطلب عليه الحق فيسخط ويفلو لغير ضرورة ، فلا يغير ذلك من حلم الشيخ ، ولا يزيد على الدعاء له بالهداية ، ودعوته إلى الأناة .

وليس بالتأدر أن يزدحم عليه هؤلاء حتى لا يدعون له متسعاً لراحة ، ومع ذلك لا يحاول التخلص من مقامه الضنك ، بل تراه يصفي لحاجة كل منهم يهدونه الممهود ، ويحبب كلا بما يرى أنه الحق .

لقد دخلت سرادقه في منى ذات يوم ، فإذا هو محاصر بهجمة من الناس ، قد أحاطت به من كل صوب ، بعضها مكب عليه ، وبعضها قائم ينتظر دوره ، وهو راض يسمع ويحبب ، دون أن يبدر عليه أي تذمر .

ومع أن الشيخ يعطي كل زائر ومراجع حقه المناسب من مجلته وإقباله ، فالملاحظ أن له عناية خاصة بالفقراء والضعفاء ، حتى لقد رأيت منهم من تأخذه نشوة الاعتزاز ، بما يجده من انبساطه إليه واهتمامه بشئونه الخاصة كأنه واحد من أقرب الناس إليه .

ولا أذيع مرأ اذا قلت أن نصيب هؤلاء من الشيخ لا يقتصر على تحديبه وتلطفه ، بل كثيراً ما يتجاوز ذلك إلى العون الذي يسد الحاجة ، ولو كلفه ذلك الحيف على ميزانيته . . وإذا سمعت لنفسى برواية ما يتناقضه عارفوه قلت : إن ذلك كثيراً ما يرهق الشيخ بتعميله ما لا يطيق .

وما يندرج في هذا النطاق من أخلاق الشيخ طيبة الكرم التي لا يملك لها تفسيراً ولا تعديلاً . فعلى مائدته يلتقي الصغير والكبير ، والغريب والقريب ، وما أحسب طعاماً له خلا من عديد الضيفان ، حتى لكأنه هو القائل :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيل . فإنني لست آكله وحدي
أخا سفر أو جار بيتٍ فإنني أخاف مذمات الحوادث من بعدي

وهذه الخلائق الرضية يستجيب الشيخ لدعوات الآخرين ، فلا يستنكف عن حضورها إلا لعذر قاهر ، وقد يكون الداعي تلميذاً له أو واحداً من غمار الناس .

وأذكر أني حلت في ضيافته أياماً بمدينة الرياض ، فلم يشح لنا الفداء معه إلا على مائدة غيره من الداعين له . . إذ كانت الدعوات تتوالى عليه من حكل صوب ، فيأمر بتحديد ما يمكن إجابته منها في جدول خاص ، فلا ينفك يعتذر به حكلما زادت الدعوات عن عدد الأيام . . وذلك واحد من المشاهد الكثيرة التي أرنتني مدى حب الناس لهذا الرجل .

وقد كان - وما يزال - وقته مباحاً للمراجعين يأخذون منه ما يشاؤون كما يشاؤون ، ولكل منهم حاجته الخاصة ، مما قد يحيف على أعماله الرحمية ، فكان لا بد من تنظيم أفضل لهذه الجوانب . وهكذا قسم وقت الشيخ حسب الإمكان ، فجزء للعمل الرسمي ، وآخر للمستفتين والمراجعين ، وثالث للرسائل والأمانى .

ويتناوب على الكتابة للشيخ عدد من المساعدين يقرؤون له ما يريد من نصوص المراجع ، وما يرد إليه من الرسائل ، ثم يتلقون منه الأمانى التي لا يكاد يخلو منها يوم .

وإذا كان كتابه هؤلاء يستحقون الإشفاق لوغرة ما يتحملون من هذه المتاعب ، فهو إذن أحق منهم بإشفاق محبيه ، لعلمهم أن الجهد الذي يعانیه تنوء به العصبية أولو القوة . والحق أن أحداً ليتساءل في دهشة : كيف يستطيع هذا الرجل النهوض بكل هذه الأعباء ؟ ثم يتذكر أنها البركة التي يختص بها الله من يشاء من عباده ، فتحقق لأحدهم من أعمال اليوم الواحد ما تضيق به الأسابيع بل الأشهر من أعمار الآخرين . وعلى ضوء هذا الواقع الملموس من حياة الشيخ نجد التفسير المعقول لذلك الإنتاج الضخم الذي خلفه للأجيال أولئك السابقون ، من أمثال ابن تيمية وابن الجوزي والكثيرين من صالحى المؤمنين .

عمل اليوم والليلة :

ولكى تتوافر للقارىء الصورة المقاربة لأعباء الشيخ أضغ بين يديه هذه القائمة التي تكاد تستوعب عمل اليوم والليلة من واقعه الذي يوشك ألا يتغير .

يبدأ دوام الشيخ الرسمي قرابة الساعة التاسعة من ضحى كل يوم ، فإذا ما وافى مقر الرئاسة وجد المراجعين يملئون الأمكنة المعدة لهم بانتظاره ، فيحييهم ويستقبل مصافحيه ومعانقيه منهم ، ثم يأخذ مجلسه وإلى جانبه كاتبان ، مع كل منهما كدس من الأوراق المقدمة من هؤلاء ، وكثير منهم يجترى ، عن الكتابة بالعرض الشفهي . فيبدأ بالاستماع إلى مضمون كل معروض على حدة ، حتى إذا ما فرغ الكاتب من التلاوة المهموسة أملى عليه التوقيع - أي التعليق - الذي يراه . فإذا ما استوفى الكاتب بعض أوراقه تركه ليسترخ ، والتفت إلى الآخر الذي يشرع في عرض ما لديه ، وتلقى ما يملئ عليه . وهكذا حتى تنفذ العرائض أو يجين وقت صلاة الظهر . وقد تكون هناك اجتماعات لبعض اللجان

تستدعي حضوره ، فينهض إليها ، ثم يعود ليستقبل بقية المراجعين المشافهين . .
وكثيراً ما يمتد دوامه هذا إلى ما بعد انصراف الموظفين ، فيظل هو ومن لا بد
من بقائه من مساعديه . . حتى ينصرف إلى البيت مع ضيوفه الذين لا يتخلو
غداً له ولا عشاء من بعضهم . . وبعد الطعام يدعو بالقهوة فالشاي والطيب ،
ويتحدث إلى جلسائه المرافقين والمنتظرين في مصالحيهم ، حتى إذا وافى موعد
صلاة للمصر أخذ سبيله إلى المسجد ، فصلى وراء الإمام - في المدينة - أو صلى
بالناس في مسجد الرياض الكبير . وكثيراً ما رأته يقبض الصلاة بموعظة قصيرة ،
ثم يعود إلى المنزل لمواصلة ما انقطع من حديث ، أو لاستقبال مراجعين جدد ،
وقلما يتخلو ذلك الوقت من قراءة في بعض الكتب القيمة يتلوها عليه بعض
الشايع من خاصة طلبته ، إلى ميعاد المغرب ، فيمضي معهم إلى المسجد ثم يعود
معه إلى المنزل للقراءة والنظر في شئون الناس ، حتى وقت العشاء ، وبعد أداء
الصلاة يتناول مع الحضور طعام الليل . ثم يقبل عليه أحد مساعديه بالمعاملات
الخاصة بالمساجد ونحوها ، فيستمع ويحلي . . ولا يزال بين قراءة وإعلاء وحديث
نافع حتى وقت متأخر . . وقلما يتاح له الإخلاء إلى النوم قبل منتصف الليل .

ويجئ موعد صلاة الفجر في اليوم التالي فيتهيأ لها ، ثم يأخذ سمته إلى المسجد
مع مرافقه ، فإذا ما عاد إلى المسكن جلس للنظر في الاستفتاءات الواردة إلى
مكتب البيت من مختلف الأرجاء والأقطار ، فإذا ما فرغ منها نظر في طلبات
المستشفين من أصحاب الحاجات ، فأوردها مواردنا اللازمة ، وهنا يوافيه
موعد الدوام الرسمي فينهض إليه على عادته التي وصفنا .

تلك هي الصورة المقاربة ليوميات الشيخ نقلنا بعضها من مشاهداتنا ،
ومعظمها عن أخ كريم طويل الصبغة له . . ومن حق القارئ أن يستلشم
العجب بإزاء هذه الوقائع التي تكاد لا تصدق ، ولكنها مع ذلك حقيقة يعرفها
عن الشيخ كل من خالطه عن كتب . كان الله في عونك ، وبارك في حياته ،
وأمتع به .

الشورى في حياة الشيخ :

وصف الله المؤمنين بقوله الحق : « وأمرهم شورى بينهم » وألزم نبيه وهو المؤيد بوجه أن لا يفارق الشورى في كل شأن هام ، فقال له : « وشاورهم في الأمر » وقد استمرت مسيرة المجتمع المسلم في صعد ، حتى أسقطوا هذا المبدأ من حياتهم ، فباتوا عرضة لتقلبات الأهواء ، يتخذه المستبدون مطايا لشهواتهم ، فيمضون في عمياء لا هادي لها .. حتى انتهوا إلى المصير الذي لا مندوحة عنه للخابطين في الظلمات .

والشيخ الذي أخذ نفسه بأدب الإسلام ، عزائه ورخصه ، ما كان له أن يتغفل عن مبدأ الشورى في أي شأن يقتضيه . وقد شاء الله أن أصعبه في مجلس الجامعة عدد سنين ، فقيض لي أن أشهد من فضائه ، وبخاصة في هذا الجانب من خلقه ، ما لا يصح إغفاله من أي ترجمة تكتب عنه .

أول ما تواجهه من شيم الشيخ في هذه المجالس ذلك الأناض الذي يشيعه في نفوس الأعضاء ، بسؤاله كلا منهم عن حاله وصحته ، ووقوفه على ما سمع من الأنباء العالمية وأحوال المسلمين .. فإذا ما بدأ النظر في جدول الأعمال ، أخذ بكل منها على حدة ، فمُرضت للنقاش ، وأعطى كل عضو رأيه فيها بصراحة ، فإذا انعقد على وجه منها الإجماع أثبت ذلك في المحضر ، وإلا طرح كلا من الوجوه المختلفة للتصويت ، وتقرر في شأنها الوجه الأجمع للأصوات .

وكثيراً ما يكون هذا الترجيع بخالفاً لرأي الشيخ ، ولكن ثقته بأعضاء المجلس ، والتزامه مبدأ الشورى ينتهيان به إلى الرضى التام بكل ما تم .

وذات ليلة احتدم النقاش حول إحدى القضايا المطروحة ، ونباينت الآراء فيها ، وكأني بالشيخ قد خشي أن يكون في إبدائه وجهة نظره إخراج الآخرين فقال بلهجة ملؤها الود : أرى يا إخوان أن يأتي رأيي ورأي نائب آخر الآراء ، لئلا يكون في غير ذلك حرج لكم .

وهي كلمة عميقة الدلالة على سماحة الرجل ، واحترامه النبيل للعاملين معه ، ورغبته الصادقة في الانتفاع بخبراتهم إلى أقصى الحدود . وليس ذلك شأنه في مجلس الجامعة فقط ، بل هو مسلكه الطبيعي في كل شأن يتسع للتشاور ، حتى القضية يسأل بها في الفقه ، وهي من صميم اختصاصه ، يطارحنا بها الرأي على ضوء النصوص الواردة في شأنها ، حتى يطمئن قلبه إلى الوجه الأمثل .. وقد يعترضه الأمر فيه الإبهام فيعطرق ملياً يتأمله في صمت ، ثم يذني برأيه ، أو يقول لمن حوله ممن يتفق به : أشيروا عليّ .

شجاعة الشيخ في الحق

هذا الرجل السهل السمح الحليم يحب الفقراء ، سرعان ما ينقلب أسداً لا يرد عن إقدامه شيء ، إذا علم بظلم يقع على المسلمين ، أو عدوان على شريعة الله .

إن مسلك الشيخ في هذه الناحية هو مسلك العالم الإسلامي الذي يوقن ملء جوارحه أنه مسئول عن حماية محارم الله ، والدفاع عن حقوق أهل الإسلام بكل ما يملك من طاقة .. ويدافع من الشعور الكامل بهذه المسؤولية بتقريب أحوال العالم الإسلامي ، فلا ينال المسلمين خيراً إلا فرح به ، ولا مسهم سوء إلا اضطرب له . ويرتفع غضبه إلى القمة حين تتعلق الأمر بدين الله ، لذلك تراه أصرع العفاء إلى إنكار البدع ، لأنها ينظره عدوان على حقائق الوحي ، وتضيق لغير الله ، وفي النهاية هي إبعاد للمسلمين عن جلادة الإسلام .

عندما أصدرت محكمة البقي قرارها بإعدام سيد قطب وإخوانه اعترى الشيخ ما يعترى كل مؤمن من الغم في مثل هذه النازلة ، التي لا تستهدف حياة البرآء المحكومين ، بقدر ما تستهدف الإضعاف من منزلة الإسلام نفسه ، بارهاب المتصمين به لتخديبهم عنه .

وكلفني الشيخ يومئذ صياغة البرقية المناسبة لهذا الموقف ، فكتبتها بقلم يقطر

ناراً وكرهاً وغيره ، وجنته بها وملئها اليقين بأنه سيدخل على لهجتها من التعديل ما يجعلها أقرب إلى لغة المستولين منها إلى لغة المنذرين ، ولكنه حطم كل توقعاتي حين أقرأها جميعاً ، ولم يكتف حتى أضاف إليها قول الله تعالى في سورة النساء : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » .

وأرسلت يومئذ البرقية التي كانت - فيما أظن - الوحيدة من أنحاء العالم الإسلامي بهذه المناسبة ، بما تحمله من عبارات أشد على الطغاة من لذع الشياطين .

وينفخ الشيطان في سحر أحد الحكام فيعلمن ترهاته بالطعن على كتاب الله وعلى رسوله ، بتوجيهاته التي تقيأها في مؤتمر المعلمين عام ١٣٩٤ هـ . وكان المجلس الاستشاري - الذي يضم ثلة من كبار علماء العالم الإسلامي - يواصل اجتماعاته بالجامعة الإسلامية لدراسة المناهج وتطويرها ، وإصدار توصياته بشأن الإحداثيات التي تتطلبها المرحلة الجديدة . فوجه المجلس عدداً من برقيات الاحتجاج والاستنكار لمزاعم الطاغية ، حملت توقيعات الأعضاء جميعاً ما عدا واحداً اكتفى بالدعاء عليه !

على أن الشيخ لم يستطع الاكتفاء بذلك فعلا إلى كتابته بجلي عليه مقالاً في تنفيذ تلك الأباطيل وفضح مزاعم الطاغية ، التي تم عن منتهى الجهل بالإسلام ولغة العرب .. وقد نشرت الصحف والمجلات ذلك البيان الذي كان قطعة بارعة من فقه الشيخ وأدبه وغيرته اللاهبة على دين الله .

ويتلو تلك الهجمة الطائشة عدوان طواغيت الصومال من الشيوعيين على شريعة الإسلام ، إذ ألغوا أحكامها العادلة في موضوع الإرث والحياة الأسرية ، ليحلوا مكانها أحكام الجاهلية الماركسية . ولما أعلن علماء معديشو حكم الله في عدوانهم هذا ، أخذت الظالمين العزة بالإثم ، فأحرقوا عشرة منهم وهم أحياء ، وزجوا بالعشرات الآخرين في السجون .. فكان لهذا الطغيان الرهيب أثره

العميق في قلب الشيخ ، لم يملك بإزائه سوى القلم الذي حمل إلى البغاة ما يجب أن يتلقوه من مثله .

وقبل ذلك كان للشيخ صولة في رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة خرج منها بالقرار التاريخي ، الذي يدن طغمة الشيوعيين الذين يفرضون وجودهم بقوة الحديد والنار وطواغيت موسكو على مسلمي الجنوب العربي ، الذي لم تقف فيه حمامات الدم منذ استيلاء هذه العصابة الخافدة على زمام السلطة في عدن وحضرموت .

وعلى هذا الفرار يضي الشيخ في مواجهة الأحداث التي تلم بالإسلام وأهله على مستوى العالم الإسلامي كله .

خطاب وكتاب :

في العام ١٣٩٣ هـ . استقبلت الجامعة الإسلامية رئيسها الأعلى المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز أثناء زيارته الثانية لها ، وفي المظلة الكبرى أمام المباني الإدارية ، وقف الشيخ بحميه بكلمة ضافية ، جامعة ، أوجز فيها تاريخ الجامعة منذ نشأتها حتى يومها ذاك ، وعرض لأطوارها المختلفة ، وجنسيات طلابها ، وعدد خريجياتها ، ومصايرهم بعد التخرج ، حيث انطلقوا يحققون رسالتها في مختلف أنحاء العالم الإسلامي .. فأبرز بذلك أهمية هذه المؤسسة وآثارها البعيدة في تركيز معاني الإسلام ، والوقوف بوجه الزخوف المعادية له من الشرق والغرب .. ثم عرج من هناك على واجب حكام المسلمين نحو الإسلام في حمايته وتنفيذ شريعته .

وما أروع تلك اللفتة المباركة التي ركز عليها الشيخ عندما عرض لأهمية الإعلام الحديث في تبليغ الدعوة وإبراز محاسنها للسامعين والناظرين والقارئين ، وراح يذكر الملك والأمراء الذين معه بمسئوليتهم الضخمة في هذا الصدد ، ولم يكتفهم ملاحظاته الصريحة حول واجب صوت الإعلام السعودي من

الإجراف في المراتب التي سبق إليها الآخرون ، الذين لا يستثمرون أي مسئولية نحو الإسلام .

كان الشيخ يتدقق بهذه المعاني في حرارة توحى إلى السامعين أنه يؤدي أمانة ويبرى ذمة ، وكانما انتصب في ضميره مشهد الحشر حيث يسأل كل إنسان عما عمل ، وتكون مسئولية العلماء أضخم المسئوليات .. ولقد كان لأسلوب الشيخ ساعته أروع الأمر في القلوب ، إذ سلك إلى غرضه أحكم المسالك فجمع بين اللطف والقوة ، وقدم مواعظه ونصائحه ملفوفة بظروف من نور .

و كنت ألاحظ وجه الملك الراحل - غفر الله له - وهو بصفي بانتباه عميق إلى كلمات الشيخ ، فألمح عليه انطباعات الرضى والقبول . ولا غرابة في ذلك فقد كان الملك فيصل - فيما نعلم - على يقين من فضائل الشيخ وعظيم إخلاصه للحق . وكان الملك كبير التقدير لكل نصيحة مخلصه ، رحمه الله .

تلك هي ذكرياتي عن الخطاب .. أما الكتاب فله ذكرى أخرى .

وكان ذلك يوم قرى ، على الشيخ في إحدى الصحف نبأ حدث أهم كثيراً ، إذ خشي أن يجرّ وراءه ما لا تحمد عقباه .

وعلى دأبه في الشورى عرض الموضوع على مجلس الجامعة فلم يخرج عن توقعاته . واستقر الرأي على أن يرفع إلى المقامات العليا ما ينبغي تذكيرهم به في مثل هذه الحال .

وفي اجتماع نال أطلع الشيخ المجلس على النص الذي أعده . وكان على جانب من الصراحة كبير ، إذ أوضح فيه الشيخ كل الذبول التي يتصورها ، وذكر أولي الأمر بموقعهم من عالم الإسلام ، ومسئوليتهم نحوه .

وحقاً لقد أدهشتني تلك الصراحة فلم أقالك أن قلت : الحمد لله الذي حفظ للإسلام من يقول مثل هذا الكلام .

وما هي سوى إمام حتى وردت الردود من الجهات العليا ، وقد كان كل منها قطعة نفيسة من أدب مؤمني الحكام في مخاطبة الأعلام من علماء الإسلام .

لقد أوضحت هذه الردود البواعث التي اقتضت ذلك الأمر ، وما أحيط به من تدابير حازمة لا تدع مجالاً للشك في صلاحيته .

وبذلك اتفهنا إلى الفناعة التامة بأنها ضرورة لا مندوحة عنها ، وأن تحقيقها على النحو الذي صارت إليه بالغ منتهى السداد .

ولمراة ان المفكر المتدبر حين يعمد إلى تقويم كل من الكتاب والردود عليه ، ليحار في أيها هو الأرجح في موازين الخير .. على أنه يظل مقتنعاً في سائر الأحوال أن المملكة ستظل بخير ما بقي لها هذا الضرب الشجاع من الأعلام ، وذلك الصنف النادر من الحكام .

الشيخ الخطيب :

في تضاعيف ما أسلفت بعض الإشارات إلى بعض مميزات الشيخ الأدبية ، وهنا أضيف إلى تلك الإشارات ما يوقر للقارىء صورة ولو مصغرة عن هذا الجانب من شخصيته .

ومن نوافل الأمور أن يقدر القارىء ثقافة الشيخ في اللغة والأدب ، لأنها من الأسس الرئيسية في نظام التعليم الإسلامي ، ومرد ذلك إلى أن كل جهد يبذل لفهم الآية أو الحديث أو استنباط الحكم الفقهي ، ذاهب سدى إذا لم يدعم بتعمق مماثل في قواعد العربية وآدابها وغريبها ، وما يستتبع هذا وذاك من علوم البلاغة والنقد والشعر .. وبهذا كان للشيخ أدواته الكافية الوافرة لإجادة الكتابة والخطابة .

والمألوف في عالم الإسلام أن الذين يجرمون بصرهم من أهل العلم أكثر ما تنمو قدرتهم الأدبية في نطاق الخطابة ، لأن معظم اعتمادهم عليها في الدرس والوعظ والدعوة . وهذا ما يتجلى واضعاً في مواهب الشيخ بن باز .

إنه خطيب مصقع سواء في محاضراته الكثيرة ، أو تعقيباته على محاضرات غيره ، أو في توجيهاته الحكيمة التي تشرئب إليها الأسماع .

ومن خصائصه الخطابية قدرته على ترتيب أفكاره حتى لا تشتت ، وضبطه لعواطفه حتى لا تغلب عقله ، ثم سلامة أسلوبه ، الذي لا يكاد يعتريه اللحن في صغبر من القول أو كبير ، وأخيراً تحرره من كل أثر للتكلف .

لقد أشرت إلى لباقة البليغة في عهده مواعظه أمام المغفور له الملك فيصل ابن عبد العزيز ، الأمر الذي لا يتاح لكثيرين من المهووبين في مخاطبة الملوك .

وأستطيع القول إن ذلك ديدنه في كل محاضرة أو تعقيب يريد به تقويم خطأ أو نقد بدعة .

إن هذا الرجل من أشد من عرفت وقرأت غيره على حقائق الوحي واستمرارها سليمة من كل شائبة . وفي طبعه النفور من كل شذوذ عن هذا السنن . فإذا ما سمع أي شيء من ذلك لم يلبث أن ينهض التعقيب عليه بما يبين وجه الحق ، ولكن لا يتجاوز في أي كلام له نطاق الحكمة والموعظة الحسنة ، مع أتم المراعاة لمشاعر الجانب المخالف .

والشيخ من نجد في الصميم ، وفي علماء نجد شدة في الحق قد تبلغ حد التنفير . وقد شاركهم شيخنا في الشطر الأول ، فهو لا يعرف المهادة لأي شذوذ عن ميسع الحق . . ولكن بخالف الكثيرين منهم في أسلوب التبليغ ، ففي حديثه اللين واليسر والتقدير والبعد عن كل تنفير ، وهي صفات الخطيب البليغ .

في التمهيد لإحدى المحاضرات في دار الحديث تلا مقرئ سورة (البلد) وقرأ على طريقة ورش قوله تعالى : « فلا اقتحم العقبة . وما أدريك ما العقبة . » . أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً فقاطعه الشيخ طالباً منه أن يتلوها كما هي في مصحف عثمان (رض) ولكن المقرئ لم يفعل ، ولعله لم يتنبه لما قاله الشيخ ، حتى أتم السورة . وهناك وقف معرف الحفل ، وهو أحد نوابغ

طلابنا المتخرجين في كلية الشريعة ، يعقب على طلب الشيخ ببيان جميل ، يؤكد به صحة القراءة على أنها إحدى التواترات السبع ، وضرورة إشعار الناس بها ، وبخاصة في مثل هذه المناسبة ، كي لا يكونوا على جهل بالقراءات التي لا يسمعونها في العادة .. ومع أن للشيخ - لو شاء - حجته في الوقوف عند القراءة المشهورة خشية التشويش ، كما قرر جمع البحوث في القاهرة . مع ذلك فقد تلقى ملاحظات تليده بصمت الراضي عما سمع .. وإنها لإحدى المزايا التي لا يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ من العقل عظيم .

منهج الشيخ في البحث :

ومما يتصل بهذا الخلق من الإنصاف والسجاجة مقالاته في موضوع دوران الأرض ، ومناقشاته لأنصار الهيئة الجديدة من المعارضين لأفكاره .

لقد كثر التراجع بينه وبين هؤلاء ، وألف في ذلك كتاباً خاصاً يدعم به ما وصل إليه من رأي في هذا الأمر بالأدلة الحسية والنقلية .. ومع يقينه بما ذهب إليه لم يقل في مخالفه إلا أنهم يجتهدون مخطئون . بخلاف غيره من الذين يرون رأيه ولا يرون وسيلة الحوار بغير السب واللعن والتكفير .

وقد سبق اني فصلت موقف الشيخ ومناظريه من هذا الموضوع في صكتاي « مشكلات الجليل في ضوء الإسلام » ونبته إلى منهجه الذي يعتمد ظواهر النصوص ، مع احترامه لكل اجتهاد يخالفه ، مسامحاً قائماً على دليل أو شبهة من دليل .

وقبل أن أتهياً لكتابة هذا الفصل عن الشيخ سألته فيما سألت عما اذا كان قد غير رأيه في شأن دوران الأرض ، ولما علمت إصراره عليه ذكرته بأثر للدوران دلائل شبه قاطعة في كتاب الله ، وذلك أنه سبحانه لم يقل : « وكل في فلك يسبحون . إلا وقد ذكر الأرض قبل ذلك فيما ذكر من السجحات ، فهي داخلة قبهن .. فكان جوابه : أن الأرض في كلا الموضعين

من كتاب الله مذكورة على بعد من السج ، فلا يرى مناسبة لإدخالها فيه .

فالحلاف إذن يكاد ينحصر في الدلالات اللغوية لنصوص يرى الشيخ أنها تتسع لأكثر من اجتهاد ، وقد اختار أحدها إقتناعاً منه بأنه الأسد ، دون أن يشور بين ذهب في فهمها غير مذهبه .

وبما تقدم يتضح أن منهج الشيخ في البحث قائم على التزام النص في كل ما يتصل به . وبما أن النصوص مع ثبوتها القطعي قد تتفاوت في دلالاتها ، فله حق الاجتهاد في فهم الدلالة كما لغيره ذلك ... وهو منهج لا غبار عليه عند أولي العلم .

ولعل من هذا القبيل موقف الشيخ من موضوع الطلاق ، إذ هو ينظر إليه على ضوء الدليل فيذهب فيه مذهب الذين لا يرون التفريق به إلا بشرطه .. وبذلك يخالف اجتهادات المذاهب لاقتناعاً بما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وأشباهه . وقد عرف له قضاء المملكة هذا الاجتهاد فهم يأخذون به دون تقيد بالمذهب .

وقد حدث أن استفتاه من هذا الشأن عرض على الشيخ فكتب جوابه فيه وفق اجتهاده ، ولم يكن قد علم بأن ثمة فتوى مخالفة صدرت بالموضوع من أستاذه المرحوم الشيخ محمد بن ابراهيم مفي المملكة ، فلما رفع الأمر إلى المنفور له الملك عبد العزيز ، وجه إلى الشيخ خطاباً قاسي اللهجة بسبب ذلك ، ورد الشيخ على الخطاب الملكي بما يؤكد احترامه لشيخه ، وأنه لم يسبق إلى علمه أن له في القضية فتياً ، أما حجته في فتواه فقائمة على الأدلة الثابتة من كتاب الله وسنة رسوله ، وفهوم الكثيرين من أئمة العلم ، ولا سبيل له إلى مخالفة قناعته .

وهكذا انتهى الحلاف الفقهي بتقدير كل من الأطراف موقف الطرف الآخر .

وهل نواجه شهداً آخر من صور الحياة الإسلامية ، يتعاون فيها العلم مع الحكم بصورة لا نطمع بلقاء مثلها في أي بلد خارج حدود المملكة العربية السعودية .

الشوخ والنشاط العلمي :

لقد أتى على المسلمين عهد كان العلم فيه يقوم على المدارس الشفوية ، وكل محاولة لتقييده في الكتاب خروج عن المؤلف يشهد بضيق حافظه العالم وب حاجته إلى الأداة المساعدة .. فلما أقبل بعضهم على التدوين عرض نفسه للمأخذ الكثيرة . ومن أجل ذلك رأينا الجناح يصوغ في محاسن الكتاب للمصفحات الطويلة دفاعاً عن بدعة التأليف .

أما بعد ذلك العهد فقد بات الكتاب هو الشاهد المحدد لمنزلة العالم والأديب ، لأنه الوسيلة المثلى لحفظ العلم وضمان استمراره في الأجيال

ونحن اليوم نتمتع من إنسان يحمل الإجازات العليا في مختلف الفنون ثم لا نجد له من النشاط العملي ما يملأ رسالة !

على أن الظروف حكها في ألوان النشاط ، فرب أخي علم لا يجد متسعاً للإكباب على التأليف لأنه مشغول عن ذلك بضروب من العمل العلمي تستغرق وقته كله . وهذا جمال الدين الأفغاني أقرب شاهد على ذلك .. لقد حرك القوى ، وهز العقول على امتداد العالم الإسلامي كله ، ولم يترك لنا مع ذلك سوى القليل من المدونات ، لأن ظروف الرجل وما أحاط به من فقدان الاستقرار ، ركز معظم اهتمامه على الخطابة ، فلم يستطع تجاوزها إلا في النادر . على أن الشيء الذي لا يعذر به ذو العلم أن يجيب نفسه في حدود (الوظيفة) فلا يعرف له أي نشاط خارج نطاقها ، اللهم إلا أن يكون قصور ناتجاً عن العجز ، فيكون عذره أنه من غير أهل العلم ، ولو حل أطول الإجازات !

والشيخ المترجم واحد من كبار أهل العلم بإجماع الكبار من علماء المسلمين ،

فلا بد أن يكون لديه من فيوض المواهب ما يمكن نقله عنه والانتفاع به خارج مكانه وزمانه . ونسرع إلى القول بأن علي القاري، ألا يفنظر من الشيخ شعراً لأنه - كما أخبرنا - جريه قليلاً ثم غلب عليه العلم .

علي أن المنشور من مؤلفاته قليل بالنسبة إلى ذخائره العلمية ، فهي حتى الآن مقصورة على المطبوعات التالية :

- ١ - الفوائد الجلية في المباحث الفرضية .
- ٢ - نقد القومية على ضوء الإسلام والواقع .
- ٣ - الأدلة الكاشفة لأخطاء بعض الكتاب .
- ٤ - الجواب المفيد في حكم التصوير .
- ٥ - الأدلة العقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب .
- ٦ - التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة على ضوء الكتاب والسنة .

وفي ما أسلفنا على الحديث عن جهود الشيخ وأبعاد مسئولياته ما يفسر السبب في قلة توافره من الكتب بخاصة، على أنها بعين نظر إلى نشاطه العلمي من خلال الواقع نجد أنفسنا تلقاء مساحة أكبر من هذه المؤلفات الستة، فله شيخ بحوث علمية ودرود فقهية واجتماعية نشرت في العديد من المجلات والصحف داخل المملكة وخارجها ، هذا إلى المقادير الضخمة من الفتاوى التي رد بها على مستفتيه المنتشرين في مختلف أنحاء العالم . وفي ظني أن هذه الآثار المكتوبة لو ضم بعضها إلى بعض لأنسافت إلى مؤلفاته المذكورة عدداً غير قليل من المجلدات ، والمتوقع أن يتم ذلك قريباً أو بعيداً إن شاء الله .

تأليف غير مكتوبة :

أما آثار الشيخ غير المكتوبة فمن المتعذر إحصاؤها ، وأقلها هو الذي تحفظه المسجلات الحديثة ، مما يتطلب نسخه الوقت الطويل والتتبع الذي يمتد إلى خارج حدود المملكة كذلك .

وقد سألتنا سماحة الشيخ عن أحب كتبه إليه فأشار إلى السادس (التحقيق والإيضاح) وعلل ذلك بعموم نفعه وشدة حاجة الناس إليه .

وفي تعيينه هذا الكتاب بالذات دلالة على طبيعة الشيخ ، والميزات الذي يقوم به العمل . ذلك أن قيمة الإنتاج بنظره عائدة إلى مدى خدمته للشريعة ، وهو إنما عمد إلى تأليف وتحقيقه ، هذا لما رأى من الأخطاء الكثيرة ، والبدع الرهيبة التي يترعرع لها حجاج بيت الله ، وزوار مدينة رسوله . فالهدف منه إذن هو دلالة الناس على المهجة الواضحة من عمل رسول الله ﷺ ، وصيانة عبادتهم من مؤثرات الجاهلية والدجالين والتاجرين . وهو نفسه الهدف الذي يرمي إليه في سائر أعماله ، ولا ينفك عن التزامه في كل ما يحدث ويكتب ويعلم . وقد عرف المسئولون بالمملكة لهذا الكتاب أثره فتولت الجامعة الإسلامية طبع مئة ألف نسخة منه للتوزيع العام ، هذا فضلاً عن العديد من طبعاته السابقة .

مجالات الشيخ العلمية :

وحيث استوضحنا سماحة الشيخ عن أحب العلوم إليه لم يزدنا على ما نعرفه عنه من خلال حياته وآثاره . فالمعقيدة المستمدة من الكتاب وصحيح السنة في رأس العلوم ، والعلم بها وتعليمها هما العمل المفضل لديه . إذ على المعقيدة السليمة تنبني بقية العلوم ، فدمجتها سبيل لصحة ما وراها ، وفسادها هو المزلق إلى معظم الفساد الذي تترعرع له علوم الدين الأخرى . ومعلوم أن المعقيدة التي يؤمن بها الشيخ ويدعو إليها في كل مناسبة هي التي تلقاها الرعيل الأول عن

صاحب الرسالة عليه السلام وقررها القرآن العظيم على لسان كل نبي أرسله الله هداية الخلق ، فكل المخرف عن حقائقها محبط للعمل وصارف عن نور الله . ومن أسس هذه العقيدة إمرار صفات الله على ما وردت دون تكلف لتأويل أو تعطيل ، إذ ليس كذلك - سبحانه - شيء ، مع أنه السميع البصير . فإثبات السمع والبصر والصفات العلى ، التي أثبتها الله لذاته في القرآن والسنة الصحيحة ، مما قرينة النفي لكل مشابهة بينه وبين خلقه سبحانه ، فهو سميع ولكن لا يشبه سمعه سمع ، وهو بصير ، ولكن لا يشبه بصره بصر ، وسمعه وبصره وسائر صفاته العلى إنما هي مما يليق بكمالاته التي انفرد بها كما انفرد بوحدانيته .

والشيخ لا يرى وسيلة لتثبيت العقيدة الصحيحة كالدلالات الحاسمة من الكتاب والسنة ، فليها يجب الإعتماد ، وعندها تقف المحاولات . وكل تمويل على سواها محمسا ذهب إليه علماء الكلام مؤد الى الاضطراب والتشويش . . إلا أنه لا يرى بأساً في الإمام يعلم الكلام لأهل العلم الذين لديهم من الحصانة العقلية ما يصونهم من ذلك التشويش .

ثم يلي علم العقيدة - في تقويم الشيخ واختصاصه - علوم التفسير والحديث والفقه . . وفي الفقه بخاصة يقول أنه يأخذ بأصول أحمد رحمه الله ، غير أنه لا يتقيد بالمذهب إذا ظهر له الدليل على خلافه .

ويقول الشيخ : إن الاجتهاد في تقصي الأدلة مفضل لديه ، لأن واجب أهل العلم الأخذ بالدليل من الكتاب والسنة ، ورد ما تنازع فيه الناس إليها ، ففي ذلك طمأنينة القلب وراحة الضمير . لإيمان طالب العلم بأنه يأخذ الحكم عن الله ورسوله لا عن الرجال .

السبيل إلى بناء الجيل :

وسألنا الشيخ رأيه في مستقبل الجيل الإسلامي في المملكة وسائر أنحاء العالم ، فأمل علينا سماحته ما خلاصته :

« إن الجيل المعاصر من شباب الإسلام يتعرض لخطر عظيم إن لم ينشط العلماء والمعلمون والحكام لتداركه . »

وهذا الخطر ينظر الشيخ متشابه الأصول في جميع أرجاء العالم الإسلامي ، وإن تفاوتت أحجامه وأشكاله هنا وهناك . ويخص بالذكر من هذا الخطر مناهج الدراسة التي لا تركز على قواعد الإسلام . ولهذا كان لا بد من إصلاح هذه المناهج بتحويلها إلى منطلقات إسلامية تتولى بناء شخصية الطالب ، وتحسينه من الضياع بالتصور السديد لمهمته التي من أجلها خلق ، وعلى تحقيقها يجب أن يقف حياته ، ألا وهي إعلان حقائق الإسلام ، واجتذاب أبصار الناس وبصائرهم إلى محاسنه ، حتى يعلموا أنه النور الذي لا سعادة إلا في ظله ، ولا سلام إلا في كنفه .

وطبيعي أن المناهج مهما تبلغ من الصلاح لا تؤدي مهمتها إلا عن طريق المدرس الصالح ، ولهذا يلج الشيخ على ضرورة العناية باختياره على هذا الأساس .

أما مسؤولية علماء الإسلام تجاد الجيل ، وواجب حمايته من سموم التيارات الفارسية ، فكبيرة هائلة ، وهي تقتضيهم تعبئة كل ما يملكون من الطاقات لهذه الغاية . ويؤكد الشيخ على الجانب الإعلامي من وظيفة العلماء ، فيرى أن عليهم إمداد الجيل بكل ما يعوزه من الغذاء الفكري ، الذي يشعره بعظمة الإسلام والاعتزاز به ، سواء في ذلك المؤلفات والمحاضرات والمؤتمرات .

ولا سبيل في تقدير الشيخ إلى تمكن العلماء من تحقيق ما عليهم في هذا المضمار إلا أن يكونوا على علم بمختلف التيارات الحديثة ، وعلى المسام باللغات التي تحمل هذه التيارات . وطبيعي أن يسبق ذلك التطلع من علوم القرآن والتزود العام بمختلف الأدلة العقلية والنقلية .

والشيخ إلى ذلك على أتم اليقين بأن القرآنة العظيم أنجع وسائل الدعوة إطلاقاً ، لأنه يخاطب الإنسان كله ، عقله وعواطفه ونفسه ، وفيه الأدلة المكنمة

للفطرة بأن النظام الإسلامي هو السبيل الوحيدة الموصلة إلى سعادة الدارين ..

وأخيراً لا ينسى الشيخ أن يذكر إخوانه العلماء بأخطار البدع والخرافات ، التي لا تقل أضراراً عن أخطر التيارات الهدامة ، لأنها تحجب حقيقة الإسلام ، وتشوه ملامحه ، حتى تنفر منه النفوس التي تجبهل . فهي لذلك تستدعي من علماء الإسلام الاهتمام البالغ برصدها والقضاء عليها لإنقاذ الإسلام والمسلمين من شرها .

بدعة وسنة :

والكلام عن موقف الشيخ من البدع ، وحماسته في الذود عن حقائق التوحيد يشدني إلى ذكرى يتعذر عليّ نسيانها .. ذلك أنني كنت أصفي إليه ذات يوم في الصفوف المتقدمة من المسجد النبوي ، يتحدث إلى المصلين في أمور العقيدة ومنهج السلف في العبادة ، مؤيداً كل حكم بشاهده من آيات الله وسنة رسوله ﷺ . وتوقف سبيل الناس الذين تحولوا بوجوههم إليه يتابعون موعظته . وكان هذا المشهد قد أخرج بعض (الطرفيين) من نزلاء المدينة فجعل يهيب عن حوله للخروج وهو يشتم بما يترجم سخطة .

لقد هز هذا المشهد مشاعري فلم أقالك أن أصوغها في أبيات جعلت عنوانها « بدعة وسنة » وأثبت في ذيلها التذكرة التالية : « ولدت هذه الأبيات عقب سماع موعظة للشيخ بن باز في الحرم النبوي ، وقد انسحب من بين المستمعين بعض الحرفيين . وأنا إذ أوردتها في ما يلي إنما أسجل بذلك واقعة تضاف إلى أشباهها من مواقف الشيخ في خدمة الحق الذي وقف نفسه عليه :

أرضيتَ ربك والرسول وكل من	نبذ الضلال وبالكتاب تقيدا
لكن أسرى الابتداع تكروا	لما أغرت على الخرافة بالهدى
جعلوا أصفهم على آذانهم	وتسللوا مثني هناك وموحدا
يتخافتون: أن احذروا لا تذهبوا	أ قد ورثتم عن شيوخكم سدى

سر الحقيقة ملك سادتنا ، وما
 فإذا هم وردوا الحديث فحسبنا
 ومضيت نندب بالكتاب مذكرا
 والدين : قال الله قال رسوله
 والحق مثل الشمس يحمل ضوءه
 فجزاك ربك عن حقائق وحيه

عند الدعاة الآخرين سوى الصدى
 قرب المشايخ والمسايح موردا
 وبنة المختار تهتف مرشدا
 لا ما يرقشه النواة على المدى
 للناظرين ولا يروق لأرمدا
 أسنى الثواب ، وعن شريعة أحمدنا

مشهد لا ينسى :

ونختم هذه الرحلة مع الشيخ بتلك الصورة التي ما أحسب واحداً ممن
 شهدوها بقادر على نسيانها .

كان انتقال الشيخ إلى منصبه الجديد في الرياض مفاجأة لكل من في الجامعة
 مدرسين وطلاباً وموظفين ، لا يشبهها إلا فقدان أسرة راعيها الخليم الرحيم ..
 وذات يوم عاد إلى المدينة في زيارة عابرة ، فكانت فرصة مرموقة للاجتماع
 على وداعه .

وفي مسجد الجامعة احتشد هؤلاء ليعبروا عن تقديرهم للرجل الذي خالط
 حبه دماهم ، فكانت هناك كلمات أملاها الاخلاص دون إعداد ، حتى جاء دور
 الشيخ للتعقيب عليها ، فإذا هو يتعثر في التعبير ، إذ غلبه التأثر فلم يتالك
 أن يبكي .

لقد كانت تلك الدموع الحارة أبلغ خطاب سمعته للشيخ .. وأشد خطبة
 المبينة تحريكاً لمشاعر سامعيه ، حتى نمر التفاعل كل من في المسجد ، فهم بين
 باك في صمت ، ومحول في نشيج .. وما أحسب ثمة بياناً أدل على مدى الترابط
 الروحي بين الشيخ وهذا الجمع من مثل ذلك الموقف .

ووجدت في نفسي دافعاً لا يدفع إلى الكلام في أعقاب هذا المشهد المثير ،
فكان مما جرى به لساني هذان البيتان :

يكنينا وفاة لامرئ قل أن يرى له في الدعاة العاملين نظير
فدخلوا ملامي إن ألح بي البكا فإن فراق الصالحين عسير

وحقاً لقد كان فراق الشيخ ابن باز للجامعة الإسلامية عسيراً ، لأنه فرق
بينها وبين الرجل الذي باشر غرسها من أول أيامها ، ثم مضى يسقيها ذوب قلبه ،
ويبذل لها من الجهد ما لا يضاهيه إلا سور الأم على طفلها الحبيب . فجزاه الله
عن الجامعة وأهلها ، وعن الإسلام الذي وهب نفسه كلها له ، خير ما يجزي
الدعاة العاملين المصلحون .

الشيخ عبد الله القرعاوي

التاجر العالم :

بدأت طلائع هذه القصة في أواخر العقد السادس من هذا القرن - الرابع عشر - وما أدري بالضبط السبب الذي دفع الشيخ عبد الله القرعاوي إلى اختيار هذه البقعة النائية من جنوب المملكة . . ولم يفسر لي ذلك أحد من تلاميذه ومعارفه ، ولكنني أتوقع أن يكون قصد إليها في واحدة من رحلاته التي اعتادها للتجارة أو الاستطلاع . ذلك أنه كان رجلاً جواهاً رجلاً لا يكاد يستسيغ القرار ، وقد مكنته جولاته هذه من أن يجمع الكثير من الخبرات والمعلومات عن مختلف أنحاء هذه البقاع الممتدة ما بين حلب - شمال سورية - وجزان - جنوب المملكة العربية - مضافة إلى مشاهداته في الهند ، حيث أقام بضع سنين في تلقي العلم . وشاء الله أن ألقاه ذات يوم في ظل الكعبة المشرفة أثناء الثلث الأخير من رمضان عام وفاته ، فوجدتها فرصة صالحة لأن أسمع وأرى عن كئيب الرجل الذي أحببته كثيراً وتشوقت إليه طويلاً . ومن خلال حديثه الطبيعي جداً أدركت الكثير عن حقيقة هذه الشخصية الفطرية ، ووضعت يدي على بعض الأسرار التي بها أثرت على القلوب فتركت فيها آثارها العميقة . ولما علم هويتي السورية جعل يحدثني عن بلادي وأخلاقها

وفضائلها ، ووقف شطراً من كلامه على حلب وأسواقها وباديتها ، ولم يفته أن يطرّفني ببعض الأحداث التي شهدتها هناك وشارك فيها ، فإذا هو يعلم عن هذه الأنحاء من سوربة ما لم يتح لمثلي أن يعلمه إلا عن طريق مثله !

كان الرجل من أهل العلم والتجارة ، ولعل أبرز صفاته ذلك الصفاء العقلي الذي به يواجه الحياة ، ويعالج ما يعترضه من مشكلاتها .. وقد سمعت تجارته أواناً شق من السلع ، فأتاح له ذلك أن يتصل بأصناف العقول والأخلاق بدويتها وحضريتها على سواء .. وقد آتاه الله من حب الخير والرغبة في أهله ، إلى جانب نفاذ البصيرة ، ما قرّبه من قلوب عارفيه والسامعين بأبنائه قبل لقائه .. حتى إذا قبضت لهم صحبته ازدادوا به إعجاباً وتأثراً .. وما أكثر ما عيّّر من تصرفات الناس بهذه الميزات النادرة ، إذ أقنمهم بظلمة سلوكهم في ضوء الحق الذي لا يستطيع أحد له رداً ، ولا نجد نفس منه نفرة ، ما دام فيها بقية من حب الله ورسوله .

الداعية الحكيم :

ولنتذكر هنا أن الشيخ كان أحد ثرات المدرسة السلفية ، التي لا ترى سبيلاً لخلاص العالم الإسلامي من ويلاته المركّبة إلا بالعودة إلى صفاء العقيدة ، التي يقررها كتاب الله وسنة نبيه . ومن أجل ذلك لا يستطيع السكوت على أية محدثة من البدع التي تسملت أو تحاول التسلل إلى عبادات المسلمين .. ولكن يتناز إلى ذلك بما ينقص الكثيرين من دعاة هذه المدرسة ، فهو يعرف صيف بلامس القلوب دون أن يجرحها ، فيحقق من النجاح ما لا يحلم به الجفاة القساة ، الذين يتكفون بالإخلاص والعلم ، ويفقدون الروية والتلطف !... ولا أنسى هنا ذلك الخبر الذي كان يحدث به تلاميذه ليروضهم على الحلم والحكمة في سلوكهم لتصحيح المخرفات. الناس ، إذ يقص عليهم نبأ أحد شيوخه الذي كان يتلقى عليه العلم في إحدى مدارس الهند ، فلا يمر به ذكر الإمام محمد ابن عبد الوهاب إلا صب عليه سباط غضبه ، ثم يجتم ذلك بالتضرع إلى الله أن

ينقذ الإسلام والمسلمين من شر دعوته إلى يوم الدين .. حتى ليكاد يجعل من ذلك ورده الملزوم في أعقاب كل درس !

يقول الشيخ : « ولم يكن معقولاً أن أواجه الرجل بأي اعتراض على فكرة يتلىء صدره وصدور سامعيه إيماناً بها ... لذلك عمدت إلى الخيلة ، فأخذت كتاب التوحيد تأليف الإمام محمد بن عبد الوهاب ، ونزعت عنه غلافه الذي يحمل اسمه ، ثم تركته على منضدة الشيخ دون أن يعلم مصدره ... وشاء الله أن يقرأ الشيخ ذلك الكتاب ويستوعبه بدقة ، فراح يبدي به إعجابيه ويسأل عن مؤلفه العظيم .. حينئذ أعلنت له الواقع ، فما كان من الرجل إلا أن قال : لقد ظلمنا هذا المصلح كثيراً ، ولا نجد كفارة لما أسلفنا إلا أن ندعوه بقدر ما دعونا عليه !

في جازان :

وشاء الله أن يطيب للشيخ المقام في منطقة جازان ، فيحط هناك رحله ثم لا يرفعه إلا بعد ثلاثين أو ما يقارب ذلك من السنوات السان ، التي أكلت ما سبقها من آثار السنوات العجاف ، وتركنت للناس وراءها مثل الذي يترك الغيث في الأرض الصالحة بعد ظمأً طويل محرق .

لقد لمس الشيخ في تلك الأنحاء الكثير من رواسب الجاهلية ، والقليل جداً من مظاهر النشاط الإسلامي ، الذي لا مندوحة عنه لمطاردتها ، ومن هنا جاءت رغبته في البقاء ، تحقيقاً لزعته التي لا يستطيع لها مقاومة حينئذ رأى جهلاً أو بدعة .

ففي تلك القرية .. الواقعة على جانب من (خلب) ذلك الوادي الرائع الحصب ، والذي يشق تهماً مغرباً باتجاه البحر الأحمر ، وجد الشيخ عبد الله نقائص تسترعي انتباهه ، وتشد به شداً إلى ملاحظاتها والتفكير في آثارها وعواقبها .. ففي أخلاق الناس غير قليل من الخير ، وأبرزها صدق المعاملة والأمانة والتعاطف الاجتماعي في داخل القبيلة ، حتى ليكاد يكون من المألوف

جداً أن الرجل إذا أراد معونة آخر بقرض يسد حاجته تواعد معه على فرصة من الليل ، حيث يسله إياه في معزل عن الأعين ، وبشروط عليه أن يرده إليه كذلك في مثل هذه العزلة .

ولكن إلى جانب هذه الفضائل شواذ غير يسيرة أيضاً ، فالجهل هو السائد الأعم ، إذ تكاد المنطقة تخلو من أي مركز للتعليم ، اللهم إلا بعض المكتاتب البدائية تقوم في بعض المدن ، وإلا بعض الحلقات الصغيرة التي بقيت من خلفات المشايخ السابقين في بعض القرى المشهورة كأبي عريش وضمد وجازان .

موالد وشعوذات :

والجهل مذ كان هو المبدأ المواتية لنمو الخرافة والتشبث بالأوهام ، والتطلع إلى الحظوظ المنسية عن طريق أصحاب القبور !.. وكذلك كان الأمر في عرض هذه المنطقة وطولها ، إذ لا يزال هناك بقية من مخلفات القرن الذي سبق دخول الحكم السعودي الحديث .. فالقباب المزورة لطلب النفع ورد الضر ، والرايات المنصوبة فوق الأضرحة ، ولا يجرؤ أحد على مها ، فضلاً عن اقتزاعها .. وعشرات المعضلات التي تسمم معين الإيمان الصحيح ، فتعجب ضيائه ، وتحرم النفوس من آثاره النيرة الخيرة !.. هذا إلى قلة المدرسين لسينات هذا الواقع ، وعجزهم حتى عن التفكير بأية محاولة للتصحيح .

وغير مستغرب في هذا الجو المؤنس أن يلقي الشيخ بعض الذين يحسنون تلاوة شيء من القرآن دون أن يفهموا له معنى ، ومع ذلك يسمون أنفسهم ويسميهم الناس فقهاء ، وكل ما عتدهم من « فقه » هو قراءة الموالد التي توارثوها عن أشباههم ، ثم القيام بطواهر من الشعوذة التي بها يستعوثون على ثقة العامة !..

وطبيعي أن هؤلاء « الفقهاء » كانوا يرون مصلحتهم في الإبقاء على سلطان تلك الخرافات ، لأنها الأسباب الموجبة لاستمرار استغلالهم لجهالة الناس ..

ومن هنا كان تشديدهم على تقديس قبور من يسمونهم بالأولياء ، إذ يعملون لها مواسم دورية يستعدون لها بكل ما يمكن للأوهام في تلك القلوب .. فإذا حان موسم الزيارة مرعوا نحوها بالطبول ، وساقوا إليها الأنعام ، حيث يقضون من كل موسم يوماً وليلة في طعام ولعب ، واختلاط لا يجد من ينكره !.. وتبلغ هذه الاحتفالات الجاهلية قمتها بالتمثيلات السحرية ، التي يقوم بأدوارها السيد - وهو من سلالة صاحب القبر - والمزود - في اعتقادهم - بالقوى الخارقة !.. تعاونه مجموعة من اللعابين ، ممن يطلقون على أنفسهم اسم (عبيد السيد) وخدمه .

تمثيلات رهيبة :

وتبدأ هذه الألعاب عادة بالتجمع حول الشيخ السيد ، ثم تفرع الطبول ، ويأخذ المنشد الخاص بإطلاق بعض الأرجاز السوقية ، يرددها وراءه جمهور المتفرجين ، فإذا ما حيت الحلقة أقبل السيد على بعض (عبيده) وضرب على ظهورهم ، فينطلقون لغورهم إلى وسطها في ضروب من الرقص المألوف في مثل هذه التجمعات ، وفي يد كل منهم سكينه المشهورة ، ثم لا يلبثون أن يعملوها في أجسادهم طمناً وتجريحاً ، فتتفجر دماؤهم وتسيل على مشهد من مئات الأعين . على أنهم ما يكادون يمسحون على تلك الخروق حتى يعود كل شيء إلى طبيعته ، فلا دم ولا جرح ولا أثر لشيء من هذا أو ذلك !.. وكثيراً ما يسألون عن سر ذلك فيزعمون أن أشباحاً من الجن الذين يستخدمهم السيد هم الذين يتلبسونهم ، فيعملون ما يرونه بأمر سيدهم ، الذي يستطيع أن يسلطهم على من يشاء !..

وقد لا يعدم هذا النزيل الجديد من يشاركه التذمر من هذه الأضاليل على خوف من إظهاره ، بيد أنه لا ينسى أن يعلن رضاه عن التطور الجديد الذي جاء به عهد حكومة التوحيد ، فحما من سيء التقاليد ما لم يره لتمزق قلبه أسى

ويسأله أحدهم قائلاً : « هل سمعت أو شهدت قط إحدى عمليات الختان ، التي كان الناس يمارسونها حتى قبيل أيام الحكم السعودي !.. ودون أن ينتظر جوابه يعمد إلى وصفها له « لكأني أشهد خالي ، وكان في العشرين من سنه ، وقد قدم إلى هذه الرحبة في موكب من الزغاريد والطبول التي يؤذيك منظرها وسماعها .. وهنا يتقدم الفق الضحية وييده حربة مشحودة ، وبعد خطوات من الرقص الذي يظهر به قوته ، يقف على هذا المرتفع نفسه ومعه الختان ومساعده ، وعلى مشهد من الجمهور المترنح من السرور ، يأخذ هذا بسنخ منطقة الشعر بدءاً من السرة حتى يأتي على غلاف الذكر كله !.. وعلى المسلوخ المسكين ألا يغمض عيناً ، ولا يسمح لوجهه أن يحمل أية ظاهرة من الضعف ، بل عليه ألا ينقطع أثناء سلخه عن التبجح بأبجد الآباء والأخوال والأجداد !.. وليس غريباً أن يبائع في تجلده حتى يفوز حورته في ظاهر قدمه ، ليتحقق الناظرون من شجاعته ، فتكون حديث الألسن ، ومبعث التأمي لكل من سيأتي دوره من الفتيان !... »

ويستمع الشيخ عبدالله إلى قصة الختان المعبية هذه في تأثر بالغ ، وفي عصبية لا يستطيع إخفاءها يسأل محدثه : « ألم يكن ثمة من سلطة تحول بين المحقى وهذه الجرائم ؟ » . فيقظه الرجل ثم يقول : « لا تنس أنها سلطة الإدريسي الذي لم يستطع السيطرة على القوم إلا بإلغاء عقولهم ، وتمكين الخرافات من قلوبهم !.. ثم ما كان لقوة أن تحول بينهم وبين هذه المآسي لولا حزم عبدالعزيز الذي جعل عقاب الواحد من أولئك الختانيين قطع اليمين !.. وتحت طائلة الخوف من تلك العقوبة عماد الختان إلى موضعه من السنة ، وإن بقي من آثاره التي تتوقع زوالها بين يوم وآخر ، ذلك التجاوز اليسير في حدود المقطوع ، وإجراء العملية في المرتفعات البارزة على ملأ من الناس ، الذين يتجمعون للاحتفال بها من مختلف القرى .. وإكراه المختون أثناء ذلك على إعلان صرامته بكل الوسائل الممكنة !.. »

المهتصب الجديد :

ورأى الشيخ من المتعذر عليه تغيير شيء من تلك التاكير في مثل هذه الأوساط القبلية ما لم تكن له صفة رسمية . وأعون شيء له على ذلك أن يلتحق هيئة الحسبة بوظيفة مطوع ، على أن يقوم بعمله في نطاق هذه الجماعات خاصة . وهكذا صدر تعيينه من قبل أمير منطقة جازان .

ولم تكن المهمة ببسيرة ، فالقبيلة التي آثر العمل في وسطها من أكبر قبائل المنطقة ، بل ربما كانت أكبرها جيباً ، قد رُتب لها ثلاثة وثلاثون عربياً ، على رأسهم كبيرهم الذي يسمونه شيخ الشمل .

وبدأ عمله بالاتفاق مع رأس العرفاء هذا على افتتاح مدرسة في قريته ، يتولى هو تعليم من يلتحق بها من أبنائهم ، وفي الوقت نفسه جعل يؤمهم في المسجد ، ويكثر من المخالطة لرئيسهم وجماعته في مجالسهم ، التي لم يكن يراض عن كل ما يشاهده فيها ، وبخاصة التدخين ومضغ القات . . ذلك الوفاء الذي لا يكاد يفلت من شره أحد ، غنياً أو فقيراً ، حتى ليعرف الكثيرين ممن ضاقت بهم سبل المعيشة ، ويؤثرونه على الضرورات الأساسية ، فينفقون عليه أكثر مما ينفقون على أنفسهم وأهليهم في نطاق هذه الحاجات . ولكنه ما كان يستطيع أكثر من المواعظة ، يرسلها بين الحين والآخر . . على الرغم من يقينه التام بجرمة هذه الخبائث . بيد أن مواعظه على رقتها لم تكن لتسر معظم المقربين إلى شيخ الشمل ، فشكوه وأكثروا من شكواه ، طالبين إليه رده عن التدخل في شئونهم وتقاليدهم ، التي لا يريدون لها تغييراً أو تعديلاً . . ثم بلغت المشكلة ذروتها بقدم العيد .

مفاصرة ومؤامرة :

والعيد من المناسبات الهامة لسكان هذه المنطقة . إذ يتوافدون من قراف الثمانين ، كل فئة تقدمها طبولها إلى المسجد . فإذا قضيت صلاة العيد استأنفوا

قرعهم وأناشيدهم البدوية الحماسية ، مزوجة بطلقات البنادق ، حتى ينتهوا إلى منزل شيخ الشمل .. وقد اختلط الحابل بالنابل ، والنساء بالرجال .

ولأول مرة يفاجأ المطوع القرعاري بهذه المشاهد ، فلم يتصور إلا أنها مقدمة لبعض تلك المهرجانات الشيطانية ، فلم يطق التحكم بأعصابه ، وإذا هو ينطلق إلى وسط الجموع حتى ينتهي إلى حمة الطبول فيعرقها دون أن يجد أية مقاومة ! فكأنما كانت مباحثة للقوم لم تدع لهم فرصة للكلام أو التفكير . ولكن ما أن سكنت الأصوات وزالت المفاجأة حتى رجعوا إلى أنفسهم ، وكثر اللفظ ، واتجه كبارهم إلى مقر شيخهم يبلغونه سخطهم على الرجل ، الذي لم يفهموا لعملة من معنى سوى أنه عدوان على كرامتهم ومحمد لقبيلتهم !.. ثم لم يلبثوا أن انتهوا إلى اتفاق تام على إصلاح الطبول ، والخروج بها عقيب صلاة العصر في عرضة ترد لهم مهايتهم مهاجر ذلك من العواقب !

وتسرب النبا إلى الشيخ ، وخلا به من يثق بعقله وإخلاصه ليعلمه أن القوم يأغرون به ، ونصح له بالأبتعرض لهم في هيبتهم . وبإزاء ذلك لم يجد بدأ من ترك القرية ومدرستها ، وأخذ سبيته إلى (صامتة) النائمة على مبعده عشرين كيلا إلى الجنوب .. ولكنه آثر ألا يأتيها مطوعاً ، بل تاجراً صغيراً ، في حانوت صغير .

في صامتة :

وكان على الشيخ أن يوثق صلته بأبناء صامتة ليتمكن من تحقيق أفكاره ، فكان حانوته أفضل وسائله إلى ذلك ، إذ جعله مشابه للناس ، يستقبلهم ببشاشته ، ويؤنسهم بطرائفه ، ويبيهم حاجاتهم بأرخص الأثمان ، بل ربما بأرخص من ثمنها الأصلي ، وهو إلى ذلك لا يضيق عليهم في التسديد ، بل يعاملهم بما يناسب حال الزراع ، الذين قلما يملكون النقود في غير موسم الجني . وبذلك استعوز على رضام جميعاً ، بما قيمهم أولئك الحرفيون الذين اختصوا دون أهل المنطقة بالإقبال على الصناعة ، وبخاصة صناعة الأواني الفخارية ، مما يستكبر عنه

غير هؤلاء الذين رضوا ، تحت ضغط التقاليد القبلية ، أن يشكلوا طبقة منزلة لا تعد أعينها إلى مسا وراه حدودها في زواج أو تعليم ، أو أي لون من ألوان المشاركة الاجتماعية !

طلبة الزحف :

وتعرف الشيخ أثناء ذلك رجلاً من أهل الخير أقعده المعجز عن التجوال ، فكان له جماعة من الصحاب يترددون عليه في أوقات قراغهم ، ينتفمون بمعلوماته ، ويستعينونه على فهم ما يشكل عليهم من أمور دينهم ، فيقرؤون القرآن ، ويطالعون في بعض كتب الفقه الشافعي . وسرعان ما التحق بهم وجعل يشاركهم في مجالسهم ، وهم لا يعلمون عن أمره سوى ما يظهر لهم من مهنته ، إلا أنه مثلهم ذو رغبة في العلم . . وقد مكن له في حلقته نشاطه في خدمتهم ، وإكرامه إياهم ببعض الهدايا الصغيرة بين الحين والحين ، ثم ما يروونه من اهتمامه بما يسمع من ذلك الخير .

وأتيح للشيخ مناسبات للمشاركة في تفسير بعض العبارات الفقهية بصورة لفتت انتباه القوم ، ولا سيما الحلقة الذي لاحظ في المجلس الجديد أكثر من ظاهرة ، فجعل يخلصه بالتكريم ، ويستعته على إبداء ما لديه من العلم ليسترشدوا به ، حتى انتهى فيهم إلى المكانة التي هو أهل لها ، فرضوه مدرساً لهم ، وأقبلوا عليه يفرقون بما عنده ، وأقبل هو عليهم بكل ما يستطيع من رعاية وتوجيه وتسييد ، وكلما استوتق من قدرة أحدهم على تبليغ بعض الحقائق دفع به إلى ناحية من المنطقة ، ليصحح ما التوى ، ويقوم ما اعوج ضمن حدود طاقته ، وتحقيقاً لوظيفة المؤمن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهداية الضال . . فكان ذلك طلبة الزحف المقدس على جيوش الأوهام والاحترافات ، ذلك الزحف الذي ما زال يتسع ويمتد حتى تجاوز حدود المملكة إلى ما جاورها من اليمن .

المدرسة الأولى :

وتحرك الشيخ في خطواته الثانية ، التي طالما خطط لها وقدر .. فعرض على الجماعة التعاون لإنشاء مدرسة أولية تستقبل الراغبين في العلم ، لتخرجهم من الجهل إلى المعرفة ، وتخرج بهم الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور التوحيد الحق . وكانت الثقة به قد رسخت جذورها في قلوب تلاميذه جميعاً ، فلم يترددوا في قبول فكرته ، ولم يتلكأوا في تنفيذها ، وما هي إلا أيام حتى كانت المدرسة الأولى قائمة تفتح ذراعيها لطائفة من المتعطشين إلى العلم .. وقد بنيت على شاكلة معظم بيوت صامته ، التي لا تعدو آنذاك هيئة الأكواخ الكبيرة من القش ، يُحَبِّك على أعمدة من الأغصان يؤنسى بها من بعض الأدغال القريبة ، ثم تقبب سطوحها ، وتطين من الداخل بما يصونها من الحر والقر والمطر .

الجهود المثمرة :

ولم تقتصر المدرسة على الأحداث ، بل قبل فيها كل ذي رغبة في العلم مهما علت سنه ، إلا أن أوقاتها قسمت حسب الحاجة ، فجنم ما قبل الظهر للصغار ، وما بعد العصر للكبار .. وكان الشيخ مدرسها ومؤلف مناهجها ، ومنظم مواعيدها . ولم يشأ أن يتناول التعليم فيها كل ما ألفه أهل المدارس الحديثة ، بل تخير من المواد ما وجد الحاجة إليه أمس ، فركز على القرآن والحديث والتوحيد والفرائض ، إلى جانب قواعد العربية من نحو وصرف ونصوص ، مع الأعمال الحسابية الأربعة . وقسم هذه المواد على وفق الفصول ، فألحق بكل فصل المؤلفين له ، ثم استدعى أعضاء الجماعة الأولى وشيخهم القديم ، فاستعان بهم في تعليم الصغار ، وتولى هو تعليم هؤلاء في حصص ما بعد العصر . وكلما تهيأ منهم أحد للعمل رفع له مدرسة جديدة كهذه ، وولاه شأنها تحت إشرافه . وهكذا ، لم تمض بضع سنوات من سبعينات القرن الرابع عشر حتى غطت مدارس الشيخ القرعاوي منطقة جازان بأسرها ، بل تجاوزتها إلى نجران وأبها وما حولها من أرجاء عير ، حتى لم يدع قرية دون مدرسة ومعلم ، اللهم إلا

هاتيك القرية التي كانت أول منازلها ، والتي حاول أن يجعل منها المنطلق الثاني لحركته ، فعالت إرادة عرفيها دون رغبته ، لأنه رأى من غير المصلحة إعطاء الشيخ فرصة لإحداث أي تغيير في حياة جماعته . وبإزاء ذلك لم يجد مندوحة عن تحويل بصره إلى (وادي بيش)

أول الفيث :

وقدم له هذا كله بما يشبه الأعجوبة ، إذ كان كل رأسماله تلك الحماسة التي قوبلت بها نوايا الإصلاحية لدى أولئك الشباب ، الذين آمنوا بأهدافه ، فوضعوا أنفسهم تحت تصرفه ، وانطلقوا يجاهدون ليل نهار لإنقاذ عباد الله من أويثة الجهل والخرافة التي لا تدمر الأجسام ، ولكنها تحطم الأرواح ، وتشوه الفطرة ، وتصرف الطاقات البشرية في طريق الشيطان . ولعل أول عون مادي وصل إلى الشيخ في غمرات ذلك الجهاد الصامت هو تلك الهبة التي أكرمهم بها الملك عبد العزيز إعراباً عن إعجابه بشروعاتهم ، التي نقل إليه نبأها أستاذ القرعاوي المغفور له الشيخ محمد بن إبراهيم كبير علماء المملكة ومفتيها الأعلى ، وعلى الرغم من أنها لم تتجاوز في مبدئها سبعة آلاف ريال سنوياً ، فقد كان لها أثرها ووزنها أيامذاك ، إذ أتاحت للشيخ أن يوفر بعض المدد لأولئك المتطوعين ، يستعينون به على الأقل في تنقلاتهم لخدمة الدعوة بين مختلف القرى .

اكتشاف نابغة :

وتكاثرت أعباء الشيخ تبعاً لاتساع مساحة الجهاد ، فلم يعد عمله مقتصر على التدريس والإعداد في نطاق صامتة وحدها ، بل وجد لزاماً عليه أن يكون على صلة تامة بمراكز العمل ، يتفقد حاجاتها ، ويراقب سيرتها ، ويشدد عزائم القائمين عليها .

وكان الشيخ شديد الحرص على أصحاب المواهب ، لا يفتأ ينقب عنهم بين تلاميذه ، وفي أوساط الناس خارج مدارس ، لما يتوسم فيهم من القدرة على

مضاعفة النتائج التي يسمى إليها . وما كان أسعده يوم عثر على أحدم في إحدى جولاته تلك ، إذ مر ببعض الرعاة فتحول عن دابته ليتحدث إليهم ، ولاحت منه التفاتة إلى صكومة من العشب فإذا عليها مصحف ! وسأل عن صاحبه ، فإذا هو غلام صغير اسمه حافظ الحكيم ، ولما أحضروه له وسمع كلامه لم يتمالك أن يفاتحه برغبته في أخذه إلى صامته لإنشائه على العلم . وسر الغلام جداً بهذه الرغبة ، ولكنه أعلن عجزه عن تحقيقها لأنه مضطر للبقاء مع أمه التي ليس لها سواه . ولكن الشيخ لم يدعه حتى أقنعه برفاقته إلى أمه ، التي ما زال بها حتى رضيت لولدها ذلك المصير .

ولم تحب فراسة الشيخ في ذلك الراعي ، فإذا هو في مقدمة رفاقه ، اجتهداً وفهماً وصلاحاً ، وقد مكته ذكوره الحاد أن يحقق من التقدم في الزمن القصير ما لا يتاح إلا للقليبين من الموهوبين في الزمن الطويل ، وهذا ما ضاعف قلق الشيخ على تلميذه ، إذ لم تنقطع أمه عن المطالبة بمودته إليها ، على الرغم من كل المحاولات والترصيات التي يبذلها لإقناعه بتركه .. ولكم كان سروره كبيراً يوم نعتت إليهم ، إذ كانت مصيبة (حافظ) يوفاتها مبدأ الاستقرار في طريقه العلمي ، الذي لم يلبث أن أخرج منه واحداً من كبار النبغاء ، ومنح الشيخ عبداً به مساعداً أميناً قوياً في مهمته التي لا بصاع لها سوى الأقوياء الأبناء .

سراج ينطلق :

ولم يتردد الشيخ في الإفادة من تلميذه النجيب الحافظ ، فأسند إليه إدارة مركز (وادي بيتش) ليحمل عنه مهمة الإشراف على مؤسساته التعليمية هناك ، وكان أمه أن يخلفه في إدارة سائر أعماله في المستقبل .

وأثبت الحافظ صحة رأي شيخه في مواهبه ، إذ كانت كتلة من النشاط الفياض ، يدعو ويدرس ويؤلف . ولما نقل لإدارة أول معهد علمي أنشأته دار الإفتاء في صامته أبدى من الكفاية ما جعله نموذجاً يحتذى . ولكن شاء الله أن ينطفئ السراج في إبان توهجه ، فوافته المنية قبل أن يبلغ أشده !

الملايين في خدمة الدعوة :

واستمرت دفقة النور على ذلك الطريق القويم ، يحمل مشاعلها شباب أنشوا على حب التضحية في سبيل الله ، فلم ينتظروا على جهادهم أجراً ولا شكوراً ، وفي صمت يكاد يجيب ذكرهم عن كل صبح خارج ميادين عملهم ، قانعين بالمون اليسير الذي يتلقونه بين الحين والحين ، حتى وسع الله نعمه على الدولة القائمة بشريعته ، فوسعت معونتها إياهم ، ثم حولتها إلى مخصصات ثابتة ، وما زالت تنمو وتكبر حتى وصلت إلى بضعة ملايين من الريالات ، ووضعت بأجمعها تحت تصرف الشيخ ، الذي أحسن النهوض بسبب الأمانة فجعل لكل مدرس أجوره ، ولكل طالب مكافأته وفقاً لمسيرة المخصصات . . ولكي يضمن حماية مدارسه المنشورة في عشرات القرى ، خصص لكل عريف قرية مرتباً خاصاً يتلقاه باسم الرعاية لمدرستها ، مما كان له أحسن الأثر في نفوس هؤلاء العرفاء ، الذين منعوها تأييدهم ، وواصلوا على مساجدها تردهم !

الحفاة الكريمة :

وكانت النهضة التعليمية قد أخذت بالامتداد في كل اتجاه من أنحاء المملكة ، حتى إذا بلغت ثلاثيها ميادين النشاط القرعاعي وجدت السبل مصبدة ، والاستعداد على أمه ، ثم ما لبثت أن تسلمت من يدي الشيخ زاوية الكفاح ، الذي كان قد حقق أفضل النتائج الممكنة ، إذ أخرج جيلاً من صفوة شباب المملكة عقيدة وخلقا ودأباً لا يفتر في خدمة . . . سلام .

ولقد ظل الشيخ الرائد يمارس عمله في خدمة تلك الأنحاء حتى أقعده المرض ، فنقل بالطائرة من جازان إلى الرياض حيث وافاه الأجل في بهرة الحامسة والسبعين من ذلك العمر المبارك ، بعد أن ترك صامته وما حولها ناطقة بآثاره ، مخصبة بأفكاره ، مترجمة عن سيرته بأنصح بيان وأبلغ لسان .

كثبتنا هذا العرض الموجز من حياة الشيخ (ر ح) منذ عدة سنين ، وكان ذلك في أعقاب اجتماع به في المسجد الحرام ، ولم يكن تأليف هذا الكتاب في تفكيرنا إذ ذاك ، فلما قدر الله الاتجاه إليه كان من الإنصاف لهذا الداعية ذي الأثر الكبير أن ننقل صورة عنه وعن جهاده إلى قرائه ، ومن هنا كان إثباتنا لهذه الصفحات ، وهي خالية من آرائه الشخصية .

على أن خير ما يصور أفكار الفقيه المجاهد ما نفسه في ميزات خريجه من الفضائل الخلقية ، ولذا أب المتصل في خدمة الإسلام على أساس من العقيدة المصفاة ..

وقد أوشك بعضهم أن يتخرج في قسم الدكتوراه من جامعة الملك عبدالعزيز في مكة المكرمة ، متخصصاً في هذا الموضوع ليتولى تدريسه في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .. ففي هؤلاء الذين خبرناهم وأحببناهم في الله ، ما يكفي لمعرفة الخطوط الكبرى من مبادئ ذلك المصلح الإسلامي الكبير .. غفر الله له ، وجزاه عن دينه خير ما يجزي العاملين الصالحين .

الشيخ عثمان (محمد العيسوي)

هو شيخ أرواد - الجزيرة الفينيقية مقابل طرطوس على الساحل السوري - وكبير علمائها فيما نعلم وما بلغنا من المعارف والرواة ، وكان مولده حوالي العام ستين وثمانمئة وألف لليلاد ، وكانت وفاته على التحقيق عام تسعة وأربعين وتسعمئة وألف .

لم يعقب من الأبناء سوى بنات ثلاث ، لذلك عرف باسمه دون كنيته . وقد ولد ونشأ وشاخ وتوفي في جزيرته تلك ، وبيته من أوسط بيوتها مكانة .. كان والده من كبار تجار أرواد ، أيام كانت أرواد هي المركز التجاري لجزء كبير من الساحل السوري وما وراءه ، لأنها مجمع السفن التي كانت وسيلة النقل الكبرى طوال حياة الشيخ ، وكان جده لأبيه من مشايخ الجزيرة ، وكذلك والد جده . أما والدته فمن آل حمود الذين توارثوا العلم الشرعي ، وتتلوا على الدراسة في الجامع الأزهر . ومن هنا كان اتجاه الشيخ عثمان في طريق العلم تأثراً بمسلك أمرتبه الكریمین .

ثقافته :

حفظ القرآن في 'كتاب أحد شيوخ أرواد ، ثم أقبل على مبادئ العربية والعلوم الدينية يتلقاها عن أحد أجداده لأمه من آل حمود . ولما بلغ السن المساعدة على الاغتراب شخص إلى مصر ليلتحق بالأزهر ، ولكنه لم يتمكن من البقاء هناك سوى بضعة أشهر ، إذ توفي والده وعزك له أسرة هو أكبر المسؤولين فيها ، فعاد إلى أرواد ليلد القراغ الذي خلفه والده . ومع ثقل التبعات التي كان عليه أن يتحملها ، لم يستطع الانصراف عن سبيل الدراسة التي استهوتته واستقطبت مواهبه ، فمضى في متابعتها بنشاط لم تلبث آثاره أن برزت في دروسه وخطبه وعمله في القضاء الشرعي .

شاء الله أن أتعرف الشيخ عن كثب ، وأن نتذاكر في بعض الأمور المتعلقة بالعلم ، وبخاصة ما يتصل منها بمواقف المبشرين بالنصرانية في ظل الانتداب الفرنسي ، فألفت لديه حيوية أفقدها في الكثير من الشباب المصنيين بالعلم والأدب ، وأعجبني منه بوجه خاص سرعة ثقافته التي لا تقف عند حدود المعلومات الدينية ، بل تمتد منها إلى مختلف فروع المعرفة ، من لغة وأدب وتاريخ وطبيعيات .. وما إلى ذلك مما ينم عن تتبعه للكثير من روافد الثقافة العصرية ، في دقة تمكنه من الأخذ والرد ، والتفريق بين الحقائق والأباطيل .

قبل الاحتلال :

قضى الشيخ رحمه الله معظم عمره المديد في ظل السيادة الإسلامية ، قبل أن تقاجأ أرواد ببعض قطع الأسطول الفرنسي تفرض عليها سلطانها عام ١٩١٥ لتتخذ منها قاعدة انطلاق ، تدير منها على الساحل ، الذي ظل في قبضة الجيش العثماني حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وبذلك أتيح له أن يلمس طلائع التحول الخطير الذي طرأ على حياة الناس في سائر البلاد ، التي خرجت في سهم الفرنسيين من الشام تنفيذاً لمؤامرة (سايكس بيكو) .

عاصر أولاً ذلك الرخاء الذي قبض لأرواد بسبب مركزها البحري ، الذي جعل من سكانها كتلة من النشاط الملاحى والتجاري ، منذ عهود الفينيقيين ، فسفتهم تروى مختلف سواحل المتوسط حاملة منها وإليها أصناف البضائع ، وقد ازدهرت فيها صناعة السفن ، من الصغيرة المعدة للزينة ، الى الزوارق المبنية للمواصلات المحلية ، الى الكبيرة الصالحة لارتباد الآفاق . . . إلى التخصص في حرفة النفطس على الإسفنج ، التي ينصرف إليها نفر غير قليل من الفتيان الأشداء ، منقطعين إلى نشدان مواطنه من أعماق البحر في رحلات تستغرق الأشهر ذوات العدد .

ومن هذا وذاك يأتي التحرك التجارى الذي أشرنا إليه في ما تقدم .

وطبيعى أن وسطا كهذا من شأنه أن يفتح المواهب ، ويدفع إلى الاهتمام بما لا بد منه من العلم انساعد على ضبط العمل ، وتحديد الواجبات ، ومعرفة ما لا يستغنى عنه مسلم من مبادئ الدين ، ولا سيما إذا تذكرنا ضيق المساحة التي تتألف منها تلك الهضبة البحرية التي سماها الأقدمون « أرادوس » وما يفرضه هذا الضيق من أنماط معينة من السلوك الاجتماعى يتمذر الخروج عليه . ومن هنا كان للشيخ مكانتهم في الجزيرة ، وكان للعلم قدره ووقاره في نفوس الكافة من قطانها ، ولعل ذلك من أهم الأسباب التي وفرت لأرواد الاحتفاظ بطائفة من أهل العلم وطلابه قل نظيرهم في البر المقابل حتى نهاية الربع الأول من القرن العشرين .

ولقد كانت لهذه الأوضاع ، مضافة إلى موجهات البيئة العائلية ، آثارها البارزة في أخلاق الشيخ وسائر تصرفاته . إذ كان كثير الوقار ، طويل الأناة ، لطيف المعشر ، لا يمنعه خلق الجد من التبسط مع تلاميذه وأصدقائه إلى الحد المعقول ، وربما نظم بعض مزاحه لهؤلاء في أبيات يتسابقون إلى حفظها فتقوى صلتهم به وتشد من روابط المودة فيما بينهم .

بعد الاحتلال :

وجاءت المرحلة الثانية - عقب الاحتلال الفرنسي - ففقدت أرواد كثيراً من مزاياها الأولى ، فمن الناحية الاقتصادية جمدت أخطار الفواصات سفنها فلا تتحرك إلا في حدود جد ضيقة .. وحيل بينها وبين الساحل ، الذي هو سوقها الطبيعي ، فلا تحصل على الضروريات إلا عن طريق التقنين الذي فرضه المحتل . واضطر غير قليل من شبائها النشط إلى العمل في خدمة المستعمر ضد أبناء دينهم في العدو المواجهة ، حيث أخذوا يغيرون معه على الشواطئ . لانقزاع ما يمكن من المقننات ، ولو أدى ذلك ، وكثيراً ما أدى ، إلى الصدام المسلح ، الذي لم يخل من سقوط القتلى والجرحى بين الجانبين .

وهكذا سلبت أرواد ذلك الرخاء الذي طالما نعمت بظله ، وانتهت إلى وضع من الحرمان والقلق لم تألفه ولم تتوقع مثله قط ، يضاف إلى ذلك ما جره الاحتلال الأجنبي من تطور في الأخلاق ، لا يتفق مع ماضي الناس في هذه الخلية الحية العاملة من ديار الاسلام في الشام .

غيرة وانتصار :

وتحقيقاً لمبادئ الحضارة الغربية - المتجددة من وثنية رومة وأثينة ، كان لابد لهؤلاء الثبات من جنود فرنسا في أرواد أن يجدوا كل المرفهات والمسكنات . واذلك فكر (تروايو) - حاكم الجزيرة العسكري الفرنسي - في تأمين أولى هذه (الضروريات) وهي إقامة دار للبقاء برنادها جنوده للتنفيس من ضغط الكبت . ولكن الفكرة لم تلبث أن تسربت إلى أوساط الأرواديين الذين استقبلوها بمختلف المشاعر . وكانت أشد ما تكون وقعاً على الشيخ عثمان ، الذي كان يوصفه قاضي أرواد الشرعي ، والمستشار الشرعي في المحكمة المدنية التي أنشأها الفرنسيون عقيب الغزو ، كان أكبر السكان مسئولية تجاه الأخلاق والدين الذي يعتبر ينظروهم بمثل الحق بل الوحيد .

وهنا تحركت غيرة الشيخ الإسلامية ، وتحركت معها موارد العزة التي اكتسبها من أهل بيته . ولعله تذكر ساعته موقف أحد أصوله من مشايخ آل حمود . وقد بلغه ذات يوم أن رجلاً من المستخفين بفضائل المجتمع يتعاطى الحمر علانية ، فما كان منه إلا أن قصد إليه ، وحطم قارورته على رأسه ، دون أن يستطيع هذا جواباً أو دفاعاً ، على الرغم مما عرف عنه من الشراسة . وكان ذلك درساً طهر أرواد من رجس الحمر إلى حين .

وجمع الشيخ على رأيه بعض أعيان الجزيرة ، ثم مضى على رأسهم إلى الحاكم (تراوي) يقدمون احتجاجهم على ذلك الأمر ، ولكنه نظر إليهم من خلال منصبه وقوته ، فردم معلناً تصميمه على التنفيذ ، فلم يبق أمام الشيخ سوى التحول إلى القيادة العليا القائمة في بور سعيد ، يرفع إليها احتجاج البلد واستنكار الشريعة لهذا الحرق . ولم يجد (تراوي) مناصاً من الإنساح لشكوى الشيخ فسمح للبريد بحملها ، وأتبع ذلك بتدبير خاص من شأنه أن يلغئها كلياً ، ذلك أنه استعان ببعض الضعفاء والنفيعين من سكان الجزيرة ، فوقعوا عريضة يؤيدون بها محاولته ، وبعث بها إلى القيادة العليا . ولبت الفريقان ينتظران عاقبة شكويهما .. ولقي الشيخ الكثير من المضايقات بسبب من موقفه هذا ، إذ وقف مرتبه ، وصور بريده ، وأحيط بالمراقبة المزعجة .

وذاذ يوم فوجئت أرواد بزيارة الجنرال (بيوت) القائد العام ، إذ خرج من مقره في بور سعيد بجولة تفتيشية . وانتهم (تراوي) هذه الفرصة فحشد الأنصار المؤيدين له ، ودفنهم إلى مواجهة القائد ، وإبلاغه موافقتهم على مسعى الحاكم العسكري ، الذي يرون فيه خدمة للبلد وحماية لأعراض الناس !..

وما إن علم الشيخ بالمؤامرة حتى انطلق مع إخوانه إلى مقر الحاكم يطالبون مواجهة الجنرال . بيد أن الحارس حال بينهم وبين الباب ، ورفض إبلاغ طلبهم إلى المسئولين .. فلم يبق إلا الدخول بالقوة . وهكذا انتهى الشيخ القاضي إلى المكتب الذي فيه القائد العام ، ومعه رئيس البلدية ، وقدم إليه نفسه وزميله ،

وبادره بمرض الأمر في لهجة أشعرت القائد بأهميته .. وسرعان ما أدرك هذا أن الحاكم قد غشه بإبعاد الرجلين عنه، والاكتفاء بأولئك المؤيدين له من لا وزن لهم في المجتمع الأروادي .

والظاهر أن الجنرال كان على قدر من الحنكة لم تتوافر لذلك المتفطرس ، فلم يفرغ من مقابلة الشيخ ورفيقه إلا بعد أن أكد لهما تحقيق ما طلباه . وهكذا غادرا مكتبه منتصرين .

علم ورياضة :

والحديث عن نشاط المترجم في خدمة العلم متسع الجوانب يمكن اختصاره بكلمة صغيرة هي أنه كان واحداً من بقايا السلف في هذا المجال . لا يدع فرصة تقوته في إبلاغ الخير والحق إلى كل ذي استعداد لها .

كان رحمه الله مدرسة مفتوحة لكل طالب في أي وقت وفي أي مكان ، ففي حجرته الخاصة من المسجد الغربي بأرواد يحشد حوله المختارون من ذوي النباهة والرغبة في العلم، فيقبل عليهم بلطفه وتواضعه ووده الصادق، في دروس منظمة من القرآن والتفسير والحديث والقواعد العربية، وما يتصل بها من علوم البلاغة.. وللعامه من دروس حصص خاصة في الأحيان المناسبة، يتلقون خلالها ما هم أحوج إليه من شئون دينهم وعباداتهم ، وما إلى ذلك مما يساعدهم على تنظيم حياتهم اليومية .

وكان للناس على اختلاف مشاربهم في أرواد تعلق قلبي بالشيخ، يعبرون عنه بكل مظاهر الاحترام والتقدير . وكثيراً ما يخرج في صحبة المقربين من تلاميذه إلى البر ، في مواسم الربيع والصيد يستمتع معهم بزهات رياضية تعود على كل منهم ما لا يقدر من السرور والفائدة .

ولعل مما يذكر في صدد نشاطه العلمي اهتمامه العميق بالتطبيقات الشرعية في الأحكام التي يصدرها ، وقد ظهر ذلك في القضايا التي يصدر فيها مقرراته ،

فيستأنفها بعض المهامين إلى المراجع العليا ، فلا تلبث أن تعاد مؤيدة بتصديق
القضاة الذين أحيلت إليهم . وإنما يدل هذا على مدى عناية الشيخ رحمه الله
بهذا الجانب الهام من فقه الأحكام .

تأليفه :

أما عمله تتمده الله برحمته في نطاق التأليف فمحدود لا يتجاوز بضع رسائل
في الرد على بعض المبشرين ، وفي قواعد العربية ، إلى جانب بعض البحوث التي
لم تطبع ، ولم نغف منها على أثر عند تسطير هذه الترجمة .

وأول ما عرفت فضل المترجم أحسن الله جزاءه عن طريق رسائله في الرد
على مبشر بروستانتني متصمر من سكان الجبل ، وقد كتبت أيامئذ رسالة في الرد
على ذلك المظلل تحت عنوان « فضائح المبشرين » . وكان لرسائله هذه أثر طيب
في قلوب أهل العلم من المسلمين في مختلف المدن السورية ، إذ وجدوا فيها تقريراً
عن كربهم بإزاء تلك الحملات المسمورة ، التي يشنها أولئك السفهاء على
الإسلام ورسوله صلوات الله وسلامه عليه في ظل الحماية الفرنسية ، التي تضيق
عليهم في بلادها ، وتغدق عليهم ألوان التأييد والعون في بلادنا .

وما يحسن ذكره تسجيلاً لمآثره ، أكرمه الله بجواره ، أنه كان يتولى تأليف
هذه الرسائل والإنفاق على طبعها وتوزيعها بالهجان على مختلف الأنحاء .

والناظر في مضمون هذه الرسائل يدرك المدى الذي بلغته ثقافته الشيخ ،
والعناية بتتبع كل ما يكتب في الموضوعات التي يريد إنشاءها . وقد أخبرني
بعض تلاميذه أنه كان يتخذ لهذه البحوث مصنفات خاصة يردعه كل ما يقع عليه
منها في الكتب أو المجلات أو الصحف .

ويؤسفنا أن مكتبة الشيخ قد عثت بها الأيدي حتى لم يبق منها
إلا ما قاتبا ، ولذلك اكتفينا من الكلام عنه بما نعلمه وما نقله عن الأكثر
علماً منا به .

نماذج من منشوره :

المخطوط الوحيد الذي أتيج لنا الوصول إليه من آثار المترجم هو كتيب يقع في ما يقارب مئة صفحة من القطع المتوسط ، وقد انتزعت عدة صفحات من أوله وآخره ، وهي تنطوي على أصول بعض الرسائل التي كتبها في الرد على المبشر الذي أشرنا إليه . وما نحن أولاً - ننقل منها بعض الأسطر .

١ - يقول رحمه الله في بعض كلامه عن رسالة محمد ﷺ :

« من المتواتر الذي لا شبهة فيه أنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب كما قال تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطئه يمينك . إذا لارتاب المبطون » نشأ بين قوم ليس لهم كتاب ولم يمهّد اشتغالهم بالعلوم والفنون كغيرهم من الأمم ، فلا كليات ولا مدارس ولا فلاسفة ولا حكماء ، ولم يغب عن قومه مدة يتيسر له فيها تحصيل العلوم . بنغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره ، وحسب إليه مكارم الأخلاق من صغره . لم يمهّد عليه كذب ولم يعرف عنه سوء ، حتى دعاه قومه بالأمين (كما بشر به يوحنا إصحاح ١٩ عدد ١١) ثم أتى قومه بعلوم ومعارف لم تكن بينهم معروفة ، وأبان عن كثير من المسائل التي لم تصل إليها أفهام الحكماء ، وأتى بشرح مبين لم يفسد من الأحكام صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وجاء بدين حوى من المحاسن في المعاملة مع الله ومع عباده أفضاها ، مكّنه الله في الأرض ، وأظهره على الأديان كلها . فمن نبذ التعصب وترك التقليد وطرح الأوهام والمغالطات التي يوردها الأعداء ، وطلب الحق لذاته ، وفكر في حاله صلوات الله وسلامه عليه ، وما أتى به . . جزم بقيناً أن هذا الصادق الأمين المستقيم الأحوال ، الذي يلعن الكاذبين ، ويذم المفتريين ، ما كان ليفتري على الله الكذب ، وهو يدعو إلى توحيد الله وتقديسه وتمجيدته ، وحتم قطعاً أنه رسول الله حقاً ، وأنه لم يصل إلى هذه الدرجة العلية ولم يحقق ذلك النجاح العظيم إلا بتدبير من الله وتوفيق منه سبحانه . »

٢ - وفي مفتريات المبشر كلام عما يتناقله العامة والمتصوفة في موضوع النور الحمدي من مثل قول بعض المؤذنين « يسأور عرش الله .. » وقولهم إن الله خلق الخلق من نور محمد .. فيمقب الشيخ على تلك المفتريات بقوله :

« لم يرد لهذا النور ذكر في القرآن المجيد ولا الأحاديث المتواترة فلا يجب علينا اعتقاده ، قال تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما يحكم إله واحد .. » فمحمد ﷺ بشر مثلنا لا فرق بيننا وبينه بشيء إلا بالرسالة .. هذا ما يجب على المسلم اعتقاده ، وما عدا ذلك من النور ، وما يذكر في بعض قصص المولد فهو غير قطعي الثبوت .. ثم يضيف إلى ذلك أن مرد هذه الأخبار إنما هو الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة ، ويقارن بينها وبين أشباهها من الأخبار الخرافية التي تتضمنها كتب النصارى وأساطير الفرس .. وهو بذلك إنما يعبر عن طريقته في النقد العلمي ، الذي لا يقبل من الأخبار إلا ما صح سنده ومثله .

٣ - وعلى دأب المبشرين في التقاط الأخبار الكاذبة أخذ المضال المأفون قصة أم المؤمنين زينب ، فعمل يلوح بما أضاف إليها الأفاكون من المفتريات للإساءة إلى مقام الرسالة .. وفي هذا الصدد يقول : رحمه الله ، رداً لهذا الأفك :

قال تعالى : « فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً .. » فهذا نص صريح في أن الله تعالى أباح لرسوله ﷺ تزوج مطلقه زيد ليعلم المؤمنون أن تزوج نساء الأديع حلال لا حرام كما كان عرب الجاهلية يعتقدون ، جاعلين ابن الجاهلي كالحقيقي في الأحكام افتراء من عند أنفسهم لا بشرح من عند الله .. وإنما أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بفعل ذلك ، ولم يكتف بالقول لأجل أن يعتقد به المؤمنون ، ولا يجهلوا عن ذلك بالنظر للمادة الراسخة ،

كما أحجموا في غير هذه الحادثة حتى ابتدأ بالقلم فاتبعوه^(١).. هذا ما يجب على المسلم اعتقاده وهو عين الحكمة والصواب ، وما ينسب إليه ﷺ من حب لزينب فهو محض افتراء عليه من أعدائه .
ولا جرم أن هذا هو عين اليقين لا ما ذهب إليه بعض المنتظمين المتهنئين من السابقين واللاحقين .

٤ - ويزعم المفضل المأفون أن كتبهم أصل ماء الحياة وأن القرآن (مورد مكرر كدر) فلفستمع إلى زارة الشيخ في تفنيد هذه الأبطولة الحقيرة :
« إن هذه دعوى يدعيها كل أصحاب كتاب لكتابهم ، ولكن الميز النقاد هو العقل السليم والوجدان النقي .

لماذا كان القرآن مورد ماء مكرراً؟.. ألكونه يفقد العقائد الفاسدة ويدحض الضلالات الوثنية ، ويحتوي على مكارم الأخلاق ، وينهى عن قبائحها؟!!

أم لكونه يعلم أن الله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له ولا ابن ولا أب ، وأن عيسى عليه السلام محض عبد من عباد الله.. وأن طريق الخلاص هو الاعتقاد بالتوحيد الحق والأعمال الصالحات واجتناب السيئات؟

أو لعل القرآن كان مورد ماء مكرر لكونه لا يعلم بأن المسيح نصفه إله ونصفه إنسان ، كما كان الوثنيون من الهنود واليونان والرومان يقولون عن عظمائهم؟!!

فهل لكونه لا يعلم أن الإله حياً بسواد عيونكم قدم ولده ذبيحة بشرية عنكم ، كما كان الصينيون يقدمون أولادهم ذبائح بشرية لألهتهم؟!!

أو لكونه لا يعلم أن أبناء الله الملائكة تزوجوا بنات الناس ففسقوا ، فلم يحفظوا رثاستهم فقيدوا بقيود أبدية تحت الظلام عند نهر الفرات؟!!

(١) يشير الشيخ بذلك إلى امتناع الصعابة عن الخلق يوم الهدى حتى خلق نعلقوا .
(الزلف)

أو لكونه لا يعلم أن الإله خاف من الناس لما بنوا برج بابل فنزل إلى الأرض ويلبل ألسنتهم وفرق كلتهم؟!!

أو لكونه لا يعلم أن الإله صارع يعقوب فلم يقدر عليه حتى فكك حتى فضذه، وجعل اسمه فلم يمله حتى سأله عنه؟

أو لكونه لا يعلم أن القديسين قاموا من قبورهم ودخلوا المدينة أفواجا ليخلصوا الإله من الصلب والقتل؟!!

أو لكونه لا يعلم أنه حدثت حرب في السماء بين ميخائيل وملائكته وإبليس وجنوده؟!!

أو لكونه لا يعلم أن الخلاص ينال بمجرد الإيمان بأن إنساناً منذ أمد بعيد قتله أعداؤه وصلبوه؟!!

إن الكتب التي تعلم هذه التعاليم الفاسدة ، وتحتوي على هذه الضلالات الواضحة ، هي المورد العكبر الكدر القدر من تجاسات عقائد الوثنيين وخرافاتهم ، لو أنكم يا أعداء الإسلام تنصفون .

وكان في الوسخ أن نمضي مع هذه الضربات الدماغية أكثر لو استوعبنا تساؤلات الشيخ كلها ، وفي ما نقلنا منها ما يكفي للدلالة على سمة علمه بينات تلك الكتب ، التي تنطوي على كل هذه المفارقات ، ونظفل مع ذلك موضع تقديس أهل الكتاب .

وجدير بنا ، ونحن نطالع هذا التقرير المجهل ، أن نتذكر الظروف السياسية التي نشر فيها ، أيام كان التبشير محبياً بحراب الجيوش الفرنسية ومرزوقتها ، ولم يكن قد مضى إلا القليل على تحديات الجبهة من النصارى ، الذين اتخذوا من ظروف الاحتلال فرصتهم لتجريح مشاعر المسلمين ، ومحاولة إذلالهم ، إذا اقتحموا أحياءهم في تظاهرات مثيرة تتقدمها الصليبان والطبول . . وبخاصة في طرطوس ، التي كانت أول بقعة من البر الإسلامي وطنتها قدم المحتل من القطر الشامي .

وحين نستحضر تلك الظروف نحسن تقوم الشجاعة التي تحمل بها ذلك الشيخ الوقور في نشره مثل تلك الردود الصريحة . ولكن هذا من حقه أن يذكرنا كذلك برحابة صدور الفرنسيين الذين لم يبدوا أي محاولة لخنق هذا الصوت الشجاع ، فلم يحظروا على آلة طبع هذا الكلام ، ولم يعزوا إلى بريد بالامتناع عن نقله إلى مختلف البلدان !

ولا أرى تجاوز هذا المقطع قبل أن أشير إلى أثر ذلك التكرار في جمال الحوار.. فهو أسلوب من التعبير لا يفتي فيه الخبر عن الإنشاء، لأن في كل استهتام منه صدمة أشبه بالصنعة على وجوه المغترين ، تجعلهم ينجلون لو كانوا يعقلون..

نماذج من منظومه :

ولقد أسلفنا الإشارة إلى ممارسة الشيخ للشعر ، ونضيف الآن إلى ذلك أن هذا الشعر لا يعدو المحاولات التي عرفت لدى المشايخ .. فقد أدر كنا العديد من هؤلاء رحمهم الله وكلهم يقوم بهذه المحاولة ، على تفاوت في مقدار الاجادة . وللشيخ المترجم مقاطع من المنظوم يمكن اعتبارها من أشعار المناسبات العارضة . قام بعض الفتيان بتمثيل المسرحية التاريخية « كسرى والعرب » التي تروي بعض مآثر السلف ، فارتاح الشيخ إلى عملهم ، ورأى أن يشجعهم على المضي في هذه السبيل كوسيلة لتوعية الناس وتذكيرهم بماض توشك التفيرات الطوارىء أن تمحو أثره من أذهانهم ، فبعث إليهم بهذه الأبيات :

إن العظيم كريم القوم سيدهم	من كان للوطن المحبوب نفسا عا
بذال كل نفيس في محبته	لكل داع إلى الأوطان سمعا
.. شكراً لكم يا شباباً مثلوا-فبدا-	مجداً لنا كان في الآفاق لما عا
أيام كنا ملوك الأرض ترهبنا	كسرى لسطوتنا قد خر مرثعا
هيا انهضوا يا شباب العرب وارتجموا	موروث مجد لنا بالأمن قد ضاعا
مرحى لشعب عزيز النفس متعدد	من أجل أوطانه الأرواح يباعا

ولا أستبعد أن يكون الشيخ قد تمعد سلوك هذا الأسلوب المبسط لابلغ
أفكاره واضحة إلى هؤلاء الشباب، الذين كانوا وأمثالهم في البلاد السورية عصب
العمل في مضائق المستعمر، بعد أن تحطمت أسلحة المجاهدين له في دمشق
وجبل الزاوية وبقية مناطق الثوار.. وفي ترديده لكلمة وطن وأوطان والمجد
والاتحاد، رموز فقدت اليوم دلالتها، وكانت أياها ذلك هي اللغة التي تحرك
الضباط وتهيج السرائر.

ومن إخوانياته الظريفة هذان البيتان اللذان يخاطب بهما أحد الصيادين من
تلاميذه، وقد فارقه صقره فأحزنه :

لا تكترن أسفاً على الصقر الذي قد فر خوفاً من نبال الراشق
من كان صياداً بنيدل لحاضه لا يأسفن على ذهب الباشق

رحم الله الشيخ عثمان العسيلي وعوض أرواد عنه من يد فراغه من أهل
العلم والشجاعة والأخلاق.

الشيخ علي أبو الحسن الندوي

وُلد في قرية (تكيه) من مديرية (راني بريلي) من الولاية الشمالية بالهند، وذلك في المحرم من عام ١٣٣٢ هـ . من أسرة ذات أصل عربي عريق ، تعيش في الهند منذ قرون . وهو ابن العلامة الشريف عبد الحفي الحسني أحد كبار مؤلفي عصره .

كان أول من هاجر إلى الهند من هذه الأسرة الشيخ السيد قطب الدين ابن محمد المدني عام ٦٠٢ هـ . وكانت أم هذا الشيخ بنت الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني، ويصل نسبه من الطرفين إلى السيد عبدالله المحض بن السيد الحسن المشي ابن الحسن بن علي بن أبي طالب (رض) .

وكان سبب هجرته إلى الهند أنه رأى في منامه رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة يأمره بالتوجه إلى الهند للجهاد ، وببشره بالفتح المبين .

وقد حافظت الأسرة طوال القرون على فضائلها الموروثة والمكتسبة ، إذ عرفت بالتزام السنن الواضح من التوحيد والسنة والوقوف بوجه البدعة والحرص على مبادئ الدعوة إلى الإسلام . وقد شارك رجالها في الجهاد ونال الكثير منهم شرف الشهادة في سبيل الله .

ونبغ من هذه الأسرة عدد من العلماء والدعاة سجلت أسماؤهم ولا تزال تسجل في تاريخ الدعوة الإسلامية والكفاح من أجلها ، من أشهرهم السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، قائد كبرى حركات الإصلاح والجهاد في الهند .

ولا ريب أن لهذا المنبت الكريم أثره العميق في نشأة الشيخ وانصرافه التام إلى خدمة الإسلام والاهتمام بأمور المسلمين . وقد شاء الله أن يحفظ للمترجم هذا الجور الفاضل فآتم نعمته عليه بالشيوخ الصالحين ، الذين كانوا امتداداً طيباً لتلك البيئة الطيبة .

دراسته العلمية :

تلقى الشيخ دراسته الأولية في العربية من الشيخ خليل محمد الباني ، حفيد المحدث الجليل الشيخ حسين بن عمن الأنصاري ، وأتم دراسته الأدبية على الدكتور محمد تقي الدين الهلالي ، رئيس تدريس الأدب العربي بندوة العلماء يومئذ ، ثم تعلم في دار العلوم ندوة العلماء ودار العلوم في ديوبند ، وجامعة لكهنؤو ، بتفوق ممتاز ، والتحق بـ مدرسة الشيخ أحمد علي في لاهور حيث تخرج عليه في علم التفسير .

وقد استفاد في الحديث من الشيخ حيدر حسن خان ، وقال الإجازة منه ومن الشيخ عبد الرحمن المباركفوري صاحب (تحفة الأحوذى) وحضر دروس العالم الكبير الشيخ حسين أحمد المدني في الحديث بدار العلوم في ديوبند ، فجمع بين جهابذة الأدب والحديث والتفسير .

الرجال الذين أثروا في توجيهه :

ويسمى الشيخ من الرجال الذين أثروا في توجيهه أخاه المرحوم الدكتور عبد العلي الحسيني ، ويصفه بأنه جمع بين الثقافتين الدينية والمصرية ، إذ تلقى دراسته في المدارس الدينية والجامعات العصرية . وأنه كان ذا فضل كبير على ثقافته .

ثم المشايخ أحمد علي اللاهوري والشيخ محمد إلياس مؤسس حركة الدعوة والتبليغ بالهند وفي العالم الإسلامي ، ثم المرابي الجليل الشيخ عبدالقادر الركنيوري ، ثم شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، ثم السيد طلحة الحسيني أحد كبار الأساتذة في جامعة البنجاب .

ويدع الشيخ أثر هؤلاء الفضلاء دون تحديد ، فلا يعملنا في أي اتجاه ، ولا من أي نوع ، ولكن ذلك لا يجب عنا الواقع الذي نعرفه من خلال آثار الشيخ ، ومن خلال مسلكه في خدمة الدعوة ، ثم من خلال ما اشتهر به بعض الذين نعرف آثارهم من أساتذته هؤلاء .

وفي ما كتبه الشيخ أبو الحسن عن روائع إقبال وأفكاره الإسلامية وتأملاته الفلسفية ما يكفي لاستخلاص الصورة المنشودة عن تأثيره في توجيه الأدبي والفكري .

وتصاري القول في ذلك أن أبا الحسن قد وفق من ملاسته هذه الثلة الممتازة إلى أن يجمع بين الثقافة الصحيحة والأسوة الحسنة . وإنما لبقية من منهج التعليم الإسلامي ، الذي لا يقبل التفريق بين التعلم والتربية ، ذلك المنهج الكريم الذي صغره ، بل نسخته ، نظام التعليم الغربي ، حتى أوشك أن يستجبل أثره بعد عين - وبا للأسف - !

العلوم التي يؤثرها :

ويحدد العلوم التي يؤثرها بحبه فيحصرها في : القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ثم التفسير ، والتاريخ ، والأدب .

ولو سكت الشيخ عن هذا الجانب لأمكننا استخلاصه من مؤلفاته وبحوثه ومحاضراته وأحاديثه . وقديماً قبل :

عن المرء لا نسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالماضون يقندي

ولا قرين أعمق أثراً في قلب الإنسان وعقله وسلوكه من العلم الذي ينجم

معه ويصدر عنه . ونحن بقليل من الممارسة والملاحظة نفرق بين امرئ ، وآخر عن طريق الحديث الذي نسمعه أو نقرأه لكل من الاثنين . وقارىء أبي الحسن لا يفوته الإدراك بأنه ثمرة موعنة من حديقة الثقافة الإسلامية الأصيلة .

ثم إن الشيخ يحمه بين هذه العلوم المتعددة في نطاق التفضيل ، وإنما يفعل ذلك إيماناً منه بما يشملها من وحدة الإطار ، فهو لا يؤمن بالانفصال بين هذه العلوم ، بل يرى كداعية إسلامي أن التاريخ مرآة الأمم البائدة ، وخزانة العبر المبرزة لأسباب النهوض والهبوط في حياتها ، فليس ثمة من سقوط أو نهوض يحدث عفواً أو اتفاقاً ، وإنما هي سنن وقوانين مرتبطة بتصرفات الأمم وأعمالها ، فعمل هذه التصرفات والأعمال تتوقف مصابرها في مسيرة التاريخ .

وعلم القرآن والحديث ، فضلاً عن كونه المصدر الرئيسي والمنبع الأول للثقافة الإسلامية ، فهو كذلك الدليل الهادي إلى أسرار هذه السنن الإلهية وعملها في حياة البشر ، وكل منهج لدراسة التاريخ لا يستمد من هذه الضوابط سيظل جهداً ضائعاً ينقض بفضه بعضاً .

والتمكن من علوم الأدب والتمرس به أداة لا معدى عنها لإبراز هذه الحقائق والإفادة منها على أفضل الوجوه .

والشيخ ، بارك الله في حياته وجهاده ، قد علم كيف يستخدم هذه الأداة في خدمة مثله العليا أروع استخدام . ومتتبع ما يكتب يشعر بأنت لعلته الأدبية سحرأ لا يتوافر في العادة إلا للعلنية من أصعب المواهب ، الذين تعمقوا سر الكلمة ، وتفاعلوها به ، وكان لقلوبهم أكبر الأثر في ما يصوغون . وتلك هي الخاصة الرئيسية التي يمتاز بها أبدأ أولو الأذواق الروحية من المتخرجين في مدرسة القرآن .

وبهذه الخاصة يتناول الشيخ الأحداث التاريخية ، فإذا هي مائجة بالحياة وبالعبء .. وقلما تقرأ له بحثاً أو قصة أو حديثاً لا تلمس أثناءه هذه الصور الناطقة بالحكمة ، وهذا ما يكاد الكاتبون عنه يجمعون عليه .

أم الأحداث التي عاصرها :

ويعتبر الشيخ سقوط الخلافة على يد الطاغية اليهودي الأصل أتاتورك أكبر الأحداث التي عاصرها ، فهو يقول في ذلك : « أعتقد أنه كان نقطة تحول في تاريخ الإسلام والمسلمين ، وتحولاً لعبلة الحياة ، إذ كان له الأثر العميق في خضوع العالم لحضارة الغرب .

ومها تكن عوامل هذا التحول فمن جرائه تمّ إسلام قيادة المسلم للغرب ، حيث لا يزال العالم الإسلامي يقاسي تبعيته . ثم كانت الأحداث القاسية التي واجهتها الأمة الإسلامية نتيجة لهذا الحدث المؤلم ، فالحركة الكيالية والثورة (. . .) إنما تستمدان جذورهما من الأرضية التي خلفها المستعمر ، فاعتبرها امتداداً لهذه المؤامرة . »

ويتحدث أبو الحسن عن بعض الفن التي فجرتها فيما بعد تلك الكارثة فيقول : « إن الحروب التي تلت هذه المأساة الإنسانية ، وغزو الفكر الغربي للأمة الإسلامية ، وجرأة الحاقدين عليها ، إنما حصلت بسبب من رجحان كفة ميزان القوة ، وانسحاب المسلمين من معترك الحياة . وقد امتدت هذه المؤامرة ، التي اقتلعت جذور الوحدة المتأصلة في قلب العالم الإسلامي ، إلى العهود الأخيرة . . وكان يوم احتلال اليهود القدس ، وزحف القوات الصهيونية إلى الضفة الشرقية للقناة ، أحلك يوم في حياتي . لقد تحققت المهزلة ، وبلغت المؤامرة ذروتها . وقد بحثت ذلك في مؤلفاتي ، وأوضحته الأسباب التي تمخضت عنها المأساة الإسلامية الكبرى بعد سقوط الخلافة ، بإبعاد الإسلام وربطته عن الحياة ، والاستخفاف بقيمه ومظاهره ، وقع العاملين في سبيله . وإني أعد هذه الفترة من أحرج الفترات التي عشتها ، كما فصلت ذلك في كتابي « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية » ، و « الملون وقضية فلسطين » . وقد دعت هذه الأحداث إيماني بأن الإسلام لا بد أن يتولى الزمام لانقضاء العزب والعالم ، لأن الحل الوحيد لمأساة الإنسان يكمن في تحول قيادة العالم إل أيد مؤمنة

بقم الإنسانية ، أمة وسطاً لتكون شاهدة على الناس ، كما يصفها كتاب الله ﷻ .

وقد يتساءل القارئ - ومن حقه ذلك - كيف يعذب أبو الحسن سقوط الخلافة أكبر حادث في حياته ، وهو في سن المراهقة أثناء نذ ؟

والجواب على ذلك بالنسبة إلى الشيخ أنه يقيس الحادث على مجريات الأحداث التاريخية ، التي شهدتها الحقبة الممتدة حتى أيامنا هذه ، فلا يرى أكبر منه في سائر الوقائع العالمية .

ثم إن لتقويم الشيخ هذا الحدث على هذا الوجه علاقة هامة بموقف مسلمي الهند أثناء ذلك من موضوع الخلافة . فالمعروف أن هؤلاء كانوا أشد مسلمي العالم حرصاً على بقائها ودفاعاً عنها وألماً عليها . وقد وصل بهم ذلك الحرص إلى حد أن الانجليز ، وهم المسيطرون على أرجاء الهند ، قد عجزوا أن يجدوا في مسلميها من يقبل التطوع في صفوفهم لقتال الدولة العثمانية ، أثناء الحرب الكونية الأولى ، لأنها في يقينهم تمثل الخلافة التي لا يجوز لمسلم الخروج عليها ، حتى اضطر الانجليز لتوسيط زعماء العرب - الذين استباحوا التحالف معهم ضد الخلافة - لإقناعهم بما يريدون فلم يجدوا منهم إلا الصد والنقد وتوجيه أخطر الاتهام ، فعادوا من وساطتهم تلك محققين بخفي حنين .

فمن الطبيعي إذن أن يفشأ كل مسلم هندي عاصر تلك المأساة على هذا النحو من الشعور بهولها فكيف إذا كان مثل هذا الفئق الناشئ في أشد بيئات المسلمين الهنود إحساساً بتلك المفاجعة ! ..

وجاءت الأحداث تترى في أعقاب هذه الهمة ، فإذا هي أرزاء متلاحقة تدمر كل رابطة بين المسلمين ، حتى لتستحيل الأسرة الواحدة أحزاباً وشيماً كل حزب بما لديهم فرحون !

نشاط الشيخ في خدمة العلم :

وتجاوز الشيخ الصديق مضمون السؤال الثامن عن أهم الأحداث ، التي قد تكون عرضت لفضيلته أثناء عمله في التدريس ، مكتفياً بأنه لا يذكر من ذلك ما يستحق الذكر .

وعن مدى نشاطه في خدمة العلم وطلابه يشير إلى بعض مجهوداته في (مكافحة الغزو الفكري ، وبحث روح الاعتزاز بالاسلام في المسلمين ، وبخاصة طبقة المثقفين والشباب ، ومقاومة الردة وآثارها ... (١)) .

وهذه المجهودات مما يدركه كل قارئ ، لكن كتب الشيخ في مختلف أنحاء العالم ، سواء بلغاتها الأصلية أو المترجمة ، فليس ثمة كتاب له إلا وهو توكيد لهذا الاتجاه الاصلاحى على أرفع المستويات .

ومع ذلك فقد أغفل الجواب جانباً هاماً من نشاط أبي الحسن في خدمة العلم وطلابه ، فلم يشير مثلاً إلى آثاره في ندوة العلماء ذات الماضي العريق في إذاعة العربية ، وفي توضيح حقائق الاسلام ، سواء في قلوب طلاب الندوة ، أو عن طريقهم بعد التخرج بين جماهير المسلمين ، في مختلف مواطنهم من شبه القارة الهندية .

الشيخ والندوة :

ومن جميل الاتفاق أن أكتب هذه الأسطر باللادقية - حيث أقضي إجازة الصيف - في حين يحتفل العالم الاسلامي بالمهرجان الذي نظمته ندوة العلماء في الهند ما بين ٢٥ و ٢٨ شوال ١٣٩٥ هـ . لمناسبة مرور خمسة وثمانين عاماً على إنشائها وبدء رسالتها العالمة ، فكانت فرصة سعيدة لتلاقي رجال الفكر الاسلامي من المعنيين بقضايا التربية والتعليم ، وشد ما كنت حريصاً على

(١) ورد في جواب الشيخ على هذا الاستطلاع نقاط هامة رأينا إرجاعها إلى السؤال ١٢ .

المشاركة فيها استجابة لدعوة كريمة ، لولا أقدار محكمة صرفتني إلى اللاذقية بدل (لكهنؤ) . وليس ثمة من ربيب في أن تدفق وفود العالم الاسلامي أثناءئذ على ذلك المهرجان ، إنما ينطوي خلال تكريمه لتلك المؤسسة المرموقة ، على تقدير كبير لمجهود ذلك الشيخ الفاضل ، الذي تسلم رايثها ، فكان خير خلف لأولئك السلف الذين نهضوا برعايتها على مدى تلك العقود التسعة من السنين ..

لقد أحسن الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي في مقاله الذي صدر به العدد الخاص بتلك المناسبة من جريدة (الرائد) تحت عنوان « في رحاب المهرجان » إذ أبرز ما لا يجهله خير من فضل أبي الحسن فيقول :

« الشيء الأصيل الذي كان يعمل في المهرجان ويعمل في كل ما يتصل به أولاً وآخرأ هو ذلك القلب الواسع الكبير الذي يتحقق في جنب سماحة أستاذنا العلامة السيد أبي الحسن علي الندوي . فلولا عبقريته العميقة ، ونظرتة الواسعة ، وفهمه الدقيق .. وفوق ذلك إيمانه الراسخ القوي ، وإخلاصه في خدمة قضايا الإسلام ، وثقانيته في حب الله ورسوله ، عن دراسة وتفقه .. فلولاه ولولا هذه الصفات العالية لم يكن لهذا المهرجان أي قيمة أو أهمية . ولولاه لما كان له أثره البعيد في تاريخ التعليم والتربية في هذه البلاد بوجه خاص ، وفي العالم الإسلامي بصفة عامة .

ليس من سعادة الهند أو ندوة العلماء فعسب أن يوجد فيها مثل هذا الرجل العظيم المخلص المؤمن ، بل أنت وجوده سعادة لتاريخ العلم والثقافة والتعليم والتربية ، وصفحة ناصعة في سيرة العلماء الأعلام والدعاة العظام . وأن العالم المعاصر لفي أمس الحاجة إلى أمثاله حتى يقبض هداية في مسيرة العلم والمدنية ، ويعين خطاه في زحمة الصراعات والاتجاهات التي تموج بها المجتمعات الانسانية اليوم .

ولا مبالغة في هذا الاطراء لذلك العامل الجليل الذي - كما قال شيخ الأزهر الدكتور عبدالحليم محمود في تلك المناسبة - « أخلص وجهه لله ، وسار في حياته

سيرة المسلم المخلص لله تعالى ورسوله ﷺ فدعنا إلى الإسلام بالقدوة الحسنة ،
ودعنا إلى الإسلام بكتبه النقية ، ودعنا إلى الإسلام بسياحاته التي حاضر فيها
ووجه وأرشد . فجزاه الله خير ما يجزي عالماً عن دينه .

ولا جرم فقد اطلع الله على إخلاص هذا العبد الصالح - ولا تزكي على الله
أحداً - فبارك في مساعيه ، وبارك في مواعظه ، وبارك في محاضراته العميقة
الغور ، الفنية بالمقائش ، التي يلقيها هنا وهناك ، في الهند ، وفي البلاد العربية ،
وفي إنجلترا .. وفي مختلف المؤتمرات الإسلامية ، التي لا ينفك يشارك فيها ،
ويسافر إليها ، مضحياً برأجه ، ومضامراً بصحته ، فآكرمها سبحانه بالرضوان
والقبول ، حتى صارت المورد العذب لناشدي الحق .. لأنه لا ينشد من ورائها
شهرة ولا منفعة .. ولا شيء إلا ابتغاء رضوان الله .

وأنا لا أذيع مجهولاً من حياة الشيخ عندما أذكر أنه ، وهو العضو الدائم
في المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، لم يقبل أن يصرف له
فلس واحد من المكافآت السخية المخصصة لثله ، ولم أعرفه نزل فتدقاً قط على
حسابها ، على تعدد المرات التي حضر فيها اجتماعات هذا المجلس حتى الآن .
وأنا لا أدري كم في علماء الإسلام من نظير لهذا الزاهد الكبير !

إن خاصة الزهد والترفع عن حطام الدنيا ، في هذا الجسد النحيل اللطيف ،
الذي يكاد يتنطق بقول ابن الرومي عن نفسه :

أنا من خف واستدق، فما بُشِّ
حِلُّ أرضاً ولا يسد فضاء

هذه الخاصة هي التي مكنت له في مضمار الإصلاح والنقد الاجتماعي ،
فلا يهادن باطلاً ، ولا يكتم حقيقة .. وجعلت لكلامه مساعاً في الأسماع فلا
تنكر عليه ما يقول .

وهو كالشيخ ابن باز في حسن تأتبه عند توجيه النصيحة الواجبة ، بطرق بها

أبواب القلوب في أسلوب من الحكمة والموعظة الحسنة ، لا يسخط ولا ينفّر ، ولكنه يبعث على التأمل والتدبير والتفكير .

علمية الشيخ :

والإشارة إلى مشاركة الشيخ في عضوية المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة منذ تأسيسها ، توجه الذهن إلى مشاركاته في العديد من المنشآت العلمية الأخرى .

إنه عضو مراسل في مجمي اللغة العربية بدمشق والقاهرة . وهو مؤسس الجمع العلمي الإسلامي بالهند ورئيسه ، كما أنه يرأس المجلس التعليمي لولاية (أثر بردلش) هناك ، وهو عضو في المجلس التنفيذي لمعهد (ديوبند) ، ومن أعضاء المجلس التنفيذي لدار المصنفين في أعظم كرة بالهند أيضاً .

والشيخ أحد رؤساء التحرير لجهة (معارف) تلك الجهة العلمية الأكاديمية للمسلمين في شبه القارة الهندية .

هذا وقد أخرج الجمع الإسلامي بالهند سلسلة من ترجمات كتب الشيخ باللغة الإنجليزية تسمى لفوائدها ، وسبق لجهة الجمع اللغوي بدمشق أن نشرت عدة فصول من آثاره .

وهذه المشاركات الواسعة إنما تؤكد الصفة العالمية لهذا الرجل ، الذي أجمع على تقديره رجال الفكر من مختلف الأقطار .

عمله في التأليف :

وإلى القارىء هذه القائمة بأشهر مؤلفاته المطبوعة :

- ١ - مختارات في الأدب العربي (وهو من المقررات الدراسية في كثير من المدارس والجامعات) .
- ٢ - القراءة الراشدة (ثلاثة أجزاء) .
- ٣ - قصص النبيين للأطفال (خمسة أجزاء) .

- ٤ - مذكرات سائح في الشرق العربي . ٥ - حديث مع الغرب .
- ٦ - روائع إقبال . ٧ - الأركان الأربعة .
- ٨ - الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية .
- ٩ - ربانية لارهبانية . ١٠ - المسلمون في الهند .
- ١١ - إذا هبت ربيع الإيمان .
- ١٢ - رجال الفكر والدعوة في الإسلام .
- ١٣ - القادياني والقاديانية . ١٤ - إلى الإسلام من جديد .
- ١٥ - المسلمون وقضية فلسطين . ١٦ - الطريق إلى المدينة .
- ١٧ - النبوة والأنبياء في ضوء القرآن .
- ١٨ - الصراع بين الإيمان والمادية .
- ١٩ - تأملات في سورة الكهف .
- ٢٠ - العرب والإسلام . ٢١ - النبي الخاتم .
- ٢٢ - ماذا خسر العالم بالمحطاط المسلمين .
- ٢٣ - السيرة النبوية .
- ٢٤ - نحو الغربية الإسلامية الحرة في البلاد الإسلامية .

وهذه الكتب نشرت كلها بالعربية ، وترجم معظمها إلى مختلف اللغات كالتركية والإنجليزية والفارسية .

على أن هناك عشرات من مؤلفاته الأخرى باللغة الأردنية، لم يذكر عناونها . ومحاضرات عدة نشرت منفردة في كراسات تتداولها آلاف الأيدي ، ولم نشر إليها في هذا الجدول .

ويقول الشيخ أن أحب هذه الكتب إليه هي : « الطريق إلى المدينة » و « النبوة والأنبياء في القرآن » و « أثرها إطلافاً هي » « ماذا خسر العالم بالمحطاط المسلمين » و « الأركان الأربعة » و « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية » .

والحديث عن مؤلفات أبي الحسن لا تنفي فيه الإشارة العجلى ، بل يتطلب الوقوف على كل منها بكلمة تحليلية تكشف عن قيمته العلمية والأدبية ، وما ينطوي عليه من خصائص ذلك القلب الحي . إلا أن هذا أمر متعذر في عرض سريع كهذا ، وحسبنا أن نسترعي انقباض القارىء الواعي إلى صيغ العناوين وما توحي به من أبعاد وأعماق .

لما صدرت الطبعة الأولى من كتاب « ماذا خسر العالم .. » سمعت الأخ الأستاذ محمد المبارك يقول في وصفه : « إنه واحد من خير الكتب التي صدرت في هذا القرن » .

وقرأت الكتاب في أناة محاولاً التحرر من إطراء الأستاذ المبارك إياه ، ولكنني لم أستطع ذلك لأنني لم أجد تعبيراً أكثر إنصافاً للكتاب من تلك الكلمة .

وأشهد لقد أعدت قراءة هذا السفر النفيس عدداً من المرات ، بين قراءة كلية وأخرى جزئية ، ولا أزال أحس عطشاً نحوه . وقد أثبتت طبعاته الاثنتا عشرة حتى الآن أنه جدير بكل إطراء يستحقه عمل عبقرى ، وحسب تقدير ما ظفر به من أقلام كبار العلماء كأحمد أمين ، وأحمد الشرباصي ، ومحمد يوسف موسى ، والشهيد سيد قطب .

وإني لأعتبر هذا الكتاب أنموذجاً لمقلانية الشيخ ، فقد جمع بين التاريخ والفقه والبلاغة والنقد والتحليل ، في انسجام تام بين عناصره جميعاً .

وإن القارىء المتدبر ليطل من خلال الكتاب على مواكب البشرية تتوالى نحو غاياتها كالسيول الدافقة في طريقها نحو المصب ، وقد اختلفت بها السبل ، فسيل يتحدر على غير هدى فيدمر كل ما يمر به ، ثم يتلاشى في أعماق المحيط . وآخر يتدهدى في نظام على غاية من الدقة والمظلمة ، فيشيع الخير والحسب والجمال في كل بقعة تعترضه .

إنها حركة الإنسانية في اضطرابها بين الخير والشر ، بين الصراط المشرق بنور الوحي ، والمهامه الضائعات في ظلمات الجاهليات . بين القيادة النبوية العاصمة الراشدة ، والقيادات الإبليسية الطاغية الحاكمة .

وعلى ضوء هذا المنهج يحسن النظر إلى بقية المحسة المفضلة من أسفاره ، مع التذكير بأن لا أجد تعليلاً لإبشاره إياها على سائر كتبه سوى العلاقة النفسية ، التي كثيراً ما تربط بين المنشئ وأثره لمناسبة لا يكاد يذكرها .

المسبيل إلى الانقاذ :

وحول مستقبل الجيل الإسلامي ومهمة علماء الإسلام نحوه ، جمع الشيخ في الإجابة بين السؤالين ١١ و ١٢ على النحو التالي :

يقول تفضيلته : إن الجيل الإسلامي الجديد سواء في بلادنا - الهند - أو سواها من وطن الإسلام ، يمر بمرحلة انتقالية على غاية من الأهمية .

لقد تجرع هذا الجيل مرارة الأفكار الأجنبية ، وعاش في ظل نظم الحكم غير الإسلامي . ولا يختلف بمضه عن بعض في أي قطر وآخر ، لأن هذه النظم في جميع البلدان تستمد جذورها من الحضارة الغربية ، فهي على منوال واحد . لكن الصورة اليوم تختلف عما كانت عليه في الماضي . إن تطبيق هذه النظم قد سهل عملية إقناع الجيل الحاضر بضلالتها وبكونها جافة وجوفاء .

لقد أخفقت الحضارة الغربية في إسعاد المسلم كلياً ، وذلك من فضل الله علينا ، إذ كما عرف العاملون للدعوة الإسلامية كيف ينتهزون هذه الفرصة ، بتوجيه قواهم إلى الكشف عن مساوىء هذه النظم وما تقاسيه الشعوب في ظلها . كما فعلوا ذلك أحرزوا نجاحاً جديداً لدعوتهم .

والمهم الأهم لقيادة الفكر الإسلامي ، بمد فضح الحضارة الغربية ، أن يحسنوا تمهد قلوب المسلمين ، بإلهاب العاطفة الدينية ، وتعميق الإيمان بالآخرة على

منهاج الدعوة الإسلامية الأول، على أن يستخدموا لذلك جميع الوسائل الحديثة والقديمة ، وطرق النشر والتعليم والاستعداد المادي .

ويقول الشيخ : من أجل تحقيق هذا الهدف لا مندوحة عن إعداد الكتب المفيدة في أسلوب عصري ، وتربية الشباب الروحية بتوطيد الصلة بينهم وبين الربانيين ، وتضييق الفجوة بين الإسلام وغير المسلمين ، وذلك بتنظيم اللقاءات معهم ، وتزويدهم بما يجهلون من حقائق الإسلام .

ويختتم فضيلته توصياته الرشيدة بقوله : إن القرآن العظيم وسيرة محمد ﷺ ، قوتان في وسعها أن تشملا في العالم الإسلامي نار الحماسة والايان ، وتحدا في كل وقت ثورة مظفرة على العصر الجاهلي ، وتجعلا من أمة مسلمة مخدولة أمة فتية مائجة بالحياة والحماسة والغيرة .

وفي هذه المخطوط المركزة خلاصة عميقة الغور تحمل ضروباً من تجارب السيد أبي الحسن في دراسة الواقع الإسلامي ، وطرق معالجته وتصحيحه .

لكن .. من هذه العقبات ا

إنها هنا نقداً حاداً للحضارة الغربية ، التي أفعدت الضمير الإنساني ، فجنحت على الإنسان بعامة والمسلم بخاصة ، وهي نظرة ثابتة في أفكار الشيخ لا ينفك يعرض لها في كل ما يؤلف ويحاضر . وبذلك يلتقي مع كبار مفكري الإسلام والغرب المعاصرين ، كالرحوم محمد إقبال ، والشهيد سيد قطب ، وأخيه محمد ، ومحمد محمد حسين ، ومحمد البهي ، وأبور الجندي ، وألكسيس كاريل مؤلف « الإنسان ذلك المجهول » و ...

وها هنا كذلك تأكيد على مفاصد النظم الحاكمة في بلاد الإسلام ، بوصفها صوراً ممنوخة من تلك الحضارة المدمرة للروح . ويريد الشيخ من علماء الإسلام ومفكريه أن يستفيدوا من إخفاقها الذريع في معالجة قضايا المسلمين ، لإبراز عظمة النظم الإسلامية ، وقدرتها على تقويم كل عوج : وتصحيح كل فساد .

وفي سبيل هذه العناية يبحث على الانتفاع بكل الوسائل الإعلامية ، وبخاصة الكتاب الذي يعتمد الأساليب العصرية لنشر هذه الحقائق ، إلى جانب التربية الروحية القائمة على الأسوة الحسنة .

ولا جرم أن في هذه التوجيهات الحكيمة ، لو أمكن ترجمتها إلى الواقع ، خيراً كثيراً.. ولكن.. وما آلم.. ولكن هذه؟.. ما السبيل إلى هذه الترجمة؟.. وما الوسائل الموصلة إليها؟..

إن أهم أدوات الاعلام في ظل الحياة الاسلامية تتركز في هذه المنطلقات الأربعة : المسجد ، المنهج التعليمي ، الكتاب ، السلوك الاجتماعي .

ففي المسجد تبني النفوس المؤمنة على مراقبة الله ، والمناجاة بشئون عباده .

وبالمنهج الاسلامي في التعليم يتكون اليقين بقداسة العلم ، على أنه النور الذي يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام .

ثم يأتي الكتاب الاسلامي تفصيلاً لهذه المبادئ ، وإيضاحاً لحقائقها .. ومن هذا وذلك يتكون السلوك المثالي الذي يميز مجتمع الاسلام .

والأربع المنطلقات هذه قد ارتفع عنها سلطان الاسلام في معظم أقطاره . لأن النظم الطاغية قد فرضت رقابتها عليها جميعاً ، فليس لحطيب المسجد أن يعلن كلمة الله إلا ملفوفة بألف غشاء .. وكثيراً ما يكره على ترديد أفكار الطواغيت أنفسهم ، وقد يعرض نفسه للعزل والسجن ، بل والإحراق حياً ، إذا جرؤ على الإشارة إلى حكم الله في قوانينهم - كما حدث في الصومال منذ مدة - ولم يبق للفكر الاسلامي أي صلة بمنهج التعليم ، لأنه أخضع للأيدي الملتحدة أو المضلة تعبت به كيف تشاء ، وإذا استبدت للإسلام فيه من أثر فللتمويه على البسطاء ، ولابرازه في مركز الضعف بإزاء المواد الأخرى التي استغرقت معظم المنهج ، وفيها الكثير مما يصادم حقائقه البديية .

وأبي كتاب إسلامي يتاح له الظهور في مثل هذه المباتات المغلقة ، إلا أن
يحمل من مسوغات الظهور ما يقصم الظهور !

ولا حاجة للإسهاب في وصف المجتمع الذي يزرع تحت هذه الكوابيس ،
بعد أن فسدت عناصر تكوينه جميعاً .

ذلك هو واقع المسلمين في كل مكان إلا من رحم الله .. ولا بد لنا من
ملاحظته في كل ما نصف له من علاج .

وكلمة أخرى في شأن الكتاب .

من فضل الله على القلم المؤمن أنه لا يزال قادراً على التصريح ولو ببعض الحق ،
وفي بعض المواطن .. إلا أن في مقدمة العقبات التي تواجهه قلة القراء الذين
يعنيهم أمره .

لقد سلكنا الطريق إلى مكافحة الأمية ، وكدنا نغرق البلاد الإسلامية
بالمدارس على اختلاف أقسامها ، وبذلك كثرت الذين يحسبون القراءة . ولكن
حظ الكتاب الإسلامي من هؤلاء القراء ظل قليلاً محدوداً ، لأن التوجيه المدرسي
والإعلامي قد سبق إلى عقله فصرفه إلى الترهات ، فما لبث أن فقد القدرة على
استساغة الحقائق .. ثم جاءت الدعايات الساذجة ، التي يتطوع لإساعتها عن
حسن نية كتاب مسلمون ، ليوهوا بقية القراء أن ميدان النشر خال من الأدب
الإسلامي والفكر الإسلامي ، فلا قصة إسلامية ، ولا شعر إسلامي ...
ولا من يجزئون !

أجل ... إن هذا هو واقع المسلمين .. وتلك هي الفجوات التي تعترض
سبيل المصلحين .

فن لنا بإزالة هذه العقبات ؟

وما السبيل إلى تحقيق هذه المقترحات ؟ ..!

١١ التربية والتعليم :

والذي أعله من أفكار الشيخ ، ومن خلال الأحاديث الخاصة التي يليها لنا لغاؤه في المناسبات الإسلامية ، أن جوابه على تساؤلنا الآنف يكاد ينحصر في الناحية التربوية .. ذلك لأنه شديد التركيز على هذا الجانب في معظم أعماله الفكرية ، فهو ينظره المعول الأهم في تكوين الجيل الصالح لإقامة المجتمع الصالح . ونظرة مستوعبة إلى أحاديثه الكثيرة في هذا الموضوع كافية لاستبانة هذا الواقع ، ولامداد الباحث بما يكاد يؤلف منهجاً متكاملًا للتربية والتعليم كما يريده أبو الحسن ، بل كما يتراءى له في ضوء الإسلام ، ومن خلال تجاربه العميقة . في هذا الميدان .

وبين يدي الآن صورة المحاضرة التي ألقاها في مهرجان الندوة - ٢٦/١٠/٩٥ هـ بعنوان « أهمية نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية .. » ومنها أنقل للقارئ الفقرات التالية :

مباح السموم :

بتحدث الشيخ عن عمل المستشارين الأجانب في نظم التعليم المفروضة على العالم الإسلامي ، فيقول عن أصحاب السلطان : أنهم وحكّموا في تخطيط برامجهم التعليمية ومؤسساتهم العلمية الإخصائيين أو المستشارين من البلاد الأجنبية ، ولم يستوردوا منها المقررات الدراسية فحسب ، بل النظرات التعليمية والتصورات التربوية ، وأرسلوا البعثات إلى الخارج لتتسأ في أحضان المربين الغربيين والأساتذة الأجانب ، ثم أطلقوا أيديهم ومنحوم كل حرية في تخطيط البرامج وسياسة التعليم .. فكانت النتيجة وجود طبقة مضطربة العقائد والأفكار والسيرة والأخلاق ، أحسن أحوالها أن تكون مذنبية بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية ، وإلا فهي في أكثر الأحيان تنسلخ من كل ما يدين به مجتمعها وأمتها .

التربية لدعم العقيدة :

وينقل هنسا عن (دون آدامس) في أمر هؤلاء الموجهين طرفته التالية :
« زعموا أن فيضاناً قد اجتاح بعض الأماكن ، وكان هناك قرد وسحكة ، فأما القرد فقد استفاد من سوابق تجاربه فتمسك شجرة ونجا ، ثم وقع بصره على السمكة تكافح التيار فأشفق عليها ، وحملها إلى الشاطئ ، وهو يظن أنه ينقذها ، فكان في ذلك القضاء عليها . »

ويعقب على ذلك بقوله : « إن عملية التربية في أمة أو بلاد ليست بضاعة تصدر إلى الخارج ، أو تستورد إلى الداخل ، كالمصنوعات أو المواد الخام ، أو الحاجيات أو المحترعات التي لا تختص ببلد دون بلد ، وإنما هي لباس يفصل على قامة هذه الشعوب ، وملاحمها القومية وتقاليدها الموروثة ، وآدابها المفضلة وأهدافها التي تميز لها ونموت في سبيلها ، وأن التربية ليست إلا وسيلة راقية مهيبة لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعب أو بلد ، وتغذيتها بالافتتاح الفكري القائم على الثقة والاعتزاز .. » (١) .

وعلى الرغم من ثقته التامة بصحة هذه الأفكار لم يرض إلا أن يؤيدها بموافقات أساطين الخبراء في هذا الشأن ، من أمير كيين وبريطانيين وحق الشيوعيين ، مما يؤكد أن ارتباط التربية والتعليم بقومات الأمم قضية لا خلاف عليها ، بل هي القاعدة الأساسية في بنائها عند كل أمة تريد لنفسها البقاء في معركة الحياة .. وما دام الأمر كذلك فأحق الأمم بالاستقلال في هذا الميدان هي الأمة التي 'حملت أمانة الله إلى البشرية ، وبدونها الخالد الكامل' ختمت رسالات السماء إلى الأرض ، فلا سبيل لها إلى أداء هذه المهمة إلا عن طريق استمساكها بالتميز ، الذي يحفظ لها أصالتها سليمة من كل تمسح أو تبعية أو تقليد . ذلك هو المنطلق الرئيسي الذي عنه يصدر الشيخ في كل ما يتناوله من شئون التعليم منهجاً وأسلوباً وغاية ، ولا جرم أن لوسطه الندوي إجماعه الفعالم

(١) صفحة ١٠ ر ١٢ من المحاضرة .

في هذا الإنجاز، بما كان لندوة العلماء من أثر ضخم في إحياء هذه المثل وإخراجها من حيز النظر إلى مجال التطبيق .

تجربة رائدة :

ويصف أبو الحسن هذه المؤسسة فيقول : إنها « تمثل فصلاً من أروع الفصول في تاريخ الوعي الإسلامي » . إذ كان قيامها - ١٣١٦ هـ - لفرع واحد هو إنقاذ الكيان الإسلامي من عملية التدمير التي شنها (دعاء التفريب والردة الفكرية والحضارية من المسلمين والقوميين وغيرهم)^(١) .

والمتبعون لأعمال هذه المؤسسة ، والمطلعون على نشاطها الواسع في خدمة الفكر والخلق والعربية ، يؤيدون أبا الحسن في ما ذهب إليه من تقديرها . ولا أذيع سراً إذا قلت إنني أحدم ، فمن طريقي معرفتي بناهجها ، وصلتي بخريجيتها الملتحقين بالجامعة الإسلامية ، أدركت عظم المهمة التي تنهض بها في خدمة الإسلام . (إن هؤلاء الفتية في مقدمة طلاب العالم الإسلامي التزاماً لأدب الإسلام ، ورغبة في العلم ، وتقديراً لمدرسيهم ، وتقديساً للغة القرآن ، التي لا يكاد يضاھمهم في سلامة النطق بها عربي من نوابغ الطلاب .

إنها لتجربة رائدة نهضت بها تلك المؤسسة ، فقدمت للعالم الإسلامي أنموذجاً للتربية والتعليم يستحق الدراسة ، ويمكنه أن يقيم لدعاة الإصلاح معالم على الطريق ذات دلالات لا تنكر .

ولقد حفلت مناهج الندوة بكل جديد مفيد من المواد المعاصرة ، إلى جانب المقررات الإسلامية الضابطة ، مع مراعاة الاحتمالات النفسية لطالب العلم . إلا أن عامل التفوق في عملها هو دستورها التربوي ، الذي جمع بين التعليم والتطبيق على أفضل الوجوه . وأن في خريجيتها ، الذين تسنموا أرفع المنازل بين أساطين العلم في العالم الإسلامي كله ، لأبرز الأدلة على أننا منها تلقاء واحد من أنجح المشروعات التعليمية في هذا العصر^(٢) .

(١) من بحث قدمناه إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي المنعقد في مكة المكرمة -

ربيع الآخر ١٣٩٧ هـ .

تقدير وحب :

ولا حاجة إلى التذكير بأن فضيلة الشيخ أحد ثمرات هذه المؤسسة المباركة ، وقد شاء الله أن ينتهي إليه لراؤها ، فيتابع طريق أسلافه في دفعها إلى الأعلى يوماً بعد يوم . وحسبه من ذلك وهذا ثروة لا تقوم من الخبرات الحية ، التي تقدمه بكل سديد من الرأي في مجال التعليم الإسلامي . ولا عجب بعد ذلك أن يحظى هذا المفكر العملاق بكل التقدير الذي تحفه به أوساط العلية من مثقفي العالم الإسلامي ، حتى ليجمعون على تقديمه للكلام باسمهم في أكبر المؤتمرات .

ثم لا غرو أن ينال هذا (المعلم) الممتاز مثل الحب الذي لمست من طلابه نحوه ، حتى ليتسابقون إلى خدمته في سعادة لا توصف ، وحتى ليكون وقع الألم في أعينهم أخف عليهم من أن يلم به أي أذى مها يكن قليلاً .

وذلك بعض فضل الله عليه في الدنيا ، وللآخرة أكبر درجات - إن شاء الله - وأعظم تفضيلاً .

الذكر علي محمد جريشة

هو علي بن محمد جريشة ولد في مدينة (دكرنس) من أعمال الدقهلية بمصر
في ١١/٤/١٩٣٥ .

أسرته :

يغلب على أسرته الاشتغال بالعلم ، ويكثر فيها العاملون في سلك التدريس ،
وكان أبوه من خريجي (دار العلوم) ، ومدرساً للعربية والدين في التعليم العام ،
ويصفه ابنه بأنه متدين ومحب للعربية ، وأن له مؤلفات لم تطبع في السيرة ،
وبخاصة حول زوجات الرسول ﷺ . وكان على شيء من المهابة الشعرية إذ ترك
عدداً من القصائد في أغراض محدودة .

بيئته :

تنقل مع والده ما بين مسقط رأسه دكرنس - وفارا سكو والسنبولين ،
وقد قضى في هذه اثني عشر عاماً من صباه تركت في نفسه أزرها عميقاً بما يغلب
عليها من طابع المحافظة ، ومن ثم انتقل إلى القاهرة ليتخذ منها مقره الدائم .
ويصف جو البلاد ، وبخاصة القاهرة أثناءئذ ، بأنه عهد تحاك بين الماضي
الموروث بكل ما فيه من القيم والتقاليد ، والحاضر الطارئ بما فيه من التخلخل

والفتح ، وما بين هذا وذاك من ردود فعل أبرزها زيادة الحرص على الدين ،
ولعله بذلك يحدد خواص الوسط الذي كان يحتويه من القاهرة .

ويضيف الصديق إلى ذلك آثار التفاعل الذي بلغ أشده أيامه بين الوفد
والأحزاب السياسية الأخرى ، ثم ظهور حركة (الإخوان المسلمين) وتعاقد
نشاطها على مختلف المستويات الشعبية .

دراسته :

بدأ دراسته الابتدائية في السنبولين ، ولما انتقل سكنهم إلى القاهرة كان قد
استكمل هذه المرحلة فالتحق بإحدى الثانويات الحكومية حتى حصل على شهادتها ،
ومن ثم انتظم في كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، ولم يقف عند حدود الإجازة ،
فتابع سبيله بالدراسات العليا في قسم الشريعة والقانون ، ثم مضى في طريق
التوسع حتى أحرز شهادة الدكتوراه في التخصص نفسه ، وكان ذلك عام ١٩٧٥
بعد مضي ثلاث عشرة سنة على تسجيله لها ، قضى معظمها في ضيافة السجون ،
فلم يتح له حضور المناقشة إلا بعد مفادته المعتقل ، إثر زوال الكابوس الكبير .

مؤثرون في حياته :

وعن الرجال الأكثر تأثيراً في حياته ينحصر بالذكر عدداً من أهل العلم ، في
مقدمتهم والده الذي عنه تلقى أوليات التوجيهات العملية مريبساً ومدرساً ،
فوضع في قلبه البذور التي لا يزال آثارها كيانه . وبلي والده مدرس له في الفترة
الابتدائية هو الأستاذ محمد عبدالحليم أحمد ، ويقول : إنه كان أحد زملاء الشهيد
حسن البناء ، وقد ترك في نفسه أثراً عميقاً بما كان يتصف به من الفضائل التي تجعل
منه أسوة حسنة لتلاميذه ، ومن أساتذته الثانويين يذكر الأستاذ عبدالعزيز خليل
- المدرس الأول - الذي بسبب من استقامته وحرصه على التزام الفصحى كان له
- مع والده - أكبر الفضل في تحبيبه بلغة القرآن ، فإذا ما وصل إلى المرحلة
الجامعية أشاد بأثر أساتذته العلاميين عبد الوهاب خلافت ومحمد أبي زهرة في

الجانب الديني من عقله وقلبه ، وفي الجانب الفكري يشير إلى بعض أساتذة القانون ولا سيما الدكتور عبد الفتاح عبد الباقي ، والدكتور محسن شفيق ، ويخص الدكتور سيد صبري من حيث أثره في توجيهه نحو العمق العلمي .

علومه المفصلة :

أما العلوم فأحبها إليه كما يقول : أصول الفقه ، ويعتل ذلك بأنه لا مثيل له بين العلوم الوضعية والتربوية ، إذ يقدم الميزان الدقيق لرجل الفقه ورجل القضاء ، فيمكنها من إصدار الحكم الصحيح على الأشياء ، وبلي ذلك بنظره علم (السياسة الشرعية) وما يقابلها في الغرب من (الفقه الدستوري) ويقول إن أولى مطالعته في هذا الفن كان كتاب (السياسة الشرعية) لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ثم (الأحكام السلطانية) للماوردي ، ولعل إقباله هذه الأيام على دراسة (المذاهب الفكرية المعاصرة) مما يتصل بهذا الاتجاه ، من حيث علاقة ظل من هذه العلوم بالإنسان فرداً ومجتمعاً ، وبالذواغ الفكرية إلى تفصي المجاري الحقة بين الأسباب .

أحداث عاصرها :

وفي حياة المترجم آثار عميقة الفور لأحداث عاصرها منذ مطالع صباه ، وكان أشدها فاعلية في نفسه هو ما يتصل بحركة الإخوان المسلمين ، وما تعرضت له من صدمات تركت في أعصابه وخياله دويماً لا ينقطع ، بل جراحاً يتعذر اندماؤها .

بتحدث عن بعض وجوه النشاط التي جدد بها الإخوان حياة المجتمع المصري ، وبخاصة في الأقاليم ، حيث عملت الدعوة عملها في إيقاظ ما هجد من روح التدين ، وما غفا أو كاد من بواعت الوعي لمآني الإسلام . ومن ذكرياته في هذه الناحية تلك الظاهرة المؤثرة التي توسل بها شباب الدعوة لإحياء جماعة الفجر ، فقد كان أفراد منهم ينطلقون خلال الأحياء لينبهوا الناس إلى الصلاة في نداءات عذبة محببة سرعان ما تحرك الأهمم ، وتجتذب القلوب ، فتعمر بيوت الله بعد أن كانت شبه مهجورة في مثل تلك المناسبة .

ويركز على آثار الجماعة في تصحيح ما وقر في أذهان الناس من فصل بين الدين والسياسة ، حتى باتوا يدركون إلى حد بعيد مهمة الحكم في حراسة الأمن ، وتحقيق مصالح الأمة ، بعد أن كان في حساب الأكثرين لا يعدو منصباً فخرياً يتنافس عليه أولو المال والجاه والزعامة الشعبية ، دون أن يترتب على أصحابه أية مسئولية نحو الأمة .

وتتصاعد حركة الاخوان حتى تستقطب أنظار المجتمع ، الذي بات يعلق عليها كبار الآمال ، ولا سيما بعد رؤيته شباب الدعوة في مسيرتهم لقتال اليهود ، واستنقاذ الأرهس المقدسة من برائن الاستعمار المتكالب عليها من ورائهم .. لذلك كان للقدرة التي أوقعتها أعوان فاروق في مجاهدي الأخوان عام ١٩٤٩ ، وهم في قلب المعركة ، هزة عنيفة في قلوب المتبعين لأوضاع هذه الجماعة وعملها الدؤوب في خدمة مصر والإسلام. ثم تلاحقت الأحداث المزلزلة، فكان اغتيال النقراشي، ثم أعقبه اغتيال الإمام البنا برصاص خلفاء النقراشي ثاراً وإرهاباً ، وما سبق ذلك من عدوان على مراكز الجماعة ، والزج بكبار مسئوليتها في ظلمات السجون .

وكان جو الرعب هذا كافياً ليشجن صدور المصريين بقوارع النقمة والاستعداد للتفجر ، الذي ما لبث أن تحقق في ثورة عام ١٩٥٢ ...

ولقد صادفت تلك الثورة ارتياح الكثيرين من المصريين آنذاك، وذلك أمر طبيعي على اعتبار أنها حركة تفيح تفتح للناس أن يأخذوا نفساً طويلاً ، ويشير في نفوسهم أملاً جديداً ، وإن كان مفلتاً بالعموم .

توقعات ووقائع :

على أن أختانا الدكتور جريشة يقول بأنه كان يخالف الناس في شعورهم ذلك ، إذ كان في قلبه تخوف كبير من حكم العسكريين ، ويزيد على ذلك أنه كان يستشعر توقعات غير مريحة بالنسبة إلى بعض القادة دون أن يعرف لذلك سبباً ملموساً ، وقبل ظهور أي من تصرفاته المعروفة ، ثم تأيد هذا الشعور باللفظة

للدستور ١٩٢٣ الذي دعت مصر ثمة سيلاً من العذاب والدعاء ، وعلى الرغم من أن هذا الإلغاء قد مر دون أن تثار بوجهه أية معارضة ، فقد ضاعف من ريبته في الرجل ، إذ كان يخشى أن يساعده فراغ البلد من الدستور على تثبيت سلطته الاستبدادية ، التي يتعذر الخلاص منها فيما بعد .

ويستشهد لوقفه ذلك بأبيات لشوقي ألقاها في الكلية عقيب الفراغ من دروس مادة القانون الدستوري عام ٥٢ - ٥٣ وفيها تجيد للشورى التي هي الضمان الأكبر للعدالة والكرامة ، ومنها :

والعز ^(١) الدستور والإكبار	الحق أبلج والكنانة حرة
فيه ولا يطنى به جبار	والأمر شورى لا يميث مسلط
وبشئ لم يجدوا السلاح فساروا	إيمان آباء مشوا بسلاحهم

وتتفاعل في صدره التوقعات المزعجة ، فيسجل ما يتصوره منها في أبيات ينفت خلالها كل كرمه وشكه في نوايا ذلك الرجل ، منها :

هذي السجون شكت لربك ظلمكم ودعت عليكم بخيبة ووبار

وكان ميلاد هذه الأبيات في العام ١٩٥٢ نفسه ، إذ كان كل ما هنالك ينسب باتجاه الانقلابيين نحو هذه الغاية الرهيبة - كما يقول الدكتور - .

سهاط ومسلمات :

ويصف حادثة ذلك اليوم قائلاً : لقد دأبت الجامعة على إحياء ذكرى شهدائها في معركة القناة كل عام ، ويقوم شباب الإخوان في الجامعة بإعداد الحفل والإشراف على تنظيمه .. وفي اليوم المعين فوجئت الجامعة بكوكبة من (هيئة التحرير) تحاول القيام بهذه المهمة ، على اعتبار أن الشهداء من حزبها !..

(١) وهذه من هنات شوقي (رح) فالعزة لله ولرسوله والمؤمنين .

ولكن شباب الإخوان لم يلبثوا أن استولوا على الموقف ، وبدأوا الاحتفال على الوجه المعتاد في تنظيم دقيق ، يقوم على رأسه زعيم طلبة الجامعة الأستاذ حسن دوح ، ويحضره من الضيوف الشهيد نواب صفوي ، قائد حركة قداميان إسلام في إيران .

وبينا الناس يتابعون الاحتفال في غمرة من الذكريات المريرة المقيدة - إذ هم بمجموعة من شباب منظمات التحرير تقف فناء الجامعة في حركة شبه عسكرية ، وخلفهم سيارة جيب للجيش عليها ضابط الخابرات كال يعقوب ، وتحمل شحنة من السياط السودانية والمدسات ، وجمل هذا الضابط يطلق الرصاص باتجاه التجمع ، ويقوم بتوزيع السياط على شباب المنظمات .. وهناك تقدم أحد الإخوان المدربين في معارك القنساء وفلسطين - فتعي البوز - واستطاع بالمصارعة اليابانية أن يهوي بالضابط المعتدي من أعلى السيارة إلى الأرض ، ويحرقه من مدسه .. وتلا ذلك قيام بعض الشباب بإحراق السيارة .

أكاذيب ومحاولات :

وفوجيء الناس مساء اليوم نفسه ببيان مجلس قيادة الثورة يصور الحادث مقلوباً ، إذ يجعل الإخوان هم المعتدين ، ويملن القبض على المرشد العام بتهمة أشد بعداً عن الواقع ، وأدل على ما يبنت الثوريون من شر للجماعة ، فقد زعموا في بيانهم هذا أنه اتصل بالإنكليز من وراء ظهر الثورة ... وكان معلوماً عند الواقفين على مجاري الأمور أن اجتماع المرشد بالمستشار الثقافي للسفارة البريطانية (ايفانز) قد تم بتوجيه من قيادة الثورة ، ومن جمال عبد الناصر ذاته ، الذي وجد في هذا الاتصال فرصة لتقوية مركز المفاوض المصري ، فطلب إلى المرشد أن يتغالى في شروطه ومطالبه من الإنجليز في قضية الجلاء ، حتى يبدو هم متساهلين معهم بالنسبة لتشدد الإخوان .

وكان لذلك الاعتقال أثره الكبير في الوسط الجامعي فلم يلبث أن تفجر بالتظاهر احتجاجاً على ذلك التصرف الأحمق ، ومطالبة بالحرية والإفراج عن

المعتقلين ، وشملت القضية هيئة التدريس فشارك بعض أفرادها بالاحتجاج ، وأصدروا البيانات الصارخة بعمارضة الاستبداد ، والإلحاح على إطلاق الحريات ، وبدلاً من أن يجد ذلك صده لدى العسكريين فيعدلوا من خطتهم المنذرة بأصناف الشرور ، أبوا إلا الإصرار على مسلكهم الطائش ، وبعثوا بأحسد أعضاء القيادة ليقنع مجلس الجامعة بالموافقة على دخول قوات من الجيش حرم الجامعة لإخاد حركة الطلاب ، ولكن المجلس رفض بإباء تلك المساومة ، بل رفض خروج أحد من الأعضاء للقاءه أثناء الاجتماع ، وعندما التقى الوفد بالمسئول أسمعه هذا رداً جافاً ، كان عاقبته أن اعتقل في اليوم نفسه .

تظاهرة وشهداء :

وبلغت النقمة الشعبية ذروتها في التظاهرة الضخمة التي قادها عبدالقادر عودة إلى ميدان عابدين عام ١٩٥٣ ، وعلى الرغم من الرصاص الذي أطلق على الجموع ، وأصاب العديد من طلاب الجامعة هناك ، لم تزل تتصاعد في اضطراب حتى لم يجد المسئولون مندوحة عن الانكسار أمام ضغطها ، وأعلنوا تراجعهم عن التدابير التي اتخذوها لمقاومة الإرادة الشعبية ، وانطلقت الحيلة على قيادة التظاهرة ، ففوتوا على البلاد فرصة الخلاص من الحكم العسكري ، كما فوتوها من قبل ومن بعد ، وتركوا للمتسلطين المجال فيجأ لاختلاق ظروف أخرى تمكنهم من القضاء على جذور المعارضة والمعارضين .

من القضاء إلى السجن :

ولقد عرف قراء العربية الكثير مما عاناه هذا الأخ في ظل الحكم الماضي في مصر ، حتى أصبحت قصته من المعالم التي تميّن مسار الحياة السياسية في مصر . وهنا يحدثنا فضيلته ببعض هذه الأحداث التي لا يد من تسجيلها في عصر كهذا .

يقول : إنه عقيب تخرجه في الحقوق عين في النيابة العامة بمدينة السويس ، ومن هناك أتيج له أن يشهد الكثير من صور المأساة التي أنزلها العدوان الثلاثي في وطنه ، وما رافق ذلك من أضرار السيادة المهيمنة على مقدرات هذا الوطن .

لقد رأى بصفي رأسه طائرات الجيش المصري تحترق في مرابضها دون أن تقوم بأي عمل للدفاع عن نفسها وعن بلادها .. ومع ذلك لم يتورع كبير المسؤولين عن هذه الكارثة التاريخية أن يعلن للشعب أن الطائرات التي احترقت لم تكن سوى طائرات هيكليّة وأن الطائرات الحقيقية لا تزال سليمة لم يمسها سوء .

يقول : إنه سمع هذا التصريح من فم الرئيس نفسه إذ كان يخاطب على منبر الجامع الأزهر ، فلم يستطع ضبط نفسه ، فإذا هو ينطلق بقهقهة محترقة أصابت سامع من حوله ولم تخطئه سمع الرئيس نفسه .

وخلال عمله في النيابة لمدة ست سنوات أتيج له الاحتكاك بمختلف الطبقات ، ويخص منهم بالذكر ضباط الشرطة وضباط الجيش ثم رجال القضاء ، وقد زودته خبرته تلك بتجارب واسعة وعملية ما كان يوفق إليها لولا وجوده في ذلك العمل .

ويرى من أهم الأحداث التي واجهها في هذه الفترة تلك التي تلخصها في ما يلي :

ذات يوم ، وكان وكيل النيابة ، تاقى بلاغاً من المباحث العامة يقول بأن أحد الموظفين قد أرسل برقية سباب إلى رئيس الجمهورية ، فطلب إليهم إحضاره لاستجوابه ، وقام بالتحقيق في جو مشحون بالرغبة . وبينما كانت الشرطة تنزّعب منه أقسى الإجراءات بحق هذا الموظف ، إذا هم يفاجأون بقراره القاضي بالإفراج عنه دون ما كفالة ، على الرغم من إقراره بالبرقية وما تضمنت . وعلل ذلك بانعدام عنصر الجريمة في الموضوع .

يقول الصديق : وكانت ردود الفعل كثيرة في أعقاب ذلك القرار ومتعددة المصادر ، إلا أن الله حفظني من عواقبه ، فلم يتخذ بحقي أي تدبير مضاد ، وكأني بقراري ذلك قد شجعت بعض الناس على التنفيس عن صدورهم ، فراح يحرب حظه في هذا المضمار . وذهب أحدهم إلى دار المحافظة يصرخ بشتم الرئيس ، ظناً منه أن النيابة لا تجس من يشتمه ، ولكن خاب فال ذلك المسكين ، إذ أحيل إلى وكيل نيابة آخر لم يلبث أن أصدر قراراً بحبسه .

ثم يتابع : لقد نقلت عقيب ذلك من النيابة للعمل في مجلس الدولة بوظيفة قاضٍ عام ١٩٦٠ وظللت في عملي هذا إلى يوم اعتقالي سنة ١٩٦٥ .

في أتون العذاب :

ولا حاجة إلى التحقيق في مسببات اعتقاله ، إذ أصبحت العلة المشتركة بين معتقلي الإخوان كلهم معروفة .

أما التهمة المباشرة فادعاء مشاركته في التآمر لقلب نظام الحكم ضمن مجموعة المتهمين بالعمل لذلك تحت قيادة الشهيد سيد قطب .

وبعد زمن مشحون بألوان التعذيب ، الذي تعجز الأقلام عن استيعابه ، يصدر الحكم على المتهم البريء بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة اثني عشر عاماً ، قضى منها ثمانية ثم فرج الله عنه بقرار العفو الذي شمله مع الكثيرين ، بعد إذ تبين لأولي الأمر الجدد أن القضاء على الإسلام ليس سبيله الإرهاب والقتل وتعريض الأمر الكريمة للسقوط ، كما اقترحت ذلك عصبة الطواغيت .

فإن مثل هذا التكال لا يعدو أن يخيف الناس ، فيحول صراخهم إلى غليان داخلي يترقب الفرصة المواتية للانفجار ، وها هي ذي الشواهد قائمة في كل مكان من مصر على أن الأتون الأحمر لم يزد الإسلام إلا تالفاً ، ولم يزد المؤمنين به إلا تقانياً في حبه وتصميماً على الموت في سبيله .

ولقد كان من حق هذه التجارب الحاسمة أن تقنع من لم يقتنع بها حتى الآن من حكام المسلمين ، فيعدلوا عن طرائقهم في حرب هذا الدين . ولكن المؤسف أن العبرة أبعد ما تكون عن القلوب المغلقة . وإني لأكتب هذه الكلمات وفي سمي دوي التصريح الذي يتهم به ذو الفقار بهوتو العلامة أبا الأعلى المودودي بتوزيع السلاح على أعضاء الجماعة الإسلامية لنشر الإرهاب ، وفي النشرة الإذاعية نفسها اتهام الشيخ المودودي رجال بهوتو الرحمين بمحاولة إلقاء السلاح في بيته ، لتأليف التهمة الباطلة ضده وضد جماعته ... وهذا يعني أن هناك خطة شيطانية جديدة يدبرها أعداء الإسلام لإحداث مجزرة جديدة في صفوف الأبرياء ...

مأثرة القضاء المصري :

وخيراً فعل هذا الشهيد الحي حين لجأ إلى القضاء المصري بلاحقة المجرمين ، الذين تعاونا على تعذيب الأبرياء ، فأغرقوا مصر الحبيبة في بحر لا ساحل له من الإذلال والقهر .

وخيراً فعل القضاء المصري حين رد لمصر كرامتها السلبية ، بما سجله من فضائح العصبية الطاغية ، وبما أعلن من براءة الفئة المؤمنة ، فضمد بذلك الكثير من الجراح التي ما برحت تنزف بالدماء .

وفي مقالة تحت عنوان «مرحمى لقضاء مصر» كتبتُ أثر صدور ذلك القرار الكريم ما يلي :

« أيام محنة الإخوان في مصر استصخرحت ضحائر الهيئات العالمية لمسايجري في المعتقلات من أفانين التعذيب الوحشي ... وراى الجلادون أن يأذنوا لبعضها بدخول مصر للاطلاع ، ولجورد تضليل الرأي العام ، وفعلاً واجهوا بعض تزلاتها ، ثم خرجوا يعلنون على ألسنة الوكالات العالمية سلامة الوضع ، وفتح المعتقلين بكل حقوقهم الإنسانية !

ولا حاجة إلى القول بكذب تلك التكذيبات ، بعد أن ثبتت الوقائع باعتراف المسؤولين، وعن طريق المشهين، الذين أتيج لهم أن يعادروا سرايب الموت في السجن الحربي ، ومعتقل الطور ، وظلمات أبي زعبل وأخواتها ... ولكن الشيء، الذي لا يزال ملفوفاً بالغموض هو نوعية الأكاذيب التي أعلنتها تلك المنظمات ، أفد نعدتها وهي بها عائلة ، أم أن الجلادين قد جمعوا ممثلي الصليب الأحمر ببعض سجناء اليهود ، الذين كانوا ينعمون بمستوى عال من الرفاهية هناك ، كما يروي مؤلف كتاب « أقسمت أن أروي » وأوهوم أنهم أمام معتقلي الإخوان بالاتفاق مع أولئك السجناء اليهود طبعاً ؟ ..

وهكذا خرجت مغامرات القاهرة يومئذ ظافرة في ذلك الامتحان، فلم يشر إليها حتى بكلمة استنكار . واليوم ، وبعد انقشاع سحب الإرهاب عن ربوع مصر المزينة، رأينا الدكتور عبدالله رشوان، الخارج من ظلمات السجن الحربي، يحاضر في نقابة المهامين بالقاهرة عن عهود التعذيب التي وضعت مصر كلها في القيود ، ويكشف عن أسراره ما فاق كل معلوم من أخباره .

وفي نهاية المحاضرة يعلن الأستاذ نقيب المهامين أن النقابة سترفع الدعوى على جلادي مصر أثناء تلك الفترة الحالكة . وانتظرونا ، ولا نبرح ننتظر ، دون أن نلح أي بادرة تبشر بتحقيق ذلك الوعد .

على أن أسعد ما لسناء حتى اليوم من انتفاضة الضمير المصري في نطاق هذه الأحداث ذلك القرار الذي أصدرته إحدى محاكم القاهرة في قضية الدكتور علي جريشة ، أحد ضحايا تعذيب السجن الحربي طوال ثماني سنين ، فسجلت به أول انتصار في التاريخ الحديث على السلطة الحقة . إذ كان مضمون القرارات إدانة فاضحة لذلك العهد ، ومن ثم للهيئات الدولية التي أعلنت نفاذ تلك السجن من فنون المنون .

لقد قضى القرار للدكتور جريشة بثلاثين ألف جنيه تعويضاً له عن مصادرة حريته ، وتعريضه لألوان التعذيب خلال سنوات اعتقاله الطالم ... وتقدم في

نصرة للمعداة خطوة أبعد ففضى بوجوب إحالة وزراء العدل لذلك العهد إلى القضاء بتهمة التستر على تلك الجرائم ، ثم قوج تلك المفخرة بالإصرار على ضرورة هدم السجن الحربي ، بوصفه رمز الذل الذي فرض على مصر طوال ذلك العهد الدامي .

أجل لقد كان هذا القرار العظيم أول انتصار للحرية على عبودية القهر ، فاستحق أن يتخذ بجانب الانتصار العسكري ، الذي حققه الجيش المصري على خط بارليف تحت راية (الله أكبر) بعد الهزائم التي مني بها أيام كان يزحف تحت راية الطغيان ، مزوداً برسوم الرقعا من (نجوم الرقص) والغناء ... إنسه الضربة الأولى في أساس (باستيل) حمزة البسيوني وشمس بدران وصلاح نصر وبقية الطواغيت ... ولا يد أن تتبعها قريباً أو بعيداً الضربات التي تأتي عليه من القواعد ، فيختر ملعوناً مذموماً ، كما خر من قبله (باستيل) الطواغيت في قرنة على رؤوس جلاديه .

بهذا القرار العظيم دخل المسلمون مرحلة التحرر من كابوس الخابرات ... فبات من حقهم أن يترقبوا الخطوات التالية ، التي ترد للإنسان المسلم الكرامة التي قررها له الإسلام ، وسلبه إياها الظلام في عهد الظلام .

أما ما سبق ذلك من إحراق أشربة التجسس فلا يعدو أن يكون محاولة لإخفاء الحقائق الرهيبة بدلاً من إبرازها - على رأي الدكتور رشوان - .

فمرحى لقضاء مصر . ومرحى لقراره الذي كان أكبر فضيحة لها كم جمال سالم وذكربا محي الدين وبقية السفاحين .

وتوقف التعذيب :

ويطرقنا فضيلة الأخ أكرمه الله من أحداث السجن - ولا حاجة لعرضها بعد صدور كتابه عنها « في الزنانة » - بطرفنا بالأقصوصة التالية :

يقول: في غمرات التعذيب الهائل صأزحه المشرفون على الجلادين أن السبيل الوحيدة لدفع البلاء عنه محصورة في أن يقدم معلومات مفصلة عن ثلاث تنظيمات، على أن يكون أفرادها ممن عرفهم أثناء أعماله السابقة في الشرطة، والجيش، والمباحث، ونازعته نفسه لحظة... بين أن يستمر في التحمل أو يفضي بالذي يريدون، فيريحها من أثقال العذاب. وكاد يقهره الضعف، ولكن الله سلم، وألقى نفسه بنطلق بنكته ساخرة لم تلبث أن غيرت مجرى حياته.

قال لجلاديه: نعم. سأخبركم... فاسمعوا.

وراح يسمي بعض الضباط ويشير إليهم بيده: هذا... وهذا... وهذا... وكلهم ممن يقوم بتعذيبه وإخوانه!

وأدرك مدير الشرطة العسكرية أن محاولتهم لن تأتي إلا بنيل هذه النتيجة، التي لن تكون في مصلحتهم، لأن مجرد ذكر المتهم أي أمم كاف للقبض على صاحبه، وإخضاعه لأقانين التحقيق.

وهكذا توقف التعذيب، وجاء فرج الله من حيث لم يحتسب.

المدرس الصالح:

ولم يعد إلى القضاء بعد مفادته المعتقل، بل اتجه إلى العمل في التدريس، فبدأ ذلك في كلية الشريعة والقانون التابعة للأزهر، وبعد سنة انتقل إلى الرياض ليعمل في جامعتها، ومن ثم إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة، حيث قدر الله لنا لقاءه ومزاملته، وسعدنا بالعمل معه في بعض المهام الخاصة بالجامعة، فكانت فرصة لتعرف المزيد من فضائله التي تستحق المزيد من التقدير.

ولا تخبر بجهول عندما نقول إن أبرز الخصائص التي يحسبها منه عارفوه، ذلك الإخلاص الذي يوليه كل عمل يمهده به إليه، فيقبل عليه بكل طاقته حتى يوفيه حقه. وبهذه الميزة يستحوذ على احترام الجميع، وبخاصة طلابه الذين يحبون من كل قلوبهم، ويحبهم من كل قلبه، فهو معهم بمقام الأب الذي لا يرضن

على أبنائه بخير ، لا مقام الموظف الذي يعدد أياماً ليقبض راتباً ... وإنما للقيمة التي تطبع كل ما يكتب من بحوث ومقالات ومؤلفات ، فتفرض نفسها على شعور القارئ ، حتى ليخيل إليه أنه يقرأ لأعزّ الكتاب عليه ، هذا إلى ما يميز نتاجه الفكري ، من منهجية علمية ، لعلها أثر من دراساته الحقوقية ، وممارساته القضائية ، مضافاً إليها امتداد في الثقافة يمكنه من الجولان في أي ميدان يس الفكر والنفس ، وكل ذلك في صياغة أدبية تؤكد ما حدثنا به من حبه للبيان العربي .

مؤلفات وشعر :

وعن الشعر يقول الدكتور: لم يكن من صناعتي ، ولكني نظمته ، بل نطقته أحياناً ، كرد فعل لأحداث أثارتني ، كان من بينها على سبيل المثال تنفيذ حكم الإعدام في الشهيد عبد القادر عودة وصحبه الأخيار عام ١٩٥٥ . وأذكر من ذلك أبياتاً جاء فيها :

ملء العيون ونورها إيماناً !	أو ما رأيت على المشائق زمرة
باعوا النفوسَ وباعوا القرآناً	يشون للموت الرهيب أعزة
	ومنها في خطاب الشهيد :
ورفعت صوتك عالياً ربنا	هفي عليك إذا المشائق نصبت
ودمي يلاحق عصبة خواناء ^(١)	«روحى فدى الإسلام إن عزَّ الفدا

آراء سريعة :

وعن مستقبل الجيل الإسلامي يقول :

لقد أثبتت سياسة القمع والإرهاب إخفاقها في حرب الفكرة الإسلامية بصر ، وأقبل الشباب - على الرغم من غياب الدعاة - على الدعوة في وعي

(١) البيت تلخيص لآخر كلمات الشهيد عودة أمام جبل المنفعة رحمه الله .

وحاسة ، مما اضطر (السادة) المهركين للمبيد أن يعدلوا من خطة الإرماب التي اتبعوها في ربع القرن الأخير ، وخير لهم أن يبقوا على خيوط العنكبوت يحفظ مصالحهم الاقتصادية بدلاً من أن يعرضوا مصالحهم ووجودهم كله للخصارة والضياح ، فقانون الحياة الطبيعي أن لكل فعل رداً مساوياً له في القوة ، ومضاداً له في الاتجاه .

وعن مهمة العلماء في ضبط مسيرة الجليل يقول :

العلماء هم المنصر الثاني الذي يصلح به الناس .

ولا شك أنهم يملكون الكثير إذا أتوا قبل العلم الاخلاص ، ثم أتوا مع العلم الصبر والدأب والوعي .

ولقد قام المجتمع الاسلامي الأيل بالعلماء وعلى العلماء ، فلا غرو أن يقول فيهم رسول الله ﷺ أنهم ورثة لأنبياء .

لكن علينا أن نعلم أن القدوة الصالحة أعمت في التأثير من مئة خطبة بغير قدوة .

فروس المهنة :

وكان لا بد من استفسار الصديق عن ردود الفعل للمحنة التي عاناها في سجون الطفلة . فأجاب : كانت خيراً كلها والله الحمد .. وهيهات لي أن أعدد نعم الله عليّ ظاهرة وباطنة ، أثناء المهنة وبعدها . إنها فوق ما أستحق وما كنت أتصور . والله نسال أن يحمينا بالاسلام ويمتتنا عليه ، فهو الدين الحق الذي لا يقبل من أحد سواء ، وهو العلاج الوحيد للشقاء الذي يعيشه الناس اليوم أفراداً وأسرراً وجماعات وأماً .

« أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ، كمن مثله في الظلمات ، ليس بخارج منها ! .. »

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي

شيخنا وأخونا وزميلنا العالم القرآني الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي الحكيم عليه رحمة الله .

والأمين كالمختار من الأسماء التي كثيراً ما تقرن باسم محمد عند الشنقيطين تبركاً وتيمناً وتعيزاً عن حبيبهم لرسول الله ﷺ . والحكي نسبة إلى القبيلة التي تنحدر من جدّها الأعلى (جاكن) الذي يرجع في أصله إلى حمير .

ولد عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة في (تنبه) من أعمال مديرية (كيفا) من موريتانية التي غلب عليها اسم شنقيط عند نسبة السكان، وهو اسم لقربة معروفة من أعمال مديرية اطار في أقصى الشمال من موريتانية .

نشأ ، أحسن الله مثواه ، في جو يغلب عليه طلب العلم وروح الفروسية تأثراً بالوسط القبلي الذي فيه نما وترعرع وشب . وهو وسط تحتضن البادية ، ويغلب عليه التنقل طلباً للتمناخ الأصح ، وإلى هذا يشير أحد مشايخ الحكيمين إذ يقول :

ونحن ركب من الأشراف منتظم أجل ذا العصر قدراً دون أدنانا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة بها نبين دين الله تبياناً

فهو يصف قومه بأنهم (ركب) للدلالة على استمرار تقلبهم ، ويرى أدنى فرد من قبيلته أعلى مكاناً من أعظم رجال عصره ، وأنهم بالتالي مواظبون على مذاكرة العلم ، لا ينعمهم منه حل ولا ترحال ، إنه العلم الذي يثبت في القلوب دين الله ، ويوضح لطالبه أحكام الشريعة .

ثقافته :

ينقل تلميذه الشيخ عطية محمد سالم ، القاضي بحكمة المدينة ، عن شيخه أنه يقول : توفي والدي وأنا صغير أقرأ في جزء عم ، وترك لي ثروة من الحيوان والمال ، فسكت عند أخوالي ، الذين حفظت القرآن على أحدهم عبد الله بن محمد المختار ، ولما أتجاوز العاشرة من سني .

وعلى منهج القوم في باديتهم جعل يتدرج في مراحل العلم ، فتعلم رسم المصحف العثماني على ابن خال له ، ثم درس عليه التجويد على قراءة نافع برواية ورش ، وقال بذلك إجازة تصل قراءته برسول الله ﷺ وهو في السادسة عشرة .

وعلى طريقة السلف من حيث العناية بكتاب الله أتبع الشيخ أن يدرس على شيوخه في القبيلة الكثير مما يتعلق بحروفه ومفرداته وتراكيبه . وأولع بذلك حتى نظم بعض التذييلات على بعض المتون الخاصة بالقراءة .

وتابع الشيخ دراسته ، فقرأ المختصرات من فقه مالك الذي يعم معظم الشمال الإفريقي وما حوله .. وأقبل على الأدب يدرسه على زوجة خاله الذي يتولى تغذيته بعلم القرآن ، وأخذ عن هذه الشيخة أيضاً مبادئ النحو إلى جانب الفنون الأخرى من أنساب العرب وأيامهم ، ثم ما لا بد من معرفته هناك عن السيرة النبوية وغزوات الرسول ﷺ . وبين مراجع هذه العلوم متون منظومة تبلغ المئات من الأبيات .. ومن هنا كان ما نلناه في حديث الشيخ طيب الله ثراه من تبحر في أنساب العرب وعلاقات قبائلهم وأيامهم ، بصورة تغني عن الرجوع إلى مختلف الأسفار .

ولم يقف الشيخ رحمه الله عند دروس آله ، الذين كانوا مثابته الأولى ، فجعل يتصل بآخرين من علماء القبيلة ، فيتلقي عنهم ما ينقصه أو يزيده قوة من مختلف الفنون ، كالنحو والصرف والبلاغة والأصول والتفسير وفنون الحديث .

وكان على الشيخ رحمه الله ألا يكتفي بما يتلقاه عن شيوخه وشيخاته ، فراح يكعب بنفسه على مختلف الأسفار في ما درس وما لم يدرس ، ومن هنا توافر له ذلك التضلع الملموس في علم المنطق وأصول البحث والمناظرة بما لا يكاد يضاهيه فيه إلا الأقلون .

مناهج طريقة :

ويحدث الشيخ غفر الله له عن مسلكه التعليمي أيام الطلب ، فيمرح لنا صورة حبة عن بعض أولئك الشيوخ الذين يقفون أنفسهم على نشر العلم في أوساط تلك القبائل .

إن الواحد من هؤلاء لينقل من حي إلى آخر في سبيل نشر ما يحمله من العلم ، فإذا آتس من قوم رغبة نزل فيهم ، وأقبل عليه الطلاب ينهلون مما عنده ، دون أن يكلفهم شيئاً ، بل المؤلف أن ينفق على المحتاجين منهم إذا كان ذا يسار ، ويسمون الشيخ من هؤلاء (مرابطاً) وما أصحها تسمية .. إذ هو كالمربط في سبيل الله لا عمل له إلا تفضية القلوب بما يحببها ، وتزويد النفوس بما يهديها ويصونها من مزائق السوء .

ومن الأصول المعهودة في هذه المدارس - القائمة في الهواء الطلق - أن يقسم الشيخ طلابه مجموعات ، لكل واحدة دروسها المناسبة في أوقاتها المحددة .

وما يسترعي الانتباه في هذه المناهج أن لا يجمع الشيخ على تلميذه أكثر من فن واحد ، فإذا بدأه استمر فيه حتى يستكمله ، ومن ثم ينتقل إلى سواء ... وهكذا دواليك .

والطالب يجمع بين القراءة والكتابة جميعاً ، فهو يكتب الجزء المطلوب من

ممن العلم المراد على لوجه الخاص ليقوم بحفظه ، فإذا فرغ منه محاسبه وأتبعه
بالجزء الآخر كتابة فحفظاً ، حتى إذا استوفى المكلف حفظه أقبل على الشيخ
يتلقى شرحه وفق ما يحتمل .. وبذلك لا يكاد الطالب الجاد يفرغ من مقرراته
حتى يكون قد تمثلها تصوراً وإملاء وفهماً .

ولا جرم أنها صور طريفة من المناهج يستقرها القارئ ، الذي يعلم أن
الدراسة قد استحالت هذه الأيام إلى ضرب من الإرهاق ، الذي لا يتوقع من
ورائه أي مردود علمي صحيح .

إننا المناهج تثقل الطالب بحمل مقرراتها اليومية ، وتقتضيه من المجهود
ما يذهب بصحته ، وربما يعقله أيضاً . وعليه أن يلتزمها جميعاً ، ويتقياها
جميعاً ، وإلا كان من الراسين المحرومين ، الذين لا حق لهم بأي عمل رسمي .

ومن هنا ، من الفرق بين الطريقتين ، جاءت الفروق الكبرى بين ثمرات كل
منها ، فإذا كان من طبيعة الأولى تخريج العلماء ذوي العمق والتحقيق فمن شأن
الأخرى تخريج الموظفين ، الذين لا يكادون يؤدون امتحان المقررات حتى
يفارقوها إلى غير رجعة .. إلا من ميزه الله بموهبة خارقة ، أو أحاطه ببينة
صالحة ، تحبب إليه اكتشاف المجهول من عوالم العلم .

ولا بد من ملاحظة أن تلك المناهج القريبة عما نعهد اليوم في المدارس
والمعاهد والجامعات ، إنما هي بنية معدلة من أساليب التعليم التي تكونت في
ظل الحضارة الإسلامية ، إذ بدأت في المساجد حلقات ، ثم تحولت فصولاً في
الإنشآت المخصصة للعلم .. فأدت مهمتها كاملة بإعطاء العالم أعظم رجال الفكر
في نطاق الدنيا والدين .

بواكير مبشرة :

ويعود إلى جهاد الشيخ في طلب العلم ، حيث يروي لنا تلميذه عن لسانه أن
أهد لما آتسوا منه استمداده لذلك رجحوا إليه عنايتهم ، فزودوه بما يعينه

عليه ، فقدم على بعض المشايخ من عرفوا بسعة العلم ، وحين سأل الشيخ عنه قائلاً : من هذا ؟ أجاب مرتجلاً :

هذا فقي من بني جاكأن قد نزلا
رمت به همة علياء نحوكم
فجاء يرجو ركاباً من سعائبه
إذ ضاق ذرعاً بجهل النحو ثم أبي
وقد أتى اليوم صباً مولعاً كلفاً
إذ شام برق علوم نوره اشتعلا
تكسو لسان الفقي أزهاره حثلا
ألا يميز شكل العين من (فعلا)
بـ (الحمد لله) لا أبني به بدلا

فهو يمدح الشيخ بالإشارة إلى ما اشتهر به من العلم ، ويقضو بنسبه وعلومته ، ويعرض حاجته إلى علم الصرف ، حاصراً مطلبه بلامية الأفعال المبدوءة بحمد الله .

وقد حذفنا عجز البيت الأول لعدم وضوحه بسبب الرواية - على الغالب - ويلاحظ من أسلوب النص أنه محاولة أولية في النظم ، تجري على لسان فقي لا يزال في طور الحدادة ، فتم عن استعداد صالح للتقدم .

وشغل الفقي بحب العلم عن كل ما عداه ، فلما فوتح في أمر الزواج لم يتردد في إثارة العلم والدواة على العذارى القاتنات :

دعاني الناصحون إلى النكاح	غداة تزوجت بعض الملاح
فقالوا لي تزوج ذات أدل	تحلوب اللفظ جائلة الوشاح
كأن لحاظها رشقات نبل	تذيق القلب ألوان الجواح
فقلت لهم دعوني إن قلبي	من الغي الصراح اليوم صاحي
ولي شغل بأبكار عذارى	كأن وجوهها ضوء الصباح
أراها في المهارق لإبسات	يراقع من معانيها الصحاح

إنه مشغول بتمعة العلم عن الأناس بالزوجة ، حتى ليصرفه التفكير بالمعاني الغوامض عن حاجة نفسه ، التي هي أشد ما تكون تفتنحاً إلى ذلك الأناس .

ولا جرم أنها طلائع حياة لا يستغرب أن تكون جافة بروائح التفوق الذي لم يلبث أن تجلى في ذلك الاستيعاب الموسوعي الذي لا نعرف له مثيلاً في غير الكبار من أساطين العلوم الذين نقرأ عنهم ونقرأ آثارهم .

الشيخ القاضي :

لا يزال لعلوم الشريعة قيمتها الرفيعة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي ، فحمة هذه العلوم هم مرجع الناس في كل ما يعترضهم من مشكلات يومية ، يسددونهم إلى المسلك الأقوم ، ويفتونهم في ما اختلفوا فيه من الحق .. وبذلك يتهضون بمهمة الإفتاء والإرشاد ، ويحملون عسن القضاة كثيراً من أعبائهم .. وطبيعي أن يكون ذلك في البداية أوسع انتشاراً وتركيزاً منه في الحواضر ، ومن هنا كان لشيخنا، تقدمه الله بواسع الرحمة، مهامه الكثيرة في ذلك الوسط ، الذي يعتبر فيه العالم مرجع الكافة في كل شيء .. فكان المفتي والمرشد والواعظ والمصلح والقاضي .. يتقاضى إليه المتنفلون فيستكتبهم الإقرار بقبول حكومته ، ثم يثبت اعترافات كل من الخصوم على حدة ، وبإزائها ردود الغريم ، ثم يصدر حكمه عملاً مؤيداً بالأدلة الشرعية من مذهب مالك .. فإذا وصل حكمه إلى المشايخ صدقوه ، وإذا رد إلى الحكام نفذوه دون تردد .. وكان يقضي على هذا النحو في كل قضية تعرض لديه إلا الدماء والحدود ، إذ كان للدماء قضاؤها الخاص في أنظمة السلطة الفرنسية ، فمعاكها هي التي تنظر في كل ما كان ذا صلة بهذا الأمر ، فإذا انتهى حكمها إلى الإعدام عرضته السلطة المختصة على (لجنة الدماء) وهي مؤلفة عادة من اثنين من كبار علماء الشريعة ، وعلى موافقة هذه اللجنة يتوقف نفاذ الحكم .. وكان الشيخ أحد هؤلاء العلماء المعتمدين لأعوام طويلة .

رحلة الحج :

شاء الله أن يبدأ الشيخ مرحلة جديدة من حياته المباركة ، فأزمع القيام بأداء فريضة الحج ، ولا ندري لم آثر أن تكون رحلته عن طريق البر دون غيره من وسائل السفر . . . ولعل ذلك عائد إلى أمرين أحدهما ألفتة ظهور الإبل ، التي قضى معها العشرات من سنه حتى خالطت آثارها كيانه ، فهو حتى بعد استقراره في مدينة المصطفى ، صلوات الله وسلامه عليه ، واستعماله السيارة في تنقلاته ، لا يبارحه الجنين إلى ذلك العهد . . وما أدري كم من حجة أداها على متن البعير ، ضاحي الرأس للشمس ، التي طالما ألفتها في صحراء شنقيط .

والمخالطون للشناقطة عن كثب يلمسون احتفاظهم بالكثير من طوابع بيئتهم الأولى ، مها طال بعدم عنهم وفراقهم لأهلها . . وقد لاحظت امتيازهم بهذه الخاصة على سائر جيرانهم من الأفارقة ، حتى في ثيابهم والألوان التي يثرونها لها . . وفي المدينة غير قليل من مهاجرين لا يكادون يفارقون أزياء الصحراء التي انتقلوا عنها . . فتوب الرجل منهم صورة من الخيمة التي ألفتها هناك : قطعة فضفاضة من القماش المصبوغ بالزرقة ، شق أعلاه لإدخال الرأس ، وأسبغ سائره على الجسم فوق السراويل ، وقد احتفظ بفتحتين عمودتين على جانبيه لتسرب الهواء ، كما تحتفظ خيمة البادية بباين متقابلين للفرض نفسه . . ومع أن أهل العلم منهم شيوخاً وطلاباً قد يعدون في أنواعهم فيقتربون من الثوب الهجازي ، إلا أنهم لا يستنكفون أن يراجعوا ثوبهم الموروث بين الحين والآخر . وقد ساعدهم ذلك على الاحتفاظ بالكثير من خصائصهم المتوارثة ، كما أسلفنا ، وبذلك يختلفون عن سائر الأفارقة ، وبخاصة الشباب ، الذين يسارعون عادة إلى اقتفاء أزياء الأوروبيين - أعدائهم التقليديين - حتى في أشكالها البعيدة عن الذوق المسلم ، ولا يستثنى من ذلك كثرة الطلاب الأفارقة في الجامعة الإسلامية ، على الرغم من كل المواعظ التي توجه إليهم في ذلك .

على أن هذه الميزة - ميزة المحافظة على الخصائص الموروثة - قد بدأت تنقل في حواضر موريتانية هذه الأيام، وبخاصة العاصمة نواكشوط - كما أخبرنا الثقات منهم - فلا غرابة، والحالة هذه، أن يكون إيشار الشيخ، رحمه الله، طريق البر وظهور الإبل في تلك الرحلة بدافع من هذه الطيبة الأصيلة.

أما ثاني التعليلين فلا أستبعد أن يكون مرده رغبة الشيخ الأمين في لقائه العلماء، وتعرف معالم الديار الإسلامية التي تقتضيه الرحلة الطويلة أن يتخذها ممراً.

والمؤسف أننا لا نعرف الكثير عن انطباعاته أثناء هذه الرحلة. ويفهم من محاضرة لتلميذه الشيخ عطية أنه (كتب فيها أوراقاً ضمنها مباحث جليلة) وقد ركز فيها على مشكلات أثارها معه بعض علماء أم درمان في المعهد العلمي بالسودان حول (مبحث القضايا الموجهة في المنطق) .

وقد سمعنا بعض أخبار هذا الحوار منه رحمه الله، وخلاصته أن بعض الإشكالات في هذا الأمر كانت تعترى أولئك الفضلاء، فكان لحواره معهم يومئذ أثره الطيب في جلائسها، ونصرة المنهج المنطقي في أصول البحث. ولا غرابة فهو من أشد أنصار المنطق، يرى فيه المعيار الذي لا يكاد يخطئه في الاستدلال على الحق.. والقارىء بوعي لمؤلفات الشيخ وبخاصة تفسيره الشهير باسم « أضواء البيان... » يلمس هذه الخاصة أوضح ما تكون الفكرة من البروز.

حديث في الشعر :

وتعمل المقادير الحكيمة عملها في تحركات الشيخ والاعداد لمصيره الجديد.. فإذا خيمته في منى أو عرفات يجوار خيمة الأمير خالد السديري دون علم من أي منهما.. وتدرج الحديث بالأمير وجلسائه إلى بعض الشعر. ويظهر أن بيتاً قد أشكل على المتحدثين فرأوا أن يسألوا جارهم عنه، وربما دفعهم إلى ذلك

كلام سبق أن سمعوه من الشيخ يسامر به من معه فتوسموا فيه العلم .. وكان هذا مقدمة لمسيرة ظلت حتى وفاته .. ذلك أن الشيخ على دأبه في قضايا العلم ، لا يكتفي بالجواب الأبتري في موضوع ذي أصول وفروع ، وعلى هذا لا بد أن يكون قد تناول مفردات البيت ومدلولاتها اللفوية ، وما ورد في البيت من الروايات المختلفة ، والمناسبة الباعثة عليه ، وما يتصل به من شواهد في الشعر الجاهلي والإسلامي ، وفي القرآن والحديث ... مما لا بد أن يكون قد أخذ على السامعين انتباههم واستثار إعجابهم . وكفى بهذا حافزاً للتشبث بالشيخ ، وبخاصة في هذه الديار التي لا يزال كثير من أسراتها وأولي أمرها لا يجدون ري نفوسهم إلا في التراث الخالد ، الذي يشدهم إلى أرحام العروبة والإسلام .

مرحلة جديدة :

وكان في نفس الشيخ غير قليل من روااسب الشوائب الملحقة بدعوة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ، تلقاها أيام الطلب ، ومن أفواه الرواة غير المحققين . ولم يكن يومئذ بحاجة إلى غريلة هذه الأخبار أو التدقيق في مواردها ومصادرها ، فاكتمى بما وجد شيوخه عليه .. غير أنه ما لبث أن اصطدم بالواقع الذي لا يمت إلى ما في ذهنه بأي صلة . ولا مفر من التركيز أولاً على مشاهد الحج ، فهي أكبر معرض لأحوال العالم الإسلامي ، في أي جانب من حياته ، ولا سيما من حيث العقيدة .. ورجل في مثل توقد الشيخ لا يفوته تقويم الوقائع ، والتفريق بين أعمال الناس من حيث صلتها بالأصول الشرعية . ثم جاءت لقاءاته مع بعض المشايخ في الحرمين ، ولا سيما في مسجد الرسول ﷺ حيث طاب له المقام .. ولأول مرة - كما يظهر - يتاح للشيخ الأمين أن يطلع على كتاب « المغني » لابن قدامة ، وهو الموسوعة الحنبلية الكبرى . ثم بعض من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم ، وبعض رسائل الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب .. وكان هذا كافياً لتحرير عقل الشيخ من الشوائب الذخيلة جميعاً .. وإذا هو من أشد العلماء اندفاعاً في الدعوة إلى

مذهب السلف ، وتنقيته من كل زائف أو دخيل ، وبخاصة في نطاق العقيدة والأسماء والصفات التي أنبتها الله لذاته ورسوله .

يقول المحاضر في ذكرى الشيخ : « كان لا بد - للشيخ - من دراسة بقية المذاهب بجانب مذهب مالك ، وبما أن الخلاف المذهبي لا ينهيه إلا الحديث والقرآن كان لزاماً عليه التوسع في دراسة الحديث .. » وإذن فقد بدأ إقبال الشيخ على التفقه بالحديث الشريف منذ أن عزم على الاستقرار في هذه الديار . وليس معنى ذلك أنه كان في معزل عن هذا العلم .. وكيف وقد كان أحد المتابعين التي لا بد لطالب العلم أن ينهل منها في منازل القبائل الموريتانية .. إلا أن الفرق يظل واسعاً بين دراسة الحديث كفن ودراسة كأحد مصدري الأحكام ، وكضابط لسلوك المسلم إلى التي هي أقوم . ومن هنا بدأت المرحلة الجديدة في حياة الشيخ .

وجاءت التابعة السعودية في استحياء إلى الشيخ ، واستقر عزمه على لزوم هذه البلاد ، لقربه من الحرمين اللذين أكرمها الله بهما ، ولأن العلم الذي ينطلق منها يأخذ طريقه إلى العالم الإسلامي كله . وعملاً بتوجيهات المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود جعل من تفسير كتاب الله في مسجد رسول الله مهمته الأولى .

في مسجد النبي ﷺ :

كانت دروس الشيخ رحمه الله في مسجد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، حلقة من سلسلة النور ، بدأت بأضواء الوحي تنزل على خاتم النبيين ، ثم تابعت قبسات من ذلك الشعاع يحملها إلى طلاب الخير رجال كانوا في الأرض بمثابة الكواكب في السماء ، يهدي الضال ، وتقوم الأعوج ، وتحيي الموات .

وقد أكرمني الله فشهدت أول درس له في أحد فصول كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية أثناء حجتي الأول عام ١٣٨٢ هـ . وكان في التفسير فوددت ألا ينتهي ،

وكان ثمة عميد لإحدى الكليات الشرعية في إيران ، فلم يتألك أن نهض ليلقي خطبة قصيرة لخص فيها انطباعاته العميقة عن ذلك الدرس العميق . ثم تناول نعم الله عليّ وفي رأسها هجرتي إلى طيبة الحبيبة مدرساً في هذه الجامعة ، ففيض لي ذلك أن أحضر العديد من دروسه في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم .

ومن المقوق لحقوق العلم أن ير الكاتب بدروس الشيخ هذه دون أن يعطي القارىء صورة وافية عنها ولو بمنتهى الإيجاز .

تفتح حلقة الدروس بأي من السورة المقصود تفسيرها ، يتلوها أحد تلاميذ الشيخ ، فإذا فرغ القارىء شرح الشيخ في عمله ، فبدأ بالمفردات يعرض معانيها ومشتقاتها وكل ما يتصل بها من قريب أو بعيد ، مستعيناً على ذلك بما لا يخص من شواهد اللغة ، ومن ثم يتناول العلائق التركيبية بين المفردات ، فيعرض لضروب القراءات الواردة فيها ، ووجوه الإعراب وما تقرره من المدلولات . . . فإذا انتهى من ذلك صرف الأذهان إلى الاستنباط الفقهي ، وما ذهب إليه أصحابه من أشنات المفهوم ، مقارناً ممللاً مقررأ . . . مستعيناً على ذلك بكل ما يتطلبه المقام من علوم اللسان والبيان والأصول والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ، وما يتصل بذلك من الإطلاق والتقييد . ولا يفوته أن يربط بعض المعاني ببعض الوقائع المشابهة على صورة تُثري المعرفة ، وتعمق أسباب الإقناع .

وإذا كان المضمون قصصياً عمد إلى عناصر القصة ، فاستخرج عبرها ، وكشف نذرها ، وقاس ما فيها من صور الماضي على ما يعايشه الناس من أحداث الحاضر .

حتى إذا بلغ الدرس غايته انقض الحشد المتراس ، وقد أخذ كل منه بقدر طاقته . . . فلا يفوت خيره العامي ، ويزود المثقف المتعمق بما هو أحوج ما يكون إليه .

الحق أن الشيخ الأمين كان في هذه الدروس بجرأ لا يدرك البصر شاطئه ..
وحجة لا ترد على أن هذا القرآن مآدبة الله لعباده ، وأنه كما ورد في الأثر :
« فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ،
من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو
حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ
به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشيع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة
الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، .

وراء ذلك كله ذاكرة لم تضعف من قوتها السنون ، تمده بسيل من
المحفوظات المنظمة المنسقة المنسوية ، وتساعد على الربط المهكم بين أول البعث
وأوسطه وآخره .. كل ذلك في لنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية من لحن أو
سوقية ، كما يحلو لبعض المدرسين أن يتظرف بعامةيته حتى في فصول الجامعة .
وبهذه الذاكرة يقدم درسه في الفصل أو في المسجد ، أو في المجلس المرتجل ،
فلا يحتاج إلى تحضير ولا تفكير ، حتى لكأنه ، وهو يلقي عن ظهر قلب ، إنما
يتلو في كتاب ، أو يعترف من عباب .

وصحبت الشيخ سنين في مجلس الجامعة فلم يختلف علي* أمره .. إنه هو
نفسه الذي أعرفه في قاعة الأساتذة ، وفي مجلس العلم ، وفي حديثه الخاص
حيثما لقيته .

لقد كان مجلسنا - لإدارة الجامعة - لا يخلو من مذاكرة في العلم ، دون
تفريق بين قضايا الدين وشئون الدنيا . ولا شك أن للشيخين: الأمين الشنقيطي
تولاه الله برحمته ، وعبد العزيز بن باز ، ثم الشيخ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي
أمد الله في حياتها ، أثراً لا ينسى في روحانية تلك الجلسات ، التي كان يسودها
أبداً جو الجد والوقار ، والتعاون على ككل ما يحقق الخير للجامعة ، وللعلم
الإسلامي بأسره . وما أحسب بيننا - نحن أعضاء ذلك المجلس - واحداً
لا يحزنه فراق تلك الليالي المتألفات بأنوار الحب في الله ، والعمل الدائب

في طاعته سبحانه .. وبخاصة عندما يتذكر كيف مزقّ البينُ وحدةَ العمل ،
فذهب بالشيخ الأمين إلى غير رجعة ، وانتسب بالهلالي إلى أقاصي المغرب ، وصار
بان باز إلى الرياض ، وقد سبقه إليها قبيل ذلك أمين الجامعة الأديب الأريب
محمد ناصر العبودي :

وكنا كندماني جديمة حقة من الدهر حتى قبل لن يتصدعا
فلمسا تفرقنا كأني ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وقد بات على كل منا أن يتوقع المصير الذي سبقنا إليه ذلك الأخ الحبيب
الأثير ، رحمتنا الله وإياه ، وقدر لنا لقاء لا ينفصه فراق أبداً ، مع التبيين
والصديقين والشهداء ، وحنن أولئك رقيقاً .

نشاطه العلمي :

قلت إني عرفت الشيخ لأول مرة عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف يوم حضرت
درسه بالجامعة ، ثم يسر الله لي الانضمام إلى جهاز التدريس بالجامعة في العاصم
التالي ، ومنذ ذلك لم يفارق أبناً بلد الهجرة ، ولم أفقد لقاء الشيخ في الجامعة
أو المسجد أو دار الحديث أثناء الجلسات ، حتى فرق بيننا هادم اللذات ومفرق
الجماعات .. ومعلوم أن الجامعة قد فتحت أبوابها للدراسة منذ العام ١٣٨١ هـ .
وكان الشيخ في الفوج الأول من العلماء الذين تولوا التدريس بالجامعة . أما قبل
ذلك فقد كان منصرفه إلى الرياض حيث دعي عام ١٣٧١ هـ للتدريس في أول
معهد علمي أنشأته الإدارة العامة هناك ، ثم تلته معاهد فكلليات للتريعة واللافة
فتحول إليها ، ولبث يدرس فيها مادتي التفسير والأصول إلى سنة ١٣٨١ هـ .
إذا أعيد إلى المدينة ليمتول التدريس في الجامعة الإسلامية الحديثة دوغماً انقطاع
إلا لمرض ، وإلا لأحابيز محدودة كان يستندع فيسأ هو والعلامة ابن باز
للمحاضرة في معهد القضاء العالي الذي استحدث في الرياض عام ١٣٨٦ هـ . برئاسة
فضيلة الشيخ عيد الرزاق عفيفي .

ولا حاجة للتذكير أن وجود الشيخ في الجامعة الإسلامية منذ إحداثها ، مضافاً إلى دروسه العامة في المسجد النبوي ، كان ذا أثر كبير في فروع علمه ومعرفة فضله . فقد قامت هذه الجامعة في وقت عصيب ، تعرضت خلاله كبرى مؤسسات التعليم الإسلامي العالمية لهزات سياسية ليست في صالحها .. وكانت وجهتها منذ اليوم الأول احتضان طلبة العلم من مختلف أرجاء العالم الإسلامي ، وبذلك أتيج له - كما أتيج لنا من بعد - أن يتصل بذلك العالم كله عن طريق أبنائه الموفدين إلى هذه الجامعة .

فهناك دروس القيمة في فصول الجامعة ، ثم دروسه العامة في المسجد النبوي ، ثم محاضراته التي يدعى لإلقائها في دار الحديث التابعة للجامعة أثناء المواسم الخاصة لهذه المحاضرات .. وهناك وفود الحجاج الزوار المتدفقين أبداً على مدينة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وبينهم رجال العلم والفكر الذين لا يرون مندوحة عن الإلمام بالجامعة ، وزيارة بعض فصولها الدراسية للاطلاع على نشاط هذه المؤسسة الحديثة العالمية .. ولما يحضر وفد من هؤلاء إلى الجامعة ثم لا يشهد محاضرات الشيخ .. هذا إلى دروسه الأخرى التي يختص بها بعض أهل العلم في بيته ، وقد جعل مواعيدها بعد العصر من كل يوم إلا أن يحول دونها الحوائث القاهرة .. وفي بعض هذه الدروس المنزلية أملى الشيخ بعض شروحه ومؤلفاته التي ينعم بها للناس على اختلاف مستوياتهم .

وقد جرت عادة الجامعة من أوائل نشأتها إيفاد البعث إلى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي لدراسة أحوالها على الطبيعة .. وكانت إحدى هذه البعثات برئاسة الشيخ ، وقد بدأت بالسودان وانتهت بمريتانية موطنه الأول .. وحفلت بالكثير من نشاطه ، إذ كان موضع الحفاوة البالغة من حكام تلك الأقطار وعلمائها .. فلم يدع بلداً من تلك الدول العشر إلا بذل فيها من علمه ما أخذ بالألباب ، حتى إن أحد أولئك الحكام ، وقد أراد أن يحجب عن عيني الشيخ ومن معه حقيقة الحكم الرهيب الذي يمارسه في بلاده ، لم يسكد يفارقه

في حل ولا ترحال ، بل كان يحطه في سيارته التي يقودها بنفسه إلى الأمكنة (المعدة) لزيارته ... و ... حتى غادر حدود بلاده . وقد تهاقت المشتغلون بالعلم على تسجيل محاضراته وأحاديثه ، حيث لا تزال تنتظر من يجمعها وينشرها للناس في كتاب .

ومما يندرج تحت نشاط الشيخ العلمي مشاركته في كبريات المؤسسات الإسلامية العالمية كرابطة العالم الإسلامي في مكة ، وهيئة كبار العلماء التي شكلت في الرياض عقب وفاة شيخها وصاحب فتاوها المرحوم الشيخ محمد ابن ابراهيم حفيد الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب .

وقد عرف له أولو الأمر في المملكة مكانته وفضله منذ أيام المغفور له الملك عبد العزيز ، الذي بأمر ملكي خاص أهدى إلى الشيخ هويته السعودية ، ولم يكتف بذلك بل أمر بمنح التابعية لكل من يتق به وينتمي إليه ، مبالغة في إكرامه .

وفي مؤتمر العلماء الذي عقده في الرياض للبحث في موضوع الإمامة ، وقرروا فيه إلغاءبيعة المرحوم الملك سعود بن عبد العزيز ، ومبايعة أخيه فقيد الإسلام والعروبة فيصل بن عبد العزيز ، إيثاراً للصلحة العامة التي لم يكن أجدر من فيصل للقيام بأعبائها ، أدبوا عنهم الشيخ الأمين لإبلاغ قرارهم الملك سعود ، فقام بالمهمة خير قيام ، وكان لكلمته الحكيمه أطيّب الوقع في نفسه ، عقب عليها بإعلانه ثقته التامة بنصيحة العلماء وخضوعه لمقرراتهم .

ولا حاجة للتنبيه إلى أن مثل هذه الثقة التي أحرزها الشيخ في أوساط أولي الأمر وكبار أهل العلم إنما تدل على مميزات شخصية من النوع النادر ، بها استحق كل ذلك التقدير من عارفيه .

وأشهد لقد لمست من هذه المميزات أثناء عملي معه في مجلس الجامعة ، واتصالي به في ما بين ذلك ، ما أكد لي أنه أحد الأقداد الذين يُخشى

إذا فقدوا ألا يعوضوا . وإلى ذلك أشرت في هذه الأبيات التي وجهتها إليه ذات يوم تحت عنوان « قيس وبنبوع » :

الله ذخرأ وعصمة للعبارى	دمت يا شيخنا الأمين لدين
كان في ظلمة الوجود منارا	إنما أنت نقعة من توات
هدى من بيانه لا يمارى	قيس من كتاب ربي وبنبوع
ذأ من السابقين فاقوا البحارا	ذكرتني (أضواؤك) الفخر أفا
لم يسر قط كوكب حيث سارا	أورثونا من فضلهم كل عا
بأغواره لفسات وخارا	لو قضينا حياتنا نتعمم الفكر
يملا الحصب ليله والنهارا	فليمتك ذو الجلال بعمر
بشطر من عمره غتارا	ود كل لو يستطيع له مدأ
في قوى الحق يرهب الكفارا	كل طول في عمر مثلك طول
وات يهلكوا فشر قوارى	وكثيرون إن يعيشوا فلا خير

وليس من قبيل الإطراء المؤلف دعائي له بطول العمر ، وودي لو أعبره
بعض عمري طمعا بالمزيد من خدماته للإسلام ، فإني كنت شديد القلق عليه
لما أرى من ظواهر الضعف في صحته ، وتقاديه في هذا الضعف .. حتى لقد
قلت له عصر يوم ونحن على باب عمر رضي الله عنه من المسجد النبوي ، ولاحظت
الجهد الضخم الذي كان يبذله أثناء درسه العام : « يا شيخ .. إن صحتك ليست
ملكك .. إنها للعلم والمسلمين ، فارفق بها ولا تعجل عليها » .

مؤلفاته :

لم يكن من الكثيرين في التأليف ، لأن مشاغله العملية في الدروس والمحاضرات
والمجالس العامة والخاصة ضيقت عليه ذلك النطاق فلم يتيسر له الانقطاع إلى
التأليف إلا قليلا . على أن ما سجل وحفظ من كلامه لو نقل إلى الطروس
لألف قائمة من المؤلفات . وحسبنا أن نسبر من مؤلفاته إلى ما يلي :

١ - «منع جواز المجاز في المنزّل للتعبد والإعجاز» وغرضه منه نفي ادعاء المجاز في أسماء الله وصفاته وإجراؤها على طريقة السلف دون تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه . كما يفعل بعض المتكلمين الذين يكادون يبطلون كل ما أثبت الله لذاته ورسوله في الكتاب والحديث الصحيح .

٢ - «دفع إتهام الاضطراب عن آبي الكتاب» ويريد به إيضاح ما قد يشكل على النافلين ، وما يثيره بعض المشككين ، من توهم التعارض بين بعض وبعض من آيات الله .

٣ - كتاب في الأصول يشرح به «روضة الناظر» أحد المراجع المؤلفة في هذا الباب ، شرحاً جمع فيه بين أصول المذاهب الثلاثة : الحنابلة والمالكية والشافعية . وقد ألفه لكي يتي الشريعة والدعوة بالجامعة .

٤ - «أدب البحث والمناظرة» في جزأين وهو من مقررات الجامعة للكلية الدعوة وأصول الدين .

٥ - «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» وقد أخرج منه ستة مجلدات كبار وصل بها إلى نهاية سورة (قد سمع) .

وهذا المؤلف الفخيم أدل أعماله الكتابية على موسوعيته العملية ، لا يكاد يدع شاردة من الأحكام إلا جمع لها الأدلة من مظان الوحي ، في تنسيق وتنظيم وقرآن يعطي أدق صورة عن أثر المنطق في منهجه العلمي ، وقد أنفقت على طبعه ونشره مؤسسة ابن لادن . وتقوم الهيئات الإسلامية في المملكة بتوزيعه مجاناً ، ويؤمل أن يعاد طبعه أو بعض أجزائه النافذة قريباً ليعم نفعه .

ولقد أجمع أهل العلم على تقدير الكتاب والإقرار بمعظم فائدته ، وإن اختلف بعضهم معه في بعض الأمور الاجتهادية .

وكل هذه المستقات مما أخرجه الشيخ للناس بعد هجرته إلى ربوع الحرمين ، أما ما قبل ذلك فعدد من الأراجيز على غرار المنظومات التي شب على دراستها

- وحفظها ، ولم ينشر بعد منها شيء .. وقد ذكر منها تلميذه الشيخ عطية :
- ١ - « خالص الجمان » وقد خصها بأنساب المعدنانيين لقوله فيها :
سميته بخالص الجمان في ذكر أنساب بني عدنان
 - ٢ - أرجوزة في فقه مالك خاصة بالمقود من البيوع والرهون ، ومطلعها :
الحمد لله الذي قد ندبا لأن تميز البيع عن لبس الربا
 - ٣ - ألفية في المنطق يبدوها بقوله :
حدا لمن أظهر للعقول حقائق المنقول والمعقول
 - ٤ - أنظمة في علم الفرائض ، أولها :
تركة الميت بعد الخامس من خمسة محصورة في السادس
- وهناك العديد من محاضرات الشيخ نشرت في رسائل مستقلة هي :
- ١ - آيات الصفات .
 - ٢ - حكمة التشريع .
 - ٣ - المثل العليا في العقيدة والتشريع والأخلاق .
 - ٤ - المصالح المرسله ، أوضح فيها ضوابط الاستعمال بين الإفراط والتفريط .
 - ٥ - حول شبهة الرقيق .
 - ٦ - قبس من قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم .. » وقد ألقاها بحضرة الملك محمد الخامس أثناء زيارته المدينة المنورة .
- ولا مندوحة عن الإشارة إلى أن الشيخ ، أحسن الله جزاءه ، وقف مؤلفاته كلها لوجه الله ، لم يرد عليها جزاء إلا من ربه ، ولو شاء لسأقت إليه المال الوفير الكثير .

نماذج من نثره :

يقول الشيخ ، نعمه الله برحمته ، في تقديم كتابه القيم « أضواء البيان » :
« ... اعلم أن من أهم المقصود بتأليفه أمرين ، أحدهما : بيان القرآن بالقرآن لإجماع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله ، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله جل وعلا من الله .

والثاني : بيان الأحكام الفقهية في جميع الآيات المبينة في هذا الكتاب .
فإننا نبين ما فيها من الأحكام وأدلتها من السنة وأقوال العلماء في ذلك ، ونرجع ما ظهر لنا أنه الراجح بالدليل من غير تعصب لمذهب معين ، ولا لقول قائل معين ، لأننا ننظر إلى ذات القول لا إلى قائله .. لأن كل كلام فيه مقبول ومردود إلا كلامه ﷺ .

وقد تضمن هذا الكتاب أموراً زائدة على ذلك ، كتحقيق بعض المسائل اللغوية ، وما يحتاج إليه من صرف وإعراب ، والاستشهاد بشعر العرب ، وتحقيق ما يحتاج إليه فيه من المسائل الأصولية والكلام على أسانيد الأحاديث ... »

وفي هذه الأسطر القليلة غير قليل من سمات المنهج الذي عرف به الشيخ في تفسير كتاب الله ، ومجملها التركيز على استنباط الحكم الواحد من سائر مصادره في الكتاب الحكيم ، والسنة المطهرة ، ثم بيان مفهومات العلماء لذلك ، ومن ثم الترجيح للدليل الأقوى دون ما تعصب لأحد بعد كلام الله ورسوله .. ولا بد أثناء ذلك من التحقيقات اللغوية وعرض الشواهد المساعدة على الإيضاح .

أجل إنه المنهج الذي ألفناه في كتابه ومحاضراته وأحاديثه الخاصة على السواء ... ثم في هذه الأسطر كذلك صورة دقيقة من أسلوب الشيخ في التعبير عن أفكاره ، فالنسيج عربي قح لم تمسه الجمجمة ولا الهلحلة ، وهو أقرب إلى إنشائه العصر الأموي منه إلى ما بعده . وطريقة العرض موضوعية يرتبط فيها الجزء بالجزء ، وتمهد المبارة لأختها ، وذلك أثر المنطق الذي لا يكاد يفارقه .

ومناذج من شعره :

إن الغزارة في محفوظ الشيخ من شعر العرب دليل قاطع على تذوقه إياه ، ولا بد للمعافظ المتذوق أن تواتيه الموهبة على صياغته .. وكذلك كان شيخنا ، طيب الله مثواه . فهو رهيف الحس ، سريع التأثر بالكلمة البليغة ، وقد سبق أن طالعنا بعض محاولات الأولى ففحصنا ما وراءها من استعداد للاندفاع . إلا أن انشغاله اليومي بالجوانب الأخرى قد أدى به إلى الانصراف عن الشعر الخالص . ويقول تلميذه الشيخ عطية إنه سأله عن السبب في تركه الشعر فأجاب : « لم أره من صفات الأفاضل » .

وإنما يريد بنفيه عن الأفاضل ما يرى لبعض المتعاطين له من زلات يربأ بنفسه أن يتعرض لها ، لا كما فهمها بعض الجاهلين للشعر ، إذ اعتبره منافياً لكرامة العلم ، وهو الذي لا يحسن إقامة البيت إذا حاول قراءته ، فليس مثله حق في الحكم عليه .

وإضافة إلى ما أسلفنا من منظومات الشيخ تضع بين يدي القارئ هذه الأبيات من قصيدة له يحدثنا بها عن عواطفه وطموحه :

شيب بزيتن مفرق كالتاج	أنقذت من داء الهوى بعلاج
شفة الفتاة الطفلة المفضج	قد صدني حلم الأكبر عن لمى
رمانتي روض كحق الماچ	ماء الشيبية زارع في صدرها
تنساب فوق جبينها الوهاج	وكانما شمس الأصيل مذابة
فوق الحشية ناعم الديباج	يعلو لموقع جنبها في خدرها

ويضي الفتى الشاعر في حديثه النفسي ، مترجماً أشواقه المكبوتة إلى المرأة التي لا ينكر تأثيرها في قلبه ، ولكنه يحاول أن يقصي طيفها عن عماره ، خشية أن تشفه عن (حلم الأكبر) الذي لا يتأتى لطالب الطفلة المفضج .. إنه في صراع بين للمعاطفة الملتهفة إلى الحب ، والعقل المتطلع إلى مجد العلم ..

ومع ذلك لا يستطيع كثبان تلك الأشواق ، فإذا هي تعبر عن ذاتها بهذه الصور
الغزلة المثنية : اللي . المنفاج . الشبية . رعانتا الروهن . الجبين الوهاج .
وفي (شمس الأصيل المذابة في الجبين الوهاج) صورة أخرى للذوق الذي
يستهو به أثر شمس البادية في وجوه الحسان .

ونحن لا ندري تاريخ هذه الأبيات ولكنها تحمل طابع النفس التي لم تزال
الشباب - على الرغم من بواكير الشيب - ولا تزال معزولة عن أنس الرقيق
الذي يبيب به إلى السكن والمودة والرحمة .

ولقد فاتنا - وبالأسف - أن نستطلع الشيخ رحمه الله رأيه في مستقبل
الجيل الإسلامي ، والسبيل إلى بناء المجتمع الأمثل الذي يريده الإسلام ..
إذ حالت وفاته دون ذلك .. ولكن أفكار الشيخ التي ستظل حية بين الناس
كفيلة بإعطاء الجواب القاطع المانع : إنه الالتزام بأحكام القرآن ، فكل الشر
في الإعراض عنه ، وكل الخير في الإقبال عليه ، فطوبى لمن كان حجة له ،
وويل لمن كان حجة عليه ... وإياك يا أخي ثم إياك أن بزهدك في كتاب
الله تعالى كثرة الزاهدين فيه ، ولا كثرة المهتقرين لمن يعمل به ويدعو إليه ،
واعلم أن العاقل الحكيم لا يكثر بانتقاد المهانين (١)

فالهم رحمتك السابقة ، ومغفرتك الواسعة لشيخنا وأخينا وزميلنا عبدك
محمد الأمين ، وأحسن به الموهن للإسلام والمسلمين .

(١) أضواء البيان ج ١ ص ٢ .

والدكتور محمد تقي الدين الحنطلي

يقول فضيلته في شأن تسميته : إن والدي رأى في المنام قائلاً يقول له : سيولد لك غلام فسمه محمد تقي ، فكان ذلك .

ولكن أهل الهند سموني تقي الدين ، فاشتهر اسمي بمحمد تقي الدين ، وكنيتي أبو شكيب لأنني سميت أول مولود لي شكيباً على اسم صديقي الأمير شكيب أرسلان رحمه الله ، وليس لي لقب ، واسم والدي عبد القادر الهلالي نسبة إلى هلال وهو الجد الحادي عشر ، ونسبتنا إلى الحسين بن علي ، ذكر ذلك غير واحد من المؤلفين في أنساب أهل البيت من المغاربة ، وأقر هذا النسب السلطان الحسن الأول حين قدم بلادنا سجلماسة سنة ١٣١١ هـ .

ولدت سنة إحدى عشرة وثلاثمائة وألف في آخرها أو في أول التي تليها ، بقرية تسمى النيسة ، وتسمى أيضاً القرخ من بوادي بغلي بسجلماسة . وأخبرني أبي وجدي أن جدنا عبد القادر بن هلال جاء من القيروان وهي كورة في تونس ويدل على صحة ذلك أن قرينتنا صغيرة ، وقبر جدنا مدفون إلى جانبها وعليه سور ، وهو معدود من الصالحين ، واسم القرية أولاد عبد القادر ولها مسجد له أوقاف كثيرة تساري أوقاف القرية الكبرى التي لا تبعد عنها إلا بنحو

مئتي متر . وكانت يجيء جدنا إلى هذه الناحية من المغرب في أواخر القرن التاسع الهجري . ويظهر أن أهل تلك الناحية وتسمى (الفرقة) تلقوه بالمعلم والاحترام ، ولعله كان من أهل العلم ولم يترك أولاً يدل على ذلك ، ولكن أهل قريتنا كانوا كلهم إلا النادر من أهل العلم في زمان صباي بخلاف القرى المجاورة لقريتنا فإن أهل العلم منهم قليل . وأيضاً أهل (الفرقة) قبائل كبيرة نوعاً ما ، بخلاف أولاد عبد القادر فإن عددهم قليل ولا ينتمون إلى أي قبيلة من تلك القبائل . والدليل على احترامهم لجدنا أنهم وقفوا على مسجده الصغير تلك الأوقاف الكثيرة ، ولم أولد في قريتنا لأن والدي كان فقيهاً إماماً في قرية الفرخ ونائباً عن القاضي فيها .

ويضيف الشيخ إلى ذلك قوله : إن أهل بيتنا كانوا من أهل العلم في اصطلاح أهل تلك البلاد وإن كنت لا أعد المقد علماء .

دراسته العلمية :

يقول شيخنا: قرأت القرآن على والدي وجدي فحفظته وأنا ابن اثني عشرة سنة . وكان والدي ينوي أن يبشني إلى مجوه الوقت الشيخ أحمد بن الصالح لأقرأ عليه ختمة بالتجويد ، فماجته المنية ، فقامت بذلك أمي فقرأت على الشيخ المذكور القرآن من أوله إلى آخره بالتجويد ، فكنت أكتب كل يوم ربع جزء في لوح من حفظي ، وأدفعه إليه يصححه على حسب رسم المصحف المماني ، ثم يقرؤه هو وأنا أسمع ، وبعد ذلك أقرؤه أنا وهو يسمع ، وإن أخطأت يصحح بي خطأي ، ثم بقيت فترة بدون تعلم إلى أن سافرت إلى الجزائر لطلب الرزق سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة وألف . فرأيت النبي ﷺ في المنام رؤيا كأنها يقظة ، وكنت قد أخذت الطريقة التبجانية ولم يكن يحظر بيالي طلب العلم بل كنت أسمى في الحصول على علم الباطن بالاجتهاد في العبادة على طريقة المتصوفة ، فلما رأيت النبي ﷺ في المنام وكان طويلاً أبيض اللحية ، وذلك يدل على نقص في الرائي ، وضمت يدي في يده ، وأظن إنني قبلتها ، وقلت :

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي إلى الله . فقال لي وهو منقبض : اقرأ العلم .
فقلت : العلم الظاهر أم الباطن ؟ فقال لي : العلم الظاهر . فقلت : في بلاد المسلمين
أم في بلاد النصارى ؟ وكان علماء بلدنا يكفرون كل من يسافر إلى الجزائر ، لأن
الفرنسيين كانوا يحكمونها ، فقال لي : البلاد كلها لله . فقلت : يا رسول الله ادع الله
أن يحتم لي بالإيمان . فرفع أصبعه المسبحة إلى السماء ، وقال لي : عند الله .

فقصت الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله الشنقيطي ، رحمه الله ، وقصصت
عليه رؤيائي ، واستشرته في الرحلة في طلب العلم إلى أحد مراكزه في المغرب
وتونس والجزائر . وكانت له مدرسة يعلم فيها الطلبة مبادئ العلوم ويكسبهم
ويطعمهم على طريقة العلماء في شنقيط . فمن تواضعه وكرمه وحله قال لي :
امكث عندنا حتى تحصل هذا الذي عندنا من مبادئ العلم ، وحينئذ تسافر إلى
إحدى المدارس العليا .

وكانت استشارتي له في الرحيل إلى إحدى المدارس الكبرى ، وعدم قناعتي
بمدرسته ، من الجهل وسوء الأدب ، فبقيت معه في البادية ، ومدرسته خيمة
بقرب خيمته التي يسكن فيها بأهله ، بقيت على ذلك سنتين ثم انتقل بمدرسته
إلى مدينته المشربة فبقيت معه خمس سنين أخرى ، ولم أر مثلاً في الزهد
والتقوى ومكازم الأخلاق ، إلا شيخاً آخر في الهند سأذكره بعد ، ومناقبه
كثيرة لا يتسع لها المقام ، وهو من قبيلة (تندغ) مشهورة في قبائل شنقيط ،
قروفي بالمشربة من عمالة وهران من الجزائر حوالي سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف .
ثم سافرت إلى المغرب ووصلت إلى مدينة فاس سنة أربعين وحضرت دروس
بعض العلماء ، وأجلني بعض علماء القرويين وعاملوني معاملة أستاذ ، أذكر منهم
الشيخ الفاطمي الشراوي وأستاذه الذي أنقذني الله على يده من طريقة التيجانية
والشرك وعبادة القبور ، وهو العالم المحقق غرة زمانه محمد بن العربي العلوي .
وجرت بيني وبينه مناظرة ذكرتها بالتفصيل في كتاب « فكاك الأسير المعاني
المكبول بالكيل التيجاني » ، والعالم الأديب الشاعر الناشر أحمد سو كيرج .

توفي شيخنا الملاوي في نحو سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وألف ، وتوفي أحمد سو كيرج قبل ذلك بمدة . ولي شيوخ آخرون ضربت عن ذكركم صفحا لأن عقيدتهم لم تكن مرضية . ولا أرتضي من شيوخ المغاربة ، من حيث العقيدة ، إلا الأولين ، أعني الشراوي والملاوي ، وحصلت على شهادة من جامع القرويين عادلتها جامعة بون مع تركية أساتذتها بالشهادة الثانوية ، وبها استطعت أن أكون طالبا في جامعة بون كما سيأتي إن شاء الله .

وفي آخر سنة أربعين وثلاثمائة وألف سافرت إلى القاهرة وأقمت بمصر سنة اجتمعت فيها بالإمام المصلح السلفي الطائر الصيت محمد رشيد رضا ، رحمه الله ، وجماعة من السلفيين منهم الشيخ محمد الرمالي ، والشيخ حسن عبد الرحمن ، والشيخ العدوي ، والشيخ عبد العزيز الحوي ، والشيخ عبد الظاهر أبو السح ، والشيخ محمد بن عبد الرزاق ، والشيخ محمد أبو زيد ، وغيرهم .

وحضرت دروس القسم العالي من الأزهر ، وقال لي أحد كبار أساتذة الأزهر ، وهو الشيخ الزنكلوني ، قال : لا تطلب علم الحديث في مصر ، فنحن معشر كبار علماء الأزهر لا أحد منا يحفظ عشرة أحاديث ولا نعرف صحيحا من ضعيف ، وإنما نقرأ سوادا في بياض مقلدين للمؤلفين . ورأيت كتاب « عون المعبود شرح سنن أبي داود » ألف وطبع في الهند ، فظهر لي أنه لا تزال بقية من علماء الحديث في الهند ، فمزمت على السفر إلى الهند ، وفي أثناء السنة التي أقمتها في مصر خرجت إلى الصعيد بقصد تحصيل شيء من المساعدة المالية لأستعين بها على التوجه للحج ، وكان التيجانيون في الجزائر قد بعثوا إليّ بحوالة مالية ظنا منهم أنني لا أزال على عقيدتهم . فكثبت إليهم كتابا مطولا شكرتهم فيه على إحسانهم السابق واللاحق ، وأقمت لهم البراهين على أن الطريقة التيجانية لا يمكن أن تجتمع في قلب إنسان مع ما جاء به النبي ﷺ ، فغضبوا غضبا شديدا . فأشار عليّ بعض الأصدقاء بالخروج إلى الصعيد للعرض المذكور ، فلما وصلت إلى مدينة ملاوي بمدينة أسبوط دعاني إلى قرية تسمى اليرمون ،

رئيس السلفيين الشيخ اسماعيل الصيفي، رحمة الله عليه، وكان عدد السلفيين قليلاً جداً. وكان شيخ البلد والوجهاء والأعيان وسائر أهل القرية يسمونهم: وهابية، ويعادونهم. فشرعت في إلقاء دروس الوعظ في بيت الشيخ اسماعيل، ومسجد السلفيين، فاستجاب إلى دعوتي شيخ البلد يوسف، وتبعه أهل البلد كلهم، ولم يبق على البدعة والشرك إلا شيخ الطريقة والعمدة «المرفوت»، أي المعزول وخدامها.

ولما رأيت الناس قد أقبلوا على التمسك بالسنة إقبالاً عظيماً تركت الفرض الذي من أجله توجهت إلى الصعيد وأظهرت الغنى لعلني أن إظهار الحاجة إلى ما في أيدي الناس يفسد الدعوة أو ينقصها. وبقيت عندهم ثلاثة أشهر حتى قرب وقت الحج، ولم يتجرأ أحد منهم أن يقدم لي شيئاً من المال إلا الشيخ يوسف، فإنه ألح كثيراً في إهداء شيء من الثياب، فقبلته.

ولما رجعت إلى القاهرة بعثوا إليّ حوالة قدرها ثلاثة عشر جنيهاً، فسافرت بها إلى الحج، وبعدها توجهت إلى الهند واجتمعت بعلماء أهل الحديث، ودرست في إحدى مدارسهم وأتمت خمسة عشر شهراً، وأخذت العلم والإجازة عن أفضل ذلك الزمان شيخنا عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبارك بوري، وأتمت عنده مدة، وقرأت أطرافاً من الكتب الستة على الشيخ محمد بن حسين بن محسن الهديدي الأنصاري الباني، نزيل مدينة بهو بال. ثم توجهت إلى البصرة ولقيت العالم السلفي المحقق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وتزوجت بابنته. وبعد إقامة ثلاث سنين بالبصرة سافرت إلى المملكة السعودية، وفي طريقي مررت على السيد رشيد رضا بصر، فأخبرته أنني متوجهة إلى الحجاز. فكتب إلى الملك عبد العزيز رحمه الله يقول: إن محمداً تقي الدين الهلالي المغربي أفضل من جاءكم من علماء الآفاق، فأرجو أن تستفيدوا من علمه، أو كلاماً هذا معناه، فأقت في ضيافة الملك بضعة أشهر، ثم عينت مراقباً للمدرسين في المسجد النبوي.

وبقيت سنتين ثم نقلت إلى المسجد الحرام والمعهد السعودي بحكة ، وأتمت سنة ، وفي آخرها كتب إليّ الشيخ أحمد السركتي من أندونيسية ، والسيد سليمان الندوي من الهند ، كل منهما يطلبني أن أكون مدرساً في مدرسته . فرجعت قبول السيد سليمان رجاء أن أحصل على دراسة جامعية في الهند ، فصرت رئيس أساتذة الأدب العربي في كلية ندوة العلماء ، وبقيت ثلاث سنين ولم تيسر لي دراسة جامعية ولكني تعلمت اللغة الإنجليزية ، ثم اشتد عليّ مرهم الحمى للناقص (الملاريا) ، فرجعت إلى البصرة وأتمت فيها ثلاث سنين معلماً في مدرسة النجاة . ثم سافرت إلى جنيف ونزلت عند الزعيم المجاهد أمير اليبس الأمير شكيب أرسلان بطلب منه . وحاولت أن أوجه إلى بريطانيا للدراسة الجامعية ، فسال لي السفير الإنجليزي في جنيف : لا بد من كفالة مالٍ أو شخصية .

وكتب الأمير شكيب ، رحمه الله ، إلى أحد أصدقائه في وزارة الخارجة الألمانية بيرلين يقول : « عندي شاب مغربي أديب ما دخل ألمانيا مثلاً وهو يريد أن يدرس في إحدى الجامعات فعمى أن تجدوا له مكاناً لتدريس الأدب العربي براتب يستعين به على الدراسة » . فجاء الجواب بالقبول ، وعينت محاضراً في جامعة بون ، وشرعت في تعلم اللغة الألمانية ، وخلال سنة دخلت الامتحن وحصلت على دبلوم في اللغة الألمانية . ثم صرت طالباً في الجامعة مع محاضراً . وفي أثناء إقامتي في بون ترجمت مع الأستاذ (باول كالي) مدير العلوم الشرقية في الجامعة كتابين عربيين ، أحدهما : « كتاب البلدان الجغرافية المالية لعماد بن الفقيه البغدادي المتوفى في أواخر المئة الثالثة للم والثاني « طيف الخيال » لعماد بن دانيال الكحال ، يعني طيب الميون الموصلية زيل مصر . وهذا الكتاب يشتمل على ثلاث تمثيلات لم يوجد في الأدب العربي غيرها .

وكان المستشرقون الألمان قد جموا مؤلفاً يشتمل على قصص تمثيلية لجميع

شعوب العالم، فلما ظفروا بـ «طيف الخيال» ولم يجدوا للعرب غيره فرحوا فرحاً عظيماً، ورأوه الحلقة المفقودة، ولكن خبزوا عن ترجمته لأن التمثيلات بعضها بالنص وبعضها باللغة العامية المصرية في القرن السابع الهجري، ما بين منظوم ومنثور.

وعلم الأستاذ (باول كالي) أن طالباً قبطياً تخرج في جامعة كمبرج وألف رسالة تال بها شهادة الدكتوراه، موضوعها تاريخ الحروب الصليبية، واسم هذا الرجل (سوربال عطية)، ولما رجع الدكتور عطية من بريطانيا قدم طلباً لعميد كلية الآداب بجامعة القاهرة الدكتور طه حسين، ليكون مدرساً لتاريخ الحروب الصليبية. فقال له طه حسين: إن جامعتنا غير محتاجة إليك. فقال: يا أستاذ هل توجد جامعة في الدنيا تستغني عن تاريخ الحروب الصليبية؟ فقال: نعم. فقال: أين هي؟ فقال: هي جامعة القاهرة.

فبقي الدكتور عطية بلا عمل، وكان شديد العداوة للإسلام والمسلمين، وخصوصاً العرب، فظن باول كالي أن ضالته المنشودة عند عطية. فبعث إليه يدعوهُ ليكون مدرساً للتاريخ في معهد العلوم الشرقية في جامعة بون، ولم يكن المعهد في حاجة إليه ولكنه ظن أنه يساعده على ترجمة تمثيلات «طيف الخيال». فاشتغل معه شهرين ولم يستطع أن يترجم الصفحة الأولى من التمثيلية الأولى، فدعاني كالي، وقال لي: أنا لا أشك في عفاك بالأدب العربي، ولكني أشك كثيراً في معرفتك العامية المصرية في القرن السابع الهجري، ولذلك دعوت عطية وهو مصري اختصاصه في التاريخ، ظناً مني أنه أولى من يساعدي على ترجمة «طيف الخيال»، وقد اشتغلت معه شهرين ولم نستطع أن نترجم الصفحة الأولى. وعلى الرغم من بعدك عن العامية المصرية القديمة، أرى أن تقوم بهذه التجربة.

وبدأت في ترجمة «طيف الخيال» فتمكنت في اليوم الأول من ترجمة بضع صفحات، وقدرت على قراءة النسخ المخطوطة التي عجزت عن قراءتها. فكان

الأستاذ كافي يطير فرحاً . وفي سبعة عشر شهراً ترجمنا التمثيليات وأعدنا قراءة الترجمة بمقابلة النسخ الثلاث المخطوطة مراراً ، فلم يبق عنده شك في صحة للترجمة ، فأثنى عليّ هذا الأستاذ في مقدمة الترجمة ، وقال : لولا وجود محمد تقي الدين لبقى هذا الكتاب نسياً منسياً . وأثنى عليّ كذلك في جميع المحاضرات التي ألقاها في عواصم أوربة ، للتعريف بطيف الخيال والاعتباط بترجمته .

وبقيت ثلاث سنين في بون ، ثم طلبت وزارة الدعاية من وزارة التعليم ورئاسة الجامعة إعارة خدمتي إلى جامعة برلين ، لأشرف على الإذاعة العربية التي أسستها وزارة الدعاية في برلين سنة تسع وثلاثين وتسعمئة وألف ، فانتقلت بأعمالي كلها طالباً ومحاضراً إلى جامعة برلين ، وزدت على ذلك منصباً جديداً وهو المرجع اللغوي للإذاعة العربية في برلين .

وفي صيف سنة أربعين وتسعمئة وألف قدمت رسالة الدكتوراه ، وهي ترجمة مقدمة كتاب «الجواهر في الجواهر» مع تعليقات عليها إلى مجلس الامتحان في الجامعة ، وكان مؤلفاً من عشرة من العلماء ، وقد فندت آراء أكبر العلماء المستشرقين في زمانه وهو كارل بروكلمان ، وآراء أكبر العلماء المستشرقين في ألمانيا في العصر الذي قبل هذا العصر ، وهو (مارتن هارتمن) ، فقد زعم هارتمن في مقدمة ترجمة تاريخ الهند للبيروني أن البيروني كان في الحقيقة زنديقاً ، لأن عقله أعظم من أن يؤمن بالإسلام ، وكان شعبياً يتعصب للفرس الذين قضوا على دولة ساسان ، ويبغض العرب بغضاً شديداً ، ويحتقر علومهم . وزاد بروكلمان في تاريخ الأدب العربي أنه كان محقاً في احتقار علوم العرب ، أما في الظاهر فكان قبل اجتماعه بالسلطان محمود الغزنوي شيعياً ، وبعد اجتماعه بالسلطان المذكور صار سنياً . فأثرت البراهين القاطعة في تعليقات رسالتي على بطلان كل ما ادعيه من كتب البيروني نفسه ، فوافق العلماء العشرة بالإجماع على ما حققته ، ولذلك رغب الناشر في نشر رسالتي على نفقتهم ،

ولا يقع ذلك إلا للرسائل المفضلة . وبعد شهرين من نجاحي في امتحان الرسالة دخلت الامتحان الشفهي فنجحت فيه أيضاً . ومع الإسهاب في هذا الجواب فقد اختصرته كثيراً وأعرضت عن ذكر التفاصيل . وفي جامعة بغداد حصلت على درجة أستاذ مساعد ثم أستاذ ، واعترفت بذلك جامعة (بون) حين دعيتي لأكون أستاذاً منتدباً فيها لمدة سنة عام أربع وخمسين وتسعمئة وألف ، ووثائق ذلك كله موجودة في الجامعة الإسلامية بالمدينة .

الرجال الأكثر تأثيراً في حياته :

ويؤكد الشيخ هنا ما سبق تقريره . من قبل حين أشار إلى أولئك الذين على أيديهم 'صححت مسيرته في طلب العلم الحق' ، فيقول: إن أولهم رسول الله ﷺ ، إن سعت الرؤيا ، وأظنها إن شاء الله صحيحة . والثاني محمد سيدي بن حبيب الله التندغي الشنقيطي . والثالث محمد بن العربي العلوي المدغري المغربي . والرابع الشيخ الفاطمي الشراوي . والخامس السيد محمد رشيد رضا . والسادس الشيخ عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبارك بوري مؤلف 'تحفة الأحوذى' .

أحب العلوم إليه :

ويحدد الشيخ ما يؤثره من علومه فيقول : أحبها إليّ علوم الحديث وعلوم القرآن لأنني أحب اتباع الكتاب والسنة ، وأكرد مخالفتها ، ثم علم النحو وسانر علوم الأدب ، ثم علم اللغات ، ولا أعرف علة ذلك .

ولعل مرد هذا فيما نرى إلى صلة هذه العلوم بالنفس الإنسانية . فالنحو والأدب واللغات صور متعددة لأصول واحدة ، فبالنحو نعرف أسرار العلائق بين الألفاظ في التركيب ، وبين التركيب والمضمون النفسي ، وليس الأدب وعم اللغات عن ذلك ببعيد ، لأن الباحث لا يستطيع رصد التطورات الطوارىء عليها إلا من خلال الواقع النفسي لصانفي هذا التراث أفراداً وشعباً . أما الصلة بين هذه الفنون وعلمي القرآن والحديث ، فعمل غاية

من التواتر ، إذ لا سبيل لأحد إلى تذوق النظم القرآني ، واستشراق دقائق
الروحي في الكتاب والسنة إذا لم يكن على زاد وفير من الإدراك والتذوق
لهذه الفنون .

أم الأحداث التي عاصرها :

يقول الشيخ : أول هذه الأحداث كثرة السفر والاعتراب . وثانيها بغضي
للتقليد كيف ما كان نوعه . وثالثها لقاء الشيوخ المذكورين . ورابعها حب الدعوة
إلى اتباع الكتاب والسنة .

وبلاحظ أن عبارة شيخنا هنا غير واقية بالجواب المنشود إذ هي تكتفي
بالتعداد دون التفصيل . وكنا نتوقع أن يحدثنا عن كل من هذه الأربيع
وما حصل له فيها من أحداث ، وهي كثيرة دون ريب ، فمن أسفاره مثلاً
غربيته طوال سنوات الحرب العالمية الثانية في ألمانيا ، حيث قولى الإشراف
على الإذاعة العربية ، ولا تخلو هذه المهمة من مفارقات ومفاجآت . كذلك
بغضه التقليد الذي لا بد أن يكون قد جرّ عليه بعض المشكلات ،
وهي كثيرة عرفنا بعضها من أسابته الخاصة . وهكذا القول في الأمرين
الأخرين .

وفي ظننا أن المنقول عن هذه الفجوة هو الكاتب الذي تلقى عن الشيخ
هذه الأمالي فلم يحسن ضبطها كما ينبغي ، ولم يستطع تخليصها حتى من اللعن ،
لأن بصر الشيخ ، نفع الله به ، لم يمد قادراً على إسعافه بما يريد ، فهو مضطر
للاستعانة بأي كاتب .

أم الأحداث التي عرّضت له :

ويتابع فضيلته : أما القضاء فإني أكرهه ، وقد عرّض عليّ سنة أربعين
وثلاثه وألف ، عرّضه عليّ الشيخ أحمد سكيرج ، وكان قاضي القضاة
بناحية وجدة .

ورأيتة بعيني يتملق للمراقب الفرنسي ويستشيريه قبل البت في القضايا المهمة ويقع بينها جدال ، مع أن ذلك القضاء كان شرعياً محضاً ، فرفضت . وهناك داع آخر وهو بغض الاستعمار ونية محاربتة . وأذكر هنا بعض الأحداث :

أولاً - أنني كنت محاضراً وطالباً في جامعة بون قاتهم الأستاذ بول كالي بل اتهمت زوجته بالميل إلى اليهود ولم يتبرأ منها ، فعزل من منصبه في الجامعة ، وكان جزء من راتي يأخذه هو من مصدر مجهول عندي (١) ويسلمه إلي . فهرب هو إلى بريطانيا ، والجزء الذي كنت آخذه من الجامعة لا يكفيني ، فوقعت في أزمة شديدة ، ولكن الله فرج عني بأن طلبتني وزارة الدعاية ، كما تقدم ، وصرت آخذ راتباً ضخماً بلغ ألفاً وأربعمئة مارك ، ومن هذه الأحداث أن سماحة الأستاذ السيد محمد أمين الحسيني (رح) بعثني في مهمة سياسية أثناء الحرب الثانية العالمية إلى شمال المغرب - وكان الإنجليز قد أمروا السفير العراقي في رومة ، أو أحد موظفي السفارة ، أن لا يجدد جواز سفري ، ويخبرني أن السفارة لا تعترف بأبي عراقي ، وكان السفير إذ ذاك مزاحم الباجي ، فلا أدري أبلغه الخبر فخاف الإنجليز أم قدر الإنجليز بدهائهم المعروف أن ينفذوا أمرهم بواسطة من دونه من الموظفين في السفارة العراقية ، وحينئذ بعث إليّ السفير المغربي عبد الحائق الطريسي رحمه الله جوازاً على أنني من أهل تطوان . وبهذا الجواز سافرت إلى المغرب فظن الإسبان أن حكومة هتلر أرسلتني إلى منطقة حمايتهم لتطردم وتحمل الحماية الألمانية مكان حمايتهم وصرحوا إليّ بذلك قائلين ، بعد أن زعوا مني ذلك الجواز بدعوى أنه مزور : إنني لست من أهل تطوان ، بل من المنطقة السلطانية الواقعة تحت الحماية الفرنسية . وبعد مفاوضات طويلة قالوا : إن كنت بريئاً من هذه التهمة فاكتب مقالاً في صحيفة « الحرية » لسان حزب الإصلاح الوطني ، وصرح فيه بأن لا حق لألمانية في استعمار المغرب ، أو بسط حمايتها على أي جزء منه .

(١) الظاهر أن مراد الشيخ أن كالي كان يمينه بجزء لا يدري مصدره .

فاستشرت الزعيم عبدالحق رئيس الحزب المذكور، فلم ير بأساً، فكتب مقالاً طويلاً ذكرت فيه أن المغرب للمغاربة لا حق فيه لألمانية ولا لفرنسية ولا لأسبانية ولا لغيرهن من الدول، ففرحوا بذلك واقتنعوا أنهم كانوا متوهمين، فأعطوني إقامة في المدن فقط، وشرطوا عليّ أن لا أتعاون مع الوطنيين في أي أمر سيامي، فلا مقال ولا كلمة ولا درس إلا بعد إذنهم وإلا فإنهم يسلمونني إلى الفرنسيين، فالتزمت لهم ذلك وأقت خمس سنين في منطقة نفوذهم. وفي أثنائها وردني كتاب من الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله يقول لي فيه: لنا مكاتبون ومراسلون من جميع أنحاء العالم الإسلامي إلا المغرب. فأرجو منك أن تبحث لنا عن مراسل وتخبرنا بقدر المكافأة التي يتطلبها عن كل مقال يرسله إلى صحيفة الإخوان المسلمين، وإن قدرت أنت أن تقوم بهذا الأمر فهو أحب إلينا. فقبلت الطلب وبدأت أرسل صحيفة الإخوان المسلمين سراً بواسطة البريد الإنجليزي في تطوان. ولكن الإسبان كانوا قد اتفقوا مع أحد الموظفين المغاربة في البريد الإنجليزي أنه متى رأى رسالة أو مقالاً لا يذكرم بخبر أو شر ينسخ لهم نسخة منه ويعطونه مكافأة عظيمة على كل رسالة أو مقال. فأطلعهم على جميع المقالات التي أرسلتها إلى صحيفة الإخوان المسلمين، فقبضوا عليّ وزجوني في السجن ولم يوجهوا إلي أي اتهام. وبقيت فيه ثلاثة أيام، فاحتج أهل المدينة التي كنت فيها، وهي شفشاون، لدى السفير الإسباني في طنجة. وأذاعت محطة لندن باللهجة المغربية الحادثة والاحتجاج، فأطلقوا سراحي، ولما طلبت منهم تبديل النقود بالنقد الأجنبي، وهو الجنيه المصري، رفضوا، وأشاروا إلي نقض الوعد الذي وعدتهم وقال لي المراقب المدني: نحن لسنا مغفلين وقد كنا من قبل مغفلين. ولكن الخليفة السلطاني مولاي الحسن بن المهدي بارك الله فيه أجبرهم على تبديل النقود. وسافرت إلى المراق، وترجمت كتاباً من الإنجليزية إلى العربية ساهم بعدما نشر، وكتب مقالات نشرت في صحيفة السجل البشداية، ذكرت فيها شيئاً من جرائمهم التي كانوا يرتكبونها في منطقة نفوذهم، فوقعوا في ما خافوا منه.

وأكتفي بهذا القدر ، فإن الأحداث كثيرة والوقت ضيق ، ولعل الله يوفيني لكتابة ترجمة مفصلة تشمل على جميع الحوادث والأخبار ، فإن كثيراً من الناس يلمسونها مني .

نشاط الشيخ في خدمة العلم :

يقول شيخنا ، مد الله في حياته :

أول اشتغالي بالتدريس كان في زمن أستاذي الشيخ سيدي بن حبيب الله التندغي الشنقيطي الذي تقدم ذكره ، فإنه كان إذا سافر ينييني عنه في تدريس الطلبة وكان يقول للناس : كل ما عندي من العلم فهو عند هذا الفتى وزيادة . وهذا من حسن ظنه ، والله قادر على أن يحققه . ثم إن أحد الحكام العرب وهو الحاج أحمد باشن أغسا من ناحية أربوات في جنوب الجزائر ، التمس من شيخنا أن يأذن لي في التدريس عنه ، وكان هو نفسه يحضر الدرس وابنه القائد البشير وجماعة من الناس . وبقيت عنده سنتين ، وقد توفي في السنة الثانية شيخنا المذكور ، ثم سافرت إلى وجدة وفاس ، والتمس مني العالم الأديب الشيخ أحمد سكبرج تدريس ابنه عبد الكريم وابن أخيه عبد السلام شيئاً من علوم الأدب العربي ، فدرستها سنة كاملة ، وهو الذي ساعدني على تحصيل جواز السفر إلى الشرق . وكان الفرنسيون المستعمرون لا يسمحون بمنح جواز السفر إلا لمن يعرفونه ويتقنون بإخلاص لهم ، وخصوصاً الشباب المثقف . فكتب إلى السفير الفرنسي يقول إن محمد تقي هو بمنزلة ابني عبد الكريم وهو محب للدولة الفرنسية وأنا أحبته . وهذا كان من شدة إكرامه لي ، وإلا فقد كان يعلم عكس ذلك . ومع ذلك بقيت شهراً كاملاً أتردد على المراقبة الفرنسية ، وفي آخر الأمر تيسر لي لقاء المراقب الأعلى واسمه انبروزني ، وهو يعرف الأدب العربي ، فبعد أسئلة طويلة وأجوبة غير صادقة آخرها : من تعرف في مصر؟ فقلت : لا أعرف أحداً ، ولكن الأستاذ سيدي أحمد سكبرج كتب لي توصية للسفير الفرنسي

في القاهرة ، وهو صديقه . فقال : أرني هذا الكتاب . فلما قرأه أخذ للتلفون وكلم الموظف المكلف بإعطائي الجواز ، وأخبره بواقفته ، وقال لي : إنك ستجد في مصر فتناً كثيرة ، فأنصح لك أن تشتغل بطلب العلم الذي تسافر من أجله ، وأهرب من السياسة ومخالطة الناس . فشكرته على ذلك ، وحصلت على الجواز ، فسافرت إلى مصر وأمت بها سنة ، دعاني في أولها الشيخ عبدالظاهر أبو السمح ، الذي صار بعد ذلك إماماً وخطيباً في المسجد الحرام ، وكان في ذلك الوقت إمام مسجد الأسطى أبي هاشم المهندس يصلي فيه ويلقي دروساً في الدعوة والإرشاد ، وهذا مسجد خاص بالسلفيين ، ويسمونهم وهابيين .. دعاني لأنوب عنه في الصلاة وإلقاء الدروس لأن جماعة الفقهاء من الأئمة والمأذنين كانوا يجارون الشيخ المذكور ، فدعوه للمناظرة في أحد المساجد ، وهيئة له رجلاً يضربه بالعصا حين يتلقى الإشارة منهم ، فبينما هو يناظرهم أشاروا إلى الرجل فأنهال عليه ضرباً ، ولم يقتصروا على ذلك بل كتبوا عريضة إلى محافظ الاسكندرية يقولون : إن عبد الظاهر أبا السمح وهابي ضال مبتدع ، يقول : إن العصا خير من النبي ﷺ ، ويمنع الاستغاثة به والتوسل ويطنن في المذاهب الأربعة ويعلمن الناس مذهباً خامساً ، ولما صعد المنبر ليخطب خطبة الجمعة في أحد المساجد أخذ المعلمين المنصوبين على جانبي المنبر فألقاهما على الأرض إهانة لهذا الشعار الديني ، يضاف إلى ذلك أنه أحدث فتنة عظيمة في رمل الإسكندرية ، ففرق بين الأب وابنه والأخ وأخيه والقريب وقريبه ، فترجو من سعادتك أن تضعوا حداً لهذه الفتنة ، بمنع هذا الرجل من الصلاة والتدريس في جميع المساجد ، وتأمروا بسد مسجد الوهابية الذي أسسه بعض أتباعه .

وكتت إذ ذاك عند بعض المغاربة في مدينة الإسكندرية فيبحث إلي رسولاً يقول : يادر إلى الحضور بدون تأخير لأن المحافظ راجت عليه عريضة الجماعة بإغلاق مسجد أبي هاشم ، وأمر الشيخ عبد الظاهر أن لا يصلي إماماً ولا يلقي درساً في أي مسجد .

فلما جئته قال لي: أرجو أن تفتح المسجد وتصلني فيه الصلوات الخمس والجمعة وتلقي الدروس نيابة عني إلى أن يفرج الله ، ففتحت المسجد وصرت أصلي فيه وألقي فيه الدروس . فاشتد ذلك على جماعة الفقهاء ، وكتبوا عريضة إلى الملك فؤاد يقولون مثل ما قالوا في العريضة التي رفعوها للمحافظ ، وزادوا على ذلك أن سعادة محافظ الإسكندرية ثبت عنده كل ما نسبناه إلى هذا الرجل فنعمه من الصلاة والتدريس ، وأمر بإغلاق مسجده . فدعا شخصاً مغربياً يسمى محمد تقي الهلالي ، وهذا المغربي عنده حماية فرنسية ويتمتع بالامتيازات الأجنبية ، ويدعو إلى مثل ما يدعو إليه أبو السمح تماماً من العقيدة الوهابية الفاسدة ، فترجو من جلالتم أن تمنعوا هذا الرجل المغربي من إفساد عقائد المسلمين . وخاب الدماسون ، فبعث الملك فؤاد العريضة إلى محافظ الإسكندرية فلما اطلع عليها المحافظ غضب غضباً شديداً لأمرين أحدهما : إنهم تخبطوه واشتكوا إلى الملك ، والثاني : إن مني أنا من التدريس والصلاة يقضي إلى تدخل السفير الفرنسي بسبب الامتيازات الأجنبية التي كان العمل جارياً بها في مصر ذلك الزمان ، وهو ستة إحدى وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة ، فدعا الموقعين كلهم وأمر أن يدخلوا عليه واحداً بعد واحد فسأل الأول : أهذا توقيعك ؟ فأجاب بنعم ، فقال مرة أخرى أمتعرف أنه توقيعك . وأمر بجزءه في مكان آخر ثم دعا الثاني والثالث والرابع إلى آخرهم ، وفعل مع كل واحد منهم مثل ما فعل مع الأول ، ثم جمعهم وقال موجهاً لهم : لماذا تزكمتوني وكتبتم إلى الملك ؟ جئتموني من قبل وزعمتم أن أبا السمح وهابي ومفسد إلى آخر ما ذكرتم فظننت أنكم صادقون ، ومنتم وأمرت بإغلاق المسجد فما شأن المغربي ؟ أهو وهابي ومفسد ؟

فقالوا كلهم : إي والله يا سعادة المحافظ هذا المغربي مثله تماماً .

ثم قال لهم : زعمتم في عريضتكم التي أرسلتموها إلى الملك أنكم تخشون وقوع فتنة تسبب فيها الدماء إن بقي هذا المغربي يبيت العقيدة الوهابية ، فهل أتم

رجال أمن مسؤولون عن المحافظة على الأمن ومكلفون بإخاد الفتن ؟ بل أنتم سبب كل فتنة ، وأي شيء يقع في رمل الاسكندرية من الفتن بسبب العقائد الدينية فأنتم وحدكم المسؤولون عنه ، وسأعاقبكم عليه عقاباً صارماً ، وأنتم مستحقون للعقاب منذ الآن ولكني أمهلکم .

فرجموا خائبين وأقبل بعضهم على بعض يتلأمون ، وكان الشيخ عبدالظاهر في أول الأمر يحضر صلاة الجمعة مؤتماً متخفياً . فلما مضى شهران ولم يحدث ما يكدر الصفو، صار يأتي علانية ، ولما ظهر لنا أن أولئك الأعداء خدعت فتنتهم وخضرت شوكتهم استأذنته أنا في الرجوع إلى القاهرة ، فرجعت إليها ثم سافرت بعد ذلك إلى الصعيد وتقدم أنني أقمت بضعة أشهر في اليربومون أدعو إلى توحيد الله واتباع الكتاب والسنة ، فاستجاب لدعوتي شيخ البلد المباشر للحكم وتبعه أهل البلد إلا قليلاً .

وأزيد هنا أنه بعد استجابة الشيخ يوسف ، رحمه الله ، التمس مني أن ألقى الدرس في الجامع الأعظم ، وكان هو وسائر المساجد ممنوعاً عن السلفيين دخولها، فجمع الله الشمل بدعوتي . واستمرت ألقى دروس الوعظ في المسجد الأعظم ، فاغتاز شيخ الطريقة والعمدة «المرفوت» ، وبعثنا إلى الأزهر يطلبان أستاذاً من العلماء الأقوياء في المناظرة ، فجاء الأستاذ الأزهري ، وأقام في قصر العمدة ، فأشاع هذا وخدمه أن هذا الأستاذ سيناظر الأستاذ المغربي ويفضحه ويقضي على دعوته ، لأن المغربي لم يدرس في الأزهر وهو حاج جاهل اغتر به شيخ البلد ورفع شأنه .

قال ذلك ليحلمي على مناظرته ، فقلت لمن أخبرني : صدق العمدة .. أنا جاهل ولم أدرس في الأزهر ، وأنا أنوي الحج إن يسره الله ، ولكن المسائل التي دعوت الناس إليها من توحيد الله واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم أعرفها وعندني عليها براهين لو جاء الشيخ الأزهري وجميع أسانذته ما استطاعوا أن يتقصوا واحداً منها . فقال لي إخواننا السلفيون : لا تقل مثل هذا الكلام ،

فإن ذلك يطعمهم ، وتقدم لناظرة العالم الأزهرى ، فإن الأزهريين ليس عندهم علم بأدلة التوحيد واتباع الكتاب والسنة ، ونحن مع قلة علمنا لناظرهم فنفهمهم . فقلت لهم : لكم رأيكم ولى رأيي ، أنا لا أناظر أحداً إلا من هجم عليّ ، فإنني أضطر حينئذ إلى مناظرته . والقاعدة التي أسير عليها هي تجنب المناظرة بقدر الإمكان ، ومن خالفني أقول له أنا حارث وأنت حارث وأرض الله واسعة فخذ بقعة من الأرض واحرثها وأنا احرث هذه البقعة ، والحاصلات بيد الله ، أقصد بذلك إنني أدعو إلى ما أعتقد أنه الحق ، وهؤلاء الناس أمامك فادعهم أنت أيضاً ، فمن استجاب لي فهو لي ومن استجاب لك فهو لك ، ولا حاجة بنا إلى خصام ولا نزاع .

فبلغ العمدة « المرفوت » وأستاذه الأزهرى كلامي هذا ، فزاد طمع العمدة وأستاذه ، وفسر ذلك بأني ضعيف ، فعزم الأستاذ الأزهرى ، بإيعاز من العمدة « المرفوت » أن هجم عليّ في الجامع الأعظم عند إلقائي الدرس ، فبعث إليه الشيخ يوسف ، رحمه الله ، رسولا يقول له : نحن قد اخترنا هذا الأستاذ المغربي بعدما ألقينا عليه كل ما عندنا من مشكلات ، وأجابنا أجوبة مقنعة ، والمسجد لم يبن للمهاوشات والمنازعات . والله إن جئت وقتحت (بكك) بكلمة واحدة في الاعتراض على المغربي لأمرن خفيرين يرافقانك إلى محطة القطار ويركبانك فيه . فوقع العمدة « المرفوت » وأستاذه الأزهرى في حيص بيص وتحميرا في أمرها .

وكنت ذات يوم من أيام رمضان مدعواً إلى الإفطار عند العمدة الحقيفي الذي هو الحاكم على البلد ، وكان ملحداً ، فقال لي : أنا لست معكم ولا معهم ، ولكني أرى عقيدتكم أقرب إلى العقل من عقيدتهم . فلما فرغنا من الإفطار رجعت ماراً بقصر العمدة ، لأنه في طريقي ، فإذا بشيخ الطريقة بسم عليّ ويصافحني ويقول : إن سعادة العمدة يدعوك لتشرب عنده كوباً من القهوة . فقلت : عندي درس بعد التراويح . فقال : خمس دقائق .

فدخلت القصر ثم رافقتني إلى مقصورة وجدت فيها الأستاذ الأزهرى جالسا وحده ، فما استقر بي المجلس حتى بدأ الأستاذ في طرح الأسئلة .

وتصدت لجوابه ، ووقعت المناظرة التي كانا يرغبان فيها . ولما سمع الناس بذلك تركوا صلاة التراويح . فعانت مني التفاتة إلى حديقة القصر فرأيتها كلها قلانس وحمائم ، والناس جالسون على بساط النجم الذي كانت أرض الحديقة مفروشة به ، فأخذ الأستاذ الأزهرى في كل مناسبة يقول جهاراً : أشهد بالله إن هذا الرجل عالم وأنا راجع عما قلته فيه . أشهد بهذا وإن كنت أخالفه في بعض المسائل . فسقط في يد العمدة وشيخ الطريقة وخاب أملها . فقال العمدة « المرفوت » : أيها الأستاذ، أرجو أن تتركوا هذه المناظرة إلى وقت آخر، فلاني لم أدع الأستاذ المغربي للمناظرة بل دعوته لشرب القهوة .

وهكذا انتهت المناظرة بانتصار أهل الحق والله الحمد . وفي صباح تلك الليلة ناول العمدة « المرفوت » الأستاذ الأزهرى ما تيسر من الدرهم وردة إلى الأزهر .

بين السنة والبدعة :

وإذ أرخيت العنان للقلم في هذا الموضوع فمن المستحسن أن أضيف إليه قصة مناسبة حدثني بها الشيخ يوسف رحمه الله، حين زرت ريمون بعد رجوعي من الهند سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وألف .. أخبرني أنهم لما تمسكوا بالسنة وتركوا البدع كلها ، شاع في الناس أن أهل ريمون بدلوا الدين . فبلغ الأمر إلى وزارة الأوقاف في القاهرة أو في أسبوط ، فجاء مفتش على أو ذلك من وزارة الأوقاف ، وتكلم مع الشيخ يوسف وقال : إننا سمعنا أنكم بدلتم الدين وخالفتم جميع المساجد في ما يفعل يوم الجمعة وغيرها . فقال له : أنت عالم ونحن جهال ، احضر معنا صلاة الجمعة ، فكل ما رأيت مخالفاً للسنة تأمرنا بتركه فنتركه ، وكل ما رأيت ناقصاً من السنة تأمرنا بفعله فنفعله . قال لي : يا شيخ يوسف ، السنة على الرأس والعين ، ولكن لا يخفى عليك أن الناس قد أحدثوا

بدعاً مستحسنة من أزمنة متطاولة ، والبدعة تعترضها الأحكام الحمة ، تكون واجبة ومستحبة ومكروهة ومحرمة أو مباحة كما صرح به غير واحد من أهل العلم ، ولا نستطيع أن نبطل هذه البدع وقد ألفها الناس وعملوا بها وأقرها العلماء بالسكوت والاستحسان قال : فقلت له : تريد منا إذن أن نترك السنة ونفعل البدعة ! لا والله لا يكون ذلك أبداً . فقال المفتش : ثم لا يخفى عليك أن هذا مسجد الأوقاف هي التي بنته وهي التي تنفق عليه . قال فقلت له : نحن قادرون نبني مسجداً آخر أحسن منه في سبعة أيام ونخلي لك الإمام والمؤذن يصليان فيه وحدهما . فقال المفتش : أو تصنع شيئاً آخر يوفق بين رأيي ورأيكم . فقال : ما هو ؟ فقال : أصلي معكم الجمعة وتفعلون البدع التي صكنتم تفعلونها من قبل ، حتى أرجع أنا إلى مقر عملي وأخبر بأن ما شاع عنكم كذب ، وبعد ذهابي ترجعون إلى ما كنتم عليه من التمسك بالسنة وترك البدعة . قال الشيخ يوسف : فقلت له لك ذلك . فقال : فصنعنا كما أمر ، ثم رجعنا إلى السنة .

مع المتنبي :

يقول الشيخ : ثم درست في مدرسة علي خان في دهلي ، بطلب من النواب صدر الدين ، ديوان المتنبي ستة أشهر ودعاني الأستاذ الأديب الشيخ عبد الحميد الحريري في بنارس ، المدينة المقدسة عند الوثنيين ، لإلقاء دروس في علم الأدب والتجويد ، فأقيمت عندهم ثلاثة أشهر ، وفي الوقت نفسه دعاني الأستاذ الشاعر الأديب الشيخ عبد الحميد الغرامي لأدرس في مدرسة ببلده ، فرجحت إجابة طلب الحريري ودرست في مدرسة خاصة أنشأها لي السري الشيخ مصطفى آل ابراهيم بالندوة سنة ، ثم توجهت إلى المملكة العربية السعودية آخر سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وألف ، فعينت مدرساً في المسجد النبوي ومراقباً للمدرسين سنتين ، ثم نقلت إلى المسجد الحرام والمعهد السعودي فدرست فيها سنة ، ثم دعاني السيد سليمان الندوي إلى ندوة العلماء ، وتقدم ذكر ذلك .

وفي أثناء إقامتي في الندوة اقترح عليّ السيد سليمان ، رحمه الله ، إنشاء مجلة لتدريب الطلبة على الكتابة والإنشاء ، فأنشأتها بمساعدة أفضل تلامذتي هناك . الأستاذ مسعود عالم الندوي رحمه الله ، وسميتها « الضياء » وانتشرت في الهند واستفاد الناس منها ، وكنت مع ذلك أدرب الطلبة على الخطابة مرتين في الأسبوع ، يهيء كل من عنده كفاءة منهم خطبة في موضوع يختاره فيلقيه أمام الطلبة ، وأصحح له ما فيه من الأخطاء والمبارات المرغوب عنها . وبذلك تخرج أدباء باللغة العربية في الهند^(١) . وسبب ذلك أن تعلم الأدب العربي كان جارياً بالترجمة ، فكان الأستاذ إذا قصدى لتدريس كتب النحو أو كتب الأدب كديوان الحماسة وديوان المتنبي والمقامات الحزبية والمعلقات ، يدرس الطلاب ترجمة هذه الكتب ، ولا يدرسهم الكتب نفسها . وهنا تحتم عليّ أن أذكر قصة وقعت لي في مدرسة علي خان التي تقدم ذكرها لما فيها من إقامة البرهان على فساد التعليم بالترجمة .

ذكرت من قبل أن النواب صدر الدين رحمه الله ، دعاني لإلقاء درس كل يوم في الأدب العربي لتعود آذان الطلبة سماع الكلام العربي على لسان أستاذ عربي ، وأمر مدير المدرسة الأستاذ أحمد الله أن يختار لي المتقدمين من الطلبة فاخترتهم وكان عددهم خمسة عشر . ولما علم بذلك أستاذ اللغة العربية مولانا عبد الرحمن النقرامي غضب وقال للطلبة : لقد أخطأ النواب في هذا الأمر . هذا شاب عربي جاهل مجهول في الهند لا يستطيع أن يعطيكم شهادة تنفعكم ، وقد انقرض العلم وذهب أهل في بلاد العرب منذ زمان طويل . ألا تزوتهم يجيبونكم في كل سنة من مكة والمدينة يتكفون الناس ؟ هل رأيتم قط عالماً جاء من بلاد العرب ؟ فاذهبوا إلى النواب وقولوا له : نرجو أن تعفينا من الدراسة عند المغربي فإننا لا نفهم كلامه ولا يفهم كلامنا . فقالوا : نحن نستهني أن نراجع النواب .

(١) لقد لنا أثر هذه السنة الحميدة في الوافدين إلى الجامعة الإسلامية من غربيي نموة العلماء ، فهم من أتمتعوا بالأعاجم العربية ، بل إنهم يضاهون أفصح الطلاب العرب .

فقال : إذا لا أعطيكم شهادة ودعوا المغربي يعطيكم شهادة . وبعدما درسناهم أربعة أيام وصلنا إلى قول المتنبي في قصيدة يمدح بها سيف الدولة :

أنا له الشرف الأعلى تقدماً فما الذي يتوقى ما أتى نال !

وكننا ندرس هذا الكتاب بنسخة مطبوعة في دهلي ، فلم أفهم الشطر الثاني ، فقلت للطلبة : لم أفهم هذا الشطر فلمه محرف . فأعظموا ذلك ، وقالوا : صدق مولانا عبدالرحمن أنت عربي وعالم وتمجز أن تفهم المتنبي - (توبة استغفر الله) - وهذه كلمة تقال بالأردو عند الغضب والاستنكار . فقلت لهم : لعل هذا الشطر محرف ، فإنه لا معنى له بهذا اللفظ . فقالوا : ليس محرفاً وقد درس النيران كله بهذه النسخة مولانا عبد الرحمن مراراً فما وجد فيه تحريفاً ولا خطأ ، ولكن هذا قصور منك . فذهبوا إلى الشيخ عبدالرحمن وقالوا له : إن عرب صاحب السيد العربي ، اعترف بعمجه عن فهم هذا الشطر ، وزعم أنه محرف ، فقال لهم : ليس هذا الشطر محرفاً وهذا يفهمه كل واحد حتى الحمار ، فرجع إليه أحد عشر منهم وبقي عندي أربعة أيضاً يعتقدون أنني لم أفهمه ولكنهم فضلوا الاستماع إلى اللغة العربية على لسان رجل من العرب ، فبقيت أفكر في هذا الشطر أربعة أيام فلم أفهمه ، فذهبت إلى الشيخ عبد الرحمن وسلت عليه فرد عليّ السلام ، وكان الطلبة قد أحاطوا به يلقي عليهم الدرس ، فقلت له : أيها الشيخ ، أنا لم أفهم هذا الشطر ، والطلبة يقولون إنك فهمته فأرجو أن تفهمني إياه . فقال لي ما نصه : « فما الذي يتوقى الأعداء ما أتاه الممدوح من الإقدام نالوه » ، وكان ينبغي أن يكون بعد اللام واو وألف ولكنه كتب خطأ . فقلت له : لم أفهم فأرجو أن تعرب لي هذا الشطر حتى يتبين معناه فقال : ما موصولة والذي توكيد لها ويتوقى فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر تقديره هم يعود على الأعداء في البيت الذي قبله ما موصولة مفعول به ليتوقى ، أتى فعل ماضي والعائد عذوف تقديره أتاه ، نالوا فعل وفاعل ، فقلت له : إذا قلنا إن ما موصولة والذي اسم موصول يكون التقدير الذي الذي قال : ولا حرج في ذلك .

فقلت له : لا يجوز أن يكون فاعل يتوقى ضميراً مستتراً تقديره هم إذ لو أريد الجمع لبرز الضمير ، وصار يتوقون . فقال : تريد أن تعترض على المتنبي ؟ فقلت : أألا أريد الاعتراض بل أريد أن أفهم . فقال : إن أبا علي الفارسي بقي أياماً ينظر في ديوان المتنبي فلم يستطع أن يجد فيه خطأ . فقلت له : قد أخطأ المتنبي في مواضع ، فقد انتقد عليه علماء البلاغة قوله :

جففت وهم لا يحفظون بها هم شيم على الحساب الأغر دلائل
ففيه التعميد واستتعال لفظ جففت ، وعاوا عليه قوله :

فقلقت بهم الذي قلل الحشا قلاقل هم كلهن قلاقل
وعاوا عليه قوله :

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الإسلام

اجتمع في هذا البيت قبح اللفظ والمعنى . وبراجمة شروحه تعرف أنه ليس معصوماً من الخطأ . فأعرض عني وقال للطالب الذي كان يقرأ (تشلو) يعني : اقرأ ، فأصابني غم عظيم ، وقلت لطالب : إذا أردت أن أسأل عن الطابع المجتبائي ، فما أقول ؟ فقلتني ألقاها بالأردو . فانطلقت أسأل إلى أن وصلت دار المطبعة المجتبائية فسألتهم : هل عندهم نسخة للبيع من شرح المكبري لعمرو المتنبي ؟ فقالوا : النسخة الأخيرة बनाها أمس . وأخبروني بمن اشتراها وهو طالب ، فذهبت إليه ، فجماعني بالكتاب ، فقرأت البيت وشرحه ، فإذا هو محرف كما قرعت ، وصوابه هكذا :

أألا له الشرف الأعلى تقدمه فما الذي يتوقى ما أتى بالوا ؟!

فظهر أن ما التي زعم أنها موصولة استفهامية ، وظهر أن يتوقى الذي اخترع له فاعلاً تقديره هم ليس فعلاً أصلاً بل هو جار ومجرور ، وبذلك اتضح معنى الشطر فكتبت البيت على الصواب وشرحه وذهبت إليه ، فقلت له بعد السلام : أيا الشيخ أنت قلت للطلبة إن ذلك الشطر يفهمه كل أحد حتى الحمار ،

وقد ظهر أنك لم تفهمه ،خذ اقرأ . فقرأ ذلك ثم رد لي الصحيفة ولم ينبس
ببنت شقة ، رحمه الله وغفر له . وأنا سقت هذه الحكاية لما فيها من العبرة .

ثم درست في مدرسة النجاة بالبصرة ثلاث سنين . وبعد ذلك سافرت إلى
أوربة محاضراً وطالباً في جامعة بون كما تقدم . وفي سنة سبع وأربعين وتسمعة
وألف تمكنت بعد لأي من الرجوع إلى العراق ، وعينت مدرساً للأدب العربي
والقرآن والحديث في كلية الملكة عالية من جامعة بغداد . ولكن رئيس الوزراء
في ذلك الوقت صالح جبر كان من زعماء الشيعة الإثني عشرية منفي من العمل في
المنصب الذي عينت فيه ، وعلل ذلك بأني رجعت إلى العراق يجواز أجنبي ،
وذلك يعتبر تنازلاً عن الجنسية العراقية . فسألت الدائرة المختصة عن تجنسي
بالجنسية العراقية ، فأخبرت أنه لم يطرأ عليه تغيير ، وأخبرني أهل الخبرة أنه
لا يمكن زرع التجنس من التجنس بالجنسية العراقية إلا بارتكاب جريمة يرى
مجلس الوزراء أن مرتكبها يستحق أن يعاقب بإسقاط تجنسه . وعلت أنت
صالح جبر إنما فعل ذلك تعصباً لطائفته ، لأنني اطلعت على الملف الخاص بي في
دائرة التحقيقات الجنائية بمساعدة الأستاذ طه الفياض وأحد معاوني الشرطة ،
فأريت فيه زعمهم أنني معاد لأبناء الطائفة الجعفرية . وأنا لم أعاد الطائفة
الجعفرية قط ، ولكن قرأت في مجلة المنار مقالاً لكاتب شيمي من بلاد فارس
أقام فيه البراهين التي لا تبقى شكاً على أن أئمة أهل البيت رضي الله عنهم كانوا
يحرمون البناء على القبور وسائر البدع التي يرتكبوها المتدعون عندها .
ومن ذلك ما ذكر جعفر الصادق رضي الله عنه من قوله : كل ما جعل على القبر
من غير تراب القبر فهو ثقل على الميت . وحديث الصحيحين : « لعن الله اليهود
والنصارى اتخذوا قبور أوليائهم^(١) مساجد » إلى آخره ذكره مروياً من طريق
أهل البيت ، وذكر أحاديث أخرى وآثاراً بفهم منها أن أئمة أهل البيت
في هذه المسألة لا يختلفون مع أهل السنة . وعلى رأي الجهال ينبغي أن يسموا

(١) المشهور (أنبيائهم) لا (أوليائهم) .

وهابيين ، فكتبت رسالة إلى السيد المهدي القزويني مجتهد الشيعة في البصرة ،
 ونقلت له الأحاديث التي ذكرها صاحب المقال ، وقلت له : أخبروني عن هذه
 الأحاديث ، أمي صحيحة عنكم أم لا ... فإذا كانت صحيحة فما المانع من
 العمل بها وتطبيق أحكامها ؟ فأجابني برسالة طويلة لم يطمئن في شيء من تلك
 الأحاديث ، ولكنه تأولها ، وصرف معناها ، وسب ذلك الكاتب الشيعي
 وصاحب المنار سباً شديداً ، وسألني في آخر الرسالة أن أكون حكماً بين الشيعة
 وصاحب المنار ، فكتبت سبع مقالات سميتها « القضاء العدل في حكم البناء على
 القبور » وحكمت لصاحب المنار على مجتهد الشيعة المذكور ، لا تحيزاً بل لأن
 الحق في جانبه ، ونشرت هذه المقالات في مجلة المنار ثم جمعت في كتاب أمر
 بطبعه الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله ، وأظن هذا هو
 سبب زعمهم إني معاد لطائفة الشيعة . وبمراجعة المنار يظهر أن هذا كذب
 وأن أئمة أهل البيت الذين ينتسب إليهم الشيعة متفقون مع أئمة أهل السنة في
 تحريم بدع القبور ، والتشيع على درجات ، أخفها أن يكون الرجل سبياً لأهل
 البيت ، معترفاً بفضلهم ، عارفاً لهم حقهم ، وقرابتهم من رسول الله ﷺ مع
 محبته لأصحاب رسول الله ﷺ ، وخصوصاً الخلفاء الأربعة ، واعتقاده لخلافتهم
 جميعاً . الدرجة الثانية تفضيل علي على غيره من الصحابة مع اعتقاده ثبوت
 خلافة الثلاثة كما هو مذهب الزيدية ... (١) . الدرجة الثالثة إنكار خلافة
 الخلفاء الثلاثة وتكفير أكثر الصحابة ، واتهامهم بالخيانة ونقض العهد ، فهذا هو
 المنكر الذي ينكره كل من ألهمه الله رشده . ومع ذلك لم أتهم من لعقيدة الشيعة
 الخاصة ، وبذلك يظهر أن ما سطره في الملف غير صحيح ، وبقيت على ذلك
 سبعة أشهر فحدثت الوثبة ، ووقعت في بغداد مظاهرات قتل فيها أربعون
 شخصاً ، وسقطت الوزارة ، وهرب صالح جبر وفوزي السعيد . فتولى السيد
 محمد الصدر رئاسة مجلس الوزراء وأمر في الحال بإعطائي نسخة من التجنس .
 وبأشرت عملي في الجامعة . والسيد محمد الصدر أيضاً شيعي ، ولكنه عالم معتدل

لا يرضى بسلوك صالح جبر التمسكي . وبعد أربع سنين رقيت إلى درجة أستاذ مساعد ثم جاءتني دعوة لأكون أستاذاً منتدباً لتدريس العلوم الإسلامية في القسم الشرقي في جامعة بون لمدة سنة . و رقيت إلى درجة أستاذ جامعي ، ثم نقلت إلى كلية التربية لأن كلية الملكة عالية كانت خاصة بالطالبات . ولما شاع اختلاط الجنسين في جامعة بغداد وألفه الناس صارت كلية الملكة عالية ، التي سميت بعد الثورة كلية التحرير ، شبه مغلقة ، و بقيت أستاذاً في كلية التربية إلى سنة تسع وخمسين وتسمئة وألف حيث أطلق عبد الكريم قاسم أيدي الشيوعيين ترفاً للدول الشيوعية ، فصاروا يقتلون من شاؤوا ويسجون من شاؤوا ، ويسحلون الناس في الشوارع ، يضعون حبلاً في عنق الرجل ويجرونه إلى أن يموت ، ويمذبون المسجونين في الليل ، ويتعقبون البعثيين فيفتكون بهم ، ولا يفرقون بين مسلم وملحد ، فكل من ليس لهم فهو عليهم . فأحسست بالخطر فاحتلت حقي خرجت من العراق ، ووصلت المغرب ، فعيّنت أستاذاً في كلية الآداب في جامعة محمد الخامس ، و بقيت فيها إلى سنة ثمان وستين وتسمئة وألف الموافقة لسنة ثمان وثمانين لتاريخ الإسلام ، فمعبجت . ودعاني صاحب القضية رئيس الجامعة الإسلامية الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز لأكون أستاذاً منتدباً في الجامعة الإسلامية ، وقدم الطلب إلى وزارة التعليم العالي بالمغرب بإسطة وزارة الخارجية السعودية ، فوافقت الوزارة وانتقلت إلى الجامعة الإسلامية ولا أزال فيها ^(١) ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل تعليمي خالصاً لوجهه الكريم ، مقبولاً عنده ، موجياً لنفوز بجات النعم . أما إلقاء الدروس في المساجد والمهافل فلم يزل دأبي في الشرق والغرب ، وتقدم الإشارة إلى بعض ذلك .

(١) تركه فضيلته الجامعة الإسلامية ليتفرغ لعمل الدعوة بالمغرب منذ أول عام ١٣٩٤ هـ .

مؤلفاته وأحبها إليه :

يقول الشيخ حفظه الله في السنة التي رأيت فيها النبي ﷺ وأمرني بطلب العلم : رأيت كأن شجرة نبتت في ظهر يدي اليمنى وامتدت أغصانها إلى جميع أنحاء الدنيا بحيث لا أرى أطرافها ، فظننت أن تأويل هذه الرؤيا أني أتمم العلم وأولف كتاباً ينتشر في جميع أنحاء العالم . وقد أخطأت في هذا التأويل فأنت الذي تنتشر في أنحاء العالم هي المقالات التي نشرتها في الصحف والمجلات ولا أحصيها لكثرتها في الهند والبلاد العربية مشرقها ومغربها ، وفي أوربة والولايات المتحدة . ومع ذلك ألفت تأليف صغيراً ، أذكر منها هنا ما يحضرنى :

- ١ - الزند الواري والبدرا الساري في شرح صحيح البخاري (المجلد الأول فقط).
- ٢ - الإلهام والإنعام في تفسير سورة الأنعام .
- ٣ - الإسفار عن الحق في مسألة السفور والحجاب .
- ٤ - القاضي العدل في حكم البناء على القبور .
- ٥ - الأنوار المتبعة في تحققي سنة الجمعة .
- ٦ - فضل الكبير المتعالي (ديوان شعر محمد تقي الدين الهلالي) .
- ٧ - قبسة من أنوار الوحي .
- ٨ - الصبح السافر في حكم صلاة المسافر .
- ٩ - العيلم المأثور والمسلم المشهور واللواء المنشور في بدع القبور .
- ١٠ - مدينة العرب في الأندلس (مترجم عن الإنجليزية) .
- ١١ - آل البيت ما لهم وما عليهم .
- ١٢ - البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في عبودية وبريء من الألوهية .
- ١٣ - دواء الشاكين وقامع المشككين في الرد على الملحدين .
- ١٤ - أحكام الخلع في الإسلام .
- ١٥ - حاشية على كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب .

- ١٦ - رسالة الدكتوراه وهي ترجمة مقدمة كتاب «الجاهر في الجواهر»
والتعليق عليها .
- ١٧ - الطبقات عند العرب .
- ١٨ - «لسان الدين» المجلد الأول من مجلة كنت أصدرها بتطوان .
- ١٩ - «التشليلات» لمحمد بن دانيال . تعريف بها وبيان محتوياتها .
- ٢٠ - مختصر هدى الخليل في المفائد وعبادة الخليل .
- ٢١ - «المهاديات» أربع قصائد من أوائل شعره .
- ٢٢ - رحلة من الزبير إلى جنيف .
- ٢٣ - من يرافقي إلى برلين بقسميها الشرقي والغربي .
- ٢٤ - رحلة إلى درعة في الجنوب الشرقي من المغرب .
- ٢٥ - رحلة إلى ألمانيا . تاريخ اللغة السامية .
- ٢٧ - دليل الحاج في مناسك الحج . ٢٨ - الصديقات الثلاث (قصة) .
- ٢٩ - فكاك الأسير العاني المكبوت بالكبل الشيعاني .
- ٣٠ - حاشية على كشف الشبهات ، لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب .
- ٣١ - حواشي شق على إنجيل متى .
- ٣٢ - الحسام الماسق لكل مشرك و منافق .
- ٣٣ - العقود الدرية في منع تحديد الذرية .
- ٣٤ - الرجعية والتقدم .
- ٣٥ - سب القاديانيين للإسلام والرد عليهم .
- ٣٦ - تقويم اللسانين . ٣٧ - أهل الحديث .

والكتابان الأخيران مقالات مستمرة تنشر في مجلة «الوعي الإسلامي»
و«دعوة الحق» .

والظاهر أن هذه الكتب جميعاً قد خرجت إلى حيز النشر، وإن كنا لم نطلع
على معظمها . ويلاحظ من عنواناتها أمران : تعدد جوانب الفكر واتساعها ،

فهي تتناول أشات البحوث من شرعية وأدبية واجتماعية ولغوية ، وإنت كان الغالب عليها هو الطابع الديني . ولا غرو فالشيخ ، مد الله في حياته ، من رجال الدعوة المعروفين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي . وقد كان أحد الرجال الذين تركوا أثرهم في عقل مؤلف هذا الكتاب منذ زمن طويل ، ببحوثه المتديدة التي كان ينشرها في العديد من المجلات الإسلامية العالمية ، ثم قدر الله اللقاء فجمعت بينها زمالة التدريس في الجامعة الإسلامية ، وفي مجلسها الإداري عدد سنين ، أما ثاني الأمرين فهو السجع الغالب على معظم هذه العنوانات ، وهو ثمرة طبيعية للطابع الأدبي الذي يؤثره الشيخ ، إذ هو من بقايا المدرسة المحافظة ، شديد التمسك بها حتى التعصب .

أحب انتاجه إليه :

ويجيب على استطلاعنا عن أحب ما كتب إليه وما نظم فيقول: أعتذر عن ذكر مختارات من النثر لأنه كثير ولا أستطيع أن أختار شيئاً منه إلا براجمته صد ، وذلك ليس في الإمكان ، وإن أراد الأخ المقترح أن أطلع على بعض ما عندي ليختار هو بنفسه شيئاً منه ، فإني مستعد لذلك ، وأما النظم بل الشعر فقد جلت فيه جولات كثيرة ، وضاع أكثره ، وفي السنين الأخيرة جمعت ما أمكنتني جمعه منه ، وهو غيض من فيض وأثبت هنا ما يتسع له الوقت . من ذلك القصيدة الأولى في انتقاد أخلاق الموظفين ومعاملتهم لمن يتردد عليهم من أبناء جلدتهم ، قلتها في بغداد زمان الحكم الملكي ، وما ذكرت من الصفات المستنكرة مشاهد في جميع الشعوب المتخلفة لا تخص العراقيين دون غيرهم ، بل ربما كان العراقيون أفضل من غيرهم في هذا الأمر . فقد رأيت معاملات وأخلاقاً مردولة في شعوب أخرى في القارة الآسيوية والقارة الإفريقية أسوأ كثيراً مما شاهدته في العراق ، وهذه القصيدة من البحر الخفيف سميتها « الانتقاد رسول الإصلاح » :

نحن في بلدة غدا الحكم فيها
 إن يكن راضياً دخلت وإلا
 بلدة أصبح الموظف فيها
 من يرد أن يلقى الموظف ييمر
 فإلى الله نشتكي من زمان
 برزت فيه كل ربة خدر

واختفى (البيك^(١)) خلف ألف حجاب

وإذا ما سألت عنه فلا تسمع
 هو عند الوزير بل في اجتماع
 ما تراه دعاً بقهوة بن
 لم يجيء بعد فانتظر أو تأخر
 وإذا فزت باللقاء فعاذر
 وتجنب ذكر الحقوق وبالغ
 ثم قل في قلق وانكسار
 ليت كل الموظفين كمثل (البيك)
 أنا لا أنسى ما حيت جيلاً
 هكذا كان جدك الشهم قدماً
 فعسى أن تنال بعض حقوق
 ذلك شأن الموظفين سوى
 حالة تضحك العدو وتبكي
 أهذي الأخلاق يرجع مجد

منهم سوى اختلاق الجواب
 عنده زائر من الأصحاب
 وكؤوس مملوءة بشراب
 لقد أو غاعزب لغير إياب
 رفع صوت أمامه في الخطاب
 في خضوع وذلة وانتحاب
 وثناء منق منطاب
 في رقة ولين جناب
 لك يا بن الأكارم الأقطاب
 وأبوك المزدان بالألقاب
 عنيت باستباحة واغتصاب
 نرز قليل من جلة الأنجاب
 بدماء معاشر الأحباب
 ضاع منكم في غابر الأحقاب!

(١) لقب تركي للتشريف .

كل من لم ينصف أخاه يزل من	يسد أعدائه أليم العقاب
سنة الله في العباد قديماً	قد سمعت عن تبدل وارتباب
كن ذليلاً على أخيك تجرد قر	نك ملقى مغفراً بالتراب
أو عزيزاً عليه تمنّ بذل	وتدش حلف شعوة وعذاب
وإذا لم يك الموظف دوماً	خادماً للجميع غير محابي
يل يستغل منصبه الأعلى	ويقتي أخوانه كحاس صاب
فهو مستعمر خبيث ولو في	قومه نال أكرم الأنساب

وقلت في مدينة بون الألمانية في ٢٦ صفر ١٣٥٦ للهجرة وبعثت بها إلى
المجاهد الأكبر في الشمال المغربي الأستاذ عبد الخالق الطريسي رحمه الله . فقتصرها
في صحيفة الحرية لسان حزب الإصلاح الوطني الذي كانت زعيمه ورئيسه ،
والقصيدة من بحر الوافر :

سنا الحرية الغراء لاحا	فصير حنسن الظلما صباحا
وأحيا ميت الآمال لسا	أهاب بنا إلى العليا وصاحا
دعا للبعث والإنقاذ قوماً	نياماً جرحوا ^(١) الظلم الصراحا
دعا للبعث والإنقاذ قوماً	جهم قد غدا نبأ صباحا
دعا للبعث والإنقاذ قوماً	رأى العدران أثنضهم جراحا
أفاقوا من سباتهم فقاموا	فشاموا بارق الإصلاح لاحا
وألقوا سمعهم لنداء داع	رأوا حقاً إجابته الفلاحا
فقالوا إيه يا لييك داع ^(٢)	ويا سعديك، وايتقدروا السلاحا

(١) كانت (ارهقوا) ولا معنى لها فأبدلنا بها ما يناسب القرينة ، ولا ريب أن للكتاب فضلاً
لا ينكر في التشويشات الكثيرة التي واجهتنا في هذه القصيدة وما يليها .
(٢) حق (داع) هنا التعب والخطأ للكتاب .

ويلقى من وصول به المنجاسا	سلاح الحق لا يخشى فلولا
استحال فساد قومهم صلاحا	وساروا سيرة الحكماء حتى
أعادوا غابر الجهد المطاسا	وهبتوا للعدا يعنون حتى
ليبدل خسر أمته رباسا	فيا حزبا غدا للخير يسمي
ولقنت السعادة والفلاحا	جزيت من الإله بكل خير
لك الأغلاق تفتح انفتاحا	ودمت على صراط مستقيم
ونور العلم تجمله السلاحا	تجارب باغيا وتمت جهلا
وتشرح الصدور لك انشراحا	فيصبح قومك الأموات أحياء
وتفتح الطريق لها افتتاحا	وتنهض بالبلاد إلى المال
وتقلوها ابتهاجا وارتياسا	وتبدل ضيما عزاً وفخراً
دواماً ما غدا غدا وراحا	سلام الله يديه إليكم
غريباً ما أقام ولا انشراحا	أخ لكم بنار البين يصل
ويذكرها العشي والصباحا	ولم ينس البلاد وساكنيها

وقلت في سنة ألف وتسعمئة وإحدى وأربعين ميلادية ببرلين تحية للزعيم رشيد عالي الكيلاني لما قدم إليها هارباً من بلاد العراق إلى بلاد الترك ثم إلى ألمانيا ، وأذبت في إذاعة برلين المربية بتوقيع أبي مرقد البصري وهي من البحر الكامل :

ونجا الزعيم رشيد الكيلاني	باهت بنو سحكون بالحسران
وأنت هناك بني قحطان	يا آل عدنان تبدي سعدكم
وأمينكم ^(١) في عزة وأمان	فرشيدكم بالرشد أقبل سالماً
زال الظلام وأشرق القمران	سيفان مها أصلنا لفة

(١) يريد الزعيم الإسلامي المجاهد الحاج محمد أمين الحسيني رحمه الله .

يا مقبلا من غزوة متأهباً
تهديك وثبتك العظيمة أنها
لك في قلوب العرب حب صادق
وبكلل أروع رفعة وجلالة
جهلوا العراق وأرض بعرب كلها
حق بطشت البطشة الكبرى فكان
الفضل فيك سجية موروث
وأبيك شمس العارفين المرتضى
بحر العلوم وقطبها ومنازها
ظنت بريطانيا الرعناء أنك
من كان يحسب أن نمة نازلا
قام العراق بقضته وقضيضه
يجنوده بشبابه وشيوخه
يقدون بالأرواح حوزة أرضهم
يستعدون الموت في سوح الوغى
ملثت نفوسهم حماساً^(١) صادقاً
لم يسلموك إلى العداة وإنما
نوري الشقي ورهطه أهل الخنا
لما رأى ركن العدى منداعياً
فرّ الخبيث من البلاد مبادراً

للقاء أخرى ليس بالتوازي
فجهر الجهاد وأول الفرقان
ومكانة جلست عن الثيبان
في الناء من أرجائها والذاني
واباءها العالي الرفيع الشان
نت عندهم من أسطح البرهان
عن جدك المختار من عدنان
عبد القدير الجهمذ الجيلاني
وتمال أهل العلم والعرفان
مثل غيرك خائف أو وافي
في وجه جنبول إلى الميدان !
خلف الزعيم يشور كالبركان
حق ضعاف الأهل والولدان
وزعيمهم من غارة العدوان
ذوداً عن الأحساب والأوطان
متأججاً كتأجج النيران
خانت جهادك عصبة الشيطان
من كل نذل سافل خوان
في أرضنا متزعزع البنيان
متخوفاً يجري إلى عمان

(١) الحماسة : هو الفصح ، هي لا تقوت الشيخ ، ولعل المسئول عنها هو الكاتب الذي
أنعنا كثيراً بأخطائه التي لا تحصى .

يشكو إلى ساداته الأندال ما
يشكو إلى أستاذه المفتون ما
وكلاهما بالويل أصبح داعياً
إن عزت الأوطان لا يبقى لنا
أين المهزء.. أفي نواحي لندن
فرعاً إلى جنوب إن نجاتنا
حشدت بريطانية أجنادها
من بيضها الصهب اللثام وسودها
وأنت بدباباتها مثل الجبال
بمدججات بالحديد تبرقمت
لتنال نصراً باهراً لم تستطعه
ما هابها الجند العراقي الفقى
وغداً ينازلها بجأش ثابت
سل رطبة عنه وسن ذبابها
تنبيك عن وثباته وثباته
فرت بنوسكسون من فتكاته
لولا التفاوت في السلاح لما استطأ

قد ناله من محنة وهوان
وقواصيا بالقدر والكفران^(١)
لنوه من دائرة الحمران
فيها ثواء في مدى الأزمان
أم في نيورك عيشنا بأمان !
في كفة من نفمة العربان
من جملة الأجناس والألوان
فتكاوت كالبوم والغربان
وطائرات كالنور دواني
خسوف عدت بعدها مائتان
في وغى دنكرك واليونان
سم العداة وخيرة الشجعان
ويجندل الأقران في الميدان
وشمبية بالقرب من سفيران
وبما مني الأعداء بالحمران
ثم انشنت قسطن كالفرزان
عت رجعة مع جندها لطمعان

والشيخ حفظه الله شعر لا يبلغ مستوى جودته هذه المنظومات ولعله قد
آثرها من أجل موضوعاتها الهامة ، ونحن نشاركه في ذلك ، لأن مشكلة المجتمع
العربي والإسلامي مع حاكيه وموظفيه ، إلا من رحم الله ، تستدعي الكثير

(١) البيت مختل من حيث التركيب ، ولم نهند إلى أصله فتركناه كما كتب .

من النقد الإصلاحي، كالذي وجهه إلى هذه الفئة في أولى الثلاث . وكذلك الأمر في الفصيدتين الأخريين إذ عرهن علينا فيها بعض مشاهد النضال الذي نهض به العراق والمغرب في وجه الاستعمار فحفظ لقرائه بها ذكريات لا يحسن أن تنسب عن أذهانهم .

رأيه في مستقبل الجليل :

وبفضل الشيخ بتفصيل رأيه في مستقبل الجليل قائلا :

والذي يظهر لي أن الشباب في المغرب وخصوصاً المتعلمين في الجامعة دائبون على التباعد من الإسلام ، وبعضهم لا يكتفي بالتباعد بل يعادي الإسلام . وقد دعوت إلى الإسلام بوجه الأول الذي لم يبدل ولم تشوهه البدع الحديثة ، فاستجاب لي بحمد الله خلق كثير وفيهم شباب كثير من متعلمين وغير متعلمين ، ولكن هؤلاء إذا قيسوا بنيرهم كقطعة من بحر أو كشمرة بيضاء من حيوان أسود . ولا أرام إلا سائرين في طريق الكفر سيراً حثيثاً ، إلا إذا يسر الله انتشار الدعوة السلفية المحمدية الحنيفة حتى تعمّ المغرب كله ، وما ذلك على الله بعزيز ، والبلدان الأخرى ليست أحسن من بلادنا بل قد تكون أقبح ، لأن المغاربة لم يطراً عليهم التباعد عن الإسلام إلا منذ تسع وخمسين سنة ، أي منذ دخول الفرنسيين مستعبدين ، ولا يزال المغاربة أكثر قبولاً للدعوة من غيرهم لو وجدوا دعاة صالحين ، على أنني وبحمد الله نجحت أيضاً في العراق ، ولا تزال الدعوة مستمرة يقوم بها تلامذتي . إلا أنني وجدت من الصعوبة في العراق ما لم أجد مثله في المغرب لأن الداء في العراق قديم ، وبلغ الأمر بالآباء أنهم كانوا يمتنعون أبناءهم من الصلاة معي وحضور دروسهم في المسجد ويفرونهم بالدراهم والسدينا ، فيقبضون دراهمهم ويأتون إلى جامع الدمام لحضور الصلاة ودروس الوعظ ، ولم أر في المغرب أحداً من الآباء يعادي الإسلام بهذا الشكل .

وحبذا لو تبسط أستاذنا في إيضاح الجوانب التي ينبغي للدعاة أن يعيروها الأكثر من اهتمامهم ، على اعتبار أن لكل بيئة متطلباتها ، والأسلوب الأصح لها ، وبخاصة بعد الذي أشار إليه من الفرق بين المغرب والعراق .

هذا وكنا نود كذلك لو لم يغفل الحديث عن الهند والسعودية اللتين قضى فيها ردها من الزمن . . فإن الإفاضة من مثله في هذا الصدد من الأمور المرغوبة المنشودة .

واجب العلماء نحو الجيل :

وعن مسئولية أهل العلم بإزاء هذا الجيل يقول الشيخ :

إذا وجد جماعة من العلماء المخلصين المستعدين لحل ما عسى أن يصيبهم من الأذى كالضرب والسجن والتفني زيادة على السب والشتم وعداوة الناس ، وقد لا يصيبهم شيء من ذلك ، فإنهم يستطيعون أن يجذبوا كثيراً من الناس إلى الإسلام الصحيح ، ولا تستطيع الدعوات المعادية للإسلام أن تقف في طريقهم ، ولا أن تعوق تقدمهم إلى بلوغ غايتهم المنشودة .

وهنا أيضاً نجد في النفس تساؤلات : من أي طراز يرى أن يكون هؤلاء العلماء . . . وإذا توافر وجود هؤلاء فهل يتمكنون من أداء رسالتهم في ظل الأحكام المعادية للإسلام . . . وما النصائح التي يوجهها إلى دعاة الإسلام الذين يمشون تحت كوابيس الشيوعية والديكتاتورية . . .

ليت الشيخ أفاض علينا من تجاربه في هذه الجوانب ما يساعد على وضوح الرؤية أكثر .

الدكتور أبو محمد عبد القادر المبارك

يقول الأستاذ :

اسمي الذي سماني به والذي رحمه الله « محمد » ولقب أسرتنا منذ أكثر من قرن على الأقل « المبارك » وقد كُتبتني بأبي هاشم ، وكان يرى ذلك عادة عربية مستحسنة ، لما فيها من إشعار بالرجولة .

ولدت بدمشق عام ١٩١٢ م. في دار ملاصقة للدرسة العادلية ، التي هي اليوم مقر للجمع العلمي العربي ، وقد أصبحت هذه الدار نفسها ملحقة بالجمع ، وهي في حي قريب من الجامع الأموي ، ثم سكننا منزلاً آخر أقرب إليه في جهته الشرقية . وكنت أتردد مع أقراني من أحداث الحي على الجامع في أكثر أوقات فراغنا للصلاة والفسحة في رحابه الواسعة ، ولحضور الدروس الدينية التي كانت لها حلقات كثيرة بمد أكثر الصلوات الخمس .

إنني حالياً أستاذ ومستشار في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، وأقيم في مكة المكرمة منذ سبع سنوات بالقرب من بيت الله الحرام .. متزوج منذ سنة ١٩٤٧ م. وأب خمسة أولاد (ثلاث بنات وولدان) وجد ستة أولاد من بنتي المتزوجتين .

حياتي الزوجية سعيدة لما بيننا جميعاً أنا وزوجتي وأولادي وأصهارى من انسجام في العقيدة والأخلاق وسائر مذاهب الحياة ، ذلك أننا جميعاً نؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً مقترناً بالحب له والعمل في سبيله والدعوة إليه . ونعتقد أنه السبيل الوحيد لإنقاذ البشرية وأن ما سواه من الأديان والمذاهب لا يصلح للإنسانية ، بل إن فهمنا للإسلام أنا وأسرتي جميعاً التي عددتها ، فهم واحد ، قوامه الرجوع إلى الكتاب والسنة وما استنبط منها فحسب .

الأسرة :

كان والدي الشيخ عبد القادر المبارك عالماً مشهوراً في دمشق وأكثر شهرته في اللغة والأدب ، وكان أمثاله من القنويين ومن في طبقتهم تادرين في البلاد العربية كلها ، كما شهد له بذلك الشيخ محمد الحضر حسين رحمه الله . كان أعجوبة في حفظ مفردات اللغة وغريبها وشواهد ما من شعر العرب ، كثير الرواية له ، وكان من أعضاء اللجنة التي ألفت في عهد الملك فيصل الأول الهاشمي لتعريب المصطلحات العسكرية ، وقد اختير عضواً في الجمع العلمي العربي بدمشق حين تأسيسه ، وشارك في وضع كثير من المصطلحات كلفظ « الهاتف » التي هي من وضعه واقتراحه . وكان كذلك عالماً بالسيرة ووقائمه ، وبتراجم الرجال ومشاركاً في العلوم الإسلامية ، ومتقناً للغة التركية وعارفاً للإنكليزية .

كان أثره في حياتي وتكويني الفكري والثقافي كبيراً ، وكان في بيت والدي مكتبة كبيرة أصلها لجدي الشيخ محمد المبارك ، وكان من علماء دمشق وشيوخها ، وقد تفرد بينهم باللغة والأدب ونظم الشعر ، وله رسائل أدبية مطبوعة وشرح لعشر من مقامات الحريري ، وقد تحدث عنه الأستاذ محمد كرد علي في مذكراته ، وهو أحد عالِمين تلمذ عليها أحدهما الشيخ طاهر الجزائري . وأصل أسرتنا القريب من الجزائر ، هاجر منها والد جدي إثر الاحتلال الفرنسي حوالي سنة ١٨٤٥ م . على رأس قبيلة صكيرة من الجزائريين الذين كانوا ملتفين حوله .

البيئة التي نشأت فيها بيئة محافظة على الأخلاق الإسلامية الموروثة ، نجيا في جواء الإسلام وتراثه وتمتعه به ، سواء في ذلك الأسرة التي انحدرت منهم والهي الذي نشأت فيه . وكانت دار والدي مرثداً للعلماء الوافدين من أرجاء البلاد الشامية والعربية ، وكنت دائم الحضور لتلك اللقاءات والتدوات . وقد استفدت كثيراً من مكتبة جدي ثم والدي رحمهما الله ، وكنت مكلفاً تزويدها بالمطبوعات الجديدة وتصنيفها كلما اختل ترتيبها .

ونقف هنا قليلاً لتأمل في هذه المنطلقات التي يتولى الأستاذ سردها عن نشأته وأسرته ، فمثلها لا تعني فيه القراءة عن التأمل ، إذا أردنا التعرف الدقيق للملامح هذه الشخصية ، التي تمثل أحد أفراد الجيل الذي انتهت إليه أمانة الدعوة والتوعية ، على مستوى الوطن الإسلامي أو معظم أقاليمه .

أول ما يسترعي الانتباه من هذا الحديث إبرازه ذلك اللون الذي تميزت به الأوساط العلمية بدمشق طوال عهود الحضارة الإسلامية إلى نهاية النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري ، أي قبل تسلسل المؤثرات الدخيلة إلى صميم حياة الناس في ظل الانتداب الفرنسي . فالجو إسلامي صرف ، نظله كل مقومات التربية الأصيلة .. البيت يجوار المدرسة العادلية ، وعلى مقربة من المسجد الأموي ، فمن هنا وهناك تنبعث موحيات الماضي العظيم ، تتراءى من خلاله رايات الإسلام ، تزحف في كل اتجاه من العالم ، وتحمل إلى الخلف أصداء التكبير بمترجة بعبير النصر من سهول حطين القرية ، وأسوار القدس الحبيبة .. وقد تولى تجديد ذكرياتها ، كلما آذنت بالركود ، فبر البطل الفاتح الصالح صلاح الدين ابن أيوب ، الذي استقر يجوار ذلك المسجد ليكون معه شاهداً وحافظاً يصل بين أمس واليوم والغد من حياة المسلمين .

في هذا الجو نشأ صاحب الترجمة ، وعلى هذا المسجد الحافل بالموحيات يتردد مع أقرانه من أحداث الهي لأداء الصلاة ، وللترويح في رياض اللجنة - حلقات الدرس - في أعقاب معظم الصلوات .

ثم هناك البيت الذي أسس على هذا الروح ، فهو مدرسة قائمة بذاتها ، فيها الكتب القيمة ، وفيها العلم الذي يأخذ سبيله إلى القلوب والعقول ، على يد والد يشهد عارفوه أنه كان أعجوبة في حفظه وسعة آفاقه ، وأسلوب تربيته ، التي تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة . . والبيت بسبب ذلك كان مرئاد العلماء الوافدين عليه من أرجاء البلاد الشامية والعربية ، والفقير المترجم دائم الحضور لتلك اللقاءات والسدوات ، مما جعله مؤهلاً لرعاية المكتبة ، مكتبة جده ثم والده ، يزددها بالجديد من المطبوعات ، ويقوم بترتيبها كلما اعتري الخلل تلك المحتويات .

أجل إنها لمنطلقات لا يستطيع إغفالها من أراد الكلام عن حياة الأستاذ المبارك وتحليل آثاره وتعرف منهجه ، في خدمة الدعوة التي وقف عليها حياته المباركة كلها ، وبخاصة تلك الحصانة التي حفظت عليه مقوماته الشخصية أمام مغريات باريس ، وتحركات المستشرقين ، الذين استطاعوا سلخ الكثيرين غيره من مقوماته الإسلامية ، إذ لم يكن لهم رصيد من الوعي الذي أتيح له .

ويحدثنا الأستاذ عن دراسته فيقول :

أما دراستي فكانت مزدوجة تسير في خطين متوازيين أحدهما خط المدارس النظامية ، وتانيها خط الدراسة القديمة على الشيوخ وفي الحلقات .

أما دراستي النظامية فقد تابعت الدراسة الابتدائية ، ثم الثانوية ، منتهياً بالفرع العلمي وبالشهادة التي كانت تسمى يومئذ « شهادة البكالوريا الثانية فرع الرياضيات » وكننت متفوقاً في الدراسة الثانوية ، وخاصة في اللغة العربية والرياضيات ، واخيراً في اللغة الفرنسية التي كنت أقرأها وبالعربية معاً جميع المواد الدراسية في السنة الأخيرة ، ثم تابعت الدراسة الجامعية بدمشق في الحقوق وفي الآداب ، حيث كانت أنشئت مدرسة الآداب العليا وأنهيتها في سنة ١٩٣٥ م .

وكنت خلال هذه الدراسة النظامية أدرس في الصباح المبكر وفي المساء وفي الإجازة الصيفية على شيخ علماء الشام في عصره الشيخ محمد بدر الدين الشير بالحسني والملقب بـ « بالحدث الأكبر » ، وكان أوسع أهل زمانه اطلاعاً على العلوم الإسلامية القديمة بجميع فروعها من الحديث والتفسير حتى الرياضيات وإن كانت شهرته في الحديث ، وكان متفرداً في نطق حياته وفي عبادته وتقواه وسعته . وقد لازمته منذ نهاية الدراسة الابتدائية حتى نهاية الدراسة الجامعية مع فترة انقطاع قصيرة ، واستفدت كثيراً من علمه ، قرأت عليه النحو والصرف والتفسير والمصطلح والفرائض وأصول الفقه والكلام والبلاغة والحساب والجبر والهندسة ، بعضها في الدروس العامة وبعضها في الدروس الخاصة (أي خاصة بعدد معين من طلاب العلم) وبعضها كنت فيسه متفرداً ، وذلك في مدرسة دار الحديث الأشرفية (التي كان يدرس فيها الإمام النووي) .

وقد تأثرت تأثراً عميقاً بهذا الشيخ الجليل رحمه الله ، بسمته وأخلاقه وصفاته ، وكننت لا أزال أكن له المحبة والتقدير العظيم والإعجاب ، وإن كنت لم أقف منه موقف المقلد في جميع آرائه .

أنهت في عام ١٩٣٥ م دراستي الجامعية في دمشق كما انتهت كذلك قبل هذا التاريخ من دراستي على الشيخ إذ توفي رحمه الله في صيف العام نفسه ، وحضرت تشييع جنازته ، وكننت كثير التأثر لوفاته ، لم أبك على أحد بكائي عليه . وسافرت بعد ذلك إلى باريس موفداً في بعثة نجحت في مسابقتها وكننت الفائز الأول للتخصص في الآداب .

درست في كلية الآداب من جامعة باريس (السوربون) وفي معهد الدراسات الإسلامية التابع لها ، تابعت دراسة الأدب العربي والثقافة الإسلامية ، وعرفت المستشرقين عن كثب ولم أجد عندهم مادة علمية أستفيدها في أكثر الموضوعات بل كثيراً ما كننت أصحح لهم معلوماتهم ، ولكني كننت أستفيد من معرفة المراجع وبعض أساليب البحث .

خصصت السنة الثانية من دراستي في جامعة باريس بكاملها في دراسة الأدب الفرنسي وعصوره وفنونه وأعلامه . وحضرت على كبار أساتذة الأدب الفرنسي يومئذ ، وهذه الدراسة أفادتني في تدفق الأدب والقدرة على تحليل النصوص والاطلاع على النقد الأدبي الحديث ونظرياته والمباحث اللغوية الحديثة .

أما السنة الثالثة فخصصتها لدراسة علم الاجتماع دراسة كثيفة ومركزة ، بحضور المحاضرات والمكثف على المراجع في المكتبة . وكان أساتذة القسم من كبار علماء الاجتماع الفرنسيين من تلاميذ « دركهايم » وزملائه مثل « فوكونه » و « هالفاكس » و « البيريان » . وكانت استفادتي من هذين الفرعين الأدب الفرنسي وعلم الاجتماع كبيرة جداً ، فقد مكنتني من الروج في صميم الثقافة الغربية والتفكير الغربي ومذاهبه الفكرية والأدبية من منابعها الأصلية ، وعن طريق الاختصاصيين من أهلها ، لا بالواسطة وعن طريق الترجمة . إن هذه الدراسة وسعت آفاتي وأكسبني بعض المزايا الفكرية ولا سيما في طرائق البحث وأساليب التفكير ، ولكنها لم تستطع أن تؤثر في معتقداتي ولا أن تغزو عقلي ، ولكنها زودتني بمعلومات نافعة ومناهج مفيدة ، وأثارتني جانبها السليبي وحفزني للرد عليها ، فتولد في نفسي كثير من الأفكار الجديدة ، واكتشفت كثيراً من خصائصه . واستحكمت حجتي وقويت في الدفاع عن مزاياه ، وتمكنت من التمييز بدقة بين مفاهيمه والمفاهيم الغربية ، لأنني عرفت كلا منها من منابعه الأصلية دون اختلاط وتلفيق . وكنت خلال دراستي في باريس كثير التطلع لمعرفة مختلف آفاق المعرفة ، فلم أكن أقصر على محاضرات الجامعة ، بل كنت أحضر المنتديات والمحاضرات العامة ، وأتردد على مختلف المعاهد العلمية والنوادي على تعدد اتجاهاتها وألوانها ، وأتصل بالمجتمع اتصال بحث وتعرف استعداداً لاستثمار هذه المعرفة في مجال الدعوة الإسلامية التي كانت تشغل نفسي من عهد مبكر وقبل سفري إلى فرنسا . وقد تعرفت في جولة مسافرتي إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الجزائر ،

وهن هم يومئذ تسعة أندية في باريس ، وكان يمثلهم الشيخ الفضيل الورتلاني ،
رحمه الله ، وكنت أتردد على نواديهم وأتعاون معهم في مجال الدعوة الإسلامية
التي كانت أشمل من محاربة الاستعمار والتحرر والاستقلال .

إجازاته العلمية :

أما الشهادات التي نلتها فهي (بعد شهادة الدراسة الثانوية) قسم الرياضيات :
شهادة الحقوق من الجامعة السورية سنة ١٩٣٥ م من دمشق .
شهادة مدرسة الأدب العليا السورية سنة ١٩٣٥ م من دمشق .
شهادة الليسانس في الآداب من السوربون من جامعة باريس سنة ١٩٣٧ م
شهادة أو دبلوم في علم الاجتماع والأخلاق من جامعة باريس سنة ١٩٣٨ م
وكانت ثقافتي ودائرة اهتمامي موزعة في المجالات التالية :

١ - (اللغة العربية والأدب والنقد) ، وكنت متابعا لهذا النوع من الدراسة
متابعة جدية بالإضافة إلى الدراسة النظامية القوية يومئذ بالدراسة على والذي
رحمه الله ، الذي قرأت عليه بعض شروح المعلقات وشرح مقامات الحريري
والمقصورة اللديبية وغيرها ، وعلى شيخنا الشيخ محمد بدر الدين رحمه الله ،
الذي قرأت عليه بعض كتب النحو والصرف والبلاغة. ثم أكملت هذه الدراسات
العربية بدراسة الأدب الفرنسي الذي خصصت له من دراستي في فرنسا سنة كاملة
فوسعت آفاقي الأدبية وتمرست بقراءة أعلام الأدب الفرنسي الكلاسيكي والمعاصر
وتقوت بذلك ملكتي اللغوية والأدبية .

وقد مارست تدريس الأدب العربي في مختلف عصوره في المدارس الثانوية ،
ثم في دار المعلمين العليا التي أنشئت قبل كلية الآداب ، حيث درست النثر في
العصر العباسي ، وخاصة نثر ابن المقفع ، ثم درست في كلية الآداب في قسم اللغة
العربية ، فقه اللغة والدراسات القرآنية ، سنوات طويلة بدءاً من ١٩٤٨ م

حتى ١٩٦٦ م وألفت في كل من المادتين ، كما كنت أخرجت قبل ذلك رسالة في فن القصص في كتاب «البخلاء» للمحافظ .

٢ - (الدراسات الإسلامية) درستها على والدي رحمه الله ، وكان مدرساً للدين في ثانوية دمشق الوحيدة يومئذ ، بل في سوريا باستثناء ثانوية حلب التي أحدثت بعدها . وكانت له طريقة خاصة مؤثرة في التدريس ، وقد درستنا خاصة بتوسع الأحوال الشخصية والسيرة النبوية . ودرست عدة سنوات على شيخنا الكبير الشيخ محمد بدر الدين رحمه الله التفسير والحديث والمصطلح والكلام والفرائض ، وغيرها . وأما الفقه فقد درست بنفسني مطولاته في المذهبين : الحنفي ، والمالكي .

ولما كانت الدراسات الإسلامية محور اهتمامي فقد تابعت البحث فيها والمطالعة دون انقطاع ، وخاصة المشكلات المعاصرة وجانب الصراع بينها وبين الثقافات الأجنبية ، والمشكلات المتعلقة بالعالم الإسلامي الحاضر . وقت بتدريس هذا النوع من الدراسات في نطاق الجمعيات الإسلامية أولاً منذ سنة ١٩٣٩ م ثم في دار المعلمين بدمشق ، ثم في كلية الشريعة التي أنشئت في جامعة دمشق ١٩٥٤ م ثم في جامعة أم درمان ، ثم في كلية الشريعة بمكة وجامعة الملك عبدالعزيز بجدة ، وألقيت في مختلف موضوعاتها مئات المحاضرات وكتبت كثيراً من المقالات ، ثم أخذت في التأليف فيها منذ سنة ١٩٥٧ م وما بعدها . وانشغالي في هذا النوع من الدراسة أكثر في الفكر والعقيدة والنظم ، وقد انصرفت أخيراً انصرافاً كاملاً للدراسات الإسلامية واستأثرت بكامل اهتمامي .

٣ - (الدراسات الاجتماعية) ، ولي إليها ميل قديم غذاه دراستي لعلم الاجتماع في فرنسا دراسة كثيفة مركزة ، وعנית بدراسة المجتمعات الإسلامية والعوامل والتيارات المؤثرة فيها ، وبوجه خاص التيارات الفكرية المعارضة للإسلام ، ولي في هذا المجال بعض المؤلفات ، وأهمية هذا النوع من الدراسات عندي برزت بوجه خاص بسبب الحاجة إليها في مجال الدعوة الإسلامية ومعرفة

المجتمع الإسلامي المعاصر ، وما يواجهه من مشكلات وأفكار وتيارات ،
وغير ذلك من المسائل الدائرة في هذا الفلك .

مؤثرات دافعة :

لقد أحسن الأستاذ بهذا الاستقصاء الدقيق لموارده الدراسية ، فأرانا كيف
استطاع الجمع بين الثقافتين الإسلامية والعصرية منذ أيامه الأولى ، وقد وفقه الله
كثيراً إذ وهب له مثل ذلك الوالد ذي الشهرة الواسعة في العربية وغربها
وأدائها ، ووصله بالحدث الشيخ بدر الدين الحسني ، الذي ملأ ذكره أنحاء الشام
وما وراءها .. وكان كلا الرجلين ناقلاً إلى الشام حوارث العلوم الإسلامية من
تراث الأندلس ، الذي انتهى إلى المغرب والجزائر وما حولها ، مع الخصائص
التي ميزت بناء ذلك التراث من شمولية الثقافة ، التي لا تعرف الانغلاق بوجه أي
رافد من العلم .. وذلك هو الجو الذي نشأ في كنفه الأقداد من جيل الأستاذ
المبارك والطنطاوي ، الذي إليه يرجع الفضل في تثبيت المعاني الإسلامية ،
وتحبيب البلاغة العربية إلى تلاميذهم وقرائهم ، ممن يسر لهم الله الأخذ عنهم
والتأثر بأساليبهم في ديار الشام وغيرها .

وهكذا شخص الأستاذ المبارك إلى باريس ، التي أخذ يريقها أعين الكثيرين
من المسلمين ، حتى بعض الأزهريين ، الذين قصدوا إليها لطلب المعرفة ، فلم يلبثوا
أن نسوا أنفسهم ومهمتهم ، ثم عادوا بمقول أجنبية ، لا تهدي إلى نافذة تطل
منها على الحياة إلا من خلال النظارات التي حلوها من هناك !! ومع أنه لم يقصر
عن أولئك المسحورين في شيء من الثقافة التي فتنتهم ، إلا أنها واجهت من
مناعته ما أعجزها عن إذابته ، فظل واعياً لما يرى ويسمع ، يعرض كل شيء
على موازين الإسلام ، فلا يرفض ولا يقبل إلا في نطاق أحكامه . وبهذه المناعة
نفسها كان يجابه دسائس المستشرقين من أساتذته ، فيبطل مدعياتهم ، ويحطم
هجاتهم . بل إنه استمر على صلته الحية بالعاملين للإسلام حتى في باريس ، فلقي
هناك الأمير شكيب أرسلان ، الذي سبق أن عرفه من خلال بعض ما كتبه

فأحبه، ولا يسد أنه ازداد إعجاباً به وانسجاماً مع أفكاره، التي كانت تشكل أحد معالم الطريق لدعاة الأخوة الإسلامية، في مقابل النافذين أوقاق الأقليميات لتعزيق العالم الإسلامي .

وهناك أيضاً اتصل ببعض كبار المجاهدين من « جمية العلماء المسلمين الجزائريين » وفي مقدمتهم المرحوم القليل الورتلاني ، واستمر (يتردد على أنديتهم ويتمون معهم في مجال الدعوة الإسلامية ، التي كانت يومئذ أشمل من محاربة الاستعمار والتحرر والاستقلال) .

ومن هذا كله يتضح أن (الفقي المبارك) لم يفارق في باريس جوه الروحي الذي ألقه في دمشق ، بل ربما ازداد به تعلقاً ، فكان ذلك باعثه إلى حسن التخيير والاستفادة من كل معرفة جديدة (استعداداً لاستثمارها في مجال الدعوة التي كانت تشغل نفسه من عهد مبكر وقبل سفره إلى فرنسا) .
وعن الرجال الذين أثروا في توجيهه يكتب الأستاذ :

لقد كان لوالدي رحمه الله ، أثر في توجيبي وتكوين شخصيتي العلمية والاجتماعية بأسلوبه الشخصي الفذ الذي عرف به بين جميع تلاميذه ، وقد كان بالنسبة لي مرشداً مريباً وأستاذاً معلماً ووالداً، علمني الحرية الشخصية . وكثيراً ما كنا نختلف في الرأي ونتناقش بحرية ، وكانت طريقتي في الأخلاق والدين توجيهياً لا إكراه فيه ، ولا قسر ، ولا مضايقة ، وكان كثيراً ما يلاعبنا ونحن صغار ، ويتبارى معنا بالكرة ، يضربه بها ويضربنا ، والماهر منا من يفلت من إصابتها، وعدنا السباحة . وكان يحب الرجولة ومظاهرها، ويكره الضعف والتخنث ، وكان كريماً يكره البخل والبخلاء ، وكانت له في البلد وعند الحكام وجاهة وزعامة لقوة شخصيته وكثرة تلاميذه وتلاميذ أبيه ، وكثرة مخالطته لمختلف الطبقات ، وكان في المجالس العامة محدثاً بارعاً .

وكان لشيخنا العظيم العلامة الكبير الصالح التقى المتعبد الشيخ محمد بدر الدين الشهير بالحسني محدث الديار الشامية في عصره ، أثر عميق في نفسي في طراز

حياته الفريد من نوعه وفي سمته وتقواه وانكيابه على العلم واطلاعه على العلوم بل الثقافة الإسلامية بجميع فروعها ، وكانت له بي عناية خاصة في تعليمي وتوجيهي ، وكانت له في توجيهه مرام بعيدة ، وكان من جلستها توجيهي بطريقة غير مباشرة ، لتعلم اللغة الأجنبية وتشجيعي على السفر إلى أوروبا للتعلم ، ولم يكن ذلك مألوفاً من أمثاله من علماء العصر .

وكان أكثر دهره صائفاً ، فلما يتكلم إلا بعلم أو ذكره ، يمنع الناس من القيام له ومن تقبيل يده ، ويفضبه لذلك . وكان يعلن في دروسه فرضية الجهاد لإخراج الأجنبي الكافر المستعمر ، وكان على صلة مستمرة مع الثائرين على فرنسا في سورية . وكان للأمير شكيب أرسلان رحمه الله ، أثر عظيم كذلك في نفسي بمؤلفاته وما كان ينشره في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ، والتحرور من الاستعمار ، وقد كان له الفضل الأول عليّ وعلى أبناء جيلنا في تكوين وعي إسلامي يصلنا بالعالم الإسلامي ، ويشمونا بانتمائنا إلى الأمة الإسلامية ، ويتجاوز بنا الوطنية والقوميات التي كانت لها يومئذ سوق رائجة ، وقد جعلنا نعيش في أجواء المشكلات الإسلامية وقضايا الإسلام المعاصرة بكتبه ومقالاته . وقد أتيح لي بعد ذلك أن أجتمع به في باريس حين إقامتي فيها . وقد كان رحمه الله مطارداً من جميع دول الاستعمار ، بل من أنصار الوطنية في بلده الذين يخلونها محل الإسلام ، ومن دعاء الرابطة القومية الذين يكرهون الرابطة الإسلامية ويحاربونها .

ومن أثرها في توجيهي الفكري من القدماء بآثارهم التي قرأتها ابن تيمية ثم من بعده تلميذه ابن قيم الجوزية . ذلك أتي وقعت على كتاب الحسبة لابن تيمية في مكتبة جدي ، فأعجبت بتفكيره ونقاشه وبجسه ، كما قرأت كذلك كتاب «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» ثم اطلعت على أعلام الموقعين لابن القيم ، وكنت حينئذ طالباً في الحقوق ، وهذه الكتب الثلاثة صلة بالعلوم الحقوقية . ففتحت أمامي آفاقاً جديدة وصحفت لي عن جوانب من عظمة التشريع

الإسلامي من جهة ، وعن إبداع الفقهاء والمفكرين المسلمين ، ثم وجدت في مكتبتنا مجموع رسائل ابن تيمية ، وكتاب «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» . واستهواني النقاش بين الصوفيين والسلفيين الذي وجدت في موضوعه مادة خصبة في مكتبتنا وعديداً من الكتب التي تمثل الفريقين ، فأولعت بتتبع هذا النقاش . ومن خلال هذه القراءات تولد عندي ميل شديد لمدرسة ابن تيمية وتلميذه ، وأعجبت بسعة علمه وعلو مستوى تفكيره وبعد آفائه وحن فهمه للنصوص واستنتاجاته ، كما أعجبت بفقه ابن القيم وتعليقاته وأبحاثه ، ولقد كانت صلتني بهذين الإمامين وآثارهما أكثر بكثير من صلتني بآثار محمد عبده ورشيد رضا ، بل إنني أعترف بأن صلتني بهما كانت ضعيفة ضئيلة ، وقراءتي لهما نادرة ومتأخرة جداً . وفي مقابل ذلك كنت أقرأ للمحدثين من أصحاب الفكر الفلسفي الحديث مثل فريد وجدي وأمثاله .

إن تأثير ابن تيمية كان واضحاً في تحريري من كثير من الأفكار التي كانت شائعة في البيئة التي نشأت فيها ، وقويت عندي ملكة الرجوع إلى الدليل من الكتاب والسنة ، وكنت بدأت بسلوك هذا الطريق إثر مطالعتي الكثيرة لكتاب «بداية المهتد» لابن رشد و«الموافقات» للشاطبي ، ولم يعد احترامي لشيخني ووالدي رحمهما الله ومحبي لها ، بمنعيني لي من مخالفتها في الرأي حينما يتضح لي الدليل الشرعي والعقلي .

وعن العلوم التي يؤثرها يقول :

لقد كان لي ميل فطري إلى الرياضيات منذ الصغر وكنت من المتفوقين فيها منذ الدراسة الابتدائية حتى نهاية الدراسة الثانوية ، وكنت دائماً في الشعبة العلمية ، وشهادتي الثانوية كانت من شعبة الرياضيات ، وكنا ندرس فيها ستة فروع أو مواد رياضية (هي الحساب والجبر والهندسة المسطحة والجممة والوصفية والمثلثات والميكانيك والفلك) . وقد درست كذلك الرياضيات في مراجعها الإسلامية القديمة كشرح خلاصة الحساب للعاملي ، وأشكال التأميس

في الهندسة ، وتحرير أصول أقليدس للطوسي وغيرها . وتابعت كذلك دراستها في مراجعها الفرنسية على أستاذ عتص أثناء دراسي للحقوق ، وكنت آمل أن تكون دراسي التخصصية في أحد فروعها ، ولكن الله سبحانه قدر لي غير ذلك .

وكان لي كذلك منذ بداية طلب العلم ميل إلى العلوم العربية والعلوم الإسلامية ، وربما كان من أسباب ذلك بيئتي الخاصة وتأثير والدي ولا سيما بالنسبة للغة وتأثير مكتبتنا الخاصة . وتقوى هذا الميل حتى غلب على غيره بسبب قوة رغبتي في الدعوة الإسلامية منذ زمن مبكر من حياتي . وكذلك الدراسة الاجتماعية الحديثة ملت إليها ، وربما لما فيها من التعليلات السببية للحوادث الاجتماعية ، وهي بذلك تمت بسبب إلى الرياضيات ، وربما لما أجد فيها من نظريات كشفت لي عن محاسن الإسلام وعظمته ، ومطابقته للتطور السلم ومراعاته للعوامل الاجتماعية المؤثرة .

ولقد سبق للأستاذ أن حدثنا عن هذه الميول ، وسببنا عنها في تفصيل أكثر ، وبذلك تؤخر ملاحظتنا عليها إلى موضعها الآتي . ونكتفي هنا بالإشارة إلى ذلك الترابط بين نزوعه الرياضي ، ودراساته الاجتماعية ، واتجاهه الإسلامي . وقد أحسن الأستاذ في ما ذهب إليه من تعليل للعلاقة بين الرياضيات والاجتماعيات ، على أساس ما في كل منها من تقص للأسباب وتلازم ما بين المقدمات والنتائج .. ولا جرم أن الفكر الناشئ في هذا الجو الرياضي أكثر ما يكون استعداداً لفهم الحقائق الإسلامية ، القائمة على سنن القطرة في كل شيء ، من خفايا النفس الإنسانية إلى أدق الدقائق في القوانين الكونية . ولعلي لا أكون بعيداً عن الواقع إذا قرنت إلى حد ما بين هذا التنظيم الفكري ومؤثرات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في عقلية الأستاذ ، تلك التي حررتة - كما يصرح - من كثير من الأفكار الشائعة في بيئته ، حتى بات تعلقه بالدليل القطعي من كتاب الله وسنة رسوله ، أقوى حتى من حبه لأبيه وشيخه .

وعن الأحداث التي عاصرها يقول الأستاذ :

« كان في مقدمتها الصراع بين أنصار الدين وأنصار الإلحاد والبطانية ، والصراع مع الاستعمار ، وكانت الثورة السورية على فرنسا من الأحداث التي عشت في أجوائها. كما كان لكثير من الأحداث في شتى البلدان الإسلامية أصداء قوية كإلغاء أتاتورك للخلافة ، وإمعانه في محاربة أي صلة للأتراك بالإسلام واللغة العربية . وكالظهير البربري ، أعني المرسوم القاضي بفصل البربر عن العرب ، في المغرب ، الذي أصدرته فرنسا .

لقد كنا نعيش بعواطفنا وعقولنا في جانب المناصرين للدين والثائرين بالاستعمار والداعين إلى وحدة المسلمين فضلاً عن وحدة العرب » .

وإنها لأحداث يستخفها الجاهلون وينوء بذكرها العائمون . وأي صدمة للقلب المسلم تعدل إقدام اليهودي الدونمي على إلغاء الخلافة ، التي ظلت تلف المسلمين بذراعها طوال ثلاثة عشر قرناً ونيفاً ، فيشعرون بوحدة انتابهم ، مهما تفرقت منهم الآراء والمذاهب !... فإذا هم يفاجؤون بتمزيق ذلك الرباط ، وإذا هم إثر ذلك يسبح تنخطفهم محالب الأعداء ، ويتساقون في مضامير العداء ، لا يراعون في دينهم إلا ولا ذمة ، ويتأذى بهم الضلال حتى ليخربون بيوتهم بأيديهم .. وما كان للظهير الفرنسي ، القاضي بنسف أخوة الإسلام بين العرب والبربر في الجزائر والمغرب ، وما تبعه وعاصره من دعوات هدامة ، سوى بعض الشعرات المسمومة لتلك الشجرة الملعونة ، التي غرسها أتاتورك ، فشجعت على الإسلام حتى من لا يستطيع دفعاً عن نفسه .

وما أوجع قول الأستاذ : كنا نعيش بعواطفنا وعقولنا في جانب المناصرين للدين والثائرين بالاستعمار !..

أن نعيش بعواطفنا وعقولنا مع الإسلام وأعوانه هو كل ما نملكه لنصرتهم... وأسفاه ! ولكن .. لا بأس .. إن تحسس الشعوب للأحداث ثم التفاعل معها هو أول علام الحياة ، ومبدأ الانطلاق لتحقيق الواجب .

ويتجاوز فضيلة الأخ الاستطلاع الثامن لبعثنا عن مجالات نشاطه في خدمة العلم وطلابه ، حديثاً مفصلاً متناً .

يقول حفظه الله :

كانت البيئة التي عشت فيها والعقيدة الإسلامية التي غذيت بها ، والثقافة الإسلامية التي تلقيتها ، في أوسع آفاقها ، ومتابعي الأحداث فيما ينشر في الكتب والمجلات العربية والإسلامية ، كل ذلك كان موجهاً قوياً لي للعمل في الدعوة الإسلامية وجعلها هدفاً حياتي وغاية نشاطي ، ولذلك كان عملي في مجال الدعوة في زمن مبكر من حياتي . فلقد عملت عملاً جاداً في مقاومة إحتلال التشريع الغربي محل التشريع الإسلامي سنة ١٩٣٥م إذ كنت طالباً في الحقوق بدمشق ، وقدت أنا وصديق لي حملة علمية وصحفية مركزة في سبيل ذلك ، وكان الظفر والمحدث نتيجة لها يومئذ ، إذ كانت في عزم السلطة الفرنسية إحتلال مشروع قانون مدني فرنسي إيطالي محل مجلة الأحكام العدلية الشرعية ، التي كانت القانون النافذ منذ العهد العثماني ، وهي مأخوذة من الفقه الحنفي ، فأبقي على المجلة الشرعية ، وعدل عن المشروع ، وبقيت معمولاً بها إلى عام ١٩٤٩م فألغيت في عهد الانقلاب الذي تزعمه حسني الزعيم ، وأحل محلها القانون المدني الحالي الذي وضعه الدكتور عبد الرزاق السنهوري ، وأسكنت أصوات المعارضة بالقوة والنفذ .

وعملت كذلك أثناء إقامتي في باريس مع رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ورتبت مع صديقي الأستاذ عمر الأميري حملة للنص على الإسلام في الدستور السوري ، الذي كان مزماً وضعه بعد مفاوضات الوطنيين مع فرنسا لاستقلال سورية . وبعد أن عدت من فرنسا أواخر سنة ١٩٣٨م باشرت العمل مع أصدقاء سابقين كانوا قد أسسوا في كل من حلب ودمشق جمعية إسلامية نشيطة تعمل في الدعوة الإسلامية في المجال الاجتماعي والثقافي .

كان عملي في نطاق الجمعيات الإسلامية المتناقبة عملاً توجيهياً وعلماً ، محوره

التوعية الشعبية العامة نوعية عقائدية فكرية واجتماعية وسياسية ، وكان هذا النشاط إلى جانب عملي الوظيفي (مدرسا ثم مفتشا) ثم عملي السياسي حينما استقلت من الوظيفة عام ١٩٤٧ م ولقد كان لي حلقات علمية أعالج فيها موضوعات إسلامية علمية ومشكلات اجتماعية مع طلاب ومدرسين وعمال ، كما كان لي نشاط متواصل في إلقاء محاضرات عامة على مختلف المستويات . ولم يقتصر نشاطي على المدن بل كثيراً ما كنت أخرج مع فريق من الشباب إلى القرى للدعوة والتوعية . ثم تطور هذا النشاط حتى شمل المشاركة في أكثر المؤتمرات الإسلامية التي عقدت في العالم الإسلامي في كراتشي ولاهور ودمشق ومكة ومقاديشو والقدس وطرابلس الغرب (ليبيا) ، كما زرت كثيراً من البلاد الإسلامية والمجتمعات الإسلامية في آسيا وإفريقيا وأوروبا .

النشاط السياسي :

لم يكن يختر بيالي أن أتجاوز نطاق العمل التعليمي من جهة ، والعمل في الدعوة الإسلامية في النطاق الاجتماعي من جهة أخرى ، وكذلك كانت حال العاملين في الدعوة الإسلامية يومئذ، وذلك لاعتقادنا أن الدعوة الإسلامية تحتاج أولاً إلى مرحلة طويلة في مجال نشرها وترسيخها وتكوين قاعدة لها ، وثاني السياسة والحكم نتيجة طبيعية ولكن ربما بعد جيل . بيد أن غزو الأحزاب العقائدية المبنية على أساس غير إسلامي ، وانفتاح المجال لها عن طريق الانتخابات العامة التي جعلت على درجة واحدة أي شعبية عامة مباشرة ، وذلك ابتداء من عام ١٩٤٧ م جعل أصحاب الفكرة الإسلامية يغيرون رأيهم ويخشون أن تد عليهم الطريق تلك التيارات المستوردة الوافدة بأساليب غير مشروعة أو بفتنة الناس بيريح مظاهر الجدة والتجديد ، وحصلت مذكرات كثيفة في نطاق الجمعيات والجماعات الإسلامية وانتهت إلى إجماع العلماء وأهل الرأي والجمعيات على دخول الانتخابات والميدان السياسي بوجه عام ، وكنت ممن وقع عليهم الاختيار للترشح للنيابة عن مدينة دمشق لمجلس النواب عام ١٩٤٧ م

و كنت الفائز من بين مرشحي دمشق من الجبهة الإسلامية مع عدد من المؤيدين من قبلها ، وبعد نحو سنتين حل المجلس إثر انقلاب أعقبه انقلاب آخر ، وانتخب مجلس جديد بصفة مجلس تأسيسي لوضع الدستور ، ونجح في عضوية هذا المجلس عدد أكبر من ممثلي الفكرة الإسلامية ، و كنت واحداً منهم .

و شاركت في عدد من الوزارات التي تألفت في عهد هذا المجلس ، وشملت وزارة الأشغال العامة والمواصلات ، ثم وزارة الزراعة ، وذلك ما بين ١٩٤٩ - ١٩٥٢ م واشتدت في هذا العهد الحركة السياسية العقائدية . وشبت معركة حول أسس الدستور ، انتهت إلى وضع نصوص إسلامية قوية و صريحة في الدستور الذي أقر عام ١٩٥١ م ثم أطاح انقلاب جديد قام به أديب الشيشكلي بالمجلس ، ثم أعقبه بعد أقل من سنتين انقلاب آخر أعاد الحياة الدستورية والمجلس حتى استكمل مدته ، ثم أعلن عن انتخاب مجلس جديد عام ١٩٥٤ م ورشحت نفسي نائباً عن دمشق مستقلاً ، لأن الهيئات الإسلامية قررت عدم الاشتراك في الانتخابات للفتنمين إليها .

و تبعت مهتي بعد نجاحي في الانتخابات ، أعبر عن الفكرة الإسلامية في مجلس النواب في المواقف السياسية والتشريعية إلى أن انتهت مدة المجلس عام ١٩٥٨ م وكانت الوحدة بين مصر وسورية ، فلم يعد مجالاً للتعبير الحر عن الأفكار فانصرفت إلى العمل العلمي ، ولم أشارك منذ ذلك الحين في العمل السياسي لا في عهد الوحدة ولا بعدها .

لقد كان الصراع الفكري والعقائدي والسياسي على أشده في تلك الفترة في سورية وسائر المنطقة ، وكانت الفكرة الإسلامية ، بالرغم من قوتها الشعبية ، تتعرض لأشد الضغوط السياسية الداخلية ومن ورائها القوى الخارجية ، لتخوف الغرب الديمقراطي والشيوعي على السواء من انبعاث الفكرة الإسلامية وعودة الإسلام مجتمعاً وحضارة ودولة ، وكذلك بسبب ما كونه الاستعمار عن طريق ضاهج التعليم والتربية من فئات تنكرت للإسلام بأسماء وعناوين مختلفة ويشق

الذرائع ، وكانت القوى الخارجية المختلفة - الغربية والشرقية - تعمل عن طريق القوى الداخلية لتطوير القوى الاسلامية الناهضة والقضاء عليها.. خلال جميع تلك المراحل التي مرت بالبلاد بعد الاستقلال .

في الوظيفة :

بعد أن أنهيت الدراسة في جامعتي دمشق وباريس عينت مدرساً للغة العربية في المدرسة الثانوية في حلب في العام ١٩٣٨ - ١٩٣٩ م حيث بقيت سنتين انتقلت بعدها إلى دمشق . وكنت أدرّس في ثورتها الكبرى الأدب العربي ، وأحياناً الأخلاق والمنطق والنصوص الفلسفية ، ودرّست كذلك في دار المعلمين ثم في دار المعلمين العليا . وقد كان لي نشاط ملحوظ في المحاضرات المسامة في مختلف نوادي العاصمة في شتى الموضوعات : اللغة والأدب والقضايا الاجتماعية والاسلام .

وفي عام ١٩٤٥ م تم جلاء الجيوش الأجنبية عن سورية ، وكانت بداية الحكم الوطني المستقل ، وجرت في وزارة المعارف تطهيرات جديدة ، كانت من جعلتها إحداه لجنة فنية عليا في الوزارة تتألف من أعضاء من مختلف الاختصاصات لوضع الخطط والمناهج والأنظمة ، كما تم إحداث هيئة تقنية لتتولى التعليم الثانوي في عموم سورية ، فيعت عضواً في اللجنة الفنية للتربية ومفتشاً اختصاصياً لسورية لمادتي اللغة العربية والدين .

وعن هذا الطريق عرفت جميع المحافظات السورية التي كنت أزورها بصفة مفتش عام . وكثيراً ما كنت أكلف تفتيش مواد اللغة الفرنسية والفلسفة لعدم وجود مفتش لهذه المواد يومئذ . وفي هذه الفترة بالذات كلفت بوضع مناهج اللغة العربية والدين للمدارس الثانوية منفرداً ، وعملت في ذلك عملاً جاداً استغرق نحو شهرين ، أنجزت خلالها وضع مناهج هاتين المادتين لجميع سنوات التعليم الثانوي الست . وكان ذلك العمل تغييراً جذرياً غير مسبوق

في جميع البلاد العربية الأخرى التي كنت اطلعت على مناهجها . وأقرت تلك المناهج بمسند جدل طويل مع المشرف يومئذ على وزارة المعارف وهو الأستاذ ساطع الحصري ، الذي كان بصر على أن يكون منهج الدين مقصوراً على العقائد والعبادات ، وقد أعانني الله عليه وأقرت المناهج كما وضعتها ، وبقيت معمولاً بها ولا تزال حتى تاريخ كتابة هذه الأسطر (١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م) لم يلحقها إلا تعديلات قليلة ، وكانت أسبقيتها هذه من حيث بناؤها على أساس أن الإسلام مذهب شامل ودين كامل يستوعب الحياة من جميع جوانبها ، ومن حيث تصنيفها تصنيفاً حديثاً يتدرج حسب سنوات الدراسة وتقوم على التوجيه إلى الكتاب والسنة في موضوعاتها . وقد كان لهذه المناهج أثر عميق في تكوين عدة أجيال متلاحقة ، ورسم خط السير لأساتذة الدين ، ولا سيما بما أضيف إليها من وضع خطة لإعداد المدرسين المختصين بعد الدراسة الثانوية ، وكأولاً يعينون بطريقة عشوائية لا تلتزم فيها دائماً الأهلات العلمية الصحيحة ، ولا تشترط فيها أي شروط . ومنذ ذلك الحين بدى لأول مرة بإرسال البعثات للتخصص في الدين بعد استكمال الدراسة الثانوية .

وفي سنة ١٩٤٦ أفضيت عن التفتيش وافتصر بحلي على عضوية اللجنة الفنية ، وذلك بسبب ما قامت به من نشاط إسلامي في المحافظات التي كانت أزورها للتفتيش ، وذلك بإلقاء المحاضرات العامة في أهم الموضوعات المتعلقة بالإسلام والتعريف بدعوته أو بالقضايا الإسلامية المعاصرة ، مع أنه لم يعين أحد بدلاً عني في التفتيش تلك السنة .

وفي عام ١٩٤٧ قدمت استقالتي من وزارة التربية وذلك لكي تمكنني من ترشيح نفسي للانتخابات النيابية عن مدينة دمشق تلبية لرغبة رابطة العلماء والجمعيات الإسلامية . واستمر نشاطي الإسلامي السياسي حتى عام ١٩٥٨ الذي تمت فيه الوحدة بين سورية ومصر ، وحينئذ انصرفت بكليتي للعمل الجامعي العلمي .

علمي في التدريس الجامعي :

لم يخل نشاطي السياسي منذ أواخر ١٩٤٧ عن الاستمرار في التدريس ، فقد كلفت أوائل العام ١٩٤٨ بتدريس مادة فقه اللغة ، ثم الدراسات القرآنية ، في قسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة دمشق . واستمر تدريسي هذا نحواً من عشر سنوات ، وانقطعت عنه سنوات درّس خلالها هذه المواد زميل صديق ثم عدت لتدريس فقه اللغة حتى ١٩٦٦ .

وفي عام ١٩٥٤ - ١٩٥٥ الدراسي أسست كلية الشريعة في جامعة دمشق ، تنفيذاً للدستور الذي ينص على اعتبار الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع ، وعينت بسبب سابقتي التعليمية وتدرّسي في دار المعلمين العليا سابقاً وفي كلية الآداب استاذاً في هذه الكلية ، وشاركت مشاركة أساسية في وضع خطتها ومناهجها ، ولا سيما مناهج المواد التي اقترحت شخصياً وضعها لأول مرة في أمثالها من الكليات ، وهي : « نظام الإسلام » ، و« حاضر العالم الإسلامي » ، ودرّست فيها مواد متعددة في المدة التي عملت فيها من ١٩٥٤ - ١٩٦٦ وهي فقه اللغة ، ونظام الإسلام ، والعقيدة ، وعلم الاجتماع . وحينما أنشئت الأقسام كنت رئيس قسم العقائد والأديان ، ثم عيّنت عميداً لها عام ١٩٥٨ حتى ١٩٦٣ و ١٩٦٤ .

ثم انتدبت من جامعة دمشق إلى جامعة أم درمان الإسلامية في السودان ، تلبية لطلب مديرها ، وعملت فيها من ١٩٦٦ حتى ١٩٦٩ استاذاً ومشاركاً في التخطيط ورئيساً لقسم الدراسات الإسلامية . وخلال هذه المدة ١٩٦٨ قدمت استقالتني من جامعة دمشق . كما أنني درّست في كلية الحقوق في جامعة الخرطوم مادة السياسة الشرعية .

وفي عام ١٩٦٩ اقترح عليّ معالي وزير المعارف في المملكة العربية السعودية العمل فيها ، فقبلت ورحبت بهذا الاقتراح ، وبخاصة أنني اخترت الإقامة في مكة المكرمة بجوار بيت الله الحرام . فعينت بالتعاقد استاذاً ورئيساً لقسم

الشريعة والدراسات الإسلامية في كلية الشريعة بمكة المكرمة ، وكنت عارفاً
بوضعها لأنني كنت اشتركت في وضع خطتها وبعض مناهجها عام ١٩٦٤ ،
وبقيت في هذا العمل أربع سنوات ثم عينت أستاذاً باحثاً ومستشاراً في جامعة
الملك عبد العزيز بجدة .

التخطيط الجامعي :

ترجع بداية عملي في التخطيط التربوي إلى عام ١٩٤٢ حيث أنشئت الثانويات
الشريعة في سورية ، وعينت عضواً في عمدتها المنتبذة عن وزارة الأوقاف
(مديرية الأوقاف العامة بومند) التي هي مرجعها الأعلى في الإدارة والتنظيم ،
وشاركت حينئذ مشاركة أساسية في خطتها ومناهجها ، ثم استمرت عضويتي
هذه بصفة ممثل لوزارة المعارف (التربية حالياً) عدة سنوات ، وكانت بعض
المواد كحكمة التشريع عن اقتراحي ومناهجها من وضعي .

وفي عام ١٩٤٥ - ١٩٤٧ كنت عضواً في لجنة التربية والتعليم في وزارة
المعارف أشركت في اقتراح وإقرار الأنظمة عموماً وفي الأمور المتعلقة بمادتي اللغة
العربية والدين بوجه خاص . وقد وضعت ، كما سبق القول ، مناهج هاتين المادتين
وأحدثت في كل منها تعديلاً هاماً . أما اللغة العربية فقد كانت منهج الأدب
العربي فيها مقصوراً على الشعراء والكتّاب بالمعنى الضيق لهذه الكلمة ،
فجمعت الأدب العربي عبر العصور شاملاً لجميع الإنتاج الفكري ولجميع فنون
النثر الفني والتاريخي والفلسفي والديني والسياسي والعلمي .. بالإضافة إلى الشعر ،
كما عيّنت بدراسة النصوص التي تمثل مختلف هذه الجوانب والفنون الأدبية .
وهذا هو الفهم الذي تأخذ به الأمم المعاصرة في تاريخ آدابها .

ثم شاركت في عام ١٩٥٤ في وضع خطة كلية الشريعة التي أنشئت بومند ،
واقترحت بعض المواد الجديدة التي سأذكرها بعد قليل .

وفي عام ١٩٦٠ كلفني وزير التربية المركزي في الجمهورية العربية المتحدة

السيد كمال الدين حسين تكليفاً شخصياً بوضع تقرير عن التعليم في الأزهر بجميع أقسامه ، فدرست الموضوع ثم قدمت له تقريراً يجعل التعليم العام تعليماً إسلامياً لا ازدواج فيه ، وتكون كليات الأزهر متعددة التخصصات كسائر الكليات ، وتكون الشهادة الثانوية الأزهرية حينئذ مقبولة في جميع الوظائف والجامعات ، وتكون هي الأصل الذي يجب أن يعمم .

وفي عام ١٩٦١ ألفت لجان لوضع الخطط لكليات الأزهر ولوضع الصيغة التنفيذية لقانون الأزهر الجديد ، فاشتركت في جميع هذه اللجان ، وكان لي فيها عدة اقتراحات هامة حازت القبول والتقرير .. منها : أن تكون شهادة كلية الشريعة معادلة تماماً لشهادة كلية الحقوق . ومنها : إحداث فرع للتخصص في التاريخ . ومنها : إحداث مواد حديثة كدراسة نظام الإسلام ، والجمع الإسلامي المعاصر ، وإن كان بعض هذه المواد ألقى أو استقبل فيما بعد

وكان مجلس جامعة دمشق اختارني في عام ١٩٦٠ مثلاً له في المجلس الأعلى للتخطيط الجامعي للجمهورية العربية المتحدة في القاهرة لذلك العام .

وفي أواخر عام ١٩٦١ م (١٣٨١ هـ) أنشئت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وألف مجلس استشاري أعلى لاقتراح أنظمتها وخططها ، وأعضاؤه من بلدان مختلفة من العالم الإسلامي ، وكنت أحد أعضائه حتى عام ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م واشتركت في وضع خطط هذه الجامعة ، واقترحت عدداً من المواد الإسلامية وأقرت ، ووضعت في مناهجها ، واستمرت مشاركتي في هذا المجلس مدة خمس عشرة سنة .

وفي عام ١٩٦٤ (١٣٨٤ هـ) دعيت للمشاركة في وضع خطة لكلية الشريعة في مكة المكرمة وللكلية التربوية فيها من جهة الثقافة الإسلامية ، وقد أحدثت تغييرات هامة في الخطة والمناهج ، وأدخلت مواد حديثة ، كما أحدثت تغيير في بناء الكليتين وتركيبها من حيث الأقسام ، فقد اقترحت أن ينقل قسم التاريخ واللغة العربية من كلية التربية إلى كلية الشريعة ،

وتم ذلك فعلاً واقترحت أن يكون من الكليتين ، وكانتا تابعتين لوزارة المعارف جامعة تسمى جامعة أم القرى .

وفي صيف عام ١٩٦٦ اشتركت في وضع خطط الكليات والأقسام في جامعة أم درمان الإسلامية في بداية تأسيسها ، وكان من المتفق عليه أن تكون جميع الفروع والأقسام مصطبقة بالصيغة الإسلامية ومشتمة على الثقافة الإسلامية .

وفي عام ١٩٧١ دعيت للمشاركة في وضع خطة الدراسة لمعهد القضاء العالي في الرياض .

وبذلك اشتركت في التخطيط الجامعي ، ولا سيما في المواد الإسلامية ، في أربع بلدان عربية إسلامية هي : سورية ومصر والمملكة العربية السعودية والسودان . وكانت لي اقتراحات تجديدية في تدريس الإسلام والثقافة الإسلامية أخذت بأكثرها . وقد أدى هذا الاشتراك إلى نتيجة هامة ، هي التسيق بين جامعات هذه البلدان من حيث الدراسة الإسلامية وموادها ومناهجها .

المقترحات الجديدة في الدراسات الإسلامية :

لقد تولدت عندي نتيجة التجربة في التدريس من جهة ، وفي الدعوة الإسلامية من جهة أخرى ، ونتيجة التفكير في بداية الدعوة الإسلامية ، والتأمل في الآيات القرآنية وفي السيرة ، والاطلاع كذلك على المذاهب والدعوات الأخرى في العصر الحاضر ، عدة أفكار أساسية صفتها في مقترحات تقدمت بها للمجالس التخطيطية التي اشتركت فيها في البلدان الأربعة المذكورة ، وهذه أهمها :

١ - إعطاء فكرة عامة شاملة مترابطة عن الإسلام من غير تجزئة ، لإشعار المتعلم أن الإسلام مذهب شامل من جهة ، ولتوليد عمق في فهمه وتلقيه بسبب هذا الارتباط بين أجزائه الاعتقادية والأخلاقية والتشريعية . وقد اقترحت

تسمية هذه المادة « نظام الإسلام » وقد قبلت هذه التسمية وراجت وأقرت الفكرة في عدد من الجامعات .

٢ - تدريس مادة المجتمع الإسلامي المعاصر ، أعني مجتمع المسلمين في صورته الواقعية لمعرفة علمية ومعرفة بمدى عن الإسلام والعوامل المؤثرة فيه ، ومحاولة تغييره في اتجاه الإسلام على الصورة المثالية . وكذلك مادة حاضر العالم الإسلامي التي يراعى فيها الدول والأقسام السياسية الحالية .

وقد أقرت هاتان المادتان أو إحداهما في كثير من الجامعات الإسلامية لأول مرة .

٣ - محاولة تكوين علم اجتماع إسلامي ، وقد بدأت هذه المحاولة في تدريسي لعلم الاجتماع في كلية الشريعة بجامعة دمشق ، ثم أقرت في حصتان في السودان في كلية البنات باسم « النظرية الاجتماعية الإسلامية » وقت بتدريسها . ولا تزال هذه المحاولة تحتاج إلى زمن لاقرارها في الرأي العام العلمي ، وتقتضي مني تفرغاً لاخراج مؤلف في الموضوع شرعت به منذ زمن ولم أتمكن بعد من إتمامه .

المواد التي درستها في الجامعات والمعاهد العليا :

« الأدب العربي » درسته في دار المعلمين العليا بدمشق ١٩٤٢ وقبل ذلك في سنوات الشهادة الثانوية في دمشق .

« فقه اللغة » درسته سنوات عديدة في قسم اللغة العربية في كلية الآداب بدمشق وفي معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة .

« علوم القرآن ودراسة النصوص القرآنية » في كلية الآداب بدمشق وكلية الشريعة فيها .

« نظام الإسلام » في كلية الشريعة بدمشق وكليات أم درمان ومكة وجامعة الملك عبد العزيز .

« العقيدة » كلية الشريعة بدمشق .

« علم الاجتماع ، كلية الشريعة بدمشق وكلية البنات بجامعة أم درمان الإسلامية .

« المجتمع الإسلامي المعاصر » في كليتي الشريعة والتربية بمكة وفي كلية الاقتصاد بمكة .

« السياسة الشرعية » في كلية الحقوق في جامعة الخرطوم .

« النصوص الفرنسية » في كلية الآداب في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق .

هذا عدا بعض المواد الأخرى التي درستها في المدارس الثانوية في بدابة عملي التدريسي ما بين ١٩٣٩ - ١٩٤٥ بالإضافة إلى اللغة العربية كاللغتي والأخلاق والترجمة .

ملاحظات وتحليلات :

بعد هذه الجولة الواسعة مع صاحب الترجمة لا يملك القارئ نفسه من الإعجاب العميق بهذه الحياة ، التي تبلغ من الحصب مثل هذا المبلغ ، بل لا يملك إلا أن يردد على نفسه القول بأن وراء هذه الحياة وهذا النشاط يد الله التي تيسر كل امرئ لما خلق له .

لقد جاء هذا المرض مفتياً عن كل تعقيب ، بما انطوى عليه من تفصيل وتحليل ، فكل إيضاح لأي جانب منه لا يعدو كونه تكراراً لا فائدة فيه ولا لزوم له . ومع ذلك فلا مندوحة عن تذكير القارئ بأنه تلقاه صورة متكاملة من تاريخ الفكر الإسلامي في بلاد الشام بخاصة ، ومعظم الأقطار الإسلامية بعمامة خلال العقود التي أعقبت الحرب العالمية الثانية إلى يوم الناس هذا .

إنها الفترة التي بلغ فيها التحالك بين الفكرين الغربي والإسلامي ذروته ، وقد بدأ إملاء قهرياً بسلطان الاستعمار ، ثم تطور حتى صار صراعاً بين جيلين من أبناء المسلمين ، أحدهما ينوب عن الاستعمار المهزوم بتفجير الألفام في ما تبقى

من معالم الحياة الإسلامية ، والآخر يحمل عبء مواجهة لذلك الهجوم الترس ،
الذي سخرت له كل وسائل التأثير الإعلامي والتفنيدي .

والمدقق في جوانب هذا النشاط التري يلاحظ أن موضوع التعليم قد استغرق
التصويب الأكبر منه تعليماً وتفتيشاً وتنظيماً ، فهو - معلماً ومفتشاً - مشبع
بشعور المسؤولية ، لم يستطع مزابلتها لحظة قط منذ فتح عينيه على دنيا العلم ..
إنه بقية من ذلك الطراز النادر الذي يوقن أن التعليم ليس مجرد عرض
للمعلومات ، ولكنه إلى ذلك وقبل ذلك عملية تقويم وتبصير ، تستهدف بناء
الانسان المؤمن العامل الواعي لمسئولته أمام الله . وقد شاء الله أن أعرف فيه
هذه الخاصة منذ لقبته لأول مرة قبل ثلاثين عاماً ، إذ قد زارني مفتشاً لمادة
العربية ، التي كنت أؤتي تدريسها أيامئذ في طرطوس - سورية - ولست بذلك
أكثر علماً من المدرسين الذين لقوه في دوراته التفتيشية المجادة . وطبيعي أن
إعفاءه من عمل التفتيش إنما كان بسبب هذا الانجاء الإسلامي ، إذ لم يكن
- كما هو الواقع غالباً - في جهاز المعارف ما يشجع على الاستمرار في هذا
المسلك .! على أن أبرز خصائص الأستاذ التعليمية إنما تجلت خلال عمله في نطاق
المناهج الدراسية ، سواء في المرحلة الجامعية وما قبلها . وقد رأينا بعض هذه
الخصائص في ما أشار إليه من مبدئاته التي كانت ذات آثار بعيدة في مخططات
التعليم ، ليس فقط في ديار الشام ، بل في غير واحد من الأقطار العربية :
كعصر والسودان والمملكة العربية السعودية ، ومن آثار بناهمهم من البلاد
الأخرى . وليست معركته مع المستعرب المستعرب ساطع المصري سوى شاهد
على هذه الحقيقة ، إذ كان المصري مثلاً قتيار الغربي الذي لا يقع لثقافة الدينية
أي وزن ، وإذ وجد من المستحيل عليه إغفالها نهائياً عهد إلى تحديد أثرها في
التكوين العقلي ، وذلك بحصرها في زاوية معزولة من أجزاء المناهج . وكان
المبارك يمثل الفكر الإسلامي الأصيل في ذلك الموقف ، فما زال في جهاده
حق نصر الله به الحق ، وأخذت مادة الدين مكانها الطبيعي في مقررات

الدراسة ، وبذلك سجل الفكر الإسلامي واحداً من أهم انتصاراته على دعاة
العلوانية في سورية وغيرها . ونحن لن نستطيع تقييم عمل المبارك في تقويم
المناهج الدراسية وربطها بمعايير الإسلام ، إلا إذا استحضرنا ملامح الصورة
التي نشأت في إطارها تلك المناهج ، والأيدي التي تولت تأليفها فلم تتجاوز بها
في الغالب نطاق الأراجال ، أو الترجمة عن مناهج لا تمت بأي سبب إلى شخصيتنا
المميزة ، وإنما تعرف من نفس المجرى الغربي الذي أفسد به دنلوب مناهج
الثقافة الإسلامية .

وإني لأتساءل ، وأنا أستعرض هذا المجهود الجبار يبذله المبارك في خدمة
التعليم ، والتجارب العميقة التي أثمرت ذلك المجهود ، ووسعت مدهاء ، حتى ترك
بصائنه على الكثير من مناهج المؤسسات التعليمية في المسام العربي وغيره ..
أتساءل : أليس من الخير استمرار التعامل مع هذا الضرب من الخبرات النادرة
في كل عمل أو مشروع يمت إلى التعليم ! .

وإذا تجاوزنا التدريس والتفتيش والتخطيط إلى صعيد المؤتمرات العديدة التي
شارك فيها الأستاذ ، وتأملنا ملياً في عمله هناك ، ألقينا الطابع نفسه الذي
ألفناه في سائر أعماله الفكرية . إنه الاستقصاء الدقيق لواقع الحياة والمجتمعات
والمذاهب ، ثم التركيز على إبراز معطيات الإسلام في تفوقها الغالب على كل
ما توصل إليه الإنسان في كل مكان وكل زمان .

أجل .. إنها ميزات (المعلم) الحق الذي لا يكون معلماً حقاً إلا أن يكون
امتداداً لعمل النبوة في التربية والتعليم والتنظيم ، وحتى التوجيه في نطاق
الأندية والجمعيات .

بقي التذكير بالجانب السياسي من حياة المترجم ، إنه كذلك صورة واضحة
القصص لتاريخ الصراع بين التيارات الوافدة ، والقيم الخالدة من مقومات هذه
الامة . وقد حدثنا بما فيه الكفاية عن هذا الأمر ، فهو - كأقرانه أيامئذ -
لم يكن ليخطر في باله أن يتجاوز حدود التعليم والدعوة إلى مباشرة العمل

السياسي .. ولكن غزو الأحزاب العقائدية ، المناوئة للإسلام ، عن طريق الانتخابات البرلمانية ، أشعرهم بالخطر الذي يتذر بالفتنة . وبعد مذاكرات كثيفة في نطاق الجماعات الإسلامية ، انتهى الرأي إلى وجوب المشاركة في الانتخابات . وكان الأستاذ من اختياروا لتمثيل الاتجاه الإسلامي في البرلمان نائباً عن دمشق خلال ثلاثة انتخابات ، وقد أسندت إليه وزارة الأشغال العامة ثم وزارة الزراعة ، فلم يدخر وسعاً لخدمتها بكل ما يملك من جهد وخبرة ، إلا أن مجرد اختياره لهاتين الوزارتين ، دون المعارف التي هو أولى الناس بها ، لوجرى الاختيار في ضوء الإسلام ، كاف للدلالة على خوف (أولي الأمر) من السير بالتعليم في الطريق الإسلامي منذ هاتيك الأيام .

وكان طبيعياً أن يواصل مسيرته في خدمة الإسلام عن طريق السياسة في ظل النظام البرلماني ، ما دام لحرية الرأي مكان هناك .. لذلك كان طبيعياً أيضاً أن يعتزل العمل السياسي كلياً منذ عام ١٩٥٨ الذي كان الحاققة الحاسمة لتلك المرحلة .. وهكذا عاد (المعلم الحق) إلى مكانه الحق الذي له خلق .

كثافة المناهج :

وقبل الانتقال إلى النقطة التالية رأينا أن ننف على وجهة نظر الأستاذ في حجم المقررات الذي يتقن المناهج في مختلف ديار الإسلام ، وعلى مختلف المستويات الدراسية ، لعلنا نلتقي معه على رأي مفيد في هذا الجانب ، الذي كثر الإهمال له ، حتى لم يعد يلحظ أثر تلك الكثافة في عجز التعليم عن تخرج المزودين بالمعلم الحق .

وحول هذا الأمر يقول أبو هاشم :

إنني شخصياً لا أعتقد أن كثرة المقررات وتغلها هو الذي يولد الضعف العام ، وإنما أرى أن تخرج معلمين ومدرسين ضعفاء في مادتهم بسبب التساهل في إعطاء الدرجات والامتحانات والأسئلة ، والاكتفاء بالقدر الذي قرره الأستاذ ،

من أهم الأسباب المؤدية لذلك الضعف .. إن عدداً من الطلاب في زماننا كانوا يقرؤون المواد المدرسية ، و يقرؤون علوماً أخرى خارج المدرسة ، ويجمعون بين الثانوية العلمية والثانوية الأدبية ، ويتفوقون في أكثر من مادة . والمهم أن نوعية المدرسين هي من الأمور التي يتوقف عليها حسن التعليم . إن ارتقاء الأغنياء والضعفاء والمهدودين إلى أعلى المستويات الدراسية عن طريق المساعدة والرحمة والشفقة إجرام بحق العلم ، وتخفيض لمستواه ، وإضرار بالأجيال التي تأتي من بعد ، وتتخذ من هؤلاء البلداء والضعفاء أساتذة ومدرسين .. ليس من الضروري أن يبلغ جميع الناس التعليم الجامعي ، ويحصلوا الشهادات الجامعية وفوق الجامعية ، وقد يكون عندهم من الذكاء العملي ما يجعلهم متفوقين في ميادين أخرى يحتاج إليها المجتمع . ويمكن أن نخص فئة المعلمين والمدرسين والأساتذة بالعناية الخاصة والشروط المشددة لتأهيلهم لمناصب التعليم ، وحينئذ نحصل نتائج عظيمة في التعليم ، ولا تضر كثيراً حينئذ كثرة المقررات ولا ثقلها . ولست أقصد أننا يجب أن ندرس مواداً لا فائدة منها أو قليلة الفائدة بل يجب الخروج على التقليد الأعمى في التدريس . وأضرب مثلاً أعرفه ومارست مادة البلاغة ، فالقصد بهذه المادة تكوين الملكة الأدبية والتمكين من تذوق النصوص وجمالها وحسن تفهيمها ، فإذا هي تصبح مادة أغرقتها المصطلحات والتمرينات ، ونخصص لها الساعات الطوال لقراءة كتب سقيمة عقيمة ، يصر بعض الشيوخ على ضرورة قراءتها ، وليس ذلك إلا لأنهم تعودوا ، والمحصلون لهذه المقررات - مثل شروح التلخيص - هم أبعد الناس عن تحصيل الفوائد المرجوة من البلاغة . فهنا ، وفي مثل هذه الأحوال ، أرى الحذف والاختصار وسلوك أقرب الطرق الموصلة إلى الهدف المقصود . هنالك مسألة أساسية هي موضع الخلاف بين الأمم وبين المربين وهي : هل يقتصر في التعليم على المواد التي تنفع الإنسان في تخصصه وما يعد له نفسه من مهنة وعمل ، أو أن هناك ثقافة عامة في العلوم

والآداب ، يجب تحصيلها على الجميع ، لما تنكبه من ترويض العقل والذوق ، ولما تنكبه من ملكات . فالفرنسيون مثلا يفضلون الأخذ بالثقافة العامة ، ولو لم تكن ضرورية للهدف العملي ، والأميركيون يرون الاقتصار على الضروري للإعداد المقصود . ولا بأس في رأيي من التوسط بين الرأيين مع حذف ما تنقل منه الفائدة أو ما لا فائدة منه .

التعليم الإسلامي :

وعلى هذا أرى أن ثمة ثلاثة أهداف للتعليم في أي بلد أو مجتمع إسلامي :

١ - معرفة الإسلام نفسه معرفة أساسية كافية بحيث تكون في المسلم عقيدته وفكره ونفسيته وسلوكه .. على أن تكون هذه المعرفة مركزة قوية مبنية على القرآن والسنة مع عرضها بأسلوب جديد ووفقاً لمشكلات العصر وتصنيفات المعرفة المعاصرة

٢ - تقوية الانتماء إلى الأمة الإسلامية ، أي إلى الجماعة المسلمة أو المجتمع الإسلامي ، ودراسة كل ما يؤدي إلى ذلك .

٣ - معرفة العلوم التي تقوم بها دنيا المسلمين وتحصل بها قوتهم على مستوى الثقافة العامة ، وعلى مستوى التخصص . أي أن كل طالب علم يجب أن يأخذ فكرة إجمالية عن الفيزياء والكيمياء وعلوم الأحياء والفلك والرياضيات .. وأما التخصصون فيدرسونها الدراسة التي يقتضيها تخصصهم على مختلف المستويات .

٤ - أما العلوم التي لها خلفيات وأسس فكرية وعقائدية كالحقوق والاجتماع والفلسفة وما إليها ، فيجب أن تدرسها فئة متخصصة من المسلمين المتمكنين في إسلامهم ، والمدبرين إعداداً خاصاً . وذلك بغية تحرير التعليم والثقافة في البلاد والمجتمعات الإسلامية من تأثيرها ونظرياتها .. والاقتصار بالنسبة لجمهور المسلمين على الصياغة الإسلامية

لهذه العلوم ، تلك الصياغة التي يجب أن تم ليكون هناك علم اجتماع إسلامي الاتجاه ، وعلم نفس وفلسفة وحقوق إسلامية كذلك ، وهذا أمر يحتاج ، إذا خطط له ، إلى عشرين سنة على الأقل .

تلك هي وجهة نظر فضيلته في كثافة المناهج ، ومع إقراره لجانب الكثرة يتفق معنا في ما لهذه الكثافة من أضرار ، إلا أنه يراها أضراراً غير كثيرة إلى جانب ما تقدمه من نتائج . ثم يختم ذلك بالإشارة إلى محذورات المواد ذات الخلفيات العقائدية ، فيقطع بوجود قصرها على ذوي الاختصاص من المتمكنين في حصانتهم الفكرية .. لا كما هي الآن مفروضة على كل دارس دون نظر إلى عواقبها البعيدة .

أما رأينا في هذا الرأي فسيلسه الفارسي . مع تعليقاته المدروسة في أكثر من موضع من هذا الكتاب .

في ميدان التأليف :

يقول الأستاذ : لقد باشرت البحوث العلمية في وقت مبكر من حياتي ، وكنت لا أزال طالباً ، فقد بحثت في تاريخ الرياضيات عند المسلمين ، ونشرت بحثاً في الموضوع ، وبحثاً في التجارب العلمية عند المسلمين ، ونشرت نصاً لتجربة أبي الريحان البيروني في الكثافة ، وكان ذلك في عام ١٩٣٤م في مجلة الرسالة .

وكتبت مذكرة في التشريع الإسلامي مع مقارنته بالتشريع الغربي ، ووقع عليها د.الاب الحقوق بومند ، وقدمت للجنة المؤلفة للنظر في الموضوع ، وذلك في عام ١٩٣٥م وقد نشرت نصها في كتابي « الفكر الإسلامي » .

وكان أول ما ألفت رسالة في « فن القصص » في كتاب « البغلاء » للجاحظ في عام ١٩٤٠م وقد طبع ثلاث طبعات .

ولكن تأليفي العلمي تأخر حتى عام ١٩٥٧م أي بعد تخرجي بنحو ١٩ سنة حيث أخرجت كتابي في فقه اللغة الذي كنت أدرس موضوعه في كلية الآداب، ثم « خصائص العربية » الذي ألقيت موضوعاته في معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة ، وسلكت في تأليفي في اللغة مسلكاً خاصاً يختلف عن المؤلفات الأخرى .

وفي عام ١٩٥٩م ألفت كتاب « الأمة العربية في معركة تحقيق الذات » وهو متضمن إثبات ضلال، من يفصلون العرب عن الإسلام وخيانتهم للعرب ، وخطأ جعل القومية مذاهب عقائدياً في نظر التطور الاجتماعي ، وبيأت دور العرب قديماً وحديثاً في نشر الإسلام وإقامة الحياة على أساسه على الصعيد العالمي والداخلي . ثم أخرجت إتماماً للنظرية كتاب « الأمة والعوامل المكونة لها » وأخرجت في تلك الفترة كتاباً في دراسة النصوص القرآنية دراسة أدبية وفكرية سميت « من منهل الأدب الخالد » ثم سميت في الطبقات التالية التي بلغت الخمس « دراسة أدبية لنصوص من القرآن » وهو نتيجة لتدريسي مدة طويلة للنصوص القرآنية في كلية الآداب منذ عام ١٩٤٩م وقبلها في دار المعلمين الأولية بحلب في عام ١٩٣٩م وهو منهج غير مسبوق في تحليل النصوص .

أما تأليفي في الدراسات الإسلامية فكان مقدمتها كتاب « نحو إنسانية سعيدة » الذي خرج عام ١٩٥٧م وهو مجموع أحاديث في العقيدة . ثم نواتل أجزاء كتابي « نظام الإسلام » وكان الأول في العقيدة والعبادة ، والثاني في الاقتصاد ، والثالث في الحكم والدولة . وهذا الكتاب الذي بقي منه فسان : الأخلاق والأسرة ، هو نتيجة تفكير طويل وإعداد استمر سنين طويلة قصدت به عرض الإسلام كاملاً مترابطاً ، ملتزماً فيه الكتاب والسنة في تحديد المعالم والفاهيم ، وحدائث الأسلوب في العرض والتعبير وتجنب المسائل

الفرعية والجهانية . وحاولت فيه أن أتجاوز بالتأليف في الإسلام الرحمة السابقة ، أعني مرحلة الدفاع والمقارنات بالمذاهب الأخرى ، وردة الشبه ، وسلوك الطريق الإيماني المشتمل ضمناً على ما يؤدي كل هذه الأغراض من غير انشغال به ، واعتبرت المخاطب به هو الإنسان مطلقاً ، مسلماً كان أم غير مسلم ، فتجنبت الحماسة والعواطف والإلزام بالقبول استناداً إلى النقليات ، وتلك هي طريقة القرآن في مخاطبة عقول الناس جميعاً لإقناعهم بما يدعوم إليه ، ثم بيان الأحكام لهم بعد أن يصبحوا مؤمنين بما دعاهم إليه .

وقد تلقي هذا الكتاب تليقاً حسناً في العالم الإسلامي ، وخاصة العالم العربي وباكستان وتركيا لموقع الحاجة إليه . وقد كان البدء بإخراج القسم الأول من هذا الكتاب عام ١٩٦٨م .

أما الكتب الإسلامية الأخرى ففيها معالجة لكبريات مشكلات العالم الإسلامي ، كمشكلة الثقافة ، ومشكلة المرأة ، ومشكلة الغزو الأجنبي ، والتيارات غير الإسلامية ، وأمثال ذلك ، فقد أخرجت كتاباً تضمن مجموعة بحوث من هذا النوع وهو كتاب « الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية » وذلك في عام ١٩٦٩م . وأخرجت بعده كتاباً جامعياً لدراسة « المجتمع الإسلامي المعاصر » بهذا العنوان في عام ١٩٧١م . وربما كان هذا الكتاب أول كتاب جامعي وبحت اجتماعي في اتجاه إسلامي في الموضوع الذي يعالجه ، مع اشتغاله على الخطوط الأساسية لبحث المجتمع المسلم المعاصر ، وقد ألفتته بعد أن قبل اقتراحني لتدريس هذه المادة في الكليات الجامعية في بعض الجامعات ، وخاصة كليتي الشريعة والتربية بمكة المكرمة . ولكن الكتاب في حاجة إلى إضافة بعض البحوث وإلى شيء من التفصيل والتوسع .

وبما أخرجته من الدراسات الإسلامية كتاب « الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية » عام ١٩٦٧م وصكان نشر منه عام ١٩٦١م قسمه الأول بعنوان « الدولة عند ابن تيمية » وهو بحث قدمته لأسبوع الفقه الإسلامي وابن تيمية الذي أقيم عام ١٩٦٠م في جامعة دمشق، وقد جعلت عنوانه في الطبعة الأخيرة « آراء ابن تيمية في الدولة ومدى تدخلها في المجال الاقتصادي » .

وهناك عدد من البحوث العلمية الإسلامية التي أعدتها في السنوات الأخيرة لمؤتمرات أو مناسبات ، ولم تنشر بعد .

وأخص منهجي في البحث والتأليف في السير وفقاً لخصائص المرحلة التي سميتها منذ عام ١٩٥٧م « ذاتية الإسلام » ، وذلك في كلمتي في المؤتمر الذي عقد في لاهور في تلك السنة ، وفي محاضرة بهذا العنوان في جامعة دمشق بمسد ذلك ، متجاوزاً بذلك مرحلة الدفاع ومرحلة التوفيق بين الإسلام والحضارة الغربية ، ومؤكداً على خصائص الإسلام الذاتية المستخرجة من مصدره الأساسيين : الكتاب والسنة ، مع استيعاب مشكلات العصر المختلفة دون جعلها أو جعل حلولا الغربية فائدة ومثيرة لنا .

إن عناية الأستاذ بالدراسات اللغوية والأدبية ، باللغتين العربية والفرنسية ، قد نبه عقله إلى قيمة الكلمة وأورها في بناء الشخصية . ومن هنا جاء اهتمامه بالتأليف وكتابة البحوث وإعداد المحاضرات التي يقدرها بالمشات . ونظرة إلى الأسماء التي تخبرها لكتبه تبيننا بالطابع الذي يميز شخصيته العلمية والأدبية . فإذا تجاوزنا رسالته الأولى عن فن القصة في « بخلاء الجاحظ » واجهنا اللون الأساسي الذي ينعمرها جميعاً .. فهي كلها دائرة في فلك الإسلام لفنة وأدباً وثقافة ودراسات . ومن خلال هذا الأفق نشرف على العالم كد بما يحتوي من أفكار ومذاهب ونظريات ودعوات . ولا غرابة في ذلك ، فالإسلام بالنسبة إلى الأستاذ هو القلب الذي به يعيش ، والرثة التي بها يتنفس ، وقد أسففته دراساته الواسعة في مختلف فروع العلم ، وتجاربه اليومية في متابعة الحركات

الفكرية في العالم ، أن يستثمر شمولية النظام الإسلامي الذي لم يدع ، من شئون الحياة والكون والإنسان ، صغيرة ولا كبيرة ، إلا أحصاها . فبالإسلام ينظر ، وعليه يقيس ، وإليه يطمئن .. وبحقائقه يواجه كل مشكل يعترض الإنسان ، وتبارك الذي أنزل كتابه : « تبياناً لكل شيء » ، وهدي ورحمة وبشرى للمسلمين » .

بقي أن نوجه إلى فضيلة الأخ الحبيب كلمة عتاب على ما كلفنا إياه من مشقة بسبب إغفاله المراعاة المنشودة لنقاط الاستطلاع .. فلقد ترك الجواب المباشر على الأسئلة ٨ و ١١ و ١٢ و ١٣ فلم يفرد أيها منها بالإجابة الخاصة ، علاوة على بعض التقديم والتأخير في الاجابات الأخرى . إلا أننا نعتبر - ولعل القارئ ، معنا في ذلك - أن النقاط المغفلة قد اندمجت في النقاط المفصلة إلى حد ما ، فأعطت القارئ ما يجب أن يعرفه عن آرائه ومختراته ، وما إلى ذلك من شئون وشجون .

الشيخ محمد الغزالي السقا

لقد اشتهر في الأوساط الإسلامية بلقب الغزالي ، ويفسر لنا سبب هذا اللقب بأن والده كان شديد الإعجاب بالإمام أبي حامد الغزالي مؤلف «الأحياء» متأثراً بتزعمه الصوفية ، وأن هذا تراءى له ذات ليلة فأخبره أنه سيتزوج وينجب غلاماً ، ويشير عليه بأن يسميه الغزالي !

وُلد في ١٩١٧/٩/٢٢ لميلاد في قرية « تكلا العنب » من « إيتاي البارود » من أعمال البحيرة ، وقد سبق لهذا البلد أن أنجب العديد من كبار أهل الأدب والعلم ، الذين خلفوا شهرة واسعة في مصر والعالم الإسلامي ، منهم الشاعر المجدد محمود سامي البارودي ، ثم منفي كبرى الحركات الإسلامية في العصر الحديث الإمام الشهيد حسن البنا . وقد قدم هذا الاقليم كذلك ثلاثة من أئمة الأزهر هم : الشيخ سليم البشري ، والشيخ ابراهيم حمروش ، والشيخ محمود شلتوت .

الأسرة والدراسة

أما أسرته فيغلب عليها العمل بالتجارة ، وكان والده من حفظة القرآن ، يتمهده بالتلاوة المثبتة ، وقد نشأ ولده على ذلك ، إذ أدخله «كتاب القرية

ليشتم الخط والحساب ، وليحفظ القرآن ، فكان يحفظ حصته المقررة على الشيخ ، ويضيف إليها حصّة أخرى على والده ، فما إن بلغ العاشرة حتى كان قد حفظه كله .

ويقول فضيلة الشيخ : إن حفظ القرآن والتنافس في دراسة العلوم الإسلامية كانا أثناءئذ من طوابع هذه البيئة ، ولا بد أن يكون لهذا أثره العميق في تركيبه النفسي والعقلي ، ولا يستبعد أن يكون كذلك من الحوافز الباعثة على الطموح إلى مثل المكانة التي سبق إليها أولئك المقدمون .

في الأزهر :

ومن كتاب القرية إلى المعهد الديني المخصص لمحافظة البحيرة في الإسكندرية ، حيث قضى سنواته الأربع في دراسة المرحلة الابتدائية ذات المقررات القوية ، ومن ثم واصل دراسته حتى نال شهادة الكفاءة بعد ثلاث سنوات ثم الشهادة الثانوية بعد سنتين . ومن هناك انتقل إلى القاهرة ليلبدأ دراسته الجامعية في كلية أصول الدين ، وبعد أربع سنوات نال شهادتها العالية ، ليتحول إلى التخصص في الدعوة والإرشاد ، وقد نال إجازته - الماجستير بلمنة اليوم - بعد تمام السنتين .

موحيات لا تنمى :

ويسمى فضيلته من مشايخه الأكبر تأثيراً في نفسه أثناء الدراسة : الشيخ عبد العزيز بلال ، والشيخ إبراهيم الفرباوي ، والشيخ محمد الريان . . ويعمل ذلك التأثير بما غيّر به هؤلاء ، - ومن في طبقتهم أيامئذ - من السلوك العالي ، والإخلاص الذي يريهم العلم والتعليم وسيلتهم المفضلة إلى مرضاة الله ، وبذلك كانوا المعلمين والأسوة في آن واحد . ومن أمثلة ذلك التي لا ينساها ما يرويّه من أن شيخه الريان قد كلفه ذات يوم إعراب الجملة التالية : « عبت الله » ، وعلى دأب ذلك الجليل الملتزم أجاب أن اسم الجلالة منصوب على التعظيم ،

فما تمالك الشيخ أن يكره . . وحق لإنسان مشغول القلب بحب الله أن يبكي وهو يستمع إلى ذكر مولاه معظماً على لسان تلميذه . ولا جرم أن مجرد اختزان الشيخ لهذه الذكرى منذ ذلك العهد إنما يصور مدى تأثره بموجبات ذلك الجو المتوهج بالإشراق .

ولعلي لا أذبح سراً إذا قلت إن عارفي الشيخ الغزالي يحسون استغراقه في تلك الخاصة ، ولا سيما حين يتطلق على سجيته في كلام عن الله جل وعلا ، وعن رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، حتى يفضحه الدمع فلا يستطيع له رداً .

مع الإمام البنا :

ويتحدث فضيلته عن لقائه لإمام حسن البنا لأول مرة ، وذلك أتمساحه دراسته الثانوية بالإسكندرية ، وكان من عادته لزوم مسجد عبدالرحمن بن هرمز في منطقة رأس العين بعد المغرب من كل يوم حيث يقوم بمذاكرة دروسه . . وذات مساء - يقول - ينهض شاب لا يعرفه ليلقي على الناس موعظة قصيرة شرحاً للحديث الشريف : « اتق الله حيثما كنت » ، وأتبع السيئة الحسنة ، وخالق الناس بخلق حسن » . وكان حديثاً مؤثراً يتصل بأعماق القلب ، فما إن فرغ منه حتى وجدت نفسي مشدود القلب إليه . ومنذ تلك الساعة توقفت علاقتي به ، ومضيت معه عقب صلاة العشاء إلى مجلس يضم بعض رجال الدعوة ، ثم استمر عملي في ميدان الكفاح الإسلامي مع هذا الداعية العملاق إلى أن استشهد سنة ١٩٤٨ م .

ويحلل فضيلته تأثير إمامه الشهيد بقدرته على معالجة الوقائع الحية بالحقائق الإسلامية ، وبديهي أنه يريد بهذا التعبير المكثف الإشارة إلى استيعابه لمشكلات عصره ، وإدراكه الدقيق لموقف الإسلام بإزاء كل منها ، ومن هنا كان له ذلك الامتياز المعجيب الذي يستغضب حوله الرجال ، ويجعل كلمته فاعليتها الساحرة في القلوب .

العلوم التي يؤثر :

والمطالع لآثار الشيخ الغزالي ، مؤلفات ومقالات ومحاضرات وأحاديث ، يستشعر بقوة سعة الأفق ، الذي يطل به على مختلف فروع العلم .. وأول ما يطالعه من خلالها جميعاً تلك الموهبة الفنية التي تفرغ على تعابيره ألقى البيان العفوي الجميل . فالقارئ المتذوق لهذا الضرب من البلاغة لا يسعه أن يمر بكتابات دون أن يتوقف بين الحين والآخر ليمتدح وجدانه بتلك الصياغة الموفقة . وطبيعي أن يكون لهذه الأساليب الجذابة أثرها في تثبيت الفكرة التي يعالجها . وقد أجمع علماء البلاغة ، منذ الجرجاني والجاحظ ، على أن سر الجمال في كل نص ممتاز عائد بالدرجة الأولى إلى صياغته المحكمة ، وهكذا يتعاون الشكل الباهر مع المضمون القاهر في أدب الشيخ ، فيجعل له ذلك القبول في القلوب والعقول .

ولهذا لم تفاجأ بجوابه عند استطلاعنا إياه عن أحب العلوم إليه ، إذ بدأ بذكر الأدب أولاً . والأدب عند الشيخ - كما نفهمه من خلال آثاره - ليس ذلك الذي يقوم على الدراسات الجردية ، بل هو كل عمل فني تتوافر فيه عناصر الجمال ، وتتفاعل به المشاعر على الصورة التي يسميها العرب بالسحر الحلال . وأحسبني قد أثمرت في ما أسلفت من التراجم إلى قيمة هذا التفاعل الوجداني في تذوق الجملة القرآنية ، وقديماً اعتبر العالم المفسر الأديب أبو حيان تعاطي الشعر ، والقدرة على تذوقه من الأسباب المساعدة على فهم القرآن والنفاذ إلى إعجازة البلاغي .

ولعل من أبرز الملامح الدالة على خصائص المترجم الأديبة تلك الشواهد الرائقة من الشعر ، التي تستجيب له في عفوية بالغة ، لتحل من كلامه في المواضيع المناسبة كتناسب العضو الحي في مكانه من الجسد الحي .

والشيخ الصديق يعتبر الأدب - من أجل ذلك - هو الوسيلة المحففة في الإنسان خاصته الأولى التي أكرمها بها الخالق حين (علمه البيان) .

ويلى الأدب في إشاره « الدراسات النفسية » وهي التي عني بها أصحاب القلوب من الأئمة الذين جمعوا بين العلم والعبادة والزهد ، وخلقوا من ذلك كله تراثاً للأجيال ، لا يستغنى عنه في معرفة النفس البشرية وما انطوت عليه من الأسرار العجيبة ، وما يعتمورها من الأمراض والأعراض . ويشير من ذلك التراث إلى بعض المؤلفات المميزة مثل « صيد الخاطر » للإمام ابن الجوزي ، و « مدارج السالكين .. » للإمام ابن القيم ، و « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي ، بعد تجريده من الأخبار الضعيفة والشواذ الأخرى .

وبرى أن ثمة خاصية مشتركة بين الإمامين الغزالي وحسن البنا ، تتجلى في قدرة كل منهما على هضم العلوم والخبرات ، وتحويلها جميعاً في منهجها العقلي إلى تيسار فكري يعمل عمله في العقول والقلوب بمنتهى اللطف والسهولة ، كمثل النحلة تمتص ضروب الأزهار فتستخلص منها الرحيق الذي فيه شفاء للناس .

وبالنسبة إلى صلته بأفكار الإمام الغزالي بخاصة ، يقص علينا فضيلته ذلك الخبر الطريف التالي :

يقول : أثناء عمله في كلية « الدراسات العربية والإسلامية » بالجامع الأزهر عهد إليه بتدريس كتاب « ميزان العلوم » لذلك الإمام .. ولكنه سرعان ما ضاق به صدره .. وقدم تقريراً إلى المسؤولين عن الكلية يبين فيه مأخذه عليه ، ويقترح رفعه وإحلال « مدارج السالكين .. » لابن القيم مكانه .. على أنه ما إن فعل ذلك حتى ساوره بعض القلق إذ جعل يتساءل : أليس من المفارقات الغريبة أن يحمل اسمه - وهو الذي تراءى لأبيه ويشير به عليه - ثم يبعد الآن إلى هذا الموقف من كتابه ؟ .. بيد أن تساؤله هذا لم يصرفه عن تقريره الذي لم يكتبه إلا بإشارة لتي هي أحسن .

في غمرة الصراع :

وعن أم الأحداث تأثيراً في تكوينه الفكري والروحي بردتنا فضيلته إلى خصائص تلك الفترة التي عاشها منذ التحق بالقسم الثاوي ، والتي سُحنت بالتيارات المتصارعة في كل جانب من حياة مصر والشرق العربي ، فالاحتلال الإنجليزي كان مصدراً لا ننفد لنشاط الطلاب ورجال السياسة ، وقد شارك فيه بجزء أدى به إلى الفصل من الدراسة الثانوية لمدة عام ، وإلى السجن الذي لم يقادره إلا بكفالة مالية . ولما انتقل للدراسة الجامعية بالقاهرة فكان أكثر تماشياً بمركز الأحداث ، فهناك أمواج الفتنة التي قدحت زنادها مفاعرات طه حسين في نطاق النقد ، الذي أراد أن يسقطه على القرآن كأي أثر أدبي من صنع الناس !.

وفي دار الأوبرا تعرّض مسرحية وقحة تتناول للنيل من مقام صاحب الرسالة إلى جانب الأزمات السياسية التي لا تتورع عن استغلال هذا الواقع القلبي بمختلف الوسائل .. وقد بلغ الصراع أوجه بين التيارات الهدامة التي تستهدف الإجهاز على بقايا الحصانة الإسلامية في أوساط الجيل الجديد ، وبين الانتفاضات الكبيرة التي انطلقت في وجه ذلك الزحف المدمر .. يمثلها عمالقة من رجال الفكر والعلم كمحمد الخضر الحسين صاحب الرد الشهير على كتاب « الإسلام وأصول الحكم » للشيخ علي عبد الرازق ، الذي يعتبره المترجم من أم الخدمات التي قدمها مسلم للكافرين ، كيفما كانت نية مؤلفه والدوافع الحافزة عليه .. ويسمي من كتيبة الدفاع عن الإسلام في تلك المرحلة عبد الحميد سعيد صاحب الصوت الإسلامي المذوي تحت قبة البرلمان ، وأحمد زكي باشا ، المعروف بشيخ العروبة ، ومصطفى صادق الرافعي ، الذي يصفه المرحوم عبد العزيز البشري بأنه خلاق المعاني ، والشيخ محمد رشيد رضا حامل لواء السنة ويمثل

المدرسة التجديدية المنسوبة إلى الشيخ محمد عبده . وإلى جانب هؤلاء تنهض
حركة الامام البنا ، لتؤلفه من العناصر المؤمنة غير المنسقة ، تطبيقاً محكماً
لا يلبث أن يهز ضمير العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه .

ولا جرم أن فقه في مثل مواهب الغزالي ، وفي مثل نشأته الجادة ،
لا مندوحة له عن التفاعل الحار مع موجهات هذا الجو .

وهكذا تتصافر العوامل المختلفة والمتصارعة لتدفع بترجنا للفاضل إلى
ميدان العمل الإسلامي ، الذي بدأ صغيراً ثم مضى به 'صعداً' ، لم يفارقه يوماً
واحداً من عمره الذي نيف اليوم على الستين . . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

عن حملت منها :

على أن ما تقدم ذكره من المؤثرات لم يكن أكثر من تمهيد تهيأ به الشيخ
لمواجهة المرحلة التي كانت أحفل حقول حياته بالتجارب .

لقد 'نخضت' حركة الإخوان طاقات الشعب المصري لتفتح أعينه على
طريق جديد من الجهاد والعمل لم يكن له بمثله عهد منذ حروب الصليبيين
والتتار . . وكانت زحوف مجاهديهم لتحرير فلسطين صدمة هائلة لعملاء الغرب ،
أدخلت الحلل على خططهم الموجهة للقضاء على حيوية الإسلام ، وقدراته التي
لا تقتفي على تحريك الحامد من هم المسلمين . وما هي إلا أيام مشحونة بالجد
والصبر حتى زلزلت الأرض بأقدام يهود ، وحقق بات الإخوان المسلمون هم البلاء
الأكبر الذي لا يقف في وجهه شيء . . ولم يكن بد من تدخل أميركا وروسيا
ودول أوروبا ، لتدارك المصير المحتوم الذي سينسف إسرائيل من أساسها إذا
استمرت دفعات الإيمان في طريقها للتطور .

وتحركت (مراكز التخذييل) لإنقاذ اليهود . . فكانت الهدنة الأولى ، التي
فرضها النفراشي على حكومات العرب في اجتماع (عاليه) .

ويحدثنا صديق حدثه يمثل اليمن في ذلك المؤتمر - أيامئذ - قائلاً :
لقد أعلن النقراشي رغبة مصر في إعلان الهدنة ، ليتاح لوسطاء الخير أن يقوموا
بهمة التسوية في جو مساعد . وحاول أكثر الأعضاء مناقشة تلك الرغبة
الخطيرة على ضوء منطلق الأحداث ، فرفض النقراشي الدخول في أي مناقشة ،
وصرح بأن مصر قررت الانسحاب من المعركة منفردة إذا أصرت الحكومات
العربية على متابعة الحرب . . . وبذلك أكره الجميع على قبول العرض الذي
أضاع الفرصة على كل عمل صحيح لمصلحة فلسطين . ثم جاءت الخطى التالية
لتجريد مجاهدي الإخوان من سلاحهم الذي اشتروه بشمن أمتهم ، وأعقب
ذلك تجميعهم في معتقل عماط بالأسلاك الشائكة ، ليمنعهم من أي حركة
لا يريدونها أعداء الإسلام . . . وأنتموا ذلك التطويق بمصادرة الحركة في مصر كلها .
وكان مستحيلاً أن تمر العاصفة بسلام . . . وهكذا أقدم بعض شباب الدعوة
على اغتيال النقراشي ، جزاء وفاقاً على ما قدمته يداه - - - بأمر فاروق - -
لقضية فلسطين وللحملة الإسلامية . . . وما لبث أن جاء الرد على مقتل النقراشي
باغتيال الإمام الشهيد بعد أن جرّد من كل وسيلة يستطيع بها الدفاع عن
نفسه . وكان طبيعياً أن تتخذ سلطات فاروق من هذا الجو فرصة لتحطيم
بناء الإخوان كله ، فساخت الآلاف منهم إلى منفى الطور وفي مقدمتهم أعضاء
مكتب الإرشاد ، وفيهم المترجم ، الذي حجز أولاً في سجن الدرب الأحمر
لعدة أسابيع ، ثم أخذ إلى معتقل الطور ليقضي مع إخوانه سنة كان لا بد منها
لتدريب الجماعة على ممارسة أنواع البلاء . سنة الله في الذين خلوا من قبل ،
ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ويصف الشيخ تلك السنة بأنها كانت حافلة بالآلام والبركات معاً ، فعلى
الرغم من ضخامة المحنة التي شملت أسراً بأجمعها من الآباء والأبناء والأصحاب ،

وما رافق ذلك من فنون الإذلال والنكال التي صبغت على الجميع بمختلف الوسائل ، فقد كانت فرصة ضرورية أتاحت للجماعة لوناً من التربية الروحية هم أشد ما يكونون حاجة إليها .

يقول فضيلته : لقد غذّت هذه التجربة طاقة الاحتمال في النفوس وارتفعت بروحانيتها إلى مستوى عال ، فلا تدمر ، ولا تمل ، بل الصبر الكريم والرضى بالقدر الحكيم ، حتى لتسمع في هذآت السحر مثل هذه الضراعة السعيدة من أفواه لا تستبين أصعاها : « تجمل علينا بالرضى يا رب » .

وكان المترجم يؤم الاخوان بالصلوات ، لا يتخلف عنها إلا بمزق الثياب لا يجد السطر الكامل لمورقه .

ومن هنا ، من هذه الفترة التدريبية ، عاد الاخوان إلى العمل — عهد النحاس — وهم أعلى ما عهدوا في أنفسهم من المنويات .

زوابع الرعب :

وكانت الطامة الكبرى في العهد الذي أحال مصر كلها سجنًا كبيراً ، ومصنعاً للتعذيب لا يضارع حتى وراء الستار الحديدي .

ويصف فضيلته ذلك العهد ... بأنه كان يسلب الرجال رجولتهم بما أطلق من زوابع الرعب ، التي ألفت في رُوع كل حر في مصر أنه يحاط بالأعين والحراب والسياط .

في أحد السجون سبق أهل العلم ، وكل من قوّم المصلطون أن له صلة بالدعوة الإسلامية ، إلى الباستيل الذي لم يخل قط من الأبرياء . وبعد سنوات من الفتنة التي شوّهت وحطمت ، أفرجوا عن أحد المشايخ ممن لم يستطيعوا مواصلة الاحتمال ، بعد أن كتب لهم التمهيد الذي شأؤوا .. وبعد أن أوهموه أن في مكان ما من جوفه جهاز تسجيل ينقل إليهم كل كلمة يقولها ، وكل حركة يأتيها .

وبذلك أصبح وهو خارج السجن ، في جمع لا يتخذ من الخوف ، أحبال وجوده سجنًا لا يكاد يطيق معه حراكًا .

تلك أدق صور للجو الذي فرضه زبانية (..) على الشعب المصري ، وبخاصة جماعة الإخوان منذ اليوم الذي قلب لهم فيه ظهر الجن .

ويقول الشيخ : ظلت في مطالع الهنة مدة ألقى الدرس في المسجد أو في الجامع فلا أدري في أعقابه أين أبيت .. ويوم أعلن الطاغية من موسكو نيته في إيقاع المذبحة الجديدة في الإخوان ، استدراراً لمطف طواغيت الكرمين ، جاءه - أي الغزالي - توجيه الزبانية بوجوب التجريح في الجماعة لتسويغ ما يراه بهم . ولما رفض الخضوع للأمر زج في سجن طره ، حيث قضى تلك المدة في جو من المهانة والتحقير لا يملك القدرة على وصفه . ولكنها مع ذلك كله كانت فرصة أخرى للخلو مع القرآن الذي لم يكن له سلوة سواه .. ويشير إلى واحدة من هذه المناسبات الروحية قائلاً :

كنت ذات ليلة مضطجماً في ثياب السجن فوق الاسفلت ، فجعلت أتلو في نفسي سورة المائدة ، وألاحظ أثناء ذلك مضامينها واحداً تلو الآخر ، فأحس بينها من التناغم ما لم أنتبه إليه من قبل .. وهكذا هديت في ظلمات هذه الهنة إلى أنوار من المعرفة أضاءت لي سبيلاً جديدة إلى أفق جديد من الفهم القرآني .

وما يتصل بهذا الضرب من الأحداث ما تناقلته الألسن عن موقف أحد المنافيين حين عرض للشيخ ، وهو يلقي خطبته الثانية من على منبر جامع الأزهر ، فيذكّر ويعظ ويسأل الله للمؤمنين دون تعيين .. فنهض هذا ليصبح : « ألا ترون ؟ .. إن عصبية الإخوان المسلمين تمنعه أن يدعو للرئيس ... » إلا أن الله أعان المصلين فجرأهم عليه بما أخرسه . وقد كرر هذا التناقض فطلته تلك مع الشيخ في مسجد الحسين .. فكان نصيبه هذه المرة طائفة من الصفعات المناسبة من جمهور المصلين .

وبقليل من التأمل يدرك المتفكر بعض أحوال النفوس التي تعيش تلك الغمرة من الإرهاب ، فعلى الرغم من ضجيج الدعاية التي سخرت لها الأقلام والأقلام والأغاني ، ومئات الوسائل التي حاولت أن تجعل من الظلمة نوراً ، ومن الباطل حقاً ، ومن الأقرام عمالقة .. على الرغم من كل ذلك لم يجد ذلك المهرج من المصلين في كلا المسجدين سوى الازدراء والرد المذل . وليس ذلك في الواقع إلا رداً على عهد الطفيان كله لا على ذلك المنافق وحده .

ويؤكد لنا هذه الحقيقة تصرف المسؤولين عن إدارة مسجد الأزهر مع الشيخ ، إذ كانوا ينحونه عن الخطبة في كل جمعة يعتمزم الرئيس شهودها ، ويقدمون لها غيره ممن يحسنون الملق للظالمين .

في مسجد عمرو :

هذا المسجد ، الذي يحمل إلى قلوب المؤمنين العارفين ، نفعات المد العظيم ، الذي أضاء مصر بنور الإسلام على أيدي الطليعة المباركة من تلاميذ النبوة ، كان قد استحال أو كاد خلاء كالحراب يوشك ألا يجتمع فيه نصاب الجمعة على المذهب الشافعي . وكأني بالدكتور عبد الحليم محمود ، وكان يومئذ وزيراً للأوقاف ، قد شاء إحياء الفابر من جلال هذا المسجد ، فدعا الشيخ الغزالي ليلطفه رغبته في أن يتولى خطابته .. وكان هذا بنظر الغزالي أشبه بالنفي له عن أوساط التوجيه ، لذلك راجع الوزير يطلب إعادته إلى خطابة الجامع الأزهر الذي ألفه وألفه رواده مدى عشر سنوات . ولكن الوزير أصر على تكليفه وقال له : اذهب إلى مسجد عمرو ، وستجدني بين المستمعين إليك .

وكانت هذه لفتة طيبة أقنعت الشيخ بقبول التكليف . وما إن ذاع خبر هذا التوجيه حتى استبشر الناس ، الذين أحزنهم أن يفقدوا هذا الصوت المؤثر ، وأقبلوا على المسجد منذ الجمعة الأولى فلتؤوه وصعنه . ثم مضى الأمر على التقاليد

جمعة بعد أخرى ، حتى قفز العدد عن الألف إلى ما يقارب الثلاثين ألفاً ،
يتوافدون إليه من مختلف أنحاء القطر .

وتراعى للشيخ من خلال ذلك الإقبال عظيم المسؤولية فاستخار الله وتوجه
إليه بالدعاء أن يرفقه إلى إعلاء كلمته وتثبيت حقائق الإسلام في هاتيك القلوب
المتلهفة إلى قولة الحق .

ورأى أنفع شيء لهذه الآلاف المؤمنة أن يعالجها بالقرآن ، وعلى المنهج الذي
أفاده من تأملات الحلوية في لبيان طوره .. وهكذا مضى بها في حدائق الأنعام ،
و « ياسين » و « الواقعة » و « الفتح » و « محمد » عليه السلام .

وقادته حكمة الله أن يبدأ بسورة النساء في الوقت نفسه الذي اختارته
وزارة الشؤون الاجتماعية لإثارة موضوع قانون الأسرة ، وما يراد له
من التفسير .

قضية الساعة ،

وتتصاعد موجة البحث ، ويكون من ردود الفعل الطبيعية لمحاولات أنصار
القانون المراد ، أن انجبه أولو الفكر في مسجد عمرو إلى الدعوة لمؤتمر يعقد في
الأزهر ، ويضم المشتغلين بالقضايا الإسلامية لمعالجة القضية على نطاق أوسع
موضوعية .. وكذلك كان ، وقد حضر ذلك المؤتمر كثيرون يمثلون مختلف
الأوساط العلمية والسياسية ، فعلماء من كبار الأزهريين ، وأعضاء من مجلس
الشعب ، وأساتذة وطلاب من مختلف الكليات ، إلى آخرين من العاملين في
الجماعات الإسلامية . وشارك في الاجتماع سفير نيجرية ، حتى بلغ الحضور قرابة
خمس عشرة ألفاً يمكن القول بأنهم يعكسون بمجموعهم رأي الكثرة الغالبة
من الشعب المصري .

وطرحت قضية الساعة في جو من الصراحة الواجبة ، وكان الصديق المترجم

في بحثه الموضوع بمثابة المرافع القضائي الذي يدعم أفكاره بالحجج الدامغة ،
والوثائق الحاسمة .

وانتهى النقاش أخيراً بإجماع الحضور ودون معارضة إلى المقررات
التالية :

١ - لا يجوز النظر في قانون الأسرة قبل تعديل قوانين العقوبات كلها لتنطق
مع مبادئ الشريعة .

٢ - يضع قوانين الأسرة علماء الأزهر فقط .. لا الوزراء .

٣ - إستنكار ورفض كل تهجم تقوم به أجهزة الإعلام على التعاليم الإسلامية
وأوضاع المسلمين .

وعقب ذلك خرج جمهور المؤقرين ، ومعهم الطلاب ، في مظاهرة ما زالت
ترداد بالتضمين إليها حتى أحاطت بمجلس الشعب إحاطة السيل بمنزلة
معزولة .

وكان هذا كافياً لإقناع المسئولين بأن الشعب المصري غير مستعد للسماح
بتمرير هذا المدوان الجديد على بقايا الشريعة الإسلامية ، فوقفوا للتفكير في
مشروعهم ولو إلى حين .

وكان طبيعياً ، بعد هود العاصفة ، أن يتحرك القوم للبحث عن مسيبيها ،
فانتهى بهم اللطاف إلى مسجد عمرو وخطيبه ، وأعقب ذلك تمحيص الشيخ
عن منبره .. ثم جاء التدبير الآخر بنقله من وظيفة مدير عام لدعوة الإسلام
بوزارة الأوقاف ، إلى منصب مستشار فيها .

ونشرت بعض الصحف برمز أن الدافع إلى هذا الإجراء من الشيخ بقضية
الكلية العسكرية الفنية . ولا حاجة إلى القول بأنها تهمة لفقها الخراصون ،
وكذبها القارئون .. هذا فضلاً عن أن ما نشر عن قضية الكلية حتى اليوم
لا يزال ينتظر الأقلام التنظيف التي تكشف عن أسرارها ومفاجأتها الأستار .

حوار معقول :

وبذكر في مضمون الفقرة الثانية من مقررات المؤتمر حواراً دار قبل أيام بيني وبين المفكر الدكتور مصطفى محمود ، لقد ناقشته في إنكاره حكم الرجم للزانيين المحصنين ، والذي سبق له التصريح به في إحدى الصحف ، فكان قصارى ما احتج به أمران :

الأول - أن الحكم لم يرد في القرآن ، وبجود وروده في الحديث لا يقوم لبلا على صحته لما أساط بالحديث مطلقاً من مفارقات تبث على الشك .

والثاني - أن الزنى أصبح من المثلّمات التي تحميها الدولة ، وترين للشباب أسبابها بمختلف وسائل الإغراء ، وللعوامل الاجتماعية آثارها البميّة في صرفهم عن سبيل الزواج المشروع .. فلو دعونا إلى إقامة حد الرجم في هذه الأحوال لكننا على غاية من الجهل بالعصر الذي نعايشه ، وبالجمتمع الذي نريد تطهيره من هذه الآفة .

ولم يكن عسراً تصحيح الشق الأول من كلامه الذي لا بد قد تسلل إلى فكره عن طريق أبي ربة وامن وراه من المبشرين والمستشرقين ، إذ يكفي لبعض هذه الشبهة تذكير طالب الحق مثله بقوله تعالى : «وما ينطق عن الهوى» و « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وأن تعهد الله بحفظ كتابه لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق حفظ السنّة التي جاءت تفصيلاً لجمله ، وإيضاحاً لغامضه ، وتحديداً لمقاصده .. ولولاها لاستحال على المؤمنين التثبت من هيئة الصلاة ، وأحكام الصوم ، وشعائر الحج ، ونسب الزكوات في الأموال المختلفة . فإذا وجد في نطاق المرويات عن الرسول ﷺ الضميف والمنحول ، فلنتذكر القدرة الخارقة التي أتاحها الله لسنة نبيه فأنقذتها من كل دخيل لم يثبت صدوره عنه صلوات الله وسلامه عليه . وأما الرجم فهو جزء من قضية كاملة لا يمكن تقنينها . ونعلم استحالة تنفيذه في الجمتمع الذي تأخذ

الفاحشة عليه السبل ، لذلك تريد تثبيت الإيمان أولاً بشرعية الله ، وأنها وحدها صاحبة الحق في ضبط تصرفات البشر ، فإذا تحقق ذلك كان من أسهل الأمور تطهير المجتمع من أسباب الفاحشة ، وتيسير السبيل إلى التلاقي المشروع بالزواج النظيف ، ويومئذ يصبح الرجم ضرورة بتطلبها المجتمع نفسه لحماية وجوده من نكسات الشيطان .. مثله في ذلك كمثل حد السرقة ، لا يسد قبل تنفيذه من تحقيق العدالة الاجتماعية بتوفير العمل الشريف للقادر ، والمعونة الأخوية للمعجز ، فإذا أقدم امرؤ على السرقة في مثل هذا الجو كان حقيقاً بالقطع ليكون عبرة رادعة لكل من يحمل مثل خطره على أمن المجتمع .

ويسرني أن الأخ الدكتور لم يتردد في قبول هذه الحقيقة ، حتى وعد بان يتدارك ما سلف منه في أول فرصة ، جزاء الله خيراً وزاده هدى على هدى .

كلمة للمسنولين :

وشيء آخر أيضاً تثيره في خاطري هذه المناسبة ، وهو اتهام المسنولين للماملين للإسلام ، بالنشاط السياسي والعمل لإقامة زعامة دينية .

وقصارى ما يواجه به دعاة الإسلام هذه التهمة هو تبرؤهم منها ، وإعلان رفضهم لكل مطمح سياسي !

وأنا لا أرى لأي من السياسيين المتهمين ، والدعاة المتبرئين ، سنداً من المنطق يؤيد ما ذهبوا إليه .

ولتناقش الموضوع في ضوء المنطق نفسه ، رجاء أن نصل به إلى الحكم المعقول ، الذي من حقه أن يوضح أوضاع كل من الفريقين في هذا المضمار .

إن الدستور الذي 'يحكمكم به في معظم البلاد الإسلامية التي تكافح دعاة الإسلام ينص على أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة ، وحين نستنطق بهذا الكلام لا نجد له مفهوماً صحيحاً سوى هيمنة النظام الإسلامي على شؤون الدولة كلها، بحيث لا يعتبر أي عمل هناك مشروعاً ما لم يتسجم مع أصول هذا النظام .

ذلك هو المفهوم المعقول لضمون ذلك النص ، وإن اختلف به الحاصمون في مختلف أقطار المسلمين ، حتى كاد يتحصر في بعض المظاهر السطحية ، التي لا تتجاوز شهود المشولين لبعض المناسبات الإسلامية كصلاة العيدين مثلاً ، ثم يضي كل شيء في الخط المنافي لمقاصد الإسلام .

وقد ألفت الناس هذا التناقض حتى كادوا لا يحسون به .. فإذا ارتفع صوت بالتنبيه إليه والتعذير من أخطاره وعواقبه ، نجوه بالإنكار ، ونُبذ بالاتهام ، وصب عليه المذاب صبا .

والمؤسف العجيب في هذا الوضع أن الذين يستنكرون قيام الزعامة الإسلامية ، في بلد حياة أهله كلها قائمة على الإسلام ، وفي ظل قانون أسامي يعلن إسلامية الدولة ، هم أنفسهم يبيحون لأعداء الإسلام وغير الإسلام من الأديان التي تؤمن بالله واليوم الآخر ، حق العمل للوصول إلى زعامة البلد كله باسم الديمقراطية .. دون أن يلحوا بما في إباحتهم هذه ، ومنعهم ذلك من المفارقات التي لا مفهوم لها في لغة القانون ولا المنطق .

كيف يكون من حق الشيوعية مثلاً أن تدعو لتحلتها ، وتسمى بكل حولها وأضاليلها للهينة على أزمة المجتمع ، وهي التي يُعتبر مجرد وجودها منافياً للهوية الإسلامية التي تُحدد شخصية الدولة ، ثم يعتبر مجرد الدعوة إلى تنفيذ مضمون تلك الهوية ، بتحكيم شرعية الإسلام في مسيرة المجتمع عملاً مستنكراً مرفوضاً ، يستحق دعائه المطاردة والتشهير والتحقير !؟

وكلمة لدعاة الاسلام :

ولماذا يتهرب دعاة الحكم الإسلامي من نهمة السعي للوصول إلى الحكم كأنها وصمة عار يدفعونها عن أنفسهم بكل ما يملكون من قوة !.. حتى لقد أوقع موقفهم هذا في أخلاق العامة أن مجرد العمل في مجال السياسة مخالف لروح الإسلام ! وما أحسب أن ثمة إساءة للإسلام أكبر من هذه النتيجة .

إذا كان الإسلام هو النظام الذي أراده الله دستوراً مهيمناً على مسيرة الحياة البشرية ، وكان واجب المؤمنين به في كل مكان وزمان هو تحقيق هذه الهيمنة في كل وجودهم ، والسهر الدائب لمحايتها من كل عدو يريد بها شراً أو إهانة . . . فأول مقتضيات هذا المبدأ ، وبخاصة في مثل ظروفنا التي عزلت فيها الشريعة الإسلامية عن ميادين الحكم ، أن تتجه مساعي العاملين لإيصال النخبة المجرية من المؤمنين بهذه الحقيقة إلى مراكز المسؤوليات العليا في الدولة . وذلك هو الطريق الطبيعي في ظل الديمقراطية ، التي تعطي كل فرد حق العمل لتصحيح الأوضاع الاجتماعية ضمن نطاق القانون ، وكما أن المفروض في كل منظمة حزبية ذات مبادئ ، ملتزمة ألا تأتمن على تنفيذها إلا المؤمنين بها ، فمن باب أولى ألا يأتمن العاملون للإسلام على مبادئه إلا من ثبت إيمانه بها وتفانيه لتحقيقها . ولنستعرض هنا بعض كلمات الشيخ لتوكيد ما نذهب إليه في هذا الصدد .

في كتابه « فذائف الحق » صفحة ١٢٧ يعدد مهام العاملين للإسلام في نقاط محددة ، ثم يقول : « وبدعي أن ذلك لن يتحقق كلاً أو جزءاً إلا في ظل حكومات تحترم الإسلام ، وترى نفسها مسئولة أمام الله عن القيام بحقوقه . »

ثم يردف ذلك ببيان التفاوت بين مواقف الحكومات العربية بالنسبة إلى الإسلام ، مع تلاقيها على استعباده عن نطاق الحكم ، مما يجعل العبء قاصراً على صكواهل الشعوب وحدها ، (فعلى الشعوب أن تتحرك وإلا تعرضت للفناء مخوفة من رب السماء) .

ونحن نقول : ما دام الأمر كذلك ، فقيم الفرار من صفة السعي إلى الحكم في حدود الأنظمة المشروعة ؟ . . . لماذا لا نقول للحاكمين والمحكومين : إن الأساليب التي تحكمها الدولة قد أثبتت إفلاسها وعجزها عن أي عمل مأمون المواقب على المدى البعيد ، ومن أجل ذلك نتقدم ببادئنا الرامية لإقامة قواعد

الحكم الصالح ، الذي يضمن للأمة العدالة والمزة والقوة ، فدعوا لنا حقنا الطبيعي في عرض ما عندنا لأمتنا أسوة بالآخرين من يعملون لتدمير هذه المبادئ ، بل لتعطيم عنصر الأمن والعدالة في هذه الأمة ؟ وإذا بقي بعد ذلك في المسئولين من يرفضون هذا العرض بغير حق ، سألناهم بالله أن يقوموا لله مثني وفرادي ثم يتفكروا في تجرد من كل هوى شخصي ، وباستقلال عن كل غرض غير مصلحة الأمة ، ثم واصلنا مسيرتنا إلى الهدف الأعلى غير عابئين بالتهديد والوعيد ، حتى يحقق الله وعده بالنصر للذين قال في وصفهم : « الذين إن مكثام في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ... » أو يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو أحكم الحاكمين .

في خدمة العلم :

وعن نشاط الشيخ في خدمة العلم وطلابه ، يؤكد لنا ما يعرفه عنه من خلال آثاره كل قارئه وسماع ، فحببه للعلم هوى يتزايد مع لحظات الحياة ، ولا يكاد ينقطع عن جانب منه ، وإن تفاوتت صلته بقنونه وفق مقتضيات العمل والحاجة . وذلك أمر بدعي بالنسبة إلى داعية تتمدد ميادين نشاطه العلمي ، وكل منها يتطلب المزيد من الثراء الفكري الحي . فهو خطيب مسجد ولكن عن الضرب الذي يستشعر في عمق قيمة الكلمة وحق المستمعين عليه ، ومسئولته عن ذلك أمام الله . . وقد عرفته كلينا أصول الدين والشريعة بالأزهر مدرّساً يخاطب العقول فيثريها ، والقلوب فيستويها ، وفي معسكرات الطلاب والجماعات الإسلامية عن نشاطه الفعال آثار تذكر فتشكر . ولقد شاء الله أن يمتد عمل الشخصي إلى أبعد من محيطه الوطني ، فبسر أسباب نقلته إلى مكة المكرمة ، ليكون رئيساً لقسم الدعوة في كلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز ،

ومن ثم ليكون على صلة بالآلاف من قرائه الذين يتوافدون على البيت الحرام من أنحاء العالم الإسلامي . وما كان ليتاح له ولا لهم ولا لنا مثل هذا التلاقي ، لولا أن أكرمنا الله وإياه بالهجرة إلى حرمه المبارك .

ولي التاليف :

وبشأن مؤلفاته يذكر فضيلة الشيخ أنها بلغت حتى الآن واحداً وثلاثين كتاباً . وقد أعيد طبع بعضها عشر مرات ، وهو لا يكاد يؤثر بعضها على بعض ، ومرد ذلك فيما نرى ما تمتاز به جميعاً من صدق التصوير لأعمق أفكاره ، وأحر عواطفه .

ولكنه مع ذلك لا يخفي نظرتة الخاصة لكتاب « فقه السيرة » لصلته بأحب الخلق إلى قلبه ، وبلي ذلك آخر كتاب صدر له باسم « قذائف الحق » لما ضمنه من ردود قاهرة على مغفريات يريد بها أعداء الإسلام تدوين العالم الإسلامي ، على حد تعبيره .

والحق يقال أن الحديث عن مؤلفات الشيخ الفزالي لا تفي به العبارة المعجل ، لأن فيها من الخصائص المنهجية والأدبية ما يجعلها نسيج وحدها بين الكتب ، وهي بذلك تقتضي الوقوف على كل منها بالتحليل الطويل . وحسبنا في هذه المناسبة المحدودة أن نذكر القارئ بأسلوبها المميز الذي من المتعذر أن يختلط بتعبيره من أساليب الكتاب ، ولو توجوا ما يكتبون بالعنوانات نفسها التي يتخيرها لمصنفاته .

النهاية العليا :

يقول فضيلة الأخ ، في الإجابة على الاستطلاع الخاص بمستقبل الجيل الإسلامي ، إنه أميل إلى التفاؤل بشأنه . ويعمل ذلك بما يحسه في كل مكان من مخاض يبشر بخير عميم . ويمثل لمواده بأقرب مشاهداته ، وهو أن ثمة شباباً ولدوا بعد ثواري دعوة الإخوان ، يحملون في صدورهم طاقات حركية

لا حدود لها، تدفعهم إلى العمل، وتحجب إليهم حق الاستشهاد في سبيل الإسلام. وشدت ما يلومون الدعوة على مسلكهم القائم على الأناة .

ويقول : إني لأتساءل من الذي أعد هؤلاء الجنود، ووجد بهم شباب الدعوة على حين فترة من الدعوة ، وطفيان من الأحوال ، فلا أجد جواباً إلا في قول الله عز وجل : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، قاله بحكمة حكته هو الذي أراد استبقاء الإسلام بهذا الشباب المنتشر في بقاع العالم الإسلامي جميعاً .. وأغرب ما في هذا التدبير الإلهي أن كثرتهم نكاد تكون مقصورة على الكليات العملية من الجامعات ، حتى ليتقاصر عنهم أبناء الكليات النظرية وحتى الدينية منها عدداً وحاسه .. ولذلك يصر الشيخ على أن الإسلام محفوف بالعناية الملينا ، وهي التي تتولى حمايته وتجديد زخوقه ، كلما توم الباغون والجاهلون أنه استنفذ طاقته . بيد أن يقينه هذا لا يعني الاستقامة ، ولا يسوغ التوقف على طريقة ، اذهب أنت وريك فقاتلا ، بل يجد فيه الباعث الحثيث على مضاعفة الجهد بما يبثه في قلوب الماملين من توقعات النصر المضمون من حيث لا يحتسبون .

الكرامة والعدالة والأمن :

وبأني جوابه الأخير ، حول مهام علماء الإسلام في هذه المرحلة الدقيقة من حياة الجيل ، مؤكداً لما تقدم ، ويمكن تلخيص أفكاره هنا بما يلي :

١ - أول هذه المهام بالنسبة إلى أهل العلم مضاعفة الحرس على فضائل الإسلام والتثبيت بحقائقه لتتوافر قيمهم القدوة الصالحة للجيل الذي يريدون توجييه .

٢ - إن تفتيت الطاقات العامة للإسلام هو أهم مرتكزات العدو الذي يريد لكل منهم أن يموت وحده لذلك كان أول واجباتهم أن يتجمعوا ويتعاونوا ويوثقوا الصلة مع شعوبهم .

٣ - ومن أجل التغلب على التيارات الفغائية ، لا مندوحة للعلماء من دراستها على الطبيعة ، لمعرفة الوسائل الكفيلة بصددها ، وتحصين المسلمين باللقاح الراقى من سمومها . والسبيل إلى ذلك إبراز الحلول الإسلامية لكل مشكلة عامة تريد استغلالها تلك التيارات .

٤ - السعي الدائب لتأمين حق كل مسلم بالكرامة والعدالة والأمن على الصورة العملية المعهودة ، فقد شبع الناس من هذا الكلام عن فضائل الإسلام ، وأصبحوا متلهفين لمواجهتها على أرض الواقع ..

وحسبنا هنا التذكير بقول الفاروق العظيم عليه رضوان الله لعباله في مختلف ديار الإسلام : « لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجموهم فتكفروهم » .

الشيخ محمد ناصر الدين الألباني

تفضل شيخنا أمتع الله بحياته فأملى علينا إجاباته على نقاط الاستطلاع في كلمات موجزة لم يدع له عمله الكبير في خدمة السنة مجالاً للتبسط فيها ، فكان علينا أن نتخذ منها مناقذ للإطلاع على تلك الحياة ، التي يسر للكثيرين من المعنيين بالسنة المطهرة أن يتعرفوها عن كتب .

مختب الشيوخ :

إنه محمد ناصر الدين أبو عبد الرحمن ويلقب « بالألباني » ، ولد في كنف آله بأشقودرة عاصمة القطر الألباني أيامئذ ، من أسرة متواضعة بميدة عن الغنى ، يغلب عليها الاشتغال بالعلوم الدينية ، وكان والده الحاج فوح من كبار مشايخ ألبانية ، تلقى علومه في إسطنبول ، وعاد إلى بلده ليعمل في خدمة الكفر تعليمياً للأطفال وتسديداً للكبار .

والبيئة التي استقبل فيها الشيخ عهد حداته الأولى مطبوعة باللون الإسلامي المحافظ في كل شيء ، حتى جاء أحمد زوغو - ملك ألبانية آنئذ - فقطع عليها بتغييرات اجتماعية كانت صدمة هزمت أركان تلك البيئة ، إذ جعل يتمقب خطوات طاغية تركيا أتاتورك ، فألزم المرأة الألبانية بنزع الحجاب ، وأتبع

ذلك بالقبة .. ومنذ ذلك اليوم بدأت هجرة الذين يخافون على دينهم .
وكانت أسرة الشيخ نوح في طبيعتهم ، إذ كان أول المهاجرين من ألبانية
إلى سورية .

دراسته العربية :

وفي دمشق بدأ الغلام المهاجر دراسته العربية ، فالتحق وإخوته بمدرسة
جمعية الإسعاف الخيري ، وكان مقرها بجوار البناء الأثري المشهور بقصر العظم
في حي البرورية ، واستمر را على ذلك حتى أشرفوا على نهاية المرحلة الابتدائية ،
وفي هذه الأثناء هبت أعاصير الثورة السورية بالفرنسيين ، وأصاب المدرسة
حريق أتى عليها ، فانتقلوا عنها إلى مدرسة أخرى بسوق ساروجة ، وهناك
أنهى المترجم دراسته الأولى ، ومن ثم انصرف إلى متابعة دراسته المنظمة على
المشايخ ، فعلى والده يتلقى القرآن تلاوة وتجويداً مع بعض الفقه الحنفي ،
ويقراً عليه بعض كتب الصرف . وعلى الشيخ سعيد البرهاني قرأ كتاب
« مراقي الفلاح » وبعض الكتب الحديثة في علوم البلاغة .. ولم يحصل على
إجازات في هذه القراءات لأنه - كما أخبرنا - لم يطلبها ، وكل ما أحرزه من
ذلك إجازة في الحديث منحه إياها المرحوم علامة حلب الشيخ راغب الطباخ
إثر مقابلة له بوساطة الأستاذ محمد المبارك ، الذي ذكر للشيخ الطباخ ما يعرفه
من إقبال الفس الألباني على علوم الحديث وتفوقه فيها ، فلما استوتق من ذلك
خصه بإجازته تقديراً واعترافاً .

مؤثرون في حياته :

يقول الشيخ : إن أول الرجال تأثيراً في نفسه هو والده ، ويحدد أثره في
ناحية التدين والعبادة ، إذ كان يصحبه إلى المساجد ، ولا سيما أيام الجمعة ،
كما كان يأخذه لزيارة المقابر ، وبخاصة من يعتقد ولايتهم وفضل الصلاة عندهم ،
كالشيخ ابن عربي والشيخ النابلسي . وهذه الدوافع يذهب به للصلاة في المسجد

الأموي ظناً منه أنها هناك أفضل من سواها ، لمسا زعموا من وجود قبر نبي الله يحيى فيه .

يقول الشيخ : « فلم أزل على خطي والدي في هذا الاتجاه حتى هداني الله إلى السنة ، فأقلت عن الكثير مما كنت تلقينه عنه مما كان يحسه قربة وعبادة . »

وهنا يحدثنا الشيخ عن بعض الجوانب التي لا يحسن أن نجعلها مما كان بينه وبين ذلك الوالد ، الذي بصفه بأنه شديد التعصب لمذهب الخنفي ، فيقول : « كنت قد أكبت في شغف كبير على دراسة السنة ، فإذا أنس مني ذلك جعل يحذرنى قائلاً « علم الحديث صنعة المغاليس » ولكن على الرغم من كل ما جرته ذلك التباين من خلاف فكري بيني وبينه ، فقد صار بنا الأمر إلى كثير من التقارب في أواخر حياته ، إذ كان يقول في إثر كل نقاش « أنا لا أنكر أنك عدت إليّ ببعض القوائد العلمية التي لم أكن على بينة منها قبل ذلك ، مثل عدم مشروعية القصد إلى الصلاة عند قبور الصالحين . »

بواكير عمله العلمي :

يقول الشيخ : « والحق أن هذه المسألة من أوائل الأسباب التي انفصلت بها عن معظم المشايخ ، إذ كانوا فيها على طريقة والدي ، فكان من بواكير ما بدأت به مما يشبه البحث العلمي أن تتبعته هذه القضية في بعض المراجع الفقهية والحديثية مما تحتوي مكتبة والدي ، فكتبت بعض الصفحات ذهبت فيها إلى كراهة الصلاة تحريمياً في تلك المواطن ، وبخاصة المساجد المبنية على قبور الأنبياء والأولياء ، مستنداً على ذلك بما وقعت عليه من أقوال العلماء في تلك المراجع . وقدمت رسالتي إلى شيخني البرهاني في الأواخر من أيام رمضان ، فوعدني بورد جوابها بعد العيد ، فلما جنته تبسم لي وقال : « لم تصنع شيئاً لأن اللطآن التي نقلت عنها لا تعدر حاشية ابن عابدين ومراقي الفلاح وليست بمصادر الفقه .. وقد صدمت بهذا الجواب وعلقت أن الشيخ لم يستوعب كل ما كتبت ، إذ كانت

تقول عن « عمدة القاري » و « مرقاة المفاتيح » و « مبارق الأضهار » و « حاشية الطحطاوي » ، وهي من المراجع المتبعة عند أهل العلم .. ولهذا رأيت أن أتابع المسألة في دائرة أوسع ، وهكذا مضيت في السعوت والتنقيب حتى استكلت الفكرة بأدلتها من الكتاب والسنة وأقوال الأئمة ، فكان من هذا كتابي المعروف باسم « تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد » .

وإشارة الشيخ إلى بعض أسباب الخلاف العلمي بينه وبين والده ذكررتي بما سمعته من أحاديث بعضهم حول الموضوع وتوكيد هذا البعض على ذلك الخلاف لإيهام السامعين بأنه من المأخذ الكبيرة على أبي عبد الرحمن ، لذلك رأيت أن أسأله المزيد من الإيضاح لهذه الناحية ، فكان في أجوبته ما خلاصته : أن أكبر أسباب الخلاف مع أبيه - فضلاً عن التعصب المذهبي - يعود إلى تشدد الوالد في الحفاظ على تقاليد لا سند لها من الدين ولا من المذهب ، وكثرت من ذلك يذكر أن عدداً من الخطباء تقدم بطلب ابنته فردم لأسباب كثيرة ، ولكنها متشابهة .. ففلان أمرؤ صالح ولكن أخاه شرطي يمتصر القبعة . وفلان كذلك إلا أن له قريباً يقتني مذيباً .. حتى إن أحد أصدقائه من مشايخ دمشق خطبها إليه فقال له : « أنت عندي نعم الكف . لولا أنك على المذهب الشافعي » .

طرائف ومفارقات :

ومن طرائف هذه المفارقات ما كان يراه ذلك الوالد - رحمه الله - من أن كل حشو للضرس أو السن يمنع زوال الحدث الأكبر ، فمن حشا هذا أو ذاك لم يظهر من جنابة قط ، وبالتالي لا تصح له عقلة .. وقد أخذ بذلك الرأي الكثيرون من مهاجري ألبانية الذين يأخذون عنه العلم . وحدث أن كبير بنيه قد حشا ضرماً له ، وانتهى خبره إلي والده فسأله فاعترف له ، فغيره بين أمرين إما أن يقطع ضرره أو يفارق منزله .. فأثر الثانية .

وكان الشيخ ناصر موقفه من ذلك الاجتهاد فناقش به والده ، وقدم إليه البراهين الدامغة من النقل والمقل ، فلم يستطع لها رداً ، ولكنه لزم الصمت ولم يجب . ولعله قد رجع عن اجتهاده هذا فيما رجع عنه من آرائه على يد ابنه الهدى .

ويفند الشيخ أنهم خصومه في موضوع الخلاف بينه وبين والده ، ويؤكد رضاه عنه بمختلف الدلائل ، من ذلك أنه عهد إليه دون سائر أخوته بأمر هام لم يؤثروا به إلا لثقتهم التامة به . ويقول الشيخ إن ذلك الأمر معروف عند أخوته وسائر قرابته .

جهود جهار :

وركز الشيخ من بين الوجهين له على المرحوم السيد رشيد رضا ، الذي يعتبره من أكبر الرجال أرواً في دفعه إلى دراسة الحديث الشريف .

يقول الشيخ إن لصلته العلفية بالسيد رشيد قصة ، ويلخصها لنا في ما يلي :

أول ما ولعت بمطالمته من الكتب القصص العربية كالظواهر وعنصرة والملك سيف ، وما إليها . ثم القصص البوليسية المترجمة كأرسين لوين وغيرها ، ثم وجدت نزوعاً إلى القراءات التاريخية . وذات يوم لاحظت بين الكتب المعروضة لدى أحد الباعة جزءاً من مجلة « المنار » فاشتريته ووقعت فيه على بحث بقلم السيد رشيد يصف فيه كتاب « الإحياء » للفراي ، ويشير إلى محاسنه وماآخذه . ولأول مرة أواجه مثل هذا النقد العلمي ، فاجتذبتني ذلك إلى مطالعة الجزء كله ، ثم أمضي لأتابع موضوع الإحياء في الإحياء نفسه ، وفي الطبعة التي تحتوي على تخريج الحافظ المرادي ، ورأيتني أسمر لاستجاره لأني لا أملك عنه . ومن ثم أقبلت على قراءة الكتاب ، فاستهواني ذلك التخريج الدقيق حتى صممت على نسخه أو تلخيصه ، وهكذا جهدت حتى استقامت لي طريقة صالحة تساعد على تثبيت تلك المعلومات . وأحسب أن هذا الجهود

الذي بذلته في دراسي تلك هو الذي شجعتني وحسب إليّ "المضي في ذلك الطريق"، إذ وجدتني أستعين بشق المؤلفات اللغوية والبلاغية وغريب الحديث لتفهّم النص إلى جانب تخرجه .

وقد أطلعني الشيخ على عمله في ذلك النسخ والتلخيص ، فإذا أنا تلقاء أربعة أجزاء في ثلاثة مجلدات ، تبلغ صفحاتها ألفين واثنى عشرة في نوعين مختلفين من الخط ، أحدهما عادي ، والثاني دقيق علق به في الهوامش تفسيراً أو استدراكاً . ولعمري الحق إنه لجهود يعجز عنه أولو العزم من أهل العلم في هذه الأيام ، هاتيك بطلبة الجامعات ممن لا يملكون أي عزيمة تسعفهم بالصبر على التحقيق والمتابعة ، فكيف إذا أضيف إلى ذلك أن الشيخ لم يكن آنئذ قد تجاوز العشرين من العمر !

ولا جرم أن هذا الجهد الجبار في تأليف تلك المجلدات ، مع الاستعانة بكل وسائل التحقيق المتيسرة للفقّ أيامئذ ، كان ذا أثر كبير في تمرسه بهذا الضرب من العمل العلمي ، فهو ، وإن كان لا يستحوذ على رضاه بصورة تامة ، قد شق له الطريق إلى تقدم أعلى في هذا المضمار .

ومن خلال هذه الحياة ، وتلك النشأة ، وهاتيك الملابس ، يتراءى لي أن ثمة عوامل خفية كانت دائبة على توجيه الفتى في ذلك الطريق ، لتجعل منه في النهاية واحداً من كبار خدّمة السنة المطهرة في ديار الشام .

نعمتان وعثمان :

وحول هذه المؤشرات غير المنظورة يقول الشيخ : إن نعم الله عليّ كثيرة لا أحصي لها عدداً ، ولعل من أهمها اثنتين : هجرة والدي إلى الشام ثم تعليمه إياي مهنته في إصلاح الساعات . أما الأولى فقد يسرت لي تعلم العربية ، ولو ظللنا في ألبانيا لما توقعنا أن نتعلم منها حرفاً ، ولا سبيل إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلا عن طريق العربية . وأما الثانية فقد قبضت لي فراغاً

من الوقت أمله بطلب العلم ، وأتاحت لي فرص التردد على المكتبة الظاهرية وغيرها ساعات من كل يوم . ولو أنني لزمتم صناعة التجارة - التي حاولت التدرب عليها أولاً - لالتهمت وقتي كله وبالتالي لست بوجهي سبل العلم ، الذي لا بد لطالبه من التفرغ .

ثم يضيف الشيخ إلى ما يعتبره من التوفيقات الربانية ما تيسر له من الاتصال بالسيد سليم القصيباتي وابنه عزة ، وكان لها إحدى أكبر مكتبات دمشق ، إذ كانا يمكنانه من كل كتاب يعوزه الاطلاع عليه ، فيسمحان له باستعارته لزمين غير محدود ودون أجر .. حتى يأتيها طالب للكتاب فيبعثنا إليه فيرده إليهما ، وبذلك فسح لهذا المنهوم الذي لا يشبع من العلم أن يجد تحت تصرفه أعداداً لا حصر لها من الأسفار التي هو في أمس الحاجة إليها .

طلانح المعركة :

ويحدثنا محدث الشام عن أهم الأحداث التي عرضت له منذ اشتغاله في الدعوة إلى سبيل السلف ، فإذا هي صورة تكاد تكون مكرورة من الأحداث التي اعترضت مسيرة السابقين إلى هذا المسلك من أهل الحديث .

فهذاك المشاكسات التي يلقاها من بعض المشايخ لغير ما سبب سوى إغراقهم في التعصب المذهبي . وهو أمر طبيعي إذ لا مندوحة من التصادم بين متعارضين ، أحدهما يعتبر الدين التزاماً تاماً باجتهادات الفقهاء دون التفات إلى الدليل الذي أخذوا به ، ولا أثر للتغيرات الزمنية في مدى المطابقة بين الدليل والاجتهاد . والآخر يرى الدين هو ذلك الوحي الذي يجب أن يحكم تصرفات الناس جميعاً ، فكل مرجع سواه معرض للصواب والخطأ ، وليست المذاهب الفقهية سوى وسائل مغلصة لتعديد مقاصده ، وإيضاح ما قد يفهم منه على الكفاية .

ونأتي مؤلفات الشيخ فتفسح السبيل لعنصر آخر ينضم إلى أسباب الشحنة ، ربما لا تكون مغالين إذا شبهناه بالحسد .

والأسف أن يتطور هذا التفاعل إلى حد الخصومة التي تخرج بالخلاف إلى حد الرقبة .

وإلى القارىء بعض المعات التي تصور له مدى الخصومة بين الفريقين .

يقول الشيخ : كانت أولى هذه المشاكات أن جماعة من المشايخ ، وبينهم من كان يتوقع منه نصره السلفية ، قد نظموا عريضة يزعمون فيها أنني أقوم بدعوة وهابية تشوش على المسلمين ، وجملوا يجمعون لها توقعات الناس ، ثم رفعوها إلى مفتي الشام ، فأحالها بدوره إلى مدير الشرطة ، الذي استدعاني وناقشني في الأمر ، ثم انتهى الموضوع إلى غير شيء .

وذاث يوم سألتني صديق من زملاء الدراسة عن حديث يتعلق بثواب الصيام فأوضحت له ضعفه ، وكان هذا قد سمعه من خطيب الجمعة يستشهد به على المنبر ، فلم يبالك أن عاد إلى هذا الشيخ الخطيب ليذكر له ما عرفه من ضعف الحديث والمرجع المثبت لذلك . فما كان من هذا إلا أن وقف خطبته التالية على الهجوم على طريقة السلف ، وراح يتهم أصحابها بالوهابية ويصفها بالضلال ، ومضى يحذر الناس من مقاربتهم ، ويدعوهم للحفاظ على أبنائهم من دعايتها .

ولم يكن مجموع المستمعين إلى تلك الخطبة على سواء في قبولها أو ردها ، فحدثت بعض المرح والمزج .. والشيخ فأصر بينهم يسمع ويرى ، ولا يجد مجالاً للكلام .

وهكذا واصل الشيخ الخطيب هجومه على الدعوة وأهلها في خطب متتالية ، حتى خيفت الفتنة ، وتدخل رجال الحفية في الأمر . وأقبل أحدهم على الشيخ فأصر يحاول منعه الصلاة في ذلك المسجد ، بأسلوب ظاهره التصيعة ، وباطنه الوعيد والتهديد .

وكان عمالاً أن يقف الخلاف عند هذا الحد بعد بروزه في المرائض وعلى المنابر ، إذ راح الخصوم يمارسون كل الذرائع التي يخيل إليهم أنها مؤمنة من عزم الشيخ ، وأقل ذلك دعوة طلبة العلم إلى مشاطعته والحذر من مجالته .

ويصقب الشيخ على هذه الأحداث بقوله : « لقد كان لهذا كله آثار عكسية لما أرادوه ، إذ ضاعفت من تصميمي على العمل في خدمة الدعوة حتى يقضي الله بأمره .

في سبيل الدعوة :

ومن هذا المنطلق تبدأ مرحلة النشاط الدؤوب في عمل الشيخ ، وما أنذا أخلص أمليته عن ذلك فيما يلي :

يقول الشيخ : « لقد بدأت الاتصال بالمعارف والأصدقاء وأصدقائهم ، وجعلت من الحافوت ندوة تجتمع بها ، ثم رأينا الانتقال إلى دار أحد الأنصار ، ثم إلى واحدة أخرى أكبر ، ومن ثم استأجرنا إحدى الدور لهذه الغاية ، وجعل الحضور يتكاثرون ، حتى ليضيق بهم المكان . وبلغ النشاط مستوى عالياً في قراءة الحديث وشروحه وأسانيده . واستمر هذا دأبنا حتى أثمرت مساعي المعارضين لهذا الاتجاه فضيقت علينا ، ثم ألغيت الاجتماعات ، وانفض السامر . وما نحن أولاً حتى الآن لم نخلص من هذه المصايقات ، نجتمع حين يكون ذلك ممكناً ، وإذا حيل بيننا وبين الاجتماع انقطعنا إلى التأليف والتحقيق الذين لا نستطيع الانقطاع عنها .

ويحدثنا الشيخ عن أم ما واجهه من هذه المصايقات فيقول : « كان من آثار هذا الإقبال الطيب الذي لقبته الدعوة أن ربنا برنامجنا لزيارة بعض مناطق البلاد ما بين حلب واللاذقية إلى دمشق . وعلى الرغم من قصر الأوقات التي خصصت لكل من المدن فقد صادفت هذه الرحلات نجاحاً ملحوساً ، إذ جمعت العديد من الراغبين في علوم الحديث على ندوات شبه دورية . يقرأ فيها من كتب السنة ، وتتوارد الأسئلة ، ويثور النقاش المفيد . إلا أن هذا التجوال قد ضاعف من نعمة الآخرين ، فضاغفوا من سعائهم لدى المسؤولين ، فإذا نحن تلقاه مشكلات يتصل بعضها بمرقاب بعض . »

ويذكر فضيلته بعض الأمثلة من هذه المشكلات ، فمرة يدعوهم وكيل وزارة الداخلية لشئون الأمن ، ليبلغه طلب مفتي أدلب منع الشيخ عن دخول ذلك البلد ، وإبعاده إلى منطقة الحسكة ، ومرة أخرى يتلقى دعوة من الشرطة بوجوب مراجعة سماحة مفتي دمشق ، فلم يسعه سوى التوجه إليه ، وإذا مكتب سماحته حافل بالمشايخ ، الذين حشدوا لهذه الغاية . وأثير بعض النقاش ، إلا أنه لم يستمر طويلاً إذ لم يكن من خطة القوم استمراره ، واكتفى سماحته بأن وجه إلى الشيخ تهمة إثارة الفتنة ، مستنداً على ذلك بمحادثة قريبة ، خلاصتها أن مفتي قد دخل أحد المساجد للصلاة فلاحظ أن عدداً من رواد المسجد لم يلتحقوا بالجماعة بل ظلوا منتظرين حتى جاءهم إمام من مذهبهم ، فانظموا خلفه في جماعة ثانية . فلم يتالك الفتي أن أعرب عن استغرابه لهذه الظاهرة ، وذكر أهلها مخالفتهم للهدى النبوي في هذه التفرقة ، فما كان منهم إلا أن أهروا عليه بالضرب والركل داخل المسجد .

ومع أن الشيخ لم يكن قد سبق له معرفة بذلك الفتي ، فقد أبى المشايخ إلا أن يحملوه تهمة عمله ، لأنه ينظروهم هو المسبب لكل نشاط فقهي جديد في هذا البلد ، ولا بد أنهم يعلمون أنه لا يقر تعدد الجماعات بسبب منافاة هذا التعدد لصريح السنة وتطبيقات السلف .

وتحت التهديد اضطر الشيخ إلى توقيع تعهد بالألا يقدم على الخطابة في الناس... وكان ذلك تعهداً غير ذي موضوع بالنسبة إلى الشيخ ، لأنه غير ذي صلة بالخطابة أصلاً .

ويجثم المترجم عرضه المؤسف بهذا الخبر الفريب ، وهو أن نعمة الحصوم قد تجاوزت حدود المضايقات إلى إياحة الدم ، وذلك بما أذيع عن قضية رئيس رابطة المفاء من أنه أفتى بقتله !

وما أدري لماذا أغفل الشيخ خبر اعتقاله في القلعة التي سبقه إليها شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم .. فلعله نسيه أو ضيع ذكراه

خلال الأحداث الكثيرة التي لا يزال يواجهها في سبيل الدعوة ، أو لعله أضى عن ذكرها لأنه يعدّها من التوفيقات الربانية ، إذ أتاحت له الاتصال بمن لولا ضرورات السجن لما فكروا يوماً بلقائه ، فضلاً عن الدخول معهم في حوار عدل الكثير من أفكارهم عن الشيخ وعن السلفية .

حده لو خفت :

ومع أن السمة الأساسية في أخلاق العلماء هي الأناة وطول النفس مع المخالفين ، وفي الشيخ منها الكثير وفي الحمد ، إلا أن في طبيعته إلى ذلك لونا من الشدة قد تبلغ أحيانا حد العنف حتى مع عبئه فضلا عن مخالفيه .. وما أدري لذلك من تعليل سوى شدة (الثقة بنفسه وبما توافر له من رؤية لما يعتقد أنه الحق . ومن هنا كانت جرأته في النقد لكل اجتهاد يخالف ما ثبت لديه حتى ولو كان ذلك الاجتهاد صادراً ممن لا يكتم أثرهم وفضلهم ..

في ص ٢٣٩ من كتابه « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » يعقب على كلام للإمام السيوطي قائلاً : (والحديث أورده السيوطي في « الآلي » شاهداً للذي قبله .. ولا يصلح لذلك من وجهين . الأول : أنه موضوع لما تقدم بيانه .. وهو سكت عليه فأساء ، وليته على الأقل نقل كلام البيهقي الذي سبق في تضعيفه . الثاني : أنه مخالف للمشهور له . ثم إن الحديث يعارض حديثاً صحيحاً سبق ذكره فدل ذلك على وضعه أيضاً ، .

وفي ص ٢٤٩ يناقش قولاً لشيخ الإسلام ابن تيمية في حديث يحكم بأنه من الموضوعات على الأعمش ، فيعقب الشيخ على ذلك الاستدراك : « وجلة القول أن المشطر الأول من الحديث ينبجو من إطلاق القول بوضعه لهذه المتابعة التي خفيت على ابن تيمية وأمثاله » .

وفي ص ٣٧٤ يورد كلاماً للإمام النووي في استحباب قراءة « لإيلاف قريش »

عند السفر لأن ذلك «أمان من كل سوء» أخذاً بقول الإمام أبي الحسن القزويني،
فيستدرك الشيخ ناصر عليه بقوله : « قلت : وهذا تسييح في الدين دون أي
دليل إلا مجرد الدعوى ، فمن أين له أن ذلك أمان من كل سوء ؟ » .

وهكذا يجب على كل قول لا يجد له سنداً صحيحاً ، ولو كان المتقول عنه
من أكابر الأئمة .. وإنما يفعل ذلك انسياقاً مع منهجه العلمي الذي يرى أن كل
تعبد لا يستند إلى دليل ثابت من الكتاب والسنة لا مردود له من الخبر
ولا أثر له سوى الإسهام في تبديل الشريعة وتغييرها من حيث لا يشعر
الفاعلون له أو الفاعلون به .

وقد لاحظنا ظواهر شدته بارزة في بعض هذه الصيغ التي كان من الميسور
أن يمدل عنها إلى ألين منها ، ولكنها - كما أسلفت - الثقة بالمعلم تنسيه أصول
الجهالة ، فيطلق رأيه في أصرح التماييز . وقد وضع نصب عينيه الحق الذي
يؤثره على كل شيء حتى نفسه ، إذ لا يستنكف أن يرجع إلى حكم كان قد رده
في بعض تحقيقاته ، بعد أن عثر على الحقيقة القاطعة في بعض تنقيحاته .

ولا أتردد في القول بأن لشدته شيئاً هذه آثارها السلبية في نفوس أولئك
الذين يماثلونه الخصومة . ولعله ، لو عدل أسلوبه في حوارهم ، كان أقرب إلى
الاستجابة والسلامة . ولا غرو ، فما زالت المحملة الطيبة ، مقرونة بالابتسام
الرضية ، أنجح أسلحة الدعاة في كسر شوكة المكابرين . أقول هذا وأنا لا أقل
عن الشيخ نصيباً من تلك الحدة ، وسبعان من خلق الناس كما يشاء لما يشاء .

ولعلني لا أفارق أصل الموضوع إذا ما عرضت هنا إلى موقفي من (ممارك)
الشيخ .. تلك التي أطلقت السنة خصومه بالكثير من النقد منشوراً في المقالات
أو محروصاً في مؤلفات ، أو منطوقاً في الاجتماعات . وقد بسطنا القول في
بعض هذا الجانب أثناء الحديث عن المشكلات التي أثرت بوجهه في دمشق
وبعض المدن الشامية الأخرى .. وطبيعي أن حرصه ينهض بها ذو علم
لإحياء السنة والدعوة إليها لا بد أن تثير غضب المخالفين لها أياً ما كانوا ،

وهكذا انداحت مساحة الممارك هذه حتى تجاوزت سوربة إلى مختلف الأقطار الإسلامية .. ويستحيل على متبوع هذه الأحداث أن يكتم شعوره بإزائها ، فإما مقلد لا يرى السلامة في غير التزام المذهب ، ويعتبر كل محاولة لتحلحل خطراً يهدد الدين نفسه فهو مضطر لمقاومة أفكار الشيخ بكل ما أوتي من قدرة. وإما ذو اهتمام بالحديث النبوي ، يرى الكتاب والسنة هما الأصل وليست المذاهب سوى طرائق اجتهادية لتقرير المراد فيه . وعلى هذا ، فالالتزام بنظره مقصور على هذا الأصل دون غيره .. وعلاقته بالمذاهب لا تعدو الاستضاءة يجهد أيتها للوصول إلى صميم الحق ، فمثل هذا الفريق لا غرابة إذا انحاز إلى جانب الشيخ في مقابل أولئك الخاصيين له .

وأنا هنا أعلن دون تردد أني بجانب الشيخ ، أناصح عن دعوته للرجوع إلى الكتاب والسنة وفهمها على منهج السلف ، ثقة مني بأن في هذا المسلك (إحياء للتفكير الإسلامي الحر .. وإزالة للجمود الذي ران على عقول كثير من المسلمين وأبعدهم عن منهج الإسلام الصافي) ولكني لا أرى ضرورة لتبني أسلوبه الضيف في مجابهة المخالفين لطريقته ، التي تشبه إقدام طبيب على إجراء الجراحة الكبرى في علة يكفيها قليل من الدواء أو الدلك .

قصة أبيات :

غير واحد من الإخوان سألني عن موقفني من حملات بعضهم على أبي عبد الرحمن فأجبت :

قالوا : ألا يكلمة في الشيخ تصفه فقد طغى الجور حتى في الموازين
شنت عليه حروب لا يسوغها عقل يرى الحق في ظل البراهين

فقلت : فوق ثنائي ما يبيلفه
وردّه الجليل للوحى الجليل بد
وحسبه أنه هز المقول وقد
حدث الشام عن خير التبيين
ما إن يكابر فيها غير مفتون
باتت من الحجر والتقليد في هون

فأصبحت ذات وعي ليس ببعجزه
والدين سر من الرحمن بينه
والجامدون حيارى ليس في يدهم
لها عسى أن يقول الشعر في رجل
وأى ضمير إذا فردّ تجاهه
التمييز ما بين مفروض ومنون
رسوله ، وسواه محض تخمين
إلا رواية مجروح لموهون
يدعوه حتى عداه ناصر الدين !
وقد فشا فضله بين الملايين !

وقد قرّم بعض هؤلاء الأخوة أتي هذه الأبيات أقتحم المعركة كقاتل مستعد
لجهاية المخالفين بالعنف نفسه الذي تميز به ردود أبي عبد الرحمن . ولذلك كان
استغرابهم بالفا عندما رأوني أتألم لقسوة التعمير التي أوردتها في الكلام على
أخ لنا عزيز ، خبرناه في ساحة المحن فوجدناه أهلاً لكل تقدير وتوقير . ومهما
تبلغ أسباب الخلاف بينها فما مكان لها أن تؤدي إلى ما أدت إليه أخيراً ،
لو التزم كلاهما مبدأ الدفع بالتي هي أحسن .

وأعود الآن لأؤكد في إصرار مضمون الأبيات في تقرير فضل شيخنا على
الجليل ، وإخلاصه لدين الله - مها تقلبت الأمور - فوق الشبهات .

أمثلة ذات دلالات :

قلت إن شدة الشيخ تسير مع منهجه في إنكار كل ما لا يتفق مع الصحيح
من الأثر ، ويدخل في ذلك موقفه مع نفسه في مثل هذه الحال .

يقول في كتابه «صفة صلاة النبي ﷺ»: وهو يحاور العلامة... التويجري في بعض تعقيباته على الكتاب: «وأرى من تمام الشكر - للشيخ التويجري - أن أعترف بإصابت الحق فيها، وأني رجعت إلى رأيه في:

١ - تفسير المآثم والمغرم .

٢ - قوله في الصلاة إنها أعظم ركن من أركان الإسلام .

٣ - تفسير جملة «والشر ليس إليك» . (وقد صححت ما جاء في نقلي عن «البدائع»^(١) .

وفي الكتاب نفسه أيضاً - ص ١٧ - يقول: «تبين لي أن الحديث ضعيف» وكنت اتبعت المناوي في تصحيح الإسناد، ثم تيسر لي الوقوف عليه .

وفي مقدمته «على الطحاوية» - ص ٢٩ ط ٤ - يقول: «تبين لي أنني وهدت في توهم المؤلف» . وذكر الحديث الذي سبق أن ضعفه ثم عباد عن تضعيفه بعد مراجعة الترمذي .

وفي هذا الكتاب يقول - ص ٥٢٨ رقم ٢ - عن بعض الأحاديث التي سبق أن قدرتها صحتها: «وأقول الآن: كلا . ولا أدري كيف وقع هذا، فالسند ضعيف كما هو مبين في تخريج المشكاة» .

ثم يقول - ص ٦٠٠ رقم ٣ - : «بمذا ما كنت قلته منذ عشر سنين ثم يسر الله لي جمع كثير من طرقه، فتبين أنه - الحديث موضوع التحقيق - صحيح بجموعها» .

وهناك استدراكات عدة على نفسه من هذا الضرب، وكلها ذات دلالات تؤكد إنصاف الشيخ لكل ذي حجة وأن الحق أحب إليه من نفسه .

(١) انظر الكتاب ص ٢ ط ٦ .

حوار وتعليق :

وبين يدي ، وأنا أسطر هذه الكلمات ، مسجل حوار دهر بين الشيخ وبعض شباب الدعوة في دار الحديث بالمدينة ، أيام المؤتمر الذي دعت إليه الجامعة الإسلامية للبحث في شؤون الدعوة والدعاة ٢٤-٢٩/٢/١٣٩٧ هـ . وفي هذا المسجل بشير أحد طلابنا النبهاء الفضلاء مسألتيين يريد من الشيخ جوابه عليهما : الأولى انصراف بعض المتسبين إليه إلى بعض الشؤون الجانبية بتضخيمها واعتبارها من كبريات المشكلات بين المسلمين ، مع تجاهله أو جهله الأخطار الهائلة التي تهدد الإسلام نفسه . أمسا الثانية فوقف الشيخ من أولئك الرجال الذين تعرضوا لنقد أحد الدساتير التي يراود بها تفكيك بنية المجتمع الإسلامي وإقامته من جديد على غير أساس الإسلام ، فأخذوا بالسجن والعذاب الأليم ، وانتهت حياة بعضهم في غياب السجون .

أما جوابه على النقطة الأولى فلا يخرج عن رأيه المعروف بأن الإسلام كل لا يتجزأ ، فلا يسير فيه ولا كبير ، بل كل آدابه وعزائمه من حيث وجوب الالتزام سواء . وإنما جاءت المقدمة من الموضوع الثاني ، إذ قطع الشيخ - حفظه الله - بأن أولئك المعارضين لذلك الدستور لم يسجنوا ولم يمتنعوا في سبيل التوحيد . وكل دعوة إلى إسلامية الدستور في ظل الفساد القائم لا يعدو كونه لفظاً للزينة ، ولهذا لم يمر فضيلته الموضوع أي اهتمام ، لأنه لا يرى من الحكمة معالجة الأمور الشكلية ، بل الواجب هو العمل للأهم فالأهم ، والأهم هنا هو إصلاح عقائد المسلمين وتركيز الدعوة على أساس (التصفية) من البدع و (التريية) على التوحيد .

ولكي يؤكد الشيخ مذهبه في ذلك يقول : إن المسلمين متفقون على ضرورة إقامة الدولة الإسلامية بيد أنهم يختلفون على الطريقة التي تحقق هذه الغاية ، وعنده أن التزامهم التوحيد هو الذي يزيل أسباب الخلاف فيمضون إلى هدفهم صفاً واحداً .

ثم يأخذ في نقد الواقع الديني في سورية ، ليرينا أن تقويم اعوجاجه أم المهيات في المرحلة الراهنة . وإلا فستظل كل دعوة لإقامة الدولة الإسلامية عملاً سياسياً لا ينهض على أساس صحيح .

تلك خلاصة مبسطة لمقررات الشيخ في تلك الأمسية ، حاولنا أن نستوعب بها أهم أفكاره ، وسحاول الآن أن نعقب عليها ببعض الملاحظات التي نرجو أن تساعد على جلاء الموضوع ، الذي كثر متناوله والمدندون حوله في هذه الأيام ، ولزيادة الإيضاح نتناول أفكار شيخنا الفاضل فقرة فقرة .

١ - يريد فضيلته أن يقتصر عمل الدعاة على تصحيح العقيدة في التوحيد بردها إلى أصولها في الكتاب والسنة . لأن ذلك وحده السبيل الموصلة إلى تحقيق الدولة الإسلامية . ونحن نقسامل : الخلاف الذي شق الصدر الأول من المسلمين إلى فئتين متناحرتين في صفتين والجلل وكريلاء ... أكان صادراً عن خلاف في فهم التوحيد ومن أجل تصفيته من البدع ، أم كان خلافاً اجتهادياً حول الحكم والأصلح لمصلحة الأمة ؟

ولا ننظر جواباً على هذا التساؤل ، لأن أحداً لا يهتم علينا أو معاوية ومن معها من الرعييل الأول بالاضطراب في هذا الجانب ، وسيؤكد معنا أن الخلاف الطاحن ، الذي ذهب بعشرات الألوف من أمة محمد ﷺ أيامئذ لا يعدو حدود الرغبة في الحفاظ على نظام الحكم الإسلامي الأصيل .. الذي دعا صفوة الصحابة من قبل إلى تقديم إقامته على مواراة جثمان نبيهم الأعظم .

٢ - لقد جعل الله تبارك اسمه هجرة المسلمين إلى المدينة - في حينها - فرض عين على كل قادر منهم ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم

من شيء حتى يجبروا .. ٧٢-٨ ، فهل ثمة من تفسير لهذه العزيمة غير ضرورة التجميع لتعميق الدولة ، التي ستولى تنظيم المجتمع الجديد ، وإطلاق الطاقات الربانية لجل دعوة الله إلى عباد الله حيث كانوا .. وإلا فأبي مستقبل كان ينتظر دين الله ، لو ظل رسول الله وصحابته في مكة يتلقون سيول البلاء تحت سلطان الكفر ، الذي يأبى أن يادبهم لحظة حتى يردمهم عن دينهم إن استطاع .

والحركة الوهابية نفسها .. من كان يضمن بقاءها واستمرار عدتها إلى اليوم وحتى قيام الساعة بمشيئة الله ، لو لم يعطف عليها سبحانه قلوب الإمام محمد بن سعود وقومه ، فيحطوطها بتأييدهم ، ويبدلوا لنصرتها أنفسهم وأموالهم .. حتى تستوي على سوقها دولة للتوحيد تقدم بما حققته من الأمن والعدالة ، النموذج الصالح لإمكانات الإسلام وقدرته غير المحدودة على إسعاد الإنسانية ، وإعطائها الحلول الحاسمة لمشكلاتها المستعصية .. ولا عجب فإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

٣ - ولتغف قليلا مع قول أبي عبد الرحمن للطالب « أنه هو الذي سجن في سبيل التوحيد » . فقال أنفسنا : أحقا كان اعتقاله في كلتا المرتين من أجل التوحيد ؟

والحق أن ثمة دافعين .. أما أولهما فظاهر في أن الشيوخ الذين شكوه ، وأناروا عليه المسؤولين وأشباه العامة ، لا يختلفون معه في الحق الذي يدعو إليه ، ولا يحاولون رد أدلته على صفة مذهبه ، ولكنهم يخشون انصراف الناس عنهم ، فهم يحاربون كل دعوة إلى الإسلام المصفى حفاظا على (زعامتهم) التي ليس لها من دوام إلا بتملق أوهام العوام . ولو أرادوا وجهه الله حقا لما استعانوا بالجاهليين على أهله ، بل لسلكوا معهم سبيل الحوار الذي يؤدي لا محالة إلى غلبة الوحي على الأهواء عندما يكون الإخلاص للحق هو رائد الجميع .

أما ثاني السببين فعمائد إلى خوف أصحاب السلطان من الإسلام نفسه ،

إذ هم واثقون أن صكل كلام في الإسلام الصحيح هو شهير بحكمهم ونسفيه لأحلامهم .. وقد جربوا أن يستكشفوا سريرة الشيخ في هذا المضمار عندما سأله رأيه في النظام القائم فأعلن خصومته له بسبب مخالفته لحكم الله . فكان جوابهم على ذلك استبقاهه في المعتقل بعد أن كانوا على وشك الإفراج عنه .

لبيته يعيد النظر :

في محاضرة للفكر الإسلامي الدكتور جعفر شيخ إدريس بعنوان « في منهج العمل الإسلامي » يقول : « إن صحة العقيدة شرط في صحة الإسلام وصحة العمل الإسلامي . هذه قاعدة صحيحة . لكن ناساً من المسلمين غالوا في تفسير هذه القاعدة وأخطؤوا في تطبيقها ، ودعوا إلى هجر كل شيء حتى يفرغوا من تأسيس العقيدة . هذا موقف قليل العلم والفقهاء .. وهو كذلك موقف سلبى بقياس العمل والجهاد .. » .

ثم يبين المحاضر محاذير هذا الأسلوب قائلاً : « فن الأخطاء التي تبني على هذا الموقف أننا يجب أن نكف عن الكلام في نظمنا الإسلام السياسي والاقتصادي ، وفي إصلاح مشاكل المجتمع ، ويلزم القائلين بهذا الفهم الخاطيء أننا أيضاً يجب أن ندع الحديث في الصلاة والزكاة والصوم والحج والزواج والطلاق .. لأن كل ذلك ليس من شئون العقيدة » (١) .

ولعلي لا أعدو الواقع إذا قلت إن المحاضر لا يريد بهذا الكلام سوى بعض أنصار أبي عبد الرحمن ، الذين وقفوا جهودهم على مساعدة القدمين ، وجمع اليدين تحت الذقن في الصلاة ، ومهاجمة كل من لا يفعل ذلك بالتقدي المنقصر ، دون أن يعرجوا بكلمة على رذايا الإسلام والمسلمين في العالمين !

ولقد جاءني قبل أيام أخ لئسا من محبي الشيخ يذكر في أسف أن الشيخ

(١) مجلة « المجتمع » .

في بعض مساجد المغرب قد قصر دروسه على نقد مذهب القوم في إسبال
الدين ، دون أن يتعرض ببنت شفة لأي من التيارات الهدامة التي تملن الحرب
على الإسلام كله في المغرب ، وذلك أثناء بعثته للدعوة صيف ١٣٩٥ هـ .. كان
فصرة الدين وإحياء السنة موقوفان على رد المغاربة إلى القبض أو الوضع
بدل الإسبال !

وأخيراً .. ليت شيخنا الفاضل يمد النظر في أسلوبه ، ليكون أقوم بحاجة
الدعوة ، وأقدر على اجتذاب القلوب ، وأكثر إنصافاً لأولئك القسبة الجاهدين .

من التوحيد الخالص :

بقيت لنا كلمة حول مفهوم التوحيد بالنسبة لأسلوب الشيخ أبي عبد الرحمن ،
ولإشارات الدكتور المحاضر ، فمن العلوم بداهة أن توحيد الخالق جل وعلا
يقضي الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، على الوجه الذي أخبر به وثبت
عن رسوله ﷺ في الكتاب الحكيم والسنة المطهرة ، مع اليقين التام بوجود
الالتزام لكل ما أمراً ونهياً . ومن صفاته سبحانه أنه الحكيم والحاكم ، ومن
مقتضيات ذلك الإقرار بأنه المتفرد بحق التشريع لمصلحة عباده ، فليس لأحد
منهم أي حق في إصدار أي تشريع يخالف القواعد المحكمة في الوحيين .

هذه حقيقة لا أتصور قيام أي خلاف حولها ، وبموجبها تكون الدعوة إلى
التوحيد شاملة لكل ما يتعلق بحقوقه تبارك وتعالى . فيكونه الحاكم والحكم
وجب ربط الأفكار بتشريعه على اعتبار أنه النظام الأمثل الذي لا يقبل سواء ،
ولا استقرار إلا به ، كما يجب التركيز اليقيني على قصر كل عبادة به وحده ،
وصفه المالك لكل شيء ، وبيده وحده النفع والضرر والحياة والموت .

وينسحب هذا الحكم على سائر أنواع الأوامر والنواهي ، وما كان لمؤمن
ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم .
ومن بعض الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ٣٣/٦٣ ، .

وإذن فلا مجال لإغفال الكلام المبين عن أي من هذه الجوانب ، لأنها كلها من مقتضيات التوحيد الخالص ، ولا مسوغ البتة للفصل بينها وبين أصول العقيدة لأنها داخلة في مضمونها . فإذا حالت ظروف بعض الدعاة دون التمرس لموضوع السياسة الشرعية فلا حق لهم بالإنكار على الموضحين لهذا الجانب من الدعاة الآخرين ، إذا وجدوا في أنفسهم القدرة على تحمل المسؤولية بشأنه ، فضلا عن أن يوجهوا إليهم التجريح لمجرد كونهم لا يحرصون عليهم في نطاق ما وقفوا عنده بحكم ظروفهم الخاصة . ذلك لأن التركيز على ضرورة الحكم الإسلامي منبثق من الإيمان بتوحيد الحاكمية التي هي حق الله وحده في عباده ، كحقه في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات .

تأليف وتحقيق :

وعن الاستطلاع العاشر يجيب أبو عبد الرحمن بأن عمله في التصنيف يشمل المشرات من الكتب ما بين تأليف وتحقيق ، وما يتصل بذلك من فقه للحدِيث وتخرِيج له ، وتعيين لرتبته من الصحة والسقم . وكتنازج من جهوده في هذا المضمار نورد في ما يلي عنوانات بعض هذه الأسفار :

- ١ - سلسلة الأحاديث الصحيحة . ٢ - سلسلة الأحاديث الضعيفة .
- ٣ - صفة صلاة النبي ﷺ . ٤ - تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد .
- ٥ - حجة النبي ﷺ . ٦ - حجاب المرأة المسلمة . ٧ - نصب المجانيق في قصة الفرانيق . ٨ - منزلة السنة في الإسلام . ٩ - وجوب الأخذ بأحاديث الأحاد في العقيدة . ١٠ - فهرس المخطوطات بالمكتبة الظاهرية .

من المعد للطبع :

- ١ - الثمر المستطاب في فقه السنة والكتاب . ٢ - مختصر صحيح البخاري .
- ٣ - قاموس البدع . ٤ - حجة الوداع . ٥ - مختصر العلو للذهبي .
- ٦ - الرد على ابن حزم في حديث المازف . ٧ - الروض النضير في ترتيب مجمع الطبراني الصغير .

بعض المطبوع من تحقيقاته :

- ١ - تحقيق الجامع الصغير وزياداته - صحيح الجامع - (ستة مجلدات) .
- ٢ - ضيف الجامع الصغير (أربعة مجلدات) . ٣ - مشكاة المصابيح (ثلاثة مجلدات) .
- ٤ - شرح الطحاوية في العقيدة . ٥ - مختصر كتاب الإيمان لابن تيمية .
- ٦ - مختصر صحيح مسلم للمنذري . ٨ - كتاب العلم لأبي خيثمة .
- ٩ - اقتضاء العلم العمل للخطيب . ١٠ - رسالة في الصيام لابن تيمية .
- ١١ - المسح على الجوربين للقاسمي . ١٢ - صحيح ابن خزيمة - مع الأعظمي - (ثلاثة مجلدات) .

بعض مخطوطات «عقبا» :

- ١ - التعليقات الجياد على «زاد المعاد» . ٢ - تخریج أحاديث سنن أبي داود .
- ٣ - الترغيب والترهيب للمنذري . ٤ - المسح المبرور (لعلوشي) .
- ٥ - الأحكام لعبد الحق الإشبيلي . ٦ - السنة لابن أبي عاصم .
- ٧ - ضيف أبي داود .

أحب هذه المصنفات إليه :

ويرى الشيخ أحب هذه الأعمال العلمية إليه هو مختصره لصحيح البخاري ، ويعود ذلك إلى ما ينطوي عليه من كبار الفوائد وروائع الخصائص .

وقد تفضل الشيخ علينا ببيان مفصل عن هذه الميزات وددنا لو اتسع المجال لإثباته جميعاً ، ولكن ما نحن بصدد لا يتصل بهذا الضرب من التفصيل ، وحسبنا أن مجتزئاً من تعريف ذلك العمل بأنه جهد جليل يسهل لأهل العلم ، وبخاصة المعنيين منهم بصحيح البخاري ، الانتفاع بكنوزه المختلفة ، ذلك لأن اختصاره لم يقم على حذف شيء من كتبه ولا من أبوابه ، إلا حين يكون الباب بمثابة كلمة (فصل) خالياً من أي مضمون . ففي هذه الحال يحذفه ميقياً

على رقبه في ذهن القارئ ، إذ ينتقل من رقم ما قبله إلى رقم ما بعده دون تغيير في صورة الأرقام ، مما يساعده على استخراج الحديث المطلوب وفق الفهارس المنظمة على هذا الأساس . هذا إلى عناية دقيقة بأنواع الأحاديث من موصولة ومعلقة وموقوفة ، مع إعطاء كل منها رقماً مميزاً بالحجم واللون ، وما إلى ذلك من شروح لتفريب وإيضاح لبعض الجمل الغامضة .

ولعل أهم ما يلفت النظر في عمل الشيخ هنا هو ما يشير إليه بقوله : « قد يكون في بعض الأحاديث الموصولة جمل توم القارئ المادي أنها في الصحة كأصل الحديث ، وليست كذلك في الواقع ، لأن لها علة لا ينسب إليها إلا أهل العلم ، والمصنف نفسه لا يعني صحتها » .

ويمثل الشيخ لهذا النوع بحديث عائشة (رض) عن بدء الوحي الذي جاء فيه « أن النبي ﷺ لما فتر عنه الوحي كان يصمد إلى الجبل وهم أن يتردى منه » .

يقول أبو عبد الرحمن : « فهذا مرسل ليس من حديث عائشة .. » وهو لا يكتف فرغماته حول مثل هذا الكلام فيقول : « أعلم أنه قد يفتح عليّ نقداً جديداً .. ولكن وجوب بيان العلم وحرمة كتابه يحملاني على ألا أبالي الناس رضوا أم سخطوا » .

حلم ينتظر التحقيق ،

وهنا نعرض لى فكرة ذات صلة وتلقى بهذا النوع من الخدمة العالمية لصحيح البخاري ، كم أتمنى لو يقبض الله من ينهض لتحقيقها من أهل العلم .

لقد أحاط أئمة الحديث ذلك الصحيح بألوان من الشروح أمدت الفكر الإسلامي بروافد ثرة من المعرفة ، إلا أنها لا تزال تنتظر العزائم التي تحسن توصيلها وفق الموضوعات والأعراض ، فتجمع بين كل تحفة وأختها في تنظيم مفهرس يقرب لطالب العلم أبعاد تلك الدقائق القوانق . ولا جرم أن الصبء

من الضخامة بحيث تنوء به العصبه أولو القوة ، فعبدالو لو اجتمع لهذه المهمة
أعلام يمثون كبريات المؤسسات العلمية كالأزهر ، والجامعة الإسلامية بالمدينة ،
وجامعة القرويين بالمغرب ، وجامع البحوث في الرياض والقاهرة وغيرهما ،
إذن لحقوا عملاً عظيماً لا يطيقه إلا الصَّابِرُ الْغَيَّرُ الواقفون أعمارهم على
خدمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

إنه حلم .. ولكنه غير مستحيل التحقيق .

تصفية وتربية :

وفي الإجابة على الفقرة الثانية عشرة يلي علينا فضيلته ما يلي :
من الناحية الفكرية والعلمية أرى حالة المسلمين اليوم خيراً منها قبل ٣٠-٤٠ سنة ،
فلقد كنا قبل ربع قرن نشكو قصور المسلمين في العلوم العصرية ،
وطالما تكلم المصلحون في ذلك .. ثم جاءت نتيجة هذا التحرك بإقبال الجيل
على هذه العلوم مع الإعراض شبه التام عن الجانب الآخر ، وأعني به العلوم
الإسلامية . وفي ذلك ما فيه من الخطر على مصير هذا الجيل .

ويرى الشيخ أن هذا ينطبق على مجموع الوطن الإسلامي دون تفريق .
ثم هناك ناحية ثانية هي المستوى الخلقي الذي صار إليه الجيل الإسلامي على
اختلاف أحواله وأجناسه .. فثمة تدن في الخلق ينذر بشر مستطير ، وبخاصة
من ناحية الانغماس في حمأة المادة والتكالب على الدنيا ، مما أنذر به رسول الله ﷺ
أمتة في أحاديث كثيرة كحديث البخاري في الصحيح : « ما الفقر أخشى عليكم
ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا .. » وكقوله ﷺ : « إن لكل أمة فتنه
وإن فتنه أمتي المال » .

يقول الشيخ :

« أما علاج هذا الوضع فأعتقد أنه يتوقف على أمرين : (التصفية والتربية)
وأعني بالتصفية تنقية الإسلام من كل دنيل وشائب ، والسبيل إلى ذلك أولاً

تصفية السنة بما داخلها من موضوع وضعيف ، ثم تفسير القرآن على ضوء هذه السنة الصحيحة ، وما كان عليه السلف الصالح من تصورات ومفاهيم . وهذا الأخير لا يمكن التحقيق عنه إلا بدراسة علوم الحديث والجرح والتعديل . وأما لا أعني بذلك أن نقف بالتفسير عند الحدود التي انتهى إليها السلف ، بل علينا أن نلتزم منهج السلف في التفسير ، وفي التزامه توحيد الاتجاه ومنع للتفرقة . . وتتناول التصفية التي أريدها ما وصل إلينا من العلوم الإسلامية والأفكار الإسلامية فستبعد عنها كل ما يخالف المنهج السليم ، كذلك تتناول التصفية الفكر الإسلامي من الشوائب الدخيلة ، التي تتسلل إلى أفكار المسلمين المعاصرين عن طريق الدراسات الغربية ، وبصورة خاصة الفلسفة وعلوم التربية والفنون مما يتسح فيه الجهال لئس كثير من السعوم المفسدة للفكر الإسلامي .

ويقول الشيخ في التربية: « وأريد بالتربية تنشئة الجيل على العقيدة الإسلامية الصحيحة المستمدة من الكتاب والسنة ، وأخص بالذكر تربية الصغار على العبادة . . دون الإكثار من الكلام على فائدة العبادة من الناحية المادية كما يفعل البعض ، وإذا كان لا بد من ذكر الفوائد المادية فهي آخر ما ينبغي ذكره . ولا أنسى هنا تدريس التشريع الإسلامي ، فالذي أراه أن يكون تدريس هذه المادة على أساس التسليم التام لأمر الله والثقة بحكمته ، دون الاهتمام الكثير ببيان فوائده المادية . . وفي ذلك تزويد نفس الطالب بالمناعة من كل دس وتسمم . وأذكر في هذه المناسبة بصلح الحديبية وأهمية التسليم لحكم الله ورسوله .

نهياً بأنفسنا ،

وحول مضمون الفقرة الأخيرة من الاستطلاع يرى الشيخ أن حال المسلمين تتفاوت حسب وضعهم وأنظمتهم ، فعلى كل فئة من العلماء أن تستفيد من إمكانيات مجتمعا إلى أقصى الحدود لإرشاد الجيل وتوجيهه وضبط مسيرته ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . إلا أن الشرط الأساسي لتحقيق المجتمع الصالح

هو أن يتفق العاملون له على الأسس الصحيحة التي سبق بيانها ، مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ، ثم يعمل كل في نطاق بيئته وإمكاناته في هذه السبيل ، حتى يتاح لهم التجمع في بيئة تمكنهم من العمل الحر لإتمام هذه الغاية ، مع العلم أن أول واجبات هؤلاء تطبيق هذا المنهج في أنفسهم ومن تحت يدهم من يؤثرون فيهم ، وإلى هذا يشير الداعي الذي يقول : « أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم في أرضكم » . وقد بدأ قبل : « فاقد الشيء لا يعطيه » .

نظرة تحليلية :

والحق أن في آراء الشيخ بشأن الجيل الإسلامي لنظرات عملية لا تتجاوز إمكانات العاملين ، وتتسع لمتنوع الجهود المخلصة مما تبلغ من الضالة أو الضخامة .

وأحب أن أضيف إلى هذه الملاحظات الواعية إشارة إلى حقيقة ليست عن هذه الملاحظات بعيدة ، ولكنها تتطلب إرازاً أكبر مما اعتاد المفكرون الإسلاميون أن يعمدوا إليه عند الكلام عنها ، إنها واقعية الجيل الذي نعالج موضوعه ، ذلك الجيل الذي أسمح لنفسني بأن أطلق عليه اسم (الراض) وهي صفته المألومة في حياته كافة .

إنه يحمل هوية المسلمين ، ومنه يتألف سواد المسلمين عند الإحصاء ، ولكنه غير مستعد أن يقبل تحكيم الإسلام في أي من تصرفاته ، خارج حدود العبادات المكتوبة - هذا إذا أخذ بهذه العبادات أو بعضها - .

وإذا لا أعني بهذه الخاصة صنفاً دون صنف ، أو طبقة دون أخرى من هذا الجيل ، بل أعني الجيل كله دون استثناء إلا من رحم الله .. وقليل ما هم .

وعنما يحدوث ذلك عن الإسلام وهم يبيكون أو يكادون ، فإذا تقبعت أحوالهم لم تجد فيها من الإسلام إلا قليلاً ، ولا سبباً في بيوتهم التي يعيش فيها الشيطان ويفرخ ، وفي أبنائهم الذين لا يكادون يمتون إلى الإسلام بأي سبب .

وكتاب يروغوثك بتهاويل ما يسطرونه عن الإسلام ، فإذا نظرت إلى سلوكهم وجدتهم أبعد الناس عن تلك المعاني .

وحكام يشيدون بالإسلام في كل مناسبة لهم فيها مصلحة ، ويسهمون في كل مؤتمر يحمل اسم الإسلام ، فإذا تطلعت إلى أساليبهم في الحكم لم تكدر ترى من أثر للإسلام ، اللهم إلا جهادهم للقضاء على كل معاله في حياة شعوبهم .

أجل .. إنه الجيل الرافض لنظام الإسلام .. وكل محاولة لتصحيح سيرته لا نصيب لها من النجاح إلا أن تتطرق من صميم هذا الواقع . وقد أحسن الشيخ ، أحسن الله إليه ، حين جعل أول واجبات العاملين تطبيق ما يدعون إليه في أنفسهم ومن تحت أيديهم ، وذلك هو المنطلق السليم لكل عمل يستهدف تصحيح هذا الواقع الأليم . أما ما يتصل بتجميع الملتزمين لكامل الإسلام في بيئة تمكنهم من العمل الحر لاستكمال رسالتهم ، ففي تعقيباتنا لتصریحات فضيلته في « دار الحديث » ما ينفي عن الإعادة هنا . والله المستعان .

تذييل

لم يكد هذا الكتاب يصدر ويطلع شيخنا أبو عبد الرحمن على ترجمته فيه حتى أخذته لفحة من الغضب المهود ، فإذا هو يطلق العنان لقلبه فلا يقفه حتى ينتهي إلى ثلاث عشرة صفحة ، حملها إلي البريد فأتاح لي أن استمع بلحظات لقاء ما كان أطيها لولا هذه الحرارة التي كنت أحسها في أنفاسه .. وما كان أنفعها لو أملاها عقل الشيخ في منزل عن العاطفة ، التي جعلت الرسالة أقرب إلى العتاب العنيف منها إلى النقاش العلمي الهادي .. بل لا أظلم الرسالة إذا قلت أنها خلقت من النقاش العلمي البتة ، لشحاسني على نقاط يرى أنها شخصية خاصة . وأرى أنها ذات صلة وثيقة بإبراز ملامح المترجم على النحو الذي يساعد على تفسير العلاقة بين الذات والفكرة .. وتحققاً لرغبة الشيخ أسرع بكتابة الجواب ، الذي شاء الله أن يستغرق مثل عدد صفحات رسالته .. وتركت له أن يختار بين إنهاء الحساب وبين أن نشر- كلتا الرسلتين ليحكم أولو العلم بيني وبينه .. وقد صنع خيراً عندما أثر الصمت فلم يجب بلا أو نعم حتى الآن .

زوبعة جديدة :

وقبل تقديم الكتاب للطبعة الثانية رأينا فضيلة الشيخ بشير زوبعة جديدة في وجه الجماعة الإسلامية ، التي عرضنا لبعض مواقفها ، في حوار كنا نريد أن يكون ذريعة لإصلاح ذات البين بينهما ، وقد بلغت هذه العاصفة أشدها في حكمه على بعض أقوال الشهيد سيد قطب بالكفر الصراح ، وذلك من خلال أحاديث أرسلها على صفحات مجلة المجتمع ذات المكانة المحترمة في الإعلام الإسلامي .. فرأيت أن في ذلك الحكم التكفيري ضرباً من التسرع الذي اعتدناه من شيخنا الفاضل ، من شأنه أن يثير مشكلة جديدة ليست من

مصلحة الشيخ ولا الجماعة ، وبخاصة في هذه الأيام التي يعاني منها دعاة الإسلام من عسف السلطان ما يستدعي التعاون بين العاملين للإسلام ، بدل استحداث التهم التي لم تستوف حثيثاتها الصحيحة ، بل تدل على غفلة من أهلها لأنهم لم يدققوا الفكر الواعي في العبارات التي ينسبون إليها الكفر ، ولو صدرت مثل هذه القوارع من غير الشيخ لما وجدنا لها تعقياً أنسب من قول ذلك الشاعر المظلوم الذي يشكو عدوان قرابه عليه :

أن يظلموا ريبة طاروا بها فرحاً عني ، وما علموا من صالح دفنوا
لكنها من الشيخ كبيرة تستحق المراجعة لأن قوله ذو تأثير بعيد في جماعته
التي تكاد لا ترد له قولاً ...

تهم خطيرة :

المانخذ التي يثير الشيخ غبارها حول شهيد الإسلام سيد قطب تنحصر في بعض عباراته الواردة في تفسيره لسورتي الحديد والإخلاص من كتابه (في ظلال القرآن) فهو يريد أن يلخص كلام الشهيد فيقول : (فأحد الجالسين قرأ ...) ولكنه لا يأتيها بما قرأ بل بشرع لفوره بالتمقيب على المقروه قائلاً : (ظاهر كلامه تماماً أنه لا وجود إلا وجود الحق .. وهذا عين القائلين بوحدة الوجود ..) ثم يضيف موضحاً ما يريد بذلك التقيب قائلاً على لسان الشهيد : (كل ما نراه بمبتك فهو الله ، وهذه المخلوقات التي يسميها أهل الظاهر مخلوقات ليست شيئاً غير الله ...) ^(١) ثم يمضي في توكيد فهمه لهذا الكلام فيعرض بعض الشطحات من أقوال سفهاء المتصوفة الذين اشتبهت عليهم الحقائق ظم يفرقوا بين المخلوق والمخالق ، مدعياً أن الجامع بين كلام الشهيد وأولئك الضلال واحد هو القول بوحدة الوجود ..

وأول ما نلاحظه على حديث الشيخ حفظه الله في أعداد المجتمع هو فقدان

(١) المجتمع ص ٢٢ عدد ٤٠

التركيز الذي عرفناه في مؤلفاته وسائر نتاجه ، فيينا نرى وضوح العبارة هناك نجد أنفسنا هنا تلقاء كلام مشوش التركيب مضطرب العبارة ، يفقد بعض العناصر التي لا بد منها لإيصال الفائدة .. ومرد ذلك حتماً إلى أن الشيخ يتكلم في هذا الحديث مرتجلاً غير محتفل بترتيب ولا إيضاح ، اعتماداً منه على إحاطة سامعيه بمجو الموضوع ، فهم يفهمون مراده عن طريق اللهجة والإشارة والكلام جميعاً ، بخلاف قارئه الذين لا جامع بينهم وبين حديثه إلا الكلمات المكتوبة . فإذا قصرت عن المراد تشوشت أفكاره وساء فهمها ...

نقل لا يقره العقل :

ويلاحظ القاريء في هذه التعابير المروضة من الحديث فجوات تحول دون الوضوح المطلوب . فمن الناحية اللغوية قوله (هذا عين القائلين) وكان عليه أن يقول (هذا عين قول القائلين) أو (هذا عين القول ..) ثم ننظر في الجوانب الأخرى :

فهو أولاً لا يتقل للقاريء عبارة الشهيد التي يعتبرها موضوع المؤاخذة بل اكتفى بتقرير ما في نفسه من رأي كما أسلفنا .

ثانياً إن العبارة الوحيدة التي أوردتها على لسان الشهيد هي : (كل ما تراه بيمينك فهو الله الخ) .

وبما أن فضيلة الشيخ قد أحالنا إلى مرجعه من تفسير الشهيد لسورتي الحديد والإخلاص فعلياً أن نعود إليه مباشرة ، للوقوف على كلامه في الموضوع كما هو لا كما يفهمه بعض القراء .

وبعد مراجعة دقيقة لأقوال الشهيد في النقاط المثارة لم نجد في كلا تفسيريه للسورتين أي صورة للتركيب الذي أوردته فضيلة الشيخ ، وها نحن أولاء ثبت في ما يلي نص تلك الأقوال منقولة من مظانها في الجزأين ٧ و ٨ من الضلال .

الاصول الصحيحة :

في كلامه عن الآيات الخمس عشرة الأولى من سورة الحديد ، وأثناء استشرافه لعظمة الله وقدرته المطلقة المهيمنة ، على أساس التسليم التام لكل ما أخبر به الوحي من الكتاب والسنة ينتهي إلى القول .

١ - (وما يكاد - القلب - يفيق من تصور هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري ونفيض ، حتى نطالعه حقيقة أخرى لعلها أضخم وأقوى ، حقيقة أن لا كينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة ، فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه ، ومن ثم فهي محيطة بكل شيء ، عليم بكل شيء) ^(١١) . إلى أن يقول : (فهذا الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده ، وهذه هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود...) ^(١٢)

وعلى هذا النسق يمضي سيد (رح) في تفسير سورة الإخلاص ، ولعل هم ما يتوقف عنده القاريء في ظل الموضوع الذي يبره فضيلة الشيخ الألباني ، هو قوله في الكلام على قوله تعالى (قل هو الله أحد) :

(إنها أحدية الوجود فليس هناك حقيقة إلا حقيقته - سبحانه - وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده ، وكل موجود آخر فإتما يستمد من ذلك الوجود الحقيقي ، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية) ^(١٣) .

إلى أن يقول : (ومنى استفر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله فنصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبت عنها ، وهذه درجة يرى فيها القلب بد الله في كل شيء يراه ، ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله ، لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله) ^(١٤)

(١٢) (٣٠٢) ص ٧١٧ و ٧١٨ من الطلال - ٧ .

(١٣) (٥٠٤) الطلال ج ٨ ص ٧٠٢ و ٧٠٣ .

المنهج أولاً :

وطبيعي أن الموضوع من الدقة أشبه بالصراط ، يتطلب من العبارة ما قد تضيق به اللغة ، فأما المفكر الموفق الذي يملك الأداة الصالحة لتعمق ما وراء الكلمات فلن يفوته إدراك ما يريد سيد (رح) بكلمة (الحقيقة) و(الحقيقية) فالكيونة الحقيقية هي نفس (الوجود الحقيقي) في مفهومه ، ويعني بهما الوجود الأعلى المميز بالسرمدية التي لا يعتبرها التغير والتحول ، والتي هي المصدر الخلاق لكل حركة وسكنة في كل وجود .

ومعلوم أن لكل مفكر أو إمام أو فيلسوفٍ منهجاً في البحث لا يحسن إغفاله عند مناقشة أي فكرة له ، فرب كلمة لو أفردت عن المنهج أدت غير مراد قائلها . ومنهج الشهيد في موضوع الأسماء الحسنى والصفات العلى بارز واضح في كل ما كتبه في الإسلاميات ، وبخاصة في (ظلال القرآن) وأنت عندما تدقق النظر في هذه النصوص التي نقلناها لك من أشهر مؤلفاته تستغرب أن يوجه إليه أي شبهة بأنه بشارك الضلال في القول بوحدة الوجود ، لأن هؤلاء المخطئين يعتبرون الوجود كله واحداً هو الله ، على حين أن سيد يقف عند حدود الحق فيتحدث عن وجودين متميزين كلياً ، أحدهما الوجود المطلق الخاص بالغالتي سبحانه ، والآخر المحدث الذي لا وجود له ولا حقيقة إلا بما يناله من الوجود المطلق .. فهذا هو الأزلي الأبدي المحيظ بكل شيء ، الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء . أما الوجود الآخر فهو المحدث بعد أن لم يكن . والصائر إلى الزوال بعد أن كان .. وإلا فكيف يفسر أصحاب الاتهام قول سيد (رح) (وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي) ...

أليس هذا بياناً قاطعاً بأن لمة وجودين متميزين وحقيقتين مختلفتين : حقيقة خالق ومخلوق وموجد وموجود ؟! على أن من المفارقات في تقريرات الشيخ أنه يعزو إلى الشهيد القول بوحدة الوجود . ثم لا يلبث أن يعلن براءته

الفطرية من ذلك الضلال لتصريحه بالتفريق بين الخالق والمخلوق^(٦) .

في آفاق الروح :

ونعود الآن إلى التأمل في أعماق التعابير التي لا تقل بعداً عن المعادلات الجبرية ذوات المجاهيل تروق معالجتها للخير وتستعصي على غيره .. وذلك كقول الشهيد عقيب عرضه لمضون الآيات نفسها من سورة الحديد . وقد غرق منها في جو من اللطائف التي تذهل المؤمن حتى عن الشعور بذاته ..

(هذا المطلع الوحي المختار يتناول القلوب فيهبها هزاً ، ويأخذها أخذاً ، وهو يحول بها في الوجود كله ، فلا تجد إلا الله ، ولا ترى إلا الله ، ولا تحس^(٧) بغير الله ، ولا تعلم لها مهرباً من قسوته ، ولا مخبأ من علمه ، ولا مرجعاً إلا إليه ، ولا متوجهاً إلا لوجهه الكريم^(٨) .

وهذه التعابير لا تختلف من حيث العمق والغرابة عن ذلك المقطع الذي أسلفنا نقله من تفسير سورة الإخلاص والذي يبدأ بقوله : (ومنى استقر هذا التصور ... الخ) .

ففي كلا النصين يتحدث سيد (روح) عن الانخطاف الروحي الذي يحتوي قلب المؤمن وهو يتلقى نفحات القرآن العظيم في وصف الجلال الأعلى ، الذي يسبح بحمده كل شيء من علوي الكون وسفليه ... وهو انخطاف يحسه كل من ألقى السمع لآيات الله وهو شهيد ، ولا غرابة فالمستغرق في هذه الغمرات النورانية أشبه ما يكون بالمصعد فوق جو الأرض كلما أوغل في الانطلاق تضاءلت في حسه مربيات البيئة التي ألفها في عالم التراب ، لأن سعة الكون شغلته عن الصغائر فلم يعد يذكر إلا ما يشاهده من كبريات الروائع ...

(٦) أنظر المجمع عدد ٢٠/٢٣ من ٢٣ عمود ٣ .

(٧) ذكر الحس هنا زلة قلم .

(٨) الضلال ج ٧ من ٧١٥ .

احثلة من الواقع :

وقد روى لنا التاريخ قديمه وحديثه أنواعاً من هذه الوقائع نذكر منها قصة أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ، إذ انفرزت في قلبه حديدة فلم يقو على معاناة نزعها ، فانتظره المعالج حتى دخل في الصلاة فانتزعها دون أن يحس علي بما فعل ..

ومثل ذلك روي عن عبدالله بن الزبير إذ كان مستغرقاً بالصلاة فلم يسمع ضجة أهله وهم يبكون ولده الذي فارق الحياة ، ثم لم يعلم بموته إلا بعد خروجه منها ...

ومن ذلك الضرب ما قرأناه عن أحد التابعين ، إذ سقط سقف المسجد الذي كان يصلي فيه ، فلم يستشعر شيئاً حتى انتهى ووجد نفسه محاطاً بركامه ...

ولا حاجة إلى تعيين مراجع هذه الأخبار إذ ليست العبرة ببحصولها بل بمدلولها ، وهو مما لا يخلو مؤمن من مماناته ولو مرة واحدة في حياته ..

والمأخوذ في هذه القمراث كبيراً ما تهر في وعيه صور المشاهد ، فإذا أراد وصفها اضطربت عليه مذاهب القول ، فجاء كلامه غارقاً في الغموض أو كهذيان المحموم . وإلى بعض ذلك أشار سيد رحمه الله حين عرض بعض أقوال المتصوفة عن مثل هذه الأحوال ، إذ وصف أحدهم مرثياته فقال انه يرى الله في كل شيء في الوجود ، وقال الآخر انه رأى الله من وراء كل شيء في الوجود ، وهن غيرهما : انه رأى الله فلم ير شيئاً غيره في الوجود ...

حين تغييب صور الأشياء :

وهذه الأقوال على تعددها متفقة على وصف الحال التي يصير إليها المأخوذ بجلال المناسبة حتى ليذهل عن كل شيء عرفه من حياة هي (متاع الغرور) إذ تجلت له بإزاء ما هو فيه كما عرفها خالقها العظيم بقوله الحكيم : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لُحْبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ... ﴾

فلا غرابة والحال هذه أن تغيب صور الأشياء الأخرى عن وعي المأخوذ بهذه الجلوات فلا يذكر هناك إلا الله ، الذي بحمده وحده يسبح كل شيء وغير بعيد من ذلك ما جاء في الحديث القدسي (مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَنِ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتَهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ ...) (٩) .

على أن سيداً - رحمه الله - لا يفغل نقد المتصوفة ، حتى الذين يحسن بهم الظن ، فيأخذ عليهم انشغالهم بأحوال النفس عن واجب الحياة ، حتى أنستهم مسئولياتهم نحو المنهج الرباني الذي يحقق التوازن الحكيم بين أشواق الروح ومصالح الجسد ، فلا اعترال ولا إهمال ولا كراهية ولا هروب وإنما هي المحاولة المستمرة والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها (١٠) أجل تلك نظرة سيد (رح) إلى ناحية الوجود والحقيقة والمتصوفة ... وما أدري إذا كنا قد أحسن عرضها في الوضوح الذي يقنع شيخنا باعادة النظر في مأخذه عليه ...

نقاش الالفاظ :

والآن نعود إلى استيفاء ما نسبه فضيلة الشيخ الألباني إلى الشهيد .. ففيه من الأشكال ما يستغرب مثله كل الاستغراب عندما يصدر عن مثله ، وهو الذي تخصص بتحقيق النصوص ونقد اسانيدها حتى لا يقبل منها إلا ما صح وأتبع . لقد رأينا فضيلته ينحل الشهيد مثل هذا القول : (كل ما تراه بعينك فهو الله ، وهذه المخلوقات التي يسميها أهل الظاهر مخلوقات ليست شيئاً غير الله ..) ولعمري الله انه لإتباعهم يحمل بيته بنفسه ، فقول كهذا لا معنى له إلا أنه إقرار قاطع بمذهب وحدة الوجود ، الذي لا حظ لأهله في الإسلام . ولكن .. هل هذا القول النيث من كلام سيد ... ؟

(٩) أخرجه الترمذي .

(١٠) ص ٧٠٥ ج ٨ من الطلال .

أعد النظر قليلاً في ما نقلناه من تعابير الشهيد .. وسرى أنه يرى من هذا اللغو براءة الذئب من دم يوسف (ع) .. فسيد لم يقل قط (كل ما تراه بعينك فهو الله ..) لأن هذه العبارة تحدد الرؤية عن طريق العين ، وهو تجسيد محض لا يُعرف إلا للمجسمة من أهل الزيغ .. ولم يقل قط (كل ... فهو الله) معاذ الله بل أهم ما يمكن لمتهميه أن يستمسكوا به عليه قوله : (.. لا كينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة ، فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه .. فهذا الوجود الألهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده وهذه هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته ، وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود ... ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله فتصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر .. وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه ، ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله ..) .

أما من حيث المعاني فقد عرضنا ما فيه الكفاية عن مدلولاتها .. وبقي أن نسترعي انتباه القاريء إلى خلو هذه النصوص كلياً من ألفاظ الشيخ ، فليس ثمة عين ترى . ولا قول بأن المخلوقات ليست شيئاً غير الله .. وإذن فلا حاجة في رواية تسد اتهامه لكلام الشهيد بكونه كفراً وجودياً ...

بين العين والقلب :

ونظرة أخرى إلى ألفاظ الشهيد التي جمعناها لك معاً نريك أنه لم يرد قط بفعل (رأى وبرى ووجد) إلا عمل القلب الذي هو العلم القلبي لا الرؤية الصربية ، على حين أن رواية الشيخ تحدد الرؤية بالعين ... وهو خطأ لو جرى على لسان غير الشيخ لوجدنا له العذر ، ولعل هذا الضرب من الخطأ عائد إلى ما أشار إليه الأخ الشيخ علي الطنطاوي ، وأقر به الشيخ الألباني نفسه في أكثر من موقف ، عن عدم رسوخه في البيان العربي ..

طرفان لا تسيان :

وأخيراً .. وفي ختام هذا الحوار الأخوي ، أحب أن أقدم للقاريء نكتين
لعلهما غير بميدتين عن هذا النوع من الحوار .

١ - قبل ثلث قرن كنا مشتركين في تدقيق أوراق الامتحانات في دمشق ،
وقد أقردت لجنتنا للنظر في أجوبة الأدب العربي ، وكان النص المطلوب تحليله من
نونية شوقي في وصف دمشق . فقلت للملاء - المشيرين - ألا تتفق على المعنى
المقبول قبل توزيع العمل ؟ فأجاب رئيس اللجنة : لا خلاف على المعاني فهي
واضحة ولكل بيت درجانه المقررة ، فقلت اسمع لي أن أسألك عما يريد
شوقي في هذا المطلع :

آمنت بالله واستثبنت جنته دمشق روح وجنات وريحان
أفمؤمن شوقي بالجنة هنا أم رافض .. ؟

وانطلقت الأصوات تؤكد أن شوقي مؤمن بالله منكر للجنة ! ..

وبصعوبة كبيرة استطعت إقناع الأكثرين بصد ما ذهبوا إليه يومئذ ،
بعد أن عرضت لهم صوراً من إيمان شوقي بالجنة من خلال الأبيات نفسها ،
ومن خلال قصائده الأخرى .. فلم يبق مخالفاً لفكرتنا إلا اثنان رئيس اللجنة
رحمه الله وشريك لي في تأليف كتاب (المرشد إلى الأدب العربي) .

أليس في هذه الطرفة شبه بموقف شيخنا أبي عبد الرحمن من شهيد
الاسلام !! ..

٢ - أما النكتة الأخرى فلشيخنا الألباني بها صلة ... ذلك أي كنت في
زيارة للمكتب الإسلامي في حازمية بيروت - فرج الله كربها - وكان ثمة
حديث عن كتاب لأحد كبار الساسة المسلمين وردت فيه عبارة استعمالها
المؤلف ، وفيها يسند الإيحاء إلى بعض الأشياء كما تقول : أوحى إلي هذا
الأمر بكذا .. فسألوني : أليس هذا كقرأ ؟ .. قلت لا أرى ذلك فالإيحاء

هنا ليس بمعنى التزليل بل بمعنى التذكير والتنبيه ، ومن ذلك قول الله تبارك
 اسمه في القرآن العظيم : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ۖ إِلَىٰ النَّحْلِ ۖ ﴾ ١٦٦/٦٨ وقوله عن
 الكافرين ﴿ يُوْحَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ ۗ غُرُورًا ۗ ﴾ ١١٢/٦ وقوله
 ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ۖ ﴾ ٢١١/٦ وأصر الشيخ يومئذ على أنها عبارة
 كفرية ، ولم أزل أصر على تبرئها من الكفر .. وقلت يومها للشيخ : من مقولات
 علماء الإسلام أن دليلاً واحداً على إسلام امرئ أقوى من تسعة وتسعين دليلاً على
 كفره .. فكان جوابه بل قد يكون دليل الكفر أغلب من التسعة والتسعين ..
 والظاهر أن شيخنا - حفظه الله - يحاكم الشهيد سيد قطب بذلك
 القانون الذي يرجح المأخذ الواحد - ولو مظنوناً - على عشرات
 المسوغات اليقينية ..

وإن الظن لا يفني من الحق شيئاً ..

الولاء محمود شيت خطاب

إنه المفكر الإسلامي المعروف محمود شيت خطاب ، وشيت هو أبوه ، ويضبط اسمه بالثاء جريباً على مألوف أهل الموصل ، الذين يميلون إلى هذا الاسم !
يقال من أن شيت بن آدم عليه السلام مدفون في أرضهم .

مولده وأسرته :

ولد في الموصل عام تسعة عشر وتسعمئة وألف للميلاد من أميرة قوارثت العمل في التجارة وتربية المواشي ، وكان جده الخطاب من موسري الموصل ، وبدافع من حبه للدين والتزامه شعائره ، كان يتمنى أن يكون في ذريته من يتفرغ لعلومه ، وهكذا وجه ابنه ، والد المترجم ، إلى هذا المسلك ، فدرس على بعض شيوخ الموصل ، وبسّمى منهم الشيخ محمد الرضواني ، وعبد الله النعمة ، والشيخ مصطفى بيك آل قره مصطفى الذي بدأ حياته العلمية على يده ، واستمر كذلك حتى تخرج على هؤلاء الأعلام ، فحقق أمنية والده الذي كان يسره أن يؤمه ولده في الصلاة .

وشاء الله للمترجم أن ينشأ في حضنة جدته لأبيه ، إذ زاحه على أمه أخوه

الأصغر الذي وافاها بعد سنة من ولادته ، فتولت تلك الجدة أمره مكان والدته واستمر ملازماً لها حتى وافاها الأجل .

ويحدث عن هذه الجدة وأثرها في طباعه ، فيصفها بالعقل والفضل . ولا غرابة في ذلك إذ هي من أسرة السيد محمد المعروفة بصحة نسبتها إلى البيت الحسيني ، ولا تزال الكثرة من هذا المحدث الشريف في مختلف أنحاء العالم الإسلامي يغلب عليها الالتزام بروح الدين ، وتتوارث هذا المسلك جيلاً عن جيل ، ومن هنا كان لهذه الأسرة أثرها العميق في تكوينه النفسي .

يقول المترجم عن جدته : كانت تصحبنى إلى المسجد القريب لصلاة المغرب ، فإذا قضيت الصلاة أصغيت معها من مقصورة النساء إلى مواضع الملك داوود ، ذي الأسلوب المؤثر ، حتى تنهض لصلاة العشاء .. ومن ثم تنصرف لتناول الطعام ، وربما طلبت عشاءها فلا تجد ، فلا تزيد على أن تبسم وهي تقول : لا بأس .. حصتي في الجنة إن شاء الله . فإذا أويئنا إلى النوم أخذت يذكر الله والاستغفار ، ثم لا تدعني حتى تتحقق من نومي ، فتتمسك لصلاة القيسام . ولطالما استيقظت على نسيجها أثناء ذلك ، فإذا ما شعرت بي عادت لتحنو علي . واستمر هذا دأبها حتى توفاهما الله وأنا في السادسة عشرة ، فكان لوفاتها وقع لا يمحي .

ببئته :

ويصف البيئة الاجتماعية المحيطة بذلك البيت فيقول : كانت تتناز بالتعاون الودي والتعاطف الأخوي ، فالكل متشارك كون في السراء والضراء ، ملازمون للصلاة ، ملتزمون بالخلق الإسلامي ، إذا افتقد المرض أحدهم زحفوا لعيادته ، فإذا كان المريض من ذوي الحاجة دسوا له في السر ما يقوم بأرده حتى يسترد عافيته .

مدارس ومساجد :

بدأ السيد المترجم دراسته في الكُتُاب، منطلق المعرفة الأول، الذي شرع في التواري منذ شددت السلطات الرسمية سيطرتها على مراقب التعليم في البلاد الإسلامية ، فتلقى بواكير دراسته في القرآن والحط ، حتى إذا أصبح مؤهلاً للمدرسة الابتدائية انتقل إليها فألحق بالسنة الثانية ، ومن ثم واصل دراسته هناك حتى انتهى إلى السنة السادسة . ويضم المترجم إلى بيئة المدرسة هذه مجلس الحمي الذي سحان حتى عهد قريب أحد مصادر التكوين الفكري في البلاد الإسلامية ، وهو أشبه بناد ليبي يقو من كل محلة في قاعة خاصة من دار أحد الأعيان، حيث يتوافد الرجال لفضاء السهرة في جو من المودة الحالصة . فها هنا نحل المشكلات ، وتقص الأخبار ، وتقرأ بعض الكتب النافعة في الفقه أو الحديث أو التاريخ أو الفصص .

يقول السيد المترجم : لقد كنت ألزم مجلس والذي هذا ، مع إني لم أكن قد تجاوزت الصف السادس الابتدائي بعد، فقد وقع اختيار والذي عليّ لقراءة التاريخ على الحضور ، الذين كان معظمهم من أهل العلم المتقنين للعربية ، وكان ذلك بمثابة امتحان يومي بالنسبة إليّ ، لأن هؤلاء لا يرضون أن يفضوا الطرف عن أقل غلطة يثر بها لساني ، فكنت مضطراً للعناية بقواعد اللغة ، وضبط الألفاظ كيلا أتمرض للوم والذي ، الذي كان يسره أن أكون في ذلك الامتحان من الناجحين .

ومن الابتدائية ينتقل إلى المتوسطة فالثانوية ، ولكنه لا يقف عند حدود مقرراتها، كدأب أمثاله من أبناء البيوت المعنية بالعلم، فيظل على صلة بمجتمعات الشيوخ حتى إذا وافت العطلة الصيفية لم يتخذ منها عطية للهو المضيق، كما يفعل تلامذة اليوم ، بل يعتبرها ، أو تعتبر له ، فرصة لضرب جديد من الجد في التمهيل عن طريق المساجد . ويقف هنا على ذكر واحد من الشيوخ الذين يحتفظ لهم بأطيب الأثر ، هو الشيخ قاسم الجليلي ، الذي يقول إنه كانت فذاً

في علم النحو ، ومن ميزاته في هذا الجانب كتابه « المستدرک علی سببہ »
الذي لا يزال مخطوطاً .

وبقص علينا إحدى ذكرياته مع هذا الشيخ فيقول : وافانا رمضان في
إحدى هذه الممطل ، فكنت أحضر على الشيخ في ما بعد العصر من كل يوم ،
حتى إذا قارب موعد الإفطار مضينا في الطريق إلى داره ونحن نواصل المذاكرة ،
وربما انطلق مدفع الإفطار ونحن غارقان في هذا الجو .

ومن هنا ، ومن قراءته التاريخ في مجلس الحمي ، تبلور اتجاهه إلى اللغة
والتاريخ . ولا ينسى أن يبرز أثر والده في هذا الجانب ، لما كان يحده من
تشجيعه عليه ، وقد أقر الله به عينيه ، فشهد أولى بواكيره في التأليف وذلك
في كتابه الموسوم بـ « الرسول القائد » الذي صدر عام ١٩٥٨م بعد أن قرأ له
العديد من مقالاته في المجلة العسكرية من قبل .

دراساته العسكرية :

كان يتطلع إلى دراسة الحقوق إثر حصوله على الثانوية ، بيد أن الله شاء له
غير ذلك ، فقد أعلنت وزارة الدفاع عن الحاجة إلى دفعة كبيرة للكلية
العسكرية ، فقدم طلبه مع العديد من رفاقه ، وسافر معهم إلى بغداد ،
وغرضه الأول من تلك الرحلة هو التفرج ومشاهدة معالم العاصمة التي لم يكن
قد زارها بعد ، وما كان تقديمه الطلب إلى الكلية سوى وسيلة لتلك الزيارة ،
ولكن قدر الله أن تخرج قائمة المقبولين وعلى رأسها اسمه ، فلم يسمه سوى
الالتحاق بالكلية . إلا أنه ظل قلقاً يود التخلص من ذلك الجو فلا يجد سبيلاً
إليه ، لأن قادة الكلية وأساتيذها حببوا إليه البقاء ، وما زالوا به حتى رضي
بالواقع . ثم ما لبث أن ألفت تلك الحياة ذات النظام الصارم ، وجعلت نفسه
تستريح إليها باطراد ، على أنه لم يستطع الانقطاع عن هواياته الأخرى من اللغة
والأدب والتاريخ وبخاصة الثقافة الإسلامية .

ويقف هنا قليلاً ليؤكد على أثر مكتبة آله في عقله وثقافته ، فيصنفا بأنها من المعمرات ، إذ مضى على إنشائها سبعة قرون ، وهي لا تنفك وتداد اتساعاً بما ينضم إليها من جديد الأسفار . ويقدر عدد محتوياتها بخمسة وعشرين ألف كتاب ، بينها ديوان مخطوط من شعر أبي تمام ، يتضمن اثني عشرة قصيدة لم يسبق أن نشرت من قبل . ومن أجل ذلك تعتبر هذه المكتبة هي الأصل في الدار .. وكل شيء بعدها فعلى الهامش .

في سلاح الفرسان :

ويتخرج المترجم برتبة ملازم ثاذا لينضم إلى سلاح الفرسان .

ويتحدث عن واقع الحياة في اميش العراقي آنئذ . فيرينا المعجب المعجب من آثار التوجيه الاستعماري ، ! كان كل شيء هناك يسير بالضابط في طريق التميع والانهلال ، فلا يجد عاصماً إلا أن يكون مزوداً بالحصانة الفادرة على الثبات في وجه الأعاصير .

• سألته أمر السرية الذي عين في كتيبتة : أتشرب ؟ .. أنتلعب القهار ؟ .. أحب النساء ؟ .. ولما سمع نفيه الصارم لكل ذلك قال متبرماً : إن ضمك إلى نكبة عليّ .

وقد عرفه سيادته أمثلة واقية من هذا الواقع في كتابه «بين العقيدة والقيادة» لا يرى حاجة إلى إعادتها هنا . ولكن إشارته العابرة هذه تائبى إلا أن تحرك سواكن الذكريات لبعض ما نعرفه من الوقائع المائلة في أكثر من جيش عربي .

أثناء اختبار المقابلة في إحدى الثكنات العربية كان بين الأسئلة الموجهة إلى الطلاب ما يلي بالحرف : « لو دخلت على أمك أو أختك أو زوجك فوجدت رئيساً لك يضاجعها .. فماذا تعمل ؟ .. أي الرجلين بتطرك أعظم .. محمد أو جمال عبد الناصر ؟ »

ويين يدي الساعة العدد ٣٤٢ من مجلة « المجتمع » وفي صفحاته ٤٠ - ٤٢ صورة من المرافعة التي ألقاها أحد المتهمين في قضية الكلية الفنية المرفوعة في بلاد عزيز آخر ، وفيها يقول : « بعد التعاقب بالكلية رأيت ... الفسق والفجور موضعاً للندح والمباهاة ، ورأيت العفة والطهارة توضع في قفص الاتهام ... رأيت مخلوقات قد نفلوا موجة السخرية والاستهزاء بمنتهى الوقاحة إلى الخالق تعالى .. حتى بلغت بهم أن يتغنوا بالأشعار والزجل لعناً في مالك الملك .. وأخذت هذه الطائفة تزيد يوماً بعد يوم حتى أصبح هذا الوضع الحقيير يمثل طابع الحياة من حولنا ... » .

في الدراسات العليا :

ويتابع سيادة المترجم سيده في استكمال دراسته العسكرية ، فيقضي سنتين في كلية الأركان ، يتخرج بعدها ضابط ركن ، ثم يبعث إلى كلية الدراسات العليا في لندن .

ويتحفنا الصديق الفاضل من أخباره في لندن بالطرفة التالية :

يقول : من المألوف أن يتولى مساعد الكلية تقديم الضباط القادمين من وراء البحار إلى عبيدها عقيب وصولهم . وكان هذا العميد يومئذ أحد أبطال الصبور إلى النورماندي أثناء الحرب العالمية الثانية ، فجعل يسأل كلا من هؤلاء الوافدين عن حاله وبلده وما إلى ذلك . وجاء دوري فسألني : لماذا قدمت ؟ .. قلت : لتجديد معلوماتي العسكرية ، ولتلقى أي جديد من العلم . فمقب على كلامي متهكماً : بل قدمت لتعلم مفاصلة الفتيات .

وكلمت غيظي ، وقلت في نفسي : إن هذا لا يلقي كلامه جزافاً ، وإنما يحكم عليّ بما شاهده في سواي .. ولما ذهبت إلى السكن المخصص لي وجدت غرفةً اشأً وفنأة تصل في ترتيب غرفة نومي ، فانتظرت في البهو دون أن أعبرها

اهتماماً، حتى إذا خرجت سألتني: هل لديك من توجيهات؟ قلت: شيء واحد... هو أن تحضري لأداء مهنتك عندما لا أكون حاضراً .

وأقبل المكلف بإعداد الطعام ، يسألنا عن الألوان التي نريد ، فمددت له المهرملت التي أرغضها، والألوان التي أرغب فيها . وكان معي ضابط من إحدى الدول العربية فقال : الأفضل أنت تندمج معهم فتأكل طعامهم على اختلاف أنواعه . فقلت له: لك أن تفعل ذلك.. أما أنا فلن أخير من حياتي بحمامة لأحد. والمعيب أن هذا(المتدمج) قد انتهى إلى الرسوب في حين ظفرت بالدرجة الأولى بين مئة ضابط من أشتات الجنسيات وطه الحمد .

ويتم سيادته حديثه عن هذه المرحلة قائلاً : كان المفرائش يلح عليّ بزيارة منزله كشأن سائر الضباط في التردد على مساكن فراشيم فأرد دعوته بلطف، لأنني كنت موقناً أنه وسائر الخدم المخصصين لنا ليسوا أكثر من جواسيس وموجهين ...

وذاث يوم 'طرق بابي ففتحته لأرى وجه عميد الكلية يحييني ، وفي أدب بالغ يعرض عليّ مرافقته وزوجه في تزهة بين الآثار .. وهناك بإدربي بالاعتقاد عما أسمعيه في لغائنا الأول ، ويؤكد لي المصيق من احترامه وتقديره .

ولست هي المرة الأولى التي أواجه فيها مثل هذا الموقف من أجناب محترمون كل من يحترم نفسه وهويته .

ولعل أكثر ما يهنا نحن من هذه الحكاية ما تحمله من إشارات عميقة الدلالة إلى تلك المغاسل الدماغية التي تهبأ في ظلماتها معظم الألقام الناسفة لمقومات الأمن والاستقرار في أوطان المسلمين .

عوامل موجبة :

ما تقدم أمكننا الوقوف على اتجاهاته الفكرية إذ علمنا أن العربية والتاريخ هما موضع اهتمامه الأول ، وقد افترنا ممأ منذ تلك القراءات التي كان يكلف بها

في مجلس والده ولما يتجاوز نهاية المرحلة الابتدائية ، حيث كان يحاسب على كل لحظة فيدفعه ذلك إلى مزيد من الاهتمام بشئون اللغة ، وتواجهه من أخبار التاريخ الذي يقرؤه أحداث تهز مشاعره وتحرك تفكيره ، فتتنامي رغبته في متابعتها ، حتى أصبحت إحدى هواياته المفضلة . وطبيعي أن يكون للقرآن العظيم أثره الفعال في نفسه ، إذ كان أول ما تحرك به لسانه مطالع حياته التعليمية في ظلال الكتاب . ولا حاجة إلى التذكير بالرباط الوثيق الذي يجمع بين هذه المصادر الثلاثة في قلب الإنسان المسلم . أليست العربية هي المدخل إلى القرآن ؟ .. والتاريخ مطلقاً .. أليس هو أحد مصادر العبر في دراسة الحياة الإنسانية من خلال هذا الكتاب الحكيم ؟ .. ولا جرم أن من باشر التفاعل مع هذا الجو لا مندوحة له عن تتبع أحداث التاريخ الإسلامي ، الذي في مجاريه تتدفق الدوافع الجياشة التي انطلقت من منابع الوعي لتغير معالم الحياة البشرية جميعاً .

ولا نفس هاتيك المثرات التي أحاطت به في كنف تلك الجدة التقية منذ فتح عينيه على الحياة ، إذ ألغى نفسه مضموراً بإيحاءاتها الروحانية ، وتوجيهاتها التعبدية والحلقية حتى سن المراهقة .

وأرى من المناسب أن أضم إلى هذه العوامل قصة حبه الأول ، فهي غير بعيدة عن هذا المجال من حياته ومؤثراته .

كان في الخامسة عشرة من سنه ، وفي الثالثة من دراسته المتوسطة ، أيام مضى في بعثة للمعارف العراقية لأداء فريضة الحج . ويصف تلك الرحلة المباركة بأنها سعيدة ، لا تكاد ذكرياتها تفارق مخيلته ، إذ أتاحت له أن يشاهد عن كعب مواطن الوعي ، ومعالم الحياة التي طأنا استهوت أخبارها من خلال السيرة النبوية . ولما عاد إلى بلده نعم بحظه من تلك الاحتفالات المؤثرة التي تدخر في العادة لاستقبال العائدين من الحج . ومن ذلك اليوم أضيف إلى اسمه لقب الحاج ، الذي يفرغ على صاحبه التقدير والمهابة .

وطبيعي أن وضعا كهذا لا مندوحة له أن يترك طابعه في العمق من أفكاره ومشاعره ، فمن حقه إذن أن يحسب بين العوامل الأخرى التي تمازجت كلها في كيانه .

في صهب العاصفة :

لا يسع مؤلفاً يترجم مثل هذه الشخصية العسكرية أن يفضل الجو العام الذي عاصره سواء في بلده العراق أو ما حوله من أقطار العرب ، أو ما أحاط بها من أرجاء العالم الإسلامي .. وما وراءه من أوضاع عامة تتناول العصر بأجمعه . وحبنا أن نشير من ذلك إلى أبرز الأحداث التي رافقت نشأته في العراق والأجزاء التي كانت أكثر اشتراكاً في تلك الأحداث من الوطن العربي .

فهناك الاحتلال الذي شمل سائر أقطار العرب والمسلمين خارج نطاق نجد والحجاز .. ومع الاستعمار اليهودي الذي خطط له عبر القرون وقبل عشرات السنين في بازل ، وقد أقبل لتحقيق أبعاده بقوة الحراب البريطانية ، ومن ورائها الثكنة اليهودية الأم أميركة . وفي هذا الجو الرهيب من التنكيل والتذليل تفجرت الثورات الإسلامية لتواجه الحديد والنار بكل وسائل المقاومة التي ورتها من عزة الإسلام .. فقاتلون بتريصون للعدو في الجبال وزوايا الشوارع والحقول من أقصى البلاد إلى أدها ، حتى إذا تحطم السلاح المحدود تحت دفق السلاح غير المحدود ، تحولت النقمة إلى ألوان من التحدي الجبار بالإضرابات المتلاحقة ، والتظاهرات المتتامة ، تجابه الرصاص والقذائف بالصدور العارية فتساقط الضحايا كأوراق الشجر عصفت بها زواجع الخريف .

ومن خلف هذه الضروب الدامية من التضال تتسلل الأيدي الخفية إلى معاقل التراث الروحي والفكري في الظلام ، فتعمل فيه تخريبياً وتحويراً ، لتقضي على بذور الجهاد الإسلامي في النشء القادم ، حتى إذا نفذت مقومات الكفاح بانتهاه بقايا الجيل المقاوم ، لم يبق أمام المستعمر ما يخشاه على سلطانه

من الوافد الجديد ، الذي لا بد أن ينسى صلته بمنابع العزة فيخضع للواقع ،
ويزداد كل يوم إعجاباً بحضارة هذا الغادر المحتل ، حتى يصبح بمحض اختياره
ذنباً قابلاً لهواه يجره أنه شاء ، وفي كل اتجاه .. حتى إذا انتهى دور الاحتلال
المسكري في بلاد العرب ، وتوارى جنوده وطواغيتهم عن أعين الناس ، جاء
دور خلفائه الذين أعدم هذه الخلفية ، فراحوا يتمنون ما بدأه من تدمير لبقايا
حصون الإسلام بألوان من العدوان لم تعرف لها شعوب المنطقة مثيلاً على أبدي
أساندهم الأولين .

ذلك هو الجو الذي عاش المترجم أحداثه منذ تفتح وعيه .. وقد توافر له
من ميراثه الروحي الذي سبقت الإشارة إليه ما عصمه من الانزلاق في الهاوي
التي دُفع إليها الأكثرون من أبناء جيله ، فكان واحداً من الفئة التي تماسكت
أمام العاصفة ، وحملت راقب خلفيات الوقائع لتبين طريقها القويم من خلال
ركام الضباب .

أحداث شارك فيها :

وفي إجابته على الاستطلاع الثامن لم يبمد بنا عن ذلك الجو ، فهو يتحدثنا
عن طائفة من الأحداث التي شارك فيها وشاركت هي في بنائه الذاتي .

فأول هذه الأحداث ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١م الذي انتهز
فرصة انشغال العدو بالحرب العالمية الثانية فعشد القوات لتطهير العراق من
أوزار الإنجليز . ومرعان ما هزت هذه الحركة الضائرت ، وأبقت ما غفا من
المزائم ، فجددت الآمال بالخلاص الذي طالما بذلت الجهود وسقطت الضحايا
لتحقيقه ، فصالت دونه الحوائل .

ويخوض المترجم معظم المعارك التي تلاقى فيها الجيش العراقي بقوات المحتل .
وكان أثناءه ضابط ركن في لواء الحياطة المرابط في (أبو غرير) على بعد ٥٠ كلم
من القفوجة (الأنبار) التي شبت في ساحاتها أهول المعارك . ومع القطعات

الزاحفة إلى هناك ، مضى للقيام بواجبه في لقاء العدو ، ولكن طائرات الباغين كانت تسيطر على فضاء الملحة ، فكان نصيب اللواء منها قنبلة توزعت شظاياها في كل موضع من جسمه ، على صورة آياست الأطباء من إمكان بقائه على قيد الحياة ، إلا أن الأجل غلب العلم ، فكتب الله له الشفاء لكي يتم مهمته المقدورة في خدمة دينه وأمه .

ويقع ثاني هذه الأحداث أيام العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ م ، وكان اللواء آمر كتيبة في الموصل ، وقد ملأت التظاهرات الشعبية أنحاء العراق ، احتجاجاً على المعتدين وأنصارهم . وزحفت الجماهير الغاضبة على مؤسسات تلك الدول تحطم كل ما تصل إليه أيديها . وبلغت الحماسة أوجها في الموصل ، وسقط العديد من القتلى بالتصادم بين الشرطة والمتظاهرين .. وهناك جساءه الأمر من العاصمة بتزول الجيش للسيطرة على الموقف ، ثم تالت الأوامر بوجوب الصرب معها تكن النتائج بعد أن بلغت التظاهرات يومها الحادي عشر .

يقول اللواء : كان من غير المسير عليّ تفريق الجموع دون ما حاجة إلى إطلاق أي رصاصة ، إلا أنني لم أكن مفتنماً بهذا العمل ، بل كنت موقناً أن هذا التظاهر أقل ما يجب على العراق لنصرة الشيعة مصر . ولهذا تجاهلت أحد عشر أمراً بالرمي ، وأصررت على هذا التجاهل ، فكانت عقوبتي هي نقلني من بلدي إلى جنوب القطر .

وطبيعي أن يكون له نصيبه من أحداث العهد الأحمر ، الذي سطر عبد الكريم قاسم وفاضل عباس المهداوي ، على مقدرات العراق فيها بعد .

كان المترجم ، بحكم كونه رئيس هيئة أركان حرب ، مسؤولاً عن أمن الجنوب كله ما بين بغداد والبصرة ، فكان ذلك بمثابة حماية أتاحها الله لذلك الجانب من العراق ، فلم يجد القنلة الأحمر منفذاً إليه ، على الرغم من كل المحاولات التي بذلها ، بعد أن فرضوا على سائر الأقسام جداً من الرعب لم يعرف له التاريخ نظيراً ،

اللهم إلا أيام مزدك في فارس ، والقرامطة في المراتق والحجاز ، والثورة البلشفية في روسيا ، ثم الثورة الثقافية في صين ماوتسي تونغ .

يقول الصديق الفاضل : لقد وضعت أجهزة الدولة كلها تحت تصرف الشيوعيين ، فلم يحل بينهم وبين ما يشتهون ، فهم يقتحمون الدور ، ويجردون الرجال إلى القتل خنقاً أو سحلاً في الشوارع العامة ، ويستخدمون لذلك سيارات الجيش وما شاؤوا من أسلحتهم وأدواته ، ولما حاولوا أن يفعلوا ذلك في منطقة عملي واجهتهم بالرفض الصارم ، وحجزتهم عن كل عدوان .

ويقول المترجم بهذه المناسبة : لم يكن عبد الكرم قاصم شيوغياً ، ولكن كان مضطراً للاستعانة بهم ، وبخاصة في تلك الأثناء التي اندلعت فيها ثورة الشواف بالموصل ، فأطلق أيديهم يعملون ما يشاؤون دون حسيب ولا رقيب .. ولم يكن يوسعهم الصبر على موقفهم منهم فاتصلوا به يستمدونه علي ، فيمت إلى المنطقة بضابط يصلح لتحقيق رغباتهم ، وما لبثوا أن تجمعوا حوله لينخطب فيهم داعياً إياهم إلى سحل كل ضابط ومدني يقف في طريقهم أو لا يؤيد ثورتهم ، فكان علي " أن أتدارك ما أمكن من الخطر ، فدخلت على هذا الضابط أحذره منبهة تصرفه .. فلم يكن منه إلا أن اتصل بمبد الكرم قاصم طالباً إليه التدخل لإقصائي عن طريقهم . وهكذا تم لهم ما يشاؤون ، وكانت ذلك في الهزيع الأخير من إحدى ليالي رمضان ، حيث وافقتي ثلة من جنودهم فاعتقلوني ، ثم حملتني في حراسة مشددة إلى السجن المخصص لأعداء الثورة في بغداد .. واستمر وجودي هناك مدى ثمانية عشر شهراً مشحونة بالوان من التعذيب الذي يُعجز الوصف .

رأيه في حركة الشواف :

وعلى ذكره لحركة الشواف رأينا أن نستطلع معلوماته عنها بعد أن كثرت فيها الأقاويل ، ما بين متهم ومبرر ، ومسوغ .. فكان من جوابه على ذلك

أن حركة الشواف مبرأة من كل دافع حزبي، لأن المخططين لها كانوا من العناصر العربية في الجيش العراقي، وقد هالهم ما رأوه من زيف المتسلطين وانحراقهم في تيار الهرمين الحاقدين، فاتفقوا على تصحيح الأوضاع، وحددوا لذلك ساعة البدء، بحيث تنطلق الحركة في كل مكان وفي آن واحد لتنفيذ المخطط المتفق عليه.. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ علم الشواف أن عدداً من ضباط الحركة في الموصل قد تقرر اعتقالتهم، فلم يحددوا بدأ من التعجل في العمل، وهكذا سبقوا الموعد بأربع وعشرين ساعة، وفوجئوا إخوانهم بالأمر، فلم يتمكنوا من القيام بأي تدبير. وبذلك قضى على الخطوة، ووقعت الواقعة التي ذهبت بخيرة عناصر الجيش بين سبعين ومسرح وقتيل.

العمل الأشق :

وعن عمله في التدريس يذكر من مجالاته فيها، الكليات العسكرية، وكليات الأركان، والجامعات الأخرى في العراق وغيره.. ثم معهد الدراسات العربية العليا التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة.

ويقول عن التدريس إنه في تقديره أشق حتى من العمل العسكري لمن يستشر حقه ويريد أن يؤديه على الوجه الأكمل، ويمثل لذلك بأن نصابه الأسبوعي في المؤسسات التي درس فيها لم يتجاوز الساعتين، ومع ذلك كان تحضيراً لموضوع يستهلك من وقته أكثر من ثلاثين ساعة.

أما علاقته بطلابه فيحمد الله على أنها قائمة على المودة والتعاون، فلا يذكر أي سبب حاد به عن هذا الطريق قط، ولا يعرف بين طلابه الكثيرين واحداً لا يبادلته التقدير والحب.

ومن ذكريات هذه المرحلة يمرض للعادت التالي :

يقول : ذات يوم كنت ألقى محاضرة في القاهرة عن نكبة الـ ١٩٦٧ م وأعدد أثناءها بعض مواطني الخطأ العسكري، فاعترضني واحد من الاتحاد

الاشتراكي يقول : إنها نكسة .. نكسة فقط .. وقد أصابت النكسة رسول الله نفسه في أسد .

فكان من ردي على هذا الرجل : إنها ليست نكسة .. بل هزيمة ، لا .. بل فضيحة لا مثيل لها في تاريخ الحروب . إن ما تسميه نكسة في أحد لم تكن من أخطاء القيادة ، بل من أخطاء الجنود ، ومع ذلك فقد قاد رسول الله ﷺ المسلمين لمطاردة المشركين في اليوم التالي حتى حراء الأسد .. فهل طاردت القيادة الحاضرة إسرائيل منذ ذلك اليوم ؟

وأعقب ذلك الرد ضجة بين الحضور سرعان ما أخرست ذلك المتزلف .

على أن في ذلك النقد الصريح لأخطاء القيادة ما يشد الذهن إلى موقف آخر اللواء لا يحسن أن تخلو منه هذه الترجمة ، وبخاصة أنه يتصل بصمم المعركة التي يعالج نتائجها بهذا النقد .

ففي كتابه « الأيام الحاسمة » يتحدث عن تقييمات سبق أن وجهها إلى قادة دول المواجهة قبل الهجمة الشرسة ، التي أطاحت بسمعتهم وبكرامة شعوبهم عام ١٩٦٢ م .

لقد بلغت به الدقة في رصد التطورات التي كانت تتمخص بها المنطقة آنذاك ، إلى حد أن يؤكد عزم إسرائيل على التحرك لإنزال ضربتها في اليوم نفسه الذي قورته وهو الخامس من حزيران . ونشر ذلك في جريدة « العرب » البغدادية يوم الأول من الشهر نفسه .. ولكن صيغته ذهبت مع الريح ، لأن الغرور والجهل قد أصميا آذان المسؤولين أثناءها فلم يسموا سوى صوت الشيطان الذي سبق أن غرر بأسلافهم يوم بدر ، حتى إذا نزلت بهم الكارثة ولى هارباً وهو يقول : « إني ما لا ترون ... » .

وقد تقدر لهذا الألمي خبرته حتى قدرها ذلك المؤلف الإسرائيلي الذي عرض لإنذار اللواء محمود بشأن تلك الحرب ، فقال عنه في كتابه

« الحرب بين العرب وإسرائيل » إنه أحسن هدية استراتيجية في العرب ،
ولكنه كالتالي في الصحراء .. لا يجد من يستفيد منه .

في التأليف :

ويذكر أن له من التأليف أربعة وتسمى كتاباً ، يقسمها أربعة أصناف :

- أ - كتب عسكرية فنية تدرس في الكليات الحربية وكليات الأركان .
- ب - التاريخ العسكري الإسلامي .
- ج - العسكرية السياسية .
- د - اللغة العسكرية .

ويعتبر كتابه « الرسول القائد » أحب مؤلفاته إليه ، ويقول إنه أول
كتاب له ، وقد ظل قرابة العشرين من السنين يمدده ويستمد له قبل أن
يقدمه إلى النشر ، وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية وأكثر من لغة
إسلامية .

وهو على الرغم من كثرة توافقه لا يعد نفسه كاتباً محترفاً بل هاوياً فقط ،
والذي أفهمه من هذا الوصف أنه لا يكتب ما يريده الناس ، بل ما يشعر
بالحافز الذاتي إلى كتابته .

ونظرة واعية متأنة إلى موضوعات هذه الكتب ، وإلى علاقتها بمصالح
الفكر الإسلامي ، وحاجة الجيل المعاصر إلى تدارسها .. تؤكد أن الهوية
التي يشير إليها لا تعدو كونها تعبير المسلم الملتزم عن رغبته في التوجه إلى
التي هي أقوم .

ويلخص دوافعه إلى التأليف في الجانب التاريخي قائلاً : في الكلية الحربية
لاحظت أن الأمثلة التي تعرض من تاريخ الحرب كلها أجنبية .. والأغرب من
ذلك أن يكون معظمها عن القادة الذين فتحوا للاستعمار بلاد العرب والمسلمين .
ولا حصية لذلك سوى تمييز الأنهار بهم في نفس الضابط ، وغرس الإيمان

بتفوق أعداء أمته عليها في كل شيء .. وهناك كنت أنساها : لم لا نستمد هذه الأمثلة من تاريخنا وهو بها أغنى وأحفل ؟ ثم أدركت أن وراء ذلك أمرين : الجهل بماضي هذه الأمة ورجالها . والثاني التوجه المخطط من قبل المستعمرين لسحق منويات المسلمين .. ومن هنا جاءت رغبتي في إحياء هذه المنسيات والكشف عن تلك المؤامرات ، فعزمت أمري على العمل بكل ما أمكنتني لسد هذا الفراغ في مكتبتنا العسكرية .

وعن بواعث لإخراج كتب المعروفة عن « طبقات القادة » يقول : عندما كنت في سجن بغداد سألت العديد من الضباط عن القادة الذين فتحوا بلادهم ، فلم أسمع جواباً سديداً ، بل لم أسمع جواباً قط ، ومن هنا وجدتني مدفوعاً إلى تيسير هذه المعلومات الأساسية بالكتب المناسبة .

ومنذ العام ١٩٦٧م توقف - عن الكتابة في هذا الجانب من التاريخ ، لينصرف إلى الجوانب الأخرى التي كشفت نكبة ذلك العام عن ميس الحاجة إليها في صفوف العسكريين ، وبخاصة أنه يعتبر جهل العرب بالعدو الذي حاربوه كان السبب الأكبر في هزيمتهم أمامه . وهكذا أكب منذئذ على الكتابة في الدراسات العسكرية ، فكان من ذلك « الوجيز في العسكرية الإسرائيلية » و « العسكرية الإسرائيلية » و « حقيقة إسرائيل » و « دراسات في الوحدة العسكرية » و « أهداف إسرائيل التوسعية في البلاد العربية » و « طريق النصر في معركة الثار » و « الأيام الحاسمة قبل معركة المصير وبمدها » وما إليها .

وتقوده دراساته وخبراته العملية والتنظيرية في المجال العسكري إلى وجوب العناية بتوحيد المصطلحات العسكرية في الجيوش العربية ، فدعا إلى تكوين لجنة عامة من ذوي التخصص ، تتفرع لوضع معجم عسكري موحد - بالكسر - واستجيب لدعوته فتألفت اللجنة ، واختير ممثلاً للجمع القومي المصري فيها ورئيساً لها ، وعن هذه اللجنة صدر المعجم العسكري الموحد في أربعة أجزاء ،

المجليزي عربي وبالعكس ، وفرنسي عربي وبالعكس . وكان لهذا الصنيع مردود عال ، إذ قدم للجيش العربي واحداً من أهم الوثائق المهمة لوحدتها . هذا فضلاً عما في هذه الأعمال من دلالات على اهتمام المترجم بخدمة اللغة التي درج على حبها منذ نعومة أظفاره . وحسبنا أن نشير من ذلك بوجه خاص إلى ذلك الجهد الكبير الذي اقتضاه تتبع كلمات القرآن الكريم لاستخراج ما يتصل منها بالمصطلحات العسكرية . وفي هذا ألف الجزأين من كتابه « المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم » ، وكذلك عني باستخراج ما انطوى عليه كتاب ابن رسيده « المختصر » من هذه الأصول التي لا يستغني عنها من يمه صيانة العربية من غزو اللغات الأجنبية .

مستقبل الجيل :

ونصل من الاستطلاع إلى الفقرة الثانية عشرة ، لنستمع إلى رأيه في مستقبل الجيل الذي يسهم في خدمته مع إخوانه رجال الفكر والدعوة ، فيأتيها جوابه مكثفاً في هذه الكلمات .

يقول سيادته : إن قوى هائلة تعمل على تحطيم هذا الجيل ، وتفتيت قدراته ، وكانت من قبل مقصورة على العدو الخارجي ، أما اليوم فقد وجدت لها مرتكزات لا تحصى في الداخل . وهو لا يفرق بإزاء هذه القوى ما بين قطر وآخر من ديار المسلمين ، بل يعتبر المهنة متشابهة فيها جميعاً .

ويقول : إن أفكاره حول هذا الموضوع مبثوثة في العديد من مقالاته ومصنفاته ، ويخص بالذكر منها كتابه « بين العقيدة والقيادة » ، و « الإسلام والنصر » ، وفي كل من العنوانين صورة بليغة التعبير عن وجهة نظره في هذه الناحية ، وتركيز دقيق على ارتباط مستقبل هذا الجيل صموداً أو هبوطاً بمدى التزامه هداية الإسلام ، أو إعراضه عنها .

مهمة العلماء :

ويمثل ذلك الإيجاز البليغ بصوغ سياحته الجواب على أخرى فقرات الاستطلاع ، وهو يحدد مهمة العلماء ومدى إمكانياتهم في ضبط مسيرة الجيل ، والعمل على تحقيق المجتمع الإسلامي المتكامل .

يقول فضيلته : لكي يتمكن العالم الإسلامي من النهوض بكل هذا العبء لا مندوحة له عن شروط ثلاثة : سعة الأفق العلمي التي تمكن من فهم عصره وما يعتمده من مشكلات ، وما تتطلبه من الحلول في ضوء الإسلام .. ثم الإخلاص لله بحيث لا يخاف في الحق لومة لائم ، والثالثة الحفاظ على كرامة العلم ، فلا يمتنها بالحاجة لغير الله .

ففي رأيه أن عالماً يستكمل هذه العناصر لا بد أن يكون موضع التقدير والأسوة للشباب الذين يتمنر عليهم أن يستلموا لغير الحقائق .

ويؤكد على هذا الرأي قائلاً : إن المسلمين اليوم في حاجة ماسة إلى قسادة كخالد والمثنى و... إلا أن حاجتهم إلى العلماء العاملين أمس وأشد .

هناك أزمة ثقة بين الشيوخ والشباب ، ومرد هذه الأزمة إلى فقدان عنصر القدوة الصالحة في معظم الذين يمدون في الشيوخ ، ويظنون أن كل ما عليهم هو أن يحسنوا عرض الموعدة الطمعية ، ولد كان سلوكهم الشخصي أبعد ما يكون مما يدعون إليه .

مخات من شعره :

وحق الآن كانت الصورة البارزة لفرجيم أنه الرجل العسكري المثقف ، الذي وقف قلبه على هذا الجانب من تخصصه في كل ما كتب وألف وحاضر ، وهو الجاه لا يلتظر معه أي زوج نحو الشعر ، وما يحفز إليه من هتافات الخيال

وقهوجات العواطف. ولكن سيادة الأخ العزيز قد أبى إلا أن يحدد -ولو إلى حد-
 ذكرى الشعراء الفرسان الذين جمعوا بين صناعة الموت ورقة الأفتدة .
 لنستمع إليه يرسل هذه الزفرات في رثاء جدته :

أجهدتِ نفسك فاستريحي قليلاً	قد كان عبئك في الحياة ثقيلاً
نزلت عليك مصائب الدنيا ولو	نزلت على جبلٍ لخرَّ مهيباً
وجد القنوط إلى الرجال سبيلاً	وإليك لم يجد القنوط سبيلاً
ولرب فرد في سمو فَمآله	وعلوه 'خلفاً' يعادل جيلاً

إنها أبيات على قلتها تعكس ثقافة أديب متمكن كملت له الأداة ، فهو
 يتذوق سر الحرف ، ويحسن تأليف النظم المؤثر.. وتستجيب له القافية في عفوية
 لا تتوافر إلا للشعراء المتمرسين .

وفي فلسطين تسترد قواته مدينة جنين من قبضة العدو بعد تركيزه فيها ،
 فكان لذلك أروء المشكور في نفوس أهلها ، الذين قابلوا هذه المنة بالمودة
 البالغة . وما كان موعد انصراف هذه القوات - إلى العراق - إثر وقف القتال
 المفروض شيعت جنين متقدماً بكل مظاهر الاعتراف بالجميل .

وفي أحد تلك الاحتفالات ، وقد 'قصد' لإقامته في المقبرة التي ضمت
 شهداء تلك القوات ، وقف اللواء الرهكن ليرد على تحية الأخوة بهذه
 التفات اللاذعة :

هذي قبور الخالدين وقد قضوا	شهداء حق ينقذوا الأوطاناً
المخلصون تسربلوا بقبورهم	والخائنون تنموا البنياناً
لا تمذلوا جيش العراق وأهله	بلواكم ليست سوى بلواناً
أجنين يا بلد الكرام تجلدي	ما ضاع حق ضرجه دماناً

غزو اليهود وصارلوا المدونات	إني لأشهد أن أهلك قارموا
هبطته أعباء الجهاد فلانا	فإذا نكبتِ فلست أول صارم
أيصير ملكاً لليهود مهانا!	مرج ابن عامر خضبته دماؤنا
لا يرتضي للمسلمين هوانا	إني لأعلم أن دين محمد
ليس الخلود لمن يعيش جباناً	وهو الخلود لمن يموت مجاهداً

ومع أنها نظمت في وقت لا يتسع للتنقيح - كما يقول - فقد حفلت بصور مكثفة للواقع الرهيب الذي أحاط بقضية فلسطين ، ثم انتهى إلى انسحاب الجيش السبعة ، لتدع العدو مطلق اليدين في الأرض الحبيبة يتصرف بها وبقايا أحفاد الفاتحين فيها كما يشاء .

شهادات غير مكتوبة :

ويعد فهذه خطوط عجيلى حارلنا بها الدلالة على شخصية لم يعد في أوساط المثقفين من العرب والمسلمين من يجهل مكاتنها وآثارها . وقد بقي علينا أن نختم هذه الخطوط بإشارة أخرى إلى المراكز الرسمية التي شغلها ولا يزال يشغل بعضها حتى اليوم .

أول هذه المراكز رتبته العسكرية التي أصبحت لقبه الذي لا يفارقه عند كل تعريف ، وهو أنه لواء ركن باستحقاق أكثر من عشرين سنة في الجيش العراقي ، وميزات عملية لم يقترب منها كثيرون ممن أعطوا أنفسهم أو أعطوا مثل هذه الألقاب .

ثم تأتي مراكزه العلمية :

قهر عضو الجمع العلمي العراقي .

وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

ورئيس لجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيش العربية في جامعة الدول العربية .

وقد اختير عضواً مؤسساً في مجلس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، ثم عضواً في المجلس الأعلى العالمي للمساجد التابعة للرابطة .

وأخيراً لا ننسى أنه شغل المناصب الوزارية سبع مرات .

وليس هذا وذاك سوى شهادات غير مكتوبة تؤكد إجماع الأوساط المختلفة من عسكرية وعلمية ودولية وإسلامية على أن هذا الرجل موضع التقدير والإعجاب والثقة من الجميع ، وعلى سائر المستويات .

الشيخ محمد وجد الوهاب فايد

كان مولده يوم ١١/٣٠/١٩٢١م - كما تشهد بذلك وثيقة الميلاد - في قرية « دمينكة » من محافظة كفر الشيخ ، وهي قرية معروفة بهذا الاسم في « معجم ياقوت » و « مرصد الاطلاع » وأمرته بميزة بطلب العلم ونشره ، فوالده من الشيوخ المعروفين بالعلم والصلاح ، وجدته الشيخ مبروك كان حجة في العلوم الدينية ، وقد خلف - كما يقول المترجم - مكتبة بخطه تضم صحيح البخاري وتعليقات عليه ، ومنها الشرح الصغير ، والشرح الكبير في فقه المالكية ، ومنها تفسير الجلالين ، وشرح ألفية السيوطي في النحو .. وغيرها . وأخوه الأكبر الشيخ محمد فايد مأذون القرية ، ويصفه الشيخ محمود بأنه معروف بتدينه وورعه واستمساكه بالسنة في كل أمر . وأخوه الذي يليه هو الدكتور عبد الوهاب ، مدرس في كلية أصول الدين بالجامع الأزهر ، وله أخ آخر باسم محمد ، وهو أيضاً مدرس بوزارة التربية ، وكان حتى آخر العام الماضي ١٩٦٥/٩٥ معارفاً إلى المملكة السعودية ، ثم ابن عمه الشيخ محمد عبد الغني كان واعظاً بالأزهر ومن علمائه المعروفين بالصلاح ، وابن عمه الآخر عبدالله عبد الغني فايد متخرج في دار العلوم ومدرس في الثانويات .

وطبيعي أن أسرة تضم كل هذا النفر من أهل العلم والفضل لا بد أن تترك أثرها عميقاً في حياة المترجم .

وقد شاء الله أن يرزأ الشيخ بوالدته وهو في الرابعة من سنه ، فكان له ذلك الوالد بمثابة الأم والأب جميعاً . ولما نضجت فيه قابلية التعلم وجهه إلى القراءة والكتابة والحساب إلى جانب حفظ القرآن العظيم ، حتى إذا أتم حفظه ذلك ألحقه بمعهد دسوق الديني التابع للأزهر ، وكان ذلك عام ١٩٣٣م وفي هذا المعهد استكمل دراسته الابتدائية حتى نال شهادتها خلال أربع سنوات ، وهي المدة المقررة لهذا المعهد .

ويلاحظ أن هذه الابتدائية غير الابتدائية التي نعرفها اليوم ، والتي تمتد ست سنوات حتى يتأهل الطالب للالتحاق بالسنة الإعدادية الأولى ، ذلك أن هذه السنوات الأربع قد سبقتها دراسة أخرى جادة زودته بمعلومات وافية إلى جانب استظهار القرآن الكريم ، الذي هو المرتكز الأساسي للثقافة الإسلامية ، التي ورثها الأزهر وغيره من المعاهد الإسلامية ، واستمرت عليها طوال القرون ، حتى امتدت إلى تلك المناهج أيدي العابثين ، والمهرجين من مدعي التجديد ، فمسخت الدراسة الابتدائية في ديار المسلمين جميعاً ، حتى أصبحت ضرباً من مكافحة الأمية ، ليس وراءها رصيد من علم ولا ثقافة ولا من يجزئون . ولانس عمق المقررات التي كان الطالب يدرسها في ذلك النظام الابتدائي الأزهري ، وبخاصة في العربية والثقافة الإسلامية ، مما لا يتوافر مثله لرحلة الثانوية في هذه الأيام .

ويحدثنا الشيخ عن بعض مشكلاته أثناء تلك الدراسة ، فيشير إلى ثورة قام بها طلاب المعهد للطالبة بإصلاح الأزهر ، والظاهر أنه كان مسؤولاً عن بعض النشاط المميز في هذه الحركة ، فتقرر فصله ، ثم لم يلبث أن أعيد بعد أن نجحت تلك الحركة في تحقيق أهدافها كما يقول ، وبحصوله على الشهادة الابتدائية هذه التحق بمعهد طنطا الثانوي ، وكانت مدة الدراسة فيه آنذاك خمس سنوات .

يقول الشيخ : أثناء دراستي في السنة الثانية في هذا المعهد تناهى إلى مسامح الطلاب أن كتاباً يدرس في كلية الآداب بقرار من عييدها يتضمن مساماً برسول الله صلوات الله وسلامه عليه . فتار الطلبة معلنين استنكارهم ، وأضربوا عن الحضور ذلك اليوم . فبادر الشيخ إبراهيم الجبالي شيخ المعهد بفصل نقر منهم ، وكان لذلك الفصل أثره في نفوس الطلبة ، وفي نفسه خاصة ، فإذا هو يشير حمية زملائه لنصرة المفصولين قبلتي منظومة يحرضهم بها على التحرك لاستعادتهم ، ولا بأس أن تثبت هنا بعض هذه الأبيات لتبين مدى استعداد هذا الفقى للعمل الخطائي أو (الثوري) على حد تعبيره :

أرى بالإنس إخواناً كراماً	لهم في الحق السنة تنادي
رأوا أن العميد أتى بسفر	به ما لا يليق بذى الرشاد
فقاموا يملنون أشد سخط	ويبدون العداء لمن يعادي
فهل في مثل ذلك يليق فصل	وهل إخوانكم مثل القناد!

ثم ختمها بقوله :

فجدوا واطلبوا بطريق سلم	رجوعهم وإلا باشتداد
-------------------------	---------------------

وكانت العقوبة هذه المرة أكبر من مجرد الفصل ، إذ جمعت بين الفصل والحبس ، فقد استعان شيخ المعهد برجال الأمن فاحتجزوه .. وشد مساقط هذا السجن على الفقى ، فإذا هو يتململ ويترجم آلامه بأبيات أخرى وجهها إلى المراقب بالمعهد يستشفعه للإفراج عنه ، وفيها يقول للشيخ المراقب :

ماذا أقول وقد بلاني الفاسي	أقول فاس أنت أم متناسي!
هلا ذهبت إلى المدير موضعاً	له أمرنا حتى يخفف ياسي
أبليق بالعلم الشريف ورببه	أن ينجلي متحجر الإحساس

أحسبتم أني فعلت صغيرة
فلبوتقوني بالمعقوبة والأذى
ونشرت مجهولاً أمام الناس
من غير تبصرة ولا قسطاس
وإبنوا لبيت العدل خمساً أساس

وهكذا يستمرسلفق السجين في عتاب يشد إلى حد التفريرع لشيع المعهد والمثولين معه ، وقد نسي أن الذين يوجه إليهم هذا الخطاب يستطيحون إذا شاوروا أن يضموا مضمونه إلى مأخذة الأخرى ، فيكون سبباً إلى إطالة مكثه في القسم ، وحائلاً دون النظر في الصصح عنه وإعادته إلى الدراسة .. ولكن الففق مطبوع على الصراحة ، فهو يشكو لأنه متألم ، وهو يؤنب لظنه أنه مظلوم يخاطب ظالميه . وسرى أنها الخصائص التي لا تزيده حتى بعد أن أوغل في المقدم السادس من عمره المبارك .

ثم إن في استخدامه المنظوم لمثل تلك المناسبات ملامح نفسية تؤكد أنه فوفاعلية تبتغي تحقيق ذاتها عن طريق التأثير في الآخرين . ولا أرااني مبالفاً إذا قلت إنها كذلك إحدى الصفات التي يحسها بداعاة كل مخالط له حتى الآن إنه سريع الاستجابة لسواعي الكلام ، يدفعه إلى ذلك ثقة صغيرة بأفكاره وبمواهبه ، وهي ميزة تكاد تلابس معظم خريجي كليات الدعوة وأصول الدين من الأزهرين ، وإن تفاوتوا في حجم الموهبة وألوان الثقافة العامة .

أما طابع الإثارة في أفكاره فواضح من خلال صيغ التعريض ، التي يحاول توكيدها بما يشبه البراهين المنطقية ، فهو يعرض التهم ثم يرد عليها ، ويحيطها أكتساء ذلك بظلال من الفقرات الانشائية لتكون أكثر تحريكاً للشاعر . ولا بأس أن يبلغ من التعريض حد الدعوة إلى ألوان للشدة إذا لم تنجح المحاولات اللسوية ، كما يفعل بخاتمة الدالية ، حيث يبدو لك مفعماً بشعور القائد الذي يخاطب جنوده ، لا الطالب الذي يلتبس من نظرائه ما يريد . وهي نفسها

الظاهرة التي تربك إياه ، من خلال محاضراته ومقالاته ، وهو على أتم الثقة بأنه واحد من قادة الفكر ، الذين يقدمون لقراهم ومستمعيهم ما هم بحاجة إليه من التوجيه إلى أقوم سبيل .

الشيخ العنيد :

ولعل في الخبر الطريف الذي نقله في ما يلي عن مجلة « التحرير » ما يساعد على استكمال الصورة التي نحاول إيضاحها للمترجم من خلال آثاره .

بعد عشر سنوات من تخرج الشيخ في كلية أصول الدين وفي العدد ١٨٥ من عام ١٩٥٦م تقول المجلة عن الشيخ محمود فايد : « إنه مناكف قديم .. كان الأول عند تخرجه في الأزهر ، وكان المتبع أن يدعى الأوائل من التاسعين في كل سنة إلى حفلة يحضرها الملك السابق ، ويصافح فيها المتخرجين ، وأعطيت الأوامر إلى الجميع بأن ينحنوا عند مصافحته . ولكن هذا الشيخ العنيد أبى أن ينحني ، وصافح مولانا وهو منتصب القامة رافع الرأس .. وبسبب ذلك صدر الأمر بتعيينه في سوهاج بخلاف ما جرى عليه العرف من تعيين الأولين في القاهرة » .

أجل إنه الشيخ العنيد .. الذي طالما جرد عليه عناده وصراحته الأهوال وهو ثابت على ما يؤمن أنه الحق ، لا يحني لباغ رأساً ، ولا يفض عن ظالم طرفاً ، ومن أجل ذلك كان نصيبه من البلاء في عهد أصحاب (التحرير) أضاف ما لقبه في ظل الملك المغربي .

ولا يحسن بنا ، وقد أطلنا الرقوف مع بواكيره الشعرية ، أن نغفل الإشارة إلى أسلوبه التمييزي في هذه المنظومات وما تتطوي عليه من الدلالات . فأول ما نلاحظه هنا أنها محاولات مبتدئة لما تستقيم له الأداة .. ولكنها مع ذلك تنبئ عن طموح ذكي يتطلع إلى مستوى مرموق ، ولا يستحيل معه تحقيق المأمول . وما أمري إذا كان فضيلته سيتحفنا في النهاية بتأذج من شعره الذي يبلغ مرحلة ملموسة من النضج في ما بعد .

شخصيات مؤثرة :

ولم يخصص الشيخ استطلاعنا الخامس بإجابة مستقلة ، بل أورد الكلام عن الرجال الذين أفروا في توجيهه مدرجاً في غيره من الحديث . وطبيعي أن يكون والده في مقدمة هؤلاء المسهمين في تكوينه الفكري . وكيف لا يكون له هذا الأثر وهو على المستوى الذي يصفه المترجم من الفضل . . لقد رأيناه يحتضن ابنه بخنان الأم والأب جميعاً ، فيعوضه ما سلبه الموت من رحمة الأم . ولنستمع إلى المترجم الآن يتحدثنا عن بعض هذا الفضل .

يقول الشيخ : إنه كتب إلى والده يستشيريه في ما يعتزمه من نقد لتصرفات شيخ الأزهر يومذاك ، بعد أن جرت (السياسة الثورية) إلى مواقف لا يرضى عنها الإسلام الذي يمثل أكبر معاقله ، وهو يتوقع إذا نشر ما يريد في هذا السدد أن يعاجل بالنقل إلى قنا ، فجاءه جواب الوالد غير بطيء ، لا يشبطه ولا يشجعه ، ولكن يردده إلى قلبه ليستفتيه في ما هو مقدم عليه ، دون أن يفكر في ما وراء ذلك من أذى بعضه النفى . يقول الوالد : « أنا لا يعني أن تنقل إلى قنا أو تبقى هنا - في القاهرة - إنما يعني فقط أن تلزم جانب الحق في كل ما تقول . . » وكان ذلك الوالد يستوحى هنا عبارة ذات النطاقين وهي تذكر ابنها الصحابي الجليل بالتحصيات التي يستوجبها الحق .

و كأننا ألقى الابن في حكمة والده إشارة بلزوم الإقدام ، فإذا هو يرسل قبلته التي كانت إيذاناً بمرحلة ستنتسح حتى تهز الأزهر كله - كما سنرى - ووقع المخذور الذي توقع فنقل إلى قنا ، ثم أحيل إلى مجلس التأديب بعد أن قطع راتبه . وقدم الوالد القاهرة لزيارة ولده أثناء ذلك ، وفي أحد المساجد يلتقي بصديق له يعطف على قضية الشيخ محمود ، فطلب هذا من الوالد أن يدعو للشيخ بالنصر على خصومه ، فلم يزد أن قال : اسمع يا حاج علي . إن كان محمود على الحق ، وهذا ما أعتقد ، فينصره الله ، وإن كان على باطل فلا أحب إلي من أن يلقي التأديب الذي يستحق .

وتطول صحبة الشيخ لهذا الوالد الصالح فيعمق أثره في كيانه ، ويزداد حبا تولده هذا على مر الأيام ، حتى ليسمه يدعو له عقيب كل صلاة ، وقد وفق إلى مرافقته في الحج ، فلم ينس الدعاء له أيضاً في طوافه وسعيه وفي كل موقف من المشاعر المقدسة .

ويروي صديقنا عن ذلك الوالد أنه قال له وهو يداعبه ذات يوم : « أتعرف يا محمود لماذا نقلت إلى قنا ؟ .. يا محمود .. إنك تدرس التفسير .. ولقد قالوا في تفسير سورة يوسف إنه قال : « ربّ السجن أحب إليّ » ، فدخل السجن ثم أنعم الله عليه ، ولو أنك أملت غير ذلك من فضل الله لحققه الله لك » .

يقول الشيخ : كان لهذا الدرس عميق الأثر في نفسي ، ولقد انتفعت به يوم أودعت السجن الحربي عام ١٩٦٤م فصليت ودعوت الله ألا يبقيني فيه أكثر من ذلك اليوم ، وجاء فرج الله ففادرت السجن بعد ليلة واحدة فقط .

ويذكر الشيخ من العلماء الذين يعتبرهم من المؤثرين في نفسه شيخ معهد دسوق الشيخ محمود الغمراوي ، والشيخ إبراهيم الجبالي شيخ معهد طنطا ، وذلك على الرغم مما لقيه على يدهما . لقد فصله الشيخ الغمراوي في المرحلة الابتدائية ، وفصله الشيخ الجبالي في القسم الثانوي ، ومع ذلك لم ينقم منها لأنها - كما يقول - كانا بغيرانه بالحب والتقدير ، وكان يعجبه قبحها مكانتها العلمية والهيبة التي كانت لها بين الناس وفي أوساط المثقفين .

ويعد من الشخصيات ذات الأثر البعيد في نفسه كذلك الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ، ثم الشيخ حسن الهضيبي المرشد الثاني للإخوان ، ثم الأستاذ سيد قطب . ولكنه لا يوضح مدى صلته بهم ، وكنا نود لو يتبسّط في هذا الجانب من حياته .

ولقد حدثنا الصديق العزيز ، حفظه الله ، بخبر حادثة جرت له مع الشهيد سيد قطب والشيخ محمد الأردن ، رحمها الله ، إذ كان بين ثلاثهم لقاء يتعلق

بشئون الدعوة ، سرعان ما انتهى إلى اعتقالهم ، فبقي الأثنان رهن الاعتقال .
وخرج هو ، كما ذكر آنفاً ، وأرجو أن تتاح لي الفرصة لصياغة ذلك الحادث
في قصة قصيرة ذات يوم .

علومه المفضلة :

وفي إيحاز واف يحب على مؤاننا عن أحب العلوم إليه فيقول : « أحب
العلوم إلى تفسير كتاب الله ، ودراسة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا بدع
فعل الكتاب والسنة يقوم الدين الصحيح البريء من الشوائب ، وبها تتحقق
السعادة التامة في الدنيا والآخرة » .

ويشار الشيخ لعلوم الكتاب والسنة لا يعني انفصامه عن العلوم الأخرى ،
فقد تولى أتماء حياته التدريبية تعلم المواد المختلفة ذات الصلة بهذه العلوم ،
وبخاصة علوم اللغة والبلاغة والتوحيد والمنطق .

وطبيعي ذلك لأن من أبرز خصائص الشيخ أنه رجل دعوة يتصل بمختلف
الجمهير عن طريق الخطابة والكتابة والموعظة ، وهي شئون تستدعي التضلع
بكثير من العلوم .

معركة لا تنسى :

وهنا يجد الشيخ مجال الحديث متمسكاً فيتحفنا بما لذي وطاب عن الأحداث
التي عاصرها ولا يسها . وقد ركز بوجه خاص على معركته مع الشيخ عبدالرحمن تاج
شيخ الأزهر السابق ، وأحسن في ذلك ، لأنه يتيح لنا من خلال هذه المعركة
أن ندرس الكثير من الأوضاع التي رافقت عهد الإرهاب والكميت ، فكان في
هذه المعركة متنفس لغير واحد من هؤلاء الذين فرض عليهم الصمت بإزاء
الأهوال التي كانت تنيخ على صدور الناس .

كان عنوان المقال الذي افتتحت به المعركة قذيفة ذات رؤوس متعددة .

إنه « باسم الله والله أكبر ، فليستقل شيخ الأزهر » ، إنه إعلان حرب لا يراد لها أن تخمد إلا باستقالة شيخ الأزهر . ولم يذكر الشيخ أين نشر المقال ، ولكن نرجح نشره في مجلة « الاعتصام » التي كانت أحد المنافذ الصغيرة التي تركتها السياسة الثورية متنفساً لأهل الإسلام .

وسرعان ما انتشر دوي التذيفة ، فإذا هو عز الأزهر كله ، فيقابه الكثرة من الأزهريين بكل مظاهر الرضى والتأييد ، إذ وجدوا فيه تمييزاً عن رأيهم في الموضوع المثار . ومن هنا جاء نقله إلى معهد قنا ، ثم وقف راتبه وإحالاته إلى مجلس للتأديب ، ألف بسرعة من الشيخ الحسيني سلطان وكيل الأزهر رئيساً ، والشيخ عبد اللطيف السبكي عضوين ، ثم تبع ذلك قرار جمهوري من قبل الرئيس بتميين الدكتور مصطفى الحفناوي لعضوية اليسار .

ولما انتشر الخبر تطوع بعض المهامين لاحتلال مقاعد الدفاع . ويسمي الشيخ من هؤلاء الأساتذة سليمان العقاد ، وعبد الحميد عبد المقصود ، ومحمد عيسى عطية خميس .

التصل :

وفي اليوم الذي عين للجلسة الأولى حضر الشيخ مع محاميه ، فأصروا على ما كتب ، وأثبت في المحضر أن راتبه قد قطع قبل أن يدان . وطلب المهامون تأجيل الجلسة للاطلاع ، ولمس المهامون ما بنتويه رئيس المجلس ، فتباحثوا في الأمر وعلموا من الشيخ ما سبق أن كتبه عن هذا الرجل في مقال كشف عواره ، وطالب بتعزيره لأنه نسب إلى الرسول ﷺ ما لم يقله . وفي الجلسة التالية أجمع المهامون على مطالبة وكيل الأزهر بالتنحي عن رئاسة المجلس لأسباب لا يريدون الإفصاح عنها حرصاً على كرامته ، فرفض مطالبهم إلا بعد إيداء الأسباب ، فسجلوا في المحضر نص المقال المشار إليه قائلين : كيف ترئس مجلس تأديب محاكم فيه رجلا ، طالب بتأديبك لكذبك على رسول الله ﷺ . . .

وتكهرب الجو وأجلت الجلسة بعد أن سجل المحامون طلبهم في مذكرة خطية . فما كان من فضيلة الوكيل الرئيس إلا أن كتب على ظهر المذكرة حكماً بفصل الشيخ المتهم قبل انعقاد المجلس ! وكان لذلك رد فعل سريع ، إذ قابل الدكتور الحفناوي تصرف الرئيس بالاستنكار ، ثم أبلغ الخبر رئيس الجمهورية . وشاع النيا ، وأخفقت المحاكمة ، وجاء المفاوضون بغرون الشيخ بمختلف العروض مقابل سكوته ، فرفض كل عرض ، إلا أن يمود مدرساً كما كان في معهد منوف ، وأن يعود كذلك زملاؤه الذين أيدوه إلى معاہدم التي نقلوا منها . ولم يلبث المسؤولون أن استجابوا لكل هذه المطالب ، وخرج الشيخ من المعركة رافع الرأس منتصراً . وجاء المؤيدون يستقبلونه بالتهاني ، وفي مقدمتهم العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز ، رحمه الله ، الذي تلا على الشيخ قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم وانقروا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

خلفيات المعركة :

ووجد شاعر الأزهر - كما يسميه الشيخ - الدكتور حسن جاد أستاذ الأدب بكلية اللغة العربية ، في هذه الأحداث روافد صالحات لإنشاء مسرحية شعرية صاغها ونشرها في العدد الرابع من مجلة « السيدات الملهات » عام ١٣٧٦ هـ بعنوان « محكمة المجاذيب » وقد رمز فيها إلى الشيخ فايد باسم « عائد » وإلى الأزهر باسم « المعشر » .

يقول الشاعر الدكتور على لسان الوكيل الرئيس في تعليقه للحكم الذي أصدره

على الشيخ فايد :

من حيث إن (عائداً)	قد لام شيخ (المعشر)
وأعلن الحق جها	رأ ونبسا بالمتكر
وراح يزري بالنفا	ق وهو ليس بالزري

وضاق بالإلحاد وال
وبعد ما تلاء من
فقد رأينا فصله
حجون في تهور
دفاعه الموقر
من المحيط المعشري

ثم يقول على لسان الدكتور الحفناوي المستنكر لذلك الحكم :

أجيبوني أليس الدين حقاً فكيف جعلتموه هوى مطاعا
أبفضل من يقول الحق منكم ويكرم من يرضه ضياعا
تسابقتم إلى الحكم اعتباطا ودبرتم نهايته مراعا
وزوركم' فلم نسمع عليه مداولة ولم نسمع دفاعا

ثم يتبع ذلك على لسان الشيخ فايد بعد رفضه العروض المغرية :

معاذ الله لست أريد جاهها وليس هوى المناصب من طباعي
فكفوا عن مساومتي بدنيا يباع الحق فيها كالمتاع
بين الله لا ألقى سلاحا ولست بمقعد يوماً براعي

وقد اشترك في هذه المعركة أكثر من صحيفة ، فمجلة التحرير كتبت عنها في العدد ١٨٥-١٩٨ ، وجريدة المساء تناولت الموضوع في ٢٦ يناير ١٩٥٧ ، أما مجلة السيدات الملمات فتابعت القضية في أعدادها الأربعة ربيع الآخر ورجب وشعبان ثم رمضان في عام ١٣٧٦ ، وكذلك شارك في الموضوع مجلنا صوت الإسلام والاعتصام .

ولا جرم أن اجتمع هذه الصحف كلها ، وأولئك الهامين الحمسة ، على الخوض في هذه القضية إنما يصور ، كما أسلفنا ، أوضاعاً نفسية كبر ما يحيط بها من الضغط ، فهي تبحث عن منفذ تنفس منه ، فما إن وجدته في هذه القضية حق اتخذت منها وسيلة للتخفيف مما تعانيه . وكانت القضية جديرة بالاهتمام لأنها تمثل عدواناً على مؤسسة إسلامية استطاعت أن تحتفظ باستقلالها طوال عشرة قرون ،

حق جاءها ذلك الحكم يريد تسخيرها لمآربه ، ولو أدى ذلك إلى طعن الإسلام في الصميم . ولقد استطاع ذلك الحكم الرهيب أن يحقق غير قليل من النجاح في هذا المعقل الخالد ، باستجراره بعض المسئولين فيه إلى الخضوع لأهوائه ، فكان لا بد من رد الفعل الذي ترجم غضب الجمهور المسلم من أهل العلم على ذلك العدوان وعلى الضالعين معه من المسئولين .

وأخيراً إن في هذه المعركة صورة لا ينبغي أن تنسى من تلك الحقبة التي أريد بها خنق كل صوت يرتفع بكلمة (لا) ولو أدى ذلك إلى إزهاق الأرواح وإذلال الأمة ، ورفع الأبرياء على أعواد المشائخ ، وشمع السجون بكل كرم من الأطنان الأحرار .

كلام حونه السهام ،

والمؤرخ لحياة الشيخ محمود فايد لا يستطيع إغفال شجاعته في مواجهة رئيس الجمهورية أثناء أخطر عهده التي أغلقت الأبصار، وكتمت الأفواه، وغلت الأيدي ، فلا يمرؤ امرؤ على الإشارة به الكلمة ، إلا إذا كان من المنامرين الذين لا يباليون بالعواقب ، أو المؤمنين الذين لا يرجون لغير ربهم وقاراً .

لقد كشف الرئيس عن نواياه الحقية جميعاً حين أعلن حربه على بقايا النظام الإسلامي في مصر بإلغائه القضاء الشرعي، ومصادرته حقوق الأفراد والجماعات في التملك والكرامة والعدالة وحرية الكلمة.. ولم يكن بد للجريح من التأوه، فارتفعت بعض الأصوات الجريئة من أوساط العلماء ، تعلن حكم الشريعة في ما يجري من عدوان على مبادئها الأساسية ، وقد كثرت الرئيس بتسويلاته تجاه الإسلام والشعب الذي يحكمه . وطاش صواب الرجل بإزاء هذه المعارضة ، إذ كان يظن - ثقة بشهادات من حوله من بطانة الفساد - أن الإسلام قد انتهى بمحنة الإخوان المسلمين ، فلا موضع لكلمة (لا) أمام كل ما يأتيه وما يذره .. وانتهد إحدى المناسبات السياسية فراح يهدد و يوعد ، وخص معشر العلماء

بدفقة من السباب البليغ . وعلى طريقة الشيوعيين في التهوين من علماء الإسلام ، جعل يتهم أصحاب الميثاق باستغلال الدين في سبيل بطونهم وشهواتهم ، ولو أدى ذلك بهم إلى بيع الفتاوى بالفراخ . . دون أن يفرق في هيئته بين الذين يتأفقونه والذين يمارضونه من المشايخ .

وكان مستحيلاً على مثل محمود فايد أن يدفق ثورته في قلبه بإزاء ذلك التهجم الضريع فكتب أهم مقالاته - كما يقول - في نقد ذلك الهذر ، وحملت « الاعتصام » ذلك الحال الشاق في الصدور في عدد ربيع الأول من عام ١٣٨١ .

لقد قدم لقاءته بعرض كلام الرئيس ، ثم تجرد للرد عليه بصراحتة التي لا يملك عنها انفكاكاً .

قال الشيخ موجهاً كلامه إلى الرجل ، الذي نسي ، في غمرة الاعتداد بالقوة ، مسؤوليته كرئيس دولة :

« .. هنا أحب أن أقف مع الرئيس وقفة قصيرة ، ومن حقي أن أقف معه ، فقد حدثنا سيادته عن عمر بن الخطاب ، وقد حفظنا عن تاريخ عمر أن امرأة استوقفته فوقف ، وأطالت معه الحديث ، وكان مما قالت : « لقد كنت من قبل عميراً ثم صرت عمر ، ثم أصبحت أمير المؤمنين ، فأتق الله وانهج سبيل الحق ، فبكى عمر حتى اخضلت لحيته ، فقال رفيقه : كفى يا أمة الله ، فقد أبكيت أمير المؤمنين . فنهزه عمر وقال : لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نتقبلها » . وليسمح لي سيادة الرئيس أن أناقشه ، وأرجو ألا أنهم بأني أجيء للرجعية ، فقد كنت ، وأنا من أصحاب الميثاق ، من أرباب الأقلام المتواضعة ، التي لم تدخر وسماً في محاربة الفساد ، في وقت اشتد فيه الضغط واستفحل فيه الاستبداد والإرهاب ، وكان نفر من الجيش ومن الجيش وحده هو الذي يحمي حمى القاروق ، وكان نفر من الجيش ومن الجيش وحده هو الذي يأكل على مائدة ولي عهده الطفل والقاهرة تحترق . . فهل يجوز يا سيادة الرئيس

أن يذاع على العالم ، وبجميع اللغات ، ومن رئيس الجمهورية العربية نفسه ،
مثل هذا الكلام !

لقد فاتك أن تعقب بأنت كثيراً من ذوي المهائم كان لهم مواقف كريمة
وغيره مشكورة ، وإحساس مرهف .. وإنك لتعرف بعضهم ، ولبعضهم عليك
فضل .. ومن فضل الله أن شعبنا فاضل واع ذكي أريب ، يعرف مقاييس الرجال ،
ويعيز الحديث من الطيب .

وختاماً يكفي العلماء العاملين شرفاً وقهراً أن أحكم الحاكمين زكام ورفح
قدوم وخلد ذكركم ، فقال سبحانه : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين
أوتوا العلم درجات » ويكفيهم في المدح والثناء قول أفضل البشر : « العلماء
ورثة الأنبياء » .

مناقشة تحليلية :

وإذا لم يكن بد من التعقيب على هذا البيان المبين فما كنتفي بتوجيه النظر
إلى ناحيتين اثنتين منه . أما الأولى فالشجاعة التي تدفع صاحبها إلى الغامرة
برأسه في سبيل الحق ، الذي أخذ الله العهد على أولي العلم بتصرته .. وبخاصة
في ظل تسلط يحاسب على الخليفة ، ويقتل على المهمة ، ويسجن كبار الرجال
من صالحى العلماء مع الكلاب المفترسة في السجن الحربي .. ولعمرو الحق إن البطل
الذي يقتحم صفوف العدو الكمي ، ليس أسقى بالتقدير من مؤمن يقف أمام
سلطان فتاك ليقذف بوجهه كلمة الحق صريحة مجلجلة . ورحم الله شوقياً
الذي يقول :

إن الشجاعة في الرجال مراتب وأجلهن شجاعة الأراء

وأما الثانية ففي تلك الغمزات الجارحات التي يرمي بها مقاتل خصمه
فلا يخطئها . أنعم النظر معي في هذه العبارات :

كان نفر من الجيش ، والجيش وحده ، هو الذي يحمي حمى الفاروق .
وكان نفر من الجيش ، والجيش وحده ، هو الذي يأكل هلى مائدة وبي عهده
الطفل ، والقاهرة تحترق .

وأنتك لتعرف بعضهم .. ولبعضهم عليك فضل .

إن شعبنا شعب فاضل ذكي .. يعرف مقاييس الرجال ، ويميز الحبيث
من الطيب .

يكفي العلماء الماملين شرفاً وفخراً أن أحكم الحاكمين زكاهم و ...

ويكفيهم في المدح والثناء قول أفضل البشر (العلماء ورثة الأنبياء) .

إن هنا لفتائف دونها صواريخ سام وهي تطارد فرائسها بقيادة الرادار .

وبهاء الطفيان :

ولعمرك لا أستطيع أن أتصور مدى خيانة الأمة لأمانة الله ، لو لم يقيض
لها من يحمل عنها عبء التصدي لذلك الطفيان الجارف ، فيقول لأصحابه
مثل هذه الكلمات التي من شأنها أن تنهت من سكرة الغرور ، وتقيم على
المفرورين حجة الله ..

إن الطفيان السياسي كالوباء الزاحف ، يبدأ صغيراً محدوداً ، فإذا حووسر
بالمحصنات الرادعات تقلص وتلاشى ، أما إذا أهمل شأنه وفسح له سبيل التكاثر
لم يقف أثره عند حد ، ومضى يدمر كل شيء بصادفه ، ثم لا يلبث أن تتغلغل
عدواه إلى ما حوله ثم ما بعده إلى غير نهاية .. وهذا ما حدث للظفيان الكبالي ،
يوم أقدم الدونمي أتاتورك على تقويض الخلافة ولم يجد قوة تردعه ، ولما اطمأن
إلى سلامة الطريق انطلق يهدم كل قائم في بناء الإسلام ، حتى كاد يأتي عليه من
القواعد في تركية المسلمة .. ولم يقف شره عند حدود تركية ، بل أخذ يتدفق
إلى كل مكان من بلاد الإسلام يجد فيه استجابة من المضللين والمضللين ،
وليست هذه الفتن ترسل شرورها هنا وهناك في ربوع الإسلام سوى بعض آثار

السكوت على عدوان ذلك الطاغية النوفمي على حرمان الإسلام ، وما أظن مؤرخاً حقيقياً يدقق النظر في العلاقة بين هذه الانفجارات الهدامة في ديار المسلمين إلا واجداً ارتباطها الوثيق بتلك الهنة للكبرى ، عنة تقويض الخلافة والمدوان على معالم الإسلام في دولة الخلافة . وهكذا تسري عدوى الوباء ، وباء الانتقاص على نظام الإسلام من ثورة إلى ثورة ، ومن بلد إلى بلد . وليس مقتل علماء الإسلام حرقاً وهم أحياء في مقدشو بأيدي عصابة الماركسيين في الصومال عام ١٩٩٤ هـ إلا واحدة من ثمرات الطغيان الذي ساد أكبر بلد عربي ، فهد ولا يزال يهد الطريق لكل محنة يتعرض لها الإسلام وأهله في الشرق العربي وما حوله . ومن هنا كان لهذه القلة من أحرار مصر الذين نصرُوا الله بأقلامهم في حدود طاقتهم ، فضل الرائد الذي يتقدم الثقافة نحو الطريق القويم ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً .

نكسات الزيات :

ثم إن هذه المواجهة بين الرئيس والشيخ لم تكن الوحيدة والأخيرة ، وإن كانت أبرز المواجهات وأصرحها ، فكل مقالة حكتبها بعد تكشف حقيقة المسالطين ، كانت سهاماً مسددة إليهم ، وإن لم تذكرهم بأسمائهم ، لأنه لم يخط سطرٌ منها إلا في نصرة الإسلام ، وكل انتصار لهذا الدين إنما هو هجوم غير مباشر على أعدائه الهدامين .

ولعل غضب الشيخ على الأستاذ أحمد حسن الزيات - في عدد ربيع الأول عام ١٣٨٣ من مجلة الاعتصام - لا تنزل عن هذا المستوى الذي طالعهنا في حوار الرئيس ، بل إنها لامتداد لضمائمه ، لأنها منصبة على سياسة الرئيس نفسها .

لقد ناء عاتق الأستاذ الزيات تحت أعباء الشيخوخة ، فنسي ما ملأ به رسالته الطيبة الذكر من دعوة إلى الخير والفضائل والدين ، بل نسي ما رزأه

الحكم من ثروة لا تقدر بال حين انتزع منه تلك الهبة، التي استمرت سنين طويلة مطمح أبصار الأحرار من عشاق البلاغة والأخلاق.. وكان ذلك، ويا للأسف، منذ أقامه ذلك الحكم رئيساً لتحرير مجلة الأزهر .

أجل ، لقد نسي الزيات الشيخ مآثر الزيات الكهل ، فسلك إلى مرضاة المتسلطين كل سبيل ، حتى لم يتورع أن يتخلى لهم عن دينه ، فيصف الوحدة التي ارتجلت ما بين مصر وسورية بأنها خير وأبقى من الوحدة التي بناها محمد رسول الله ﷺ .. فكان على كل حر أن يضح من الشكيمة ، ويتصدى لهذا الحرف المتحرف ليرده إلى الجادة .

وما كان مثل هذا الحدث ليفوت قلم الشيخ محمود ، الذي هو أبداً بالمرصاد لكل متعرض لمقل الإسلام . وهكذا انطلق بفند زيات ، ويحاول لعينيه الحق الذي عبتا عنه .

وطبيعي أن الموقف من الحساسية بحيث لا يمكن من الفصل بين تجديد الحرف المتكلف وسياسة الرئيس المتكلف إليه ، لأن الموضوع قائم على المقارنة بين سياسة نبوية مخططة من فوق سبع سموات ، وسياسة مرسومة في موسكو وواشنطن ، ومدعومة بالمهرجين والمتنافين والمرتقة ممن لا يعرفون من حقائق الوحي نقيراً ولا قطميراً .

ولم يكن الشيخ يجاهل ما يعرض له نفسه من عواقب هذه المواقف ، بل لا مندوحة له من أن يوطن نفسه لمواجهة أسوأ الاحتمالات .

نصان مناقان :

القنابل التي أطلقها الشيخ في وجه الزيات كثيرة وهائلة ومحرقة ، ولا يفني الاجتزاء ببعض منها عن بعض .. وقد أعاد نشرها كاملة في كتابه الأخير «الحق» فليراجعها القارىء هناك إذا شاء . أما هنا فنكتفي من المعركة التي استقرت

خمساً وأربعين صفحة من الكتاب ، بالفقرات التالية التي يكشف بها الشيخ عن غريزة النفاق في أعماق الزيات .

في أخريات أيام فاروق وبالضبط في ٢٥ مايو سنة ١٩٥٢ كتب الزيات في العدد ٩ من مجلة الأزهر ما نصه :

« باسم الله جل اسمه ، وعز حكه .. منزل كتابه هدى ، ومرسل رسوله رحمة ، ويهدي صاحب الرسالة محمد صلوات الله عليه .. لسان الوحي ، ومنهاج الشرع ، ومعجزة البلاغة .. ويعطف صاحب الجلالة الفاروق .. ناصر الإسلام ، ومؤيد العروبة ، وحامي الأزهر ، أعز الله نصره ، وجعل بالعلوم والآداب عصره ... »

يقول الشيخ : هذا نص ما افتتح به الأديب مجلة الأزهر قبل طرد فاروق بشهرين .. فنشر إلى جانبه ما افتتح به عدد يوليو من مجلة الأزهر سنة ١٩٦٠ وهو يشيع فاروق نفسه :

« كان ملكاً على مصر قبل يوم ٢٣ يوليو ، وكان آية من آيات إبليس في الجرأة على دين الله ، وعلى حرم الناس .. بلغ من جرأته على الله أنه كان - كما حدثني أحد بطانته - إذا اضطرتة رسوم الملك أن يشهد صلاة الجمعة يخرج إليها من المضجع الحرام فصلها من غير غسل ولا وضوء ، وأداها من غير فاتحة ولا تشهد ، وكان يقول إن أخوف ما أخافه أن يغلبني الضحك وأنا أتابع الإمام في هذه الحركات المعجبية !.. وبلغ من جرأته على المحرمات أنه كانت يغتصب الزوجة ويقتل الزوج ويسرق الدولة ويسفد الحق ، ويأخذ الرشا .. ثم أملى له الفرور فتبيح وتوفح وطفى .. »

وما أحسب رداً على مثل مفتريات الزيات أقتل ولا أصمى من المقارنة بين هذين التصين من كتابات الزيات في التعلق للطاغيتين.. أما لماذا كل هذا النفاق.. فيقول الشيخ : لقد عاش الزيات هكذا طوال حياته ، يكتب ما يروج ، وينشر ما يجلب له النعمة والعافية .. وحسبه أنسه ظفر في عهد فاروق بلقب

« صاحب العزة » وظفر في هذا العهد بأكرم جائزة .. وقد أصاب الأستاذ أحمد حسين في كلامه عن موقف المترجم من نفاق الزيات إذ قال: « وقاد الشيخ الحلة » وكتب كتابة من نار تحرق الكافرين .. لم يحامل ولم يلائن وإنما وصل إلى حد الهجوم السافر والتعدي لرئيس الدولة نفسه .

وتصان مؤمنان :

وقد سبق أن عرضنا لبعض ما كتبه الشيخ في نقد الظلمة ، ونسمح لنفسنا أن نعرض هنا أيضاً أنموذجين آخرين مما كتبه في كلا المهدين ، لتري إلى الفرق بين ما يكتبه أهل الإيمان لوجه الحق ، والمتاجرين بالأقلام ابتغاء الرزق .

من مقال نشره الشيخ في عدد « الاعتصام » لشهر ابريل قبل خروج فاروق يقول في وصف واقع المسلمين : « ملوكهم وحكامهم معضون بمناصبهم ، مهمهم أن تسلم لهم ، ولو على أيدي الغاصبين ، يسالمون عداهم ، ويدلون رعاياهم ، يجمعون المال من دم الفلاحين وعرق الكادحين ، لينفقوه على ملذاتهم ، ويبعثروه على شهواتهم ، طوراً يثرونه على موائد القمار ودور اللهو وكثوس الشراب ، وحيناً يبذلونه في محاصرة النساء ، ومماح الفناء ، وما تتطلبه الليالي الحمراء .. والويل شر الويل لمن تسول له نفسه أن ينكر عليهم ، أو يزجي النصيح إليهم ، فجزاؤه السجن ، وإن شئت فقل الإعدام . »

وفي « الاعتصام » نفسها يعقب على خطاب الرئيس عبد الناصر الذي ألقاه في الذكرى التاسعة للثورة ، وقد جمع الكثير من الفث والسمن ، والوعد والوعيد .

يقول الشيخ: « في خطاب الرئيس .. فقرات تسترعي النظر ، وتشير الانقياء .. فقرات تتسم بالصراحة التي تدعو إلى الإعجاب والإكبار .. فقرات ينبغي أن نقف عندها ، ونأمل فيها ، فهي جذيرة بالتفكير والتقدير .. » .

وبعد أن يعرض الشيخ لبعض مآثر الإسلام في العدالة نذكيراً له بما غاب عنه ، يتابع : « تلك صورة جميلة نجعلنا ننكر باسم الاسلام يا سيادة الرئيس هذه الأموال الباهظة التي تتفق في غير موضعها ، هذه المكافآت السخية التي تصرف من مال الدولة على المثليين والمثلات ، والراقصين والراقصات ، والمغنين والمغنيات .. قلتَ يا سيادة الرئيس إنك تريد أن تطهر المجتمع من عوامل الحقد والأناية والفساد والبغضاء ... ومقتضى هذا المنطق أن تقلّم أظافر أولئك المترفين ، وتقص أجنحة هؤلاء الذين لا يزالون يعيشون في عالم التريخ ، فيشربون الحقد في نفوس المهرومين ، إذ يطاون عليهم من قصور فضمة ويمرون عليهم في عربات ضخمة ، تتطلق - من فرط السكر - بسرعة جنونية تكاد تعصف بهم وتودي بحياتهم » .

أجل ... إنها لئسان يرسمان الصورة المثلى لجملة الأقسام التنظيفية التي تتوقع حساب الله على كل نسبة تقولها أو تكتبها ، وبهذه الأقسام تقطر الأمم ، وتسمو الهمم ، وشتان بين هؤلاء المؤمنين ، وأولئك المذبذبين ، الذين يصورهم قول الحريري على لسان أحدهم :

أنا الذي تعرفه يا حارثُ حدثت ملوك فكهة منافثُ
أعمل ما لا تعمل الثالث طوراً أخو جِدٍ وطوراً عابثُ
وغلبي في شكل صيد ضابث

وما كان أحوج صاحب « مجتمع الكفاية والعدل .. » أن يسمع مثل هذا النقد الحار يذكره بواقع (مجتمعه) على لسان القليلين أمثال محمود فايد .. جزاهم الله عن المظلومين والمهرومين والمضطهدين خير ما يستحقه الأحرار والمجاهدون .

بعد النكبة :

والحديث عن الأحداث التي عاينها الشيخ سيظل أثير ما لم يتناول بعض مواضعه التي أعقبت نكبة عام ١٩٦٧ .

كانت تلك الهزيمة مبدأ تحول جديد في حياة مصر ، فعلى الرغم من كل التظاهرات التي اصطنعتها مراكز القوى في القاهرة وبيروت وغيرهما ، لاستبقاء الرئيس المحطم في مركز القيادة .. لم تستطع منع الألسن من الكلام في هذا الموضوع ، فانطلقت تعبير عن سخطها على المسؤولين عن الكارثة ، وتعلن نقدها للمهد كله . وتحركت المراكز الثقافية للإسهام في تحديد التبعات ، واستعراض الوسائل الفضلى لمعالجة الواقع الرهيب . وفي إحدى المناسبات المتصلة بموضوع الساعة دعي الشيخ للمحاضرة في جامعة القاهرة وجمعية المحافظة على القرآن ، وبصراحته المألوفة مضى في تحديد أبعاد الهزيمة ، وتعيين مسئولية الرئيس (....) عنها . ولم يرق ذلك بقية مراكز القوة ، التي ما تزال تحيط بالرئيس لدفع النقمة عن نفسها ، بوصفها الشريك الأكبر في هذه المسئولية .. فوجدت من مصلحتها تجميد نشاط الشيخ . وهكذا صدر القرار بإحالته إلى الإعتداع ، وقد قام بتبليغه ذلك القرار وكيل الأزهر ، الذي سارع إلى استخدام الهاتف في ذلك التبليغ ، بسبب عطلة يوم رأس السنة الهجرية ، وتم تبليغ معهد القاهرة - الذي يعمل فيه الشيخ - بذلك القرار هاتفياً أيضاً .

وكان ذلك بمثابة إنذار للشيخ بأنه تحت المراقبة السياسية . وهكذا لزم منزله في رعاية الخبايا التي جعلت ترصد كل حركة منه .

يقول الشيخ : لقد كانت هذه العزلة فرصة ربانية تفرغت فيها لتحقيق بعض الكتب وإنجاز بعض المؤلفات ، مما عاد عليه برزق أوسع بكثير من الذي قطع عنه .

وقدم لزيارته أثناء هذه الحفوة المرصودة وكيل الأزهر يومئذ ، وشيخه الأكبر هذه الأيام ، الدكتور عبد الحليم محمود ، ومعه مستشار رئيس الجمهورية الفريق

عبد الرحمن أمين، والوزير العراقي السابق اللواء محمود شيت خطاب . وذاكروا
فيها بينهم في وضع الشيخ ، ثم اقترحوا عليه أن يقدم التماسا بالعودة ،
فامتنع وأصر .

ويروي الفريق عبد الرحمن أمين بحضر من إدارة الجمعية الشرعية أن
الرئيس سأله بعيد صلاة عيد الفطر : « ألا يزال محمود فايد عضواً في الجمعية
الشرعية ؟ » فيجيب بالإيجاب ، ثم يذكر الشيخ بخير ، فما كان من سيادة الرئيس
إلا أن أشاح بوجهه استنكاراً لذلك الاطراء ، ثم سارع إلى مغادرة المسجد
وهو يقول متهاكاً : كلهم كذابون وأنت الصادق !

ولا حاجة إلى التساؤل عن هؤلاء الكذابين الذين تشير إليهم عبارة الرئيس ..
إنهم بطانة السوء الذين يتوقف بقاؤهم في مراكز التأثير على استبعاد كل عنصر
يتوسمون فيه أي ظاهرة من الخير أو الدعوة إلى الخير .. وهو واقع يؤكد
ما ذهبنا إليه في تعقيبنا على اعترافات توفيق الحكيم التي نشرها بعنوان
« عودة الرعي » فناقشناها بالمقال الذي نشرته مجلة « المجتمع » الكويتية تحت
عنوان « طغيان فرد أم طغيان عهد » .

أين المعتبرون :

وهناك حادثة يحسن ألا يفوتنا ذكرها هنا ، ويصفها الشيخ بأنها من الوقائع
العجيبة التي مرت به ، ذلك أن دولة شيوعية - لم يسمها - بعثت بفرقة راقصة
للترفيه عن المصريين في رمضان ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م ورأى المتحرفون أن يعد لها
مكان في ميدان الجيش لتحيي الخامس والعشرين من رمضان .

وفي حفل عام أقامته الجمعية الشرعية في ذكرى بدر تكلم الشيخ فايد حول
هذه الصفاقة فكان مما قاله : « أخزى الله هؤلاء السفهاء .. لقد بلغ بهم السفخف
أن يحيوا رمضان بالمتكرات .. وفي أي مكان ؟ .. في ميدان الحسين بين مسجده
وبين إدارة الأزهر ومشيخة الطرق الصوفية ! .. يا لها من إهانة متمعدة توجه

لعمارة هذه المؤسسات الإسلامية .. يا لها من إهانة توجه إلى شهر
القرآن .. .

وكان أحد المسؤولين حاضراً ذلك الحفل فأبلغ النبأ السيد حسين الشاقمي
نائب رئيس الجمهورية فأصدر أمره بمنع الفرقة من تنفيذ ذلك المنكر .

وقد أثبتنا خبر هذه الرقاعة لما تحمله من خصائص العقلية المادية، التي لا ترى
أقدر من الفجور على تحطيم المهم .. وقد أصبحت طابع الجليل الضائع الذي
غيب قلبه من معاني القيم الإسلامية ، فلا ينظر ولا يسمع ولا يحس إلا من خلال
جوارح الكافرين . وقد ذكرنا في أحد كتبنا الأربعين ألف صورة من رسوم
الواقعات والمنشآت التي وزعت .. قبيل « الزحف لتحرير فلسطين »
عام ١٩٦٧ ..! ، ووعدت الجريدة المصرية ناشرة الخبر أن هناك مئة
وستين ألف صورة أخرى لبقية الرقعات ستوزع على أولئك المحاربين في خنادق
القتال .. ثم كانت النتيجة تلك الهزيمة التي مرغت بالهوان جباه العرب والمسلمين
جميعاً إلا فرق المنتفعين .

وما أدري لماذا تذكرني هذه السخافات بمنظر تينك الصورتين الآخرين ،
التيين جاءني بها ولدي أثناء حرب رمضان ١٩٦٣ على صفحات إحدى الصحف
المصرية ، وهما تعرضان طيارين مصريين ، وقد هما بدخول الطائرة ، وبدا جلياً
على خوذة كل منهما « لا إله إلا الله » .

إن جيش فريد الأطرش وعبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحلیم حافظ وتحية
كاريو كما لم يسجل في حربه تلك سوى مآثر الانهيار الذي وزعه خلال ساعات
بين أسير في قيود اليهود ، وشريد على رمال اليبس .

أما جيش « لا إله إلا الله » فقد مسح العار - خلال ساعات - عن جباه
كل العرب والمسلمين بفضل الله رب العالمين .

ولكن .. أين الذين يفقهون ويعتبرون !

فيتو ثوري :

ولا يفوتنا أن نذكر من الأعمال الأخرى التي شغل بها عن مهنته الأساسية في مصر ، تعيينه رائداً دينياً لمدينة البعوث ، فكانت فرصة طيبة لروابط حية توفقت بينه وبين الطلاب الواقفين إلى الأزهر من أنحاء العالم الإسلامي ، وأذكر أنني التقيت ذات يوم خريجاً سورياً منهم ، ولما استوضحته عن أقوى مشايخه أقرأ في نفسه لم يتردد في تسمية الشيخ محمود فايد . ولم يكن هذا الخريج ليعلم أن الشيخ زميل لي عزيز في الجامعة الإسلامية .

ولقد رضي ولاية الأمر في الأزهر عن نشاط الشيخ في عمله الجديد ، ولم يجيبوا عنه تقديرهم ، إلا أن السياسة لم تلبث أن أبدت قلقها من ذلك النشاط ، وطلبت من وكيل الأزهر تنحيته . وبعد مطال طويل اضطر الوكيل إلى مصارحة الشيخ بالفتوى الذي شهر عليه ، فلم يسع الشيخ إلا قبول الواقع ، فقدم استقالته لفوره .

ولعل أكرم تعزية فالها الشيخ إثر استبعاده عن تلك الريادة خطاب وكيل الأزهر يومذاك - الدكتور محمد ماضي - الذي يقول له فيه : « لا يعني بهذه المناسبة إلا أن أقدم لكم شكر الأزهر وتقديره لجهودكم المثمرة التي بذلتموها لصالح طلاب البعوث الإسلامية ولصالح رسالة الأزهر ، وهي رسالة الإسلام ، في الفترة التي قتم فيها بأعباء هذه المهمة .. كما نخطر فضيلتكم بأننا قد قررنا أن نوضح صورة من خطابنا هذا في ملف خدمتكم .. »
ولا جرم أنها لفتة كريمة من الدكتور ماضي تم عن ارتفاعه فوق أهواء السياسة .

في مجلس الشعب :

ونختم هذه الطائفة من صور النشاط الذي عرف عن المترجم بالإشارة إلى تلك الصراحة المدوية التي أرسلها في مجلس الشعب المصري صيف العام ١٩٩٣ .

لقد دهمي يومئذ للمشاركة في البحوث المثارة حول الأوضاع الجديدة بمصر ،
وفي إحدى الجلسات الحافلة ألقى الشيخ كلمته التي استغرقت عدة صفحات ،
صرح فيها بكل ما يراه ، وأكد على وجوب مناجزة إسرائيل قبل أن تستكمل
قدراتها المرسومة ، التي يستحيل معها على العرب مواجهتها عسكرياً .

وكان القدر كان يحري على لسان الشيخ ما يدور في رؤوس الخططين
لحرب رمضان ، التي ما لبثت أن ثبتت فأكتسحت ، بمونة الله ، خط بارليف .
وقد نوه الأستاذ محمود أبو رافية بكلمة الشيخ تلك في مقال نشرته الأهرام
يوم ٧٤/٢/٥ وقال في زيارة عجل للمدينة المنورة : إن الرئيس السادات ، اطلع
على كلمة الشيخ فأيدها في حينها وعلق عليها بقوله : « هذه أصح كلمة » .

مؤلفات الشيخ :

وعلى السؤال الخاص بمؤلفاته أجاب فضيلته أنه حقق كثيراً من مكاتب
القرآن الإسلامي ، منها « خلاصة تذهيب الكمال » أخرجه في ثلاثة مجلدات
كبار بعد أن كان مجلداً واحداً ، وقد أفرد له مقدمة خاصة . وشارك في تحقيق
(المغني) لابن قدامة و (أسد الغابة) و (مراقي الفلاح) و (الفرقان)
لابن تيمية ، و (الجواب الكافي) لابن القيم . ومن مؤلفاته :

١ - كتاب (المنطق الواضح) في علم المنطق (في جزأين) .

٢ - (القرية في كتاب الله) .

٣ - (الإسلام والصحة) .

٤ - (الإسلام وأثره في نهضة الشعوب) .

ويستبر الشيخ أم مؤلفاته (الرسالة الحمديدية وشواهداها) فقد نحا في
هذا الكتاب نحواً جديداً في إثبات الرسالة الحمديدية ، وقال استحسان كثير
من كتاب العصر - كما يقول - .

نماذج من أدبه :

ولعلنا أوقفنا الشيخ في حيرة عندما انتهى إلى هذه الفقرة من استطلاعنا ،
وفيها نلتبس أن يتحفنا بمختارات من أحب ما كتب إليه .. ذلك لأن مثل
الشيخ لا يكتب إلا ما يجب وما يجب ، ولهذا قد يتعذر عليه التفريق بين نصر
وآخر من مثله . وفي ما أسلفنا من مقاطع ما يكفي للدلالة على طابعه الأزهرى ،
الذي يؤثر وضوح الفكرة على تأنق الصياغة ، وهي السمة التي نطالعنا ملاحظها
أبدأ في أسلوبه كاتباً وواعظاً ومحاضراً .

أما شعره فقد اختار لنا منه بعض المقاطع نقدمها في ما يلي كمنهج للتطور
الذي صار إليه بعد فترة القرزومة التي أسلفنا بعض شواهدها . ففي هزبية له
يخاطب أولي التأثير في مسيرة العالم الإسلامي فيقول :

يا قادة الإسلام جدوا وليكن	لكم بأحمد أسوة حسنة
هل كان هذا الدين إلا دعوة	فيها على جذم الشرور قضاء
هبوا لنصر الدين لا تتخاذلوا	إن التخاذل فتنة وبلاء
ولتمرسوا الوطن العزيز بقوة	حرساء يخشع بأسها الدخلاء
وخذوا بأسلحة الحياة فإنه	لم تحمي يوماً أمة عزلاء
لا تأمنوا روسيا وأمريكا فما	في النار للظلمآن يرجى ماء

وبمناسبة ذكرى الإسراء والمعراج نوجه هذه الإهابة - من فصيحة طويلة -
إلى المسلمين في كل مكان :

أيا أمة الإسلام هذا رسولكم	أناكم بدين من يواليه ينصر
يشيد للعلم الصحيح معاقلاً	ويكشف أسرار الوجود ويظهر
فما بال قومي قد تعاموا عن الهدى	وملوا حياة العلم حتى تأخروا

لقد كشف الأعداء أسرار خلقه ونحن بهذا الكشف أولى وأجدر
أعدوا لهم ما تستطيعون من قوى ولا تركنوا للجهل فهو مدمر
فإن تك إسرائيل أمسى بلاؤها خطيراً فبنوى الجهل أدمى وأخطر
وفيها يقول :

فلسطين مسرى المصطفى غاب نجمها وحل بها جند اليهود وعسكروا
وفي المسجد الأقصى يمس عدونا ونحن نفسى في ابتهاج وزمر
ونفتح للرقص النير معاهداً ونكشف سوات الغواني وننشر

ولو اطلعت على هذه الأبيات قبل فراق الشيخ المعطلة الصيفية لاقتزحت
عليه أن يجعل بدل (زمر) (نكر) لأنها أشد انطباقاً على غفلاتنا ..
ولقرأت عليه هذه العبارة التي أثبتتها في ورقة الأحد ١٢/٤/٩٦ من مفكرتي :
« مساء اليوم س ٩،٣٥ أذاع صوت أميركا تقريراً من مراسله في القاهرة :
يشهدت فيه عن الأوضاع الفنية هناك فيقول : تخرج في معهد الباليه بمصر
أربعون راقصاً وقد التحقوا - أو التحقن - بالفرقة الفنية » .

وهو خبر يسر الكثيرين أن يسموه لأنه بنظرهم أكبر دليل على التفوق
الذي يشق لنا الطريق إلى منافسة أعرق السفهاء في العالم .. وكفى بذلك
فخراً ونصراً !

والمهم أن في هذه الناذج صورة ملموسة من التطور الصاعد في صياغة الشيخ
الشعرية ، فقد استقرت الثقافية في منزلها المناسب ، فلم تعد قلقة مقسورة كما
لاحظناها في بواكيره الأولى ، واستقام له الأسلوب على مهيع البيان السليم ،
فجاء شعره مانحاً بأفكاره الاصلاحية الواضحة .. ولكنه ظل حاملاً حفة
الكاتب الذي يترجم عن عقله أكثر مما يترجم عن عاطفته وأخيلته .

الجيل والعلماء :

وكان الشيخ موثق أنه في إجاباته السالفة قد استوفى ما تريده في هاتين الفقرتين ، لذلك اكتفى بقوله : « سألتني عن رأيي في مستقبل الجيل الإسلامي ، وما يمكن للعلماء أن يصنعوه في هذا السبيل ، فأقول : هذا موضوع يطول شرحه وقد كتبنا حوله مقالات كثيرة ، وموجز ما كتبناه أن المجتمعات الإسلامية زحفت إليها مبادئ من معرفة شرقية وغربية ، وقد تسربت إلى الجيل الناشئ ، وتغلغلت في نفسه عن طريق أجهزة الإعلام المختلفة صحافة وإذاعة مسموعة ومرئية .. وواجب العلماء أن يتعرف بعضهم بعضاً في مؤتمرات إسلامية متوالية محلية ودولية ، ويدرسوا الخطط العملية التي تصمد للأمة الإسلامية وحدتها ، وتتمي قوتها ، وتحقق استقلالها وسيادتها ، وتدفع عنها كيد الكائدين ، ويطش المستبدين ، وعليهم بعد ذلك أن يقوموا بواجبهم داخل دولهم بحكمة وروية متوكلين على ربهم » .

وقد سبق أن عرفنا وجهة نظر الشيخ من هذه الناحية ، وهي القدر الذي يكاد يكون مشتركاً بين معظم أصحاب الفضيلة المهيين على أسئلتنا ، ونكسر هنا ما سبق لنا قوله ، وهو أن مجرد الدعوة التي تجمع العلماء في مؤتمرات إصلاحية يتضمن التجاهل لواقع هؤلاء وما يحيط بهم من عقبات وموانع تحول دون تلاقحهم .. وإذا أغرقنا في التفاؤل وتصورنا إمكان الاجتماع ، فنلنا بتنفيذ ما يتفقون عليه من مقررات لا سبيل إلى التوفيق بينها وبين ما يواجهونه من أحكام !

ثم .. من ضمن للشيخ أن يكون المجتمعون كلهم من هذا الطراز الذي أخلص قلبه لله ، فراح يرد على أعداء الإسلام بثقل كلمة المنفور له محمد الحضر الحسين ، شيخ الأزهر الأسبق ، يوم جاءه موفد يسارمه على دينه ، فأجابه : « قل للرئيس يكفيني من دنياكم كسرة خبز وكوب لبن وقد ضمنها لي الله . وهذه استغاثتي تحت تصرفكم » .

ثم من يضمن لنا أيضاً أن يكون الشيخ محمود نفسه أحد هؤلاء المجتمعين - إذا قدر لهم الاجتماع - فيدوي صوته بكلمة الحق الذي لم يحامل فيه - على رأي الأستاذ أحمد حسين - لأنه - بتعبير الأستاذ محمد عبد الله الحسان - من العلماء القلائل الذين يبحث عنهم الإسلام المغلوب على أمره وسط التعديبات التي تحيط به من كل جانب ، وتهب عليه من الشرق المادي الملحد ، والغرب الصليبي المتعصب على السواء .. وتبحث عنهم قضايا الإسلام والمسلمين ، التي قل أن تجد اليوم من يأخذ بيدها ... »

وإنني لأكتب هذه الكلمات ، ولا يزال في سمعي صوت مفتي اليمن الشمالي الشيخ محمد أحمد يعلن من إذاعة موسكو قبل أيام أن الإسلام على خير ما يرام في ظل الشيوعية - التي يعلن طواغيتها على العالم أنهم أعداء كل دين - وأن المسلمين في روسية الشيوعية أكثر الناس استمتاعاً بحرية الدين ! ..

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ...

الدكتور مصطفى حسيني السبأحي

أبلغُ القول في الرثاء الدموعُ فدعوها تذبّ عليه الضلوعُ
 ليس كل امرئ، يموت أبا حسان حتى يلام فيه الجزوع
 راية من بنود ربك لولا الكف جهلٌ لم تتخذ سواها الجموع
 وحسام قد سله الله فالكف بر هزم من هوله وصريع
 طوبيا فجأة فمادت ديلر يحنود الهدى وجئت ربوع
 وسألنا، ولم نصدق،.. أحق؟! فإذا كل من هناك صديق
 .. ولقد طالما ضرعنا إلى الله لدى الحجر والقلوب خشوع
 نشد البرء للجريح المقدي بعدما أياس الأئمة فريموا
 واستجيب النداء، فاتحم الدا ، وزالت مواجع وصدوع
 وأراد الإله للفسارس المر موق غير الذي أراد الجميع
 قيد سألنا له الشفاء سريعاً فأتى دونسه الحمام السريع
 والمقادير في يسد الله غيب ضاع في تيهه الحكيم الضليع

قالوا: « كل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر »، إلا المصيبة فإنها تبدأ كبيرة

ثم تصغر...»

والواقع أن هذا هو الواقع في كل شيء ، وفي كل مصيبة ، إلا مصيبة برجل
في زمن قل فيه الرجال ، واشتدت إليهم حاجة الرجال !

وهذه الأيام تتابع على النبأ الفاجع فما يعثور أثره فتور ، ولو زعمنا ذلك
لكذبتنا الدموع ، التي لا نستطيع نهيتها كلما خطر في الجنان أبو حسان ،
أو ذكر آثاره وأعماله لسان .

ويا لها من لحظة .. تلك التي تلقيت فيها النبأ الهائل !.. إذ دخلت عليّ ابنتي
وأنا غارق في قراءة أخبار الصحابة من فتاحي العراق ، وهي واجفة راجفة
تقول في نبرات خائفة : « هاتف من دمشق يقول إن السباعي قد مات ! » .

ولم أع ما أقفل ... إلا أن أدور في مكنتي على غير هدى وأنا أبكي وأجار:
« اللهم رحمتك !.. » ولم أستطع أن أصدق الخبر .. وكيف أصدق ، ولما يبض
على لقائنا سوى أيام كنت خلالها مغمم الصدر أملاً بأن أبا حسان على
عتبة الشفاء !

ولا عجب .. فقد فوجئت من أبي حسان يوم لقائنا الأخير بمثل الطلعة
القديمة ، التي عهدت إشراقها المحيية قبيل الإصابة التي أنقلته بالألم المتواصل
طوال سنوات الألم الأخيرة .

ولمح دهشتي وفرحتي بمنظره ، فقال : « لو رأيتني يا أبا غسان عقيب عودتي
من البيت الحرام ومدينة الرسول ﷺ إذن لكانت دهشتك أبلغ .. لقد استعدت
في جوار الكعبة المشرفة وفي بلد الرسول الأعظم نصف نشاطي الذي حبسني
عنه المرض ، واقد ذهبت إلى الأرض المباركة ، وأنا كما رأيتني في مكة المكرمة
ومنى أول وصولنا ، لا أستطيع الصلاة إلا على كرسي .. فما غادرت مكة
حتى وجدتنني أسقى إلى الحرم بنفسي ، ثم أقضي للصلاة بركوعها وسجودها
وقعودها كمهدي أيام العافية .. ولهذا تراني أتيتاً للسفر إلى البلد الحرام لأتحذه لي
مقاماً وسكناً ، أجدد به روحي . وأسعد بناجاة الله في بلد خليفه

وأحب أرض الله إلى رسوله .. ومن أجل ذلك قبلت عمره المعارف السعودية للتدريس هناك دون تردد .

أجل .. هكذا تركت أبا حسان قبل أيام ، فلما أقضت إليّ ابنتي نبياً الموت ذهبت أجادل وأغالط ولعل الخبر عن السفر .. لعل لاقط الهاتف لم يفرق بين « مات السباعي » .. و « سافر السباعي » !

وبعد ساعات أربع تحققنا من النبأ الصادع عن طريق حمص .. فلم يبق من مجال لأي جدال !

ووصلت دمشق ظهر اليوم التالي ، ولم أعرف مكان الجثمان إلا من انقطاع حركة المواصلات في شارع مدحة باشا . وسرعان ما ابتلعتني موكب الجنائزة العزيزة كقطرة الماء لامست السيل الهادر ، الذي ما لبث أن ملأ شارع الحميدية حتى قلب الجامع الأموي ! .. وأبت دمشق الوفية المؤمنة أن تحمل السيارة جسد البطل الذي طالما هز منارها وأثار عزائمها وحفز شبابها لاستعادة مكانتها في خدمة الإسلام ، وتحرير أرض الإسلام ، فإذا هي تتداول نعمته على الراح حتى المقبرة ، التي ضمت من قبله أجساد الأباة من صحابة محمد ﷺ وتابعيهم وتابعي تابعيهم من أعلام الهداة .

وفي غمرة الأنين والنشيج وانطلاقات الأصوات المؤمنة بشعارات السماء ، التي وقف الفقيد حياته الغالية على تركيزها وتحقيقها ، والتي بذل في نصرتها آخر أنفاسه في لحظاته الأخيرة .. وجددتني أتساءل وأندكر .

أتساءل عن السر الذي يحفز هذه السيول من الجموع على تحمل الحر والزحام طوال ساعات ، لا تفارق الموكب الحزين حتى تودع الثرى جثمان الرجل ، الذي زحفت لتشيعه من أنحاء القطر السوري ، ومن كل بلد مجاور اتسع وقته وظروفه للمشاركة في هذا التشييع !

أتقديراً لعلم الفقيد .. وقد كان من العلم في المكان الرموق !

أتعظيماً لجاء ناله من الدنيا؟ وقد كان له الجاء الذي يقبضه عليه الكثيرون
من أهل الدنيا!

أم تزلوا إلى قوم من الأحياء يفتنون لديهم المنفعة بهذه المشاركة! ولكن
كثيراً من العلماء الكبار يموتون كل يوم.. فما يكاد يحس بهم أحد.. وأكثر من
هؤلاء أصحاب الجاء الذين تسنموا بالحق أو بالباطل أرفع المنازل، ثم ذهبوا
من هذه الدنيا أدلة لا يكاد يذكرهم أحد، إلا عند تعداد السيئات..
وتوزيع اللعنات!

وأما المنفعة فهي أبعد الأشياء عن هذه المناسبة.. بل لعل ضررها على
المشارك فيها هو الشيء الطبيعي، الذي لا ينبغي أن يتوقع سواء.

والحق الذي يحسه كل ذي ضمير، ويدركه كل ذي تفكير، هو أن هذه
الآلاف المؤلفة إنما زحفت ونصبت وصبرت تمجيداً للفكرة التي دفع السباعي
حياته كلها ثمناً لها، وأذاب قلبه الكبير وقوداً لاستبقاء وجهها، في إخلاص لله
لم يشبّه مطمع دنيوي، وجهاد للحق لم يستهدف سوى تحرير الوطن الإسلامي
من سلطان الظلمة أباً كان مصدره، وتحريراً للفكر العربي والإسلامي من كل
استعباد مما يمكن أثره ومؤثره.

والإخلاص لله، والجهاد في سبيله، كانا وما انفكا في تاريخ هذه الأمة مبعث
العزة، ومنطلق الخلود.. وصدق الفاروق أمير المؤمنين إذ يهتف في وجهه
أبي عبيدة أمين هذه الأمة «... نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما نبتغ العزة
بغيره أدنا الله».

ألا فليت المدعوين بغيريات الدنيا، المتفانين على سكرتها المسمومة،
يفطنون لهذه الحقيقة فيصنوا جباههم من تراب الهوان، ويرتفعوا بأنفسهم
ونواياهم وأعمالهم إلى المستوى الذي يفرضه الإيمان، ليستمعوا مثل هذا المصير
الذي انتبى إليه أبو حسان.

وغلبتني الذكري .. وألقيت القلب المنكوب بفتح عن مشاهد لا تنسى
من حياة ذلك الحبيب .

تذكرت يوم عرفت الفقيه لأول مرة من خلال مقابلة كتبها عن بدعة
« أسبوع المشايخ » في حمص ، فوجدتني تلقاء روح تحترق غيرة على حقائق
الإسلام أن تحجبها ظلمات عصور الضياع والانهيار .

ثم لقيته مرة ثانية في اللاذقية بخطب عقيب معاهدة ١٩٣٦ ، فإذا هو يجمع
الأوصاف الثلاثة « خطيب منبر ، وقائد عسكري ، وواصف جواد » يتدفق بقوة
لم أشهد مثلها من خطيب قطه .. يبدأ هادئاً حلواً جذاباً ، حتى إذا باشر مفاصل
الفكرة غمرته الحماسة فراح يدفع بسامعيه إلى الأعلى .. إلى الجوى الذي أراد ..
مكانه قائد يباشر الحركة ، وسرعان ما يتحول سامعوه جنوداً يحضرون
انتباههم في نطاق إشاراته .. وكأننا براوده الإشفاق على سامعيه من عنف
العاصفة ، فإذا هو يتحول من الشدة إلى الرقة ، وإذا هو يرسل النكتة تلو
الأخرى ، في براعة موهوبة عجيبة لا تكاد تلامس أسماع القوم حتى ينطلقوا
ضاحكين منمشين .

ثم لقيته للمرة الثالثة في دمشق ، وقد وصل لتوه من القاهرة ، وواكب
الآلاف من الشباب حتى الدار التي اتخذتها الجماعة للدعوة الانتخابية ، وإذا هو
يسلم المنبر الذي كأنما خلق له . ولأول مرة في ذلك اليوم تسمع دمشق صوت
الإسلام يدوي بالمعاني الجديدة للانتخاب البرلماني ، الذي يريد الفقيه وإخوانه
أن يكون وسيلة لتجديد رسالة دمشق التي بدأتها من أيام الفتح الأول ،
بعد أن كان مفهوم الانتخاب لا يتجاوز تأييد فلان ، ونكابة فلان .. وتأمين
أكبر قدر من المنافع أو الوعد بالمنافع لجنود الشيطان .

ثم جمعتني به حفلة أقامتها في طرابلس جمعية الشبان المسلمين ، فألقيت فيها
أول كلمة كتبتها عن العدالة الاجتماعية في الإسلام ، وتكلم هو في الموضوع

فكانت خطبته المرجحة تشويقاً وتقريماً ثم تركيزاً للحقائق التي عرضت لها مؤيدة بأحداث التاريخ الإسلامي ، التي كانت براهين لها قاطعة في مجال التطبيق . ولا أزال أذكر محاولة بعض الناقين من الإسلام يومئذ إثارة المناقشة بين محاضرتيننا فتخصص بالإطراء حديثي . وراح يدس في إطرائه السموم ، فقلت له : على رسيلك .. إن أكن قد أحسنت حقاً فليسباعي الحق الأول بهذا الإطراء لأنه السابق إلى كشف هذه الجوانب المجهولة من فضائل الإسلام .

ثم جاءت معركة فلسطين سنة ١٩٤٨ ، وكانت خطب الفقيه العظيم هي الوعيد الذي حرك الهمم لبذل الأموال والنفوس ، يتنقل بين بلد وآخر ، يبحث ويوضح ويذكر ، فيترك في كل قلب دويماً ، وفي كل بلد نشاطاً قوياً . وقاد كتائب الجهاد في بطاح البلد المقدس ، في عزيمته وإخلاصه ليس الحديث عنها شأن هذا الحديث . ولكن أذكر موقفاً له لا تستطيع الأحداث أن تزيد من محبتي ، وكان ذلك عقيب الهدنة الأولى ، وقد عاد من ساحة المعركة ، ليتحدث إلى الشعب عن مصيرها وملابساتها وما وراءها من المؤامرات ، وانتصب السباعي يومئذ في ندوة (السنجقदार) وسط الآلاف المؤلفة من المستمعين المتلهفين لأنيابه . وانتشروا في الشوارع ، وفي المنازل والفنادق المطلة ، يرهفون أسماعهم إلى الرجل الذي وقفوا بصدقه ، لأنهم لم يجربوا عليه الكذب .. الرجل الذي يقود صفوة من أبنائهم ، الذين هجروا مدارسهم وجامعاتهم ومتاجرهم ووظائفهم للزيادة عن وطن الإسلام ، الذي زرعه صحابة نبينهم ﷺ بجماجمهم وأشلاتهم ودمائهم ، ورأيت الفارس المحارب يقف كالنمر الهائج في ثياب الميدان مسربلاً بشار المعارك ، ثم يتدفق بالزئير الخفيف .. يصف ويمنف ، ويكشف ، وينذر الناس بالخطر الذي تهيئ الحيوانات وراء خطوط النار ، ويهيب بالشعوب العربية أن يكونوا حذرين وأن ينهضوا بكل قواهم لإكراه حكوماتهم على تصحيح موقفها بإزاء المعركة .

أجل .. والله .. لقد قال لنا السباعي يومئذ كل شيء يجب أن يقوله

قائد باشر تار المعركة بنفسه وإخوانه ، وكشف لنا ستور المستقبل الرهيب الذي سنصير إليه ، إذا لم نسرع إلى الضغط على الحاكمين لتغيير خططهم المدة بأيدي العدو .. المستقبل ازهيب الذي أصبح اليوم حاضراً نعيشه ، بعد أن كان أحاديث نسمعها ولا نكاد نصدقها .

ويبلغ البطل يومئذ رسالته ، ثم عاد إلى الجبهة ليواصل حماية الثغرة التي عهد بها إلى كنيسته ، وليسقي الأَرْض المقدسة بمزيد من الدم الطاهر ، الذي تسابق إخوانه لبذله في سبيل الله ، ليسجلوا للعالم المتأمر ، من وراء وأمام ويمين وشمال ، أن أرض الإسلام لن تعدم الأحرار ، الذين يقدمون أجسادهم في سبيلها طعاماً للحديد والنار .



وانتخب فارس الميدان والمنبر نائباً عن دمشق .. وكَم من نائب هو إحدى النواب ، وكَم من نائب لا عمل له سوى تحريك الرأس ورفع اليد وتكبير عدد الأصوات للجانب الذي هو أجدى له . وكان انتخابه تشریفاً للنيابة إذ كان رجل الساعة في ذلك المجلس الذي كانت أولى مهامه وضع دستور البلاد .

وطبيعي أن يقود السباعي معركة القرآن تحت قبة البرلمان ، وكانت معركة حامية الرطيس شملت القطر السوري بأجمعه ، بل العالم الإسلامي الذي أخذ يرقب مصير الإسلام في عاصمته الثانية .

وقد أثبت أبو حسان يومئذ أنه النائب الذي يدرك أن مهمته في ذلك المجلس ليست إلا جزءاً من مهمته في كل بلد وقرية ، فشغل الجماهير وأثار العزائم وجشد القوى للضغط على دعاة العفنة .. الذين حاولوا الوقوف في وجه التيار الإسلامي ، ليسبقوا على الدستور لون أفكارهم المبتلية ، فما لبثوا أن باؤوا بالهزيمة ، وانتصر دعاة الإسلام ، الذين فرضوا على الدستور صبغة التشريع الذي أنزله الله لإنقاذ البشرية من لوثات الجاهليات الجديدة والقديمة .

ولقد كان القلم أحد أسلحته الجبارة في تلك المعركة ، به يرد على الصحف المتحررة ، وبه يزيغ دعاوى الزائنين ، الذين زعموا أنهم يحاربون (أسفة) الدستور باسم القوانين . وكانت الجماهير المؤمنة ، وفي طليعتها المثقفون عشاق الأدب الرفيع ، تترقب مقالاته تلك في « المنار » لتتداولها في لفظة حارة ، حتى ليرتفع ثمن الممدد الذي يحملها إلى خمسين ضعفاً .



وكان للفقيد العظيم أشد الناس بفضاً للانقلابات العسكرية ، لإيمانه أن السبيل الوحيدة للإصلاح ، أياً كان ، إنما هو الفكر الحر والمنطق العلمي المبني على الحجة المقحمة .. وهذا ما دفعه إلى استنفاد مجهوده في سبيل إقناع أديب الشيشكلي بإعادة الحياة البرلمانية إلى البلاد ، بعد تلك الاندفاعات الخفاه التي قورح بها العهد الدستوري .

ومررد أياماً بين الشيشكلي والدواليبي المعتقل ، تحقيقاً لهذه الغاية ، ولكن النجاح كان مستحيلاً عليه ، لأن طموح الشيشكلي لم ينسجم مع النسيبة التي يريدتها الفقيد ، لذلك سرعان ما قلب له ظهر الجهن ، وضمه إلى صديقه رئيس الوزراء الدكتور معروف في معتقل المزة ، وأعقب ذلك بمصادرة حرية الجماعة فأطلق مراكزها ، ووضع رجالها تحت مراقبة شديدة . وبعد مدة غير يسيرة أخرجته من المعتقل لمواجهة ، وقد حدثني أبو حسان ، عليه رحمة الله ، بالبحث الذي دار بينها يومذاك :

قال الشيشكلي: يؤسفني أيها الأستاذ أن تصدر عني إساءة نحوك ، وأنا الذي أقدر جهادك ، وأثق بإخلاصك ومن معك .. وقد كان الأخرى بنا أن نأقلف بدلاً من أن نحتصم ونختلف . ومع ذلك فإن الجهال لا يزال أماننا متمسكاً لذلك قلننس الماضي ولنتعاون .

فقال أبو حسان: ولكن الذي وجدته منك أكد لي ألا سبيل إلى التلاقي .

قال الشيشكلي: ولم لا .. إنك تدعو إلى الإسلام ، وأنا والله مسلم بئس قلبي
الإيمان بالله ورسوله وكتابه ، فكيف لا يتم تلاقينا .

قال الفقيه : لعلك تفهم الإسلام عبادة وحقيدة وحسب ، أما نحن
فالإسلام في مفهومنا نظام يشمل الحياة ويقدر لكل شيء
حسابه ، لأن الله يقول لنا: «ما فرطنا في الكتاب من شيء»
ومعنى ذلك أننا لا نستطيع القبول بالواقع الذي تفرضه
القوة ، ولا بد لنا من النضال بكل الوسائل المشروعة
حتى نعيد إلى هذه الديار نظامها الإسلامي الذي به دخلت
أمتنا التاريخ ، وبه تسنمت مركز القيادة العالمية من
أوربة إلى أقصى الصين .

وهنا لم يبق متسع لاستمرار المحاولة ، فأعلن صاحب الانقلاب أسفه
لإصرار السباعي على معارضته ، ونهض اليهودعه وهو يقول : « إنك فنحن
مغفورون في اتخاذ كل ما نراه ضرورياً لحماية أهدافنا . ولكني أمل الأنياس
من إمكان التلاقي في وقت آخر .. عندما تتضح لكم حقيقة أغراض
يا دكتور ! .. »

وكان طبعياً أن يفرض الحصار على تنقلات الفقيه ، وعلى داره ، التي
أخذت تزدحم بالزائرين من مختلف أنحاء دمشق وغيرها . ثم رأى الشيشكلي
أن دمشق لا تتسع له وللفقيه فأخرجه إلى لبنان ، حيث بقي في منفاه هذا إلى
نهاية ذلك العهد .

وفي حياة الفقيه بلبنان ، مدة النفي ، صور رائحة من جهاده وأخلاقه ،
لا يحسن أن يفضلها الذين يتحدثون عن شخصية ذلك الجاهد الدؤوب ،
والأبي الأنوف .

لقد عاش أيامه تلك في خدمة للإسلام لا تقتر ، فن محاضرة ، إلى حديث ، إلى تأليف . ولقد حدثني عدد من المثقفين من مختلف الطوائف أرت للسماعي الفضل الأكبر في تعريفهم حقائق الإسلام ، التي ما كانوا ليعلموا عنها من قبل شيئاً .

ومع ذلك فإن أسوأ ما لقيه السباعي في تلك الأيام وما وليها إنما جاءه عن طريق شباب كانوا أحق الناس بيره وحبه ، وكان ذلك يوم عاد إلى سورية ليستأنف نشاطه في خدمة الحق ، فإذا هو يواجه سلسلة من التدابير حيكت في غيابه للتسلط على الجماعة ، إنها محاولة انقلاب بدأت خفية وراء الستور ، ثم ما لبثت أن خرجت إلى الملأ تراكبها وتورثها تحريشات الصحف المشبهة ، التي لم يعرف لها قط سابق اهتمام بقضايا الإسلام ، إلا عند مهاجمة دعاته ، والدعوة إلى عاداته .

وأشهد .. لقد تحمل أبو حسان من ظلم هذه الفئة - ساعها الله - ما تنوء به كواهل العصبة أولي القوة . وحسي أن أذكر مشهداً واحداً من هذه المأساة ، ولولا خشية الإساءة لمن لا يحب إيذاءهم من إخواننا الأحياء ، لوجدت متسعاً لعرض الكثير من هذه المشاهد ، التي لا أشك أنها كانت من العوامل التي انتهت به إلى الشلل .

حدث ذلك في دمشق ، وفي اجتماع ضم طائفة من قادة الجماعة ، بينهم من مصر الأستاذان أبو رقيتي وحسن العشراوي ، ومن سورية الأستاذة عصام المطار وعبد الكريم عثمان (رح) ، وحضر الاجتماع الأستاذ (فلان) عن الفئة (الأخرى) .

وطرحت الأفكار بصراحة ، وفتح مجال القول لمن شاء ، ووجد الأخ (فلان) الفرصة مواتية لتفجير ما حمل من ألغام ، فإذا هو يقول في لهجة مضغوطة لم يستطع أن يلفظها : هناك أسئلة تطلق ولا نعرف بماذا نجيب عليها .. أولاً .. معصوف الأستاذ السباعي أثناء وجوده في لبنان طوال

زمن النفى .. من أين أتى به ؟ ثم هناك مبلغ من المال كان قد قبضه من الأستاذ (أمين ...) قبل سفره إلى فرنسا لنوال الدكتوراه .. كيف تصرف به ؟ وبأي حق ؟

ووجهت الألسن ، وغامت الوجوه تحت غشاء الدهشة المرة ، إذ لم يمكن أحد منا يتوقع أن تصل الخصومة في القوم إلى حد اتهام الرجل الذي وهب كل شيء في سبيل الدعوة .

ولكن وجهاً واحداً لم تزد هذه الجراءة إلا إشرافاً وإبتساماً ، هو وجه السباعي ، الذي ظل محتفظاً بهدونه واطمئنانه المألوف في مثل هذه المجالس الخاصة ، كأن شيئاً مؤسفاً لم يحدث ! وكان عليه أن يجيب ، فقال : « أما مصاريف النفى فيجب عليّ أن أضطر لكشف السر عن وضع لا يخص أحداً سواي ، وهو أنني كنت أقترضها من ابن عمي عبد السلام السباعي في بيروت ، حتى بلغت ديوني بسبب ذلك قرابة العشرين ألف ليرة . ولقد كان في وسعي أن أنجو من هذه الديون لو قبلت معونة أخ واحد من الكويت .. لقد بعث إليّ بالسيد رفعة الأيتوني يقول : « إنك موقوف عن العمل »^(٣) ولا مورد لك ولا مسرتك ، وأن أخاك هذا كلّفني أن أقدم إليك راتباً شهرياً ربنا تكشف عنتك . »

ولكنني رجوت من السيد الأيتوني أن يرفع إلى الأخ الكويتي شكري على مروءته ، ويؤكد له أنني في غير حاجة إلى شيء من ذلك ، فألح وطلب إليّ أن أعد ذلك من باب الاقتراض فقلت : إنني أقترض من ابن عمي ، ولا أحب أن أكون مديناً لغيره .

وهنا طلب الأستاذ عبد الكريم عثمان الإذن بالسلام والتفت إلى الأستاذ (فلان) يقول : أتذكر يوم كذا ... وكنا نتحدث عن الأستاذ السباعي فقلت لي : حقاً إن الرجل مظلوم .. وضربت لي مثلاً على ذلك بأنه قد تلقى من الدكتور (أمين ...) هبة باسم الدعوة فدفعها إليك بدوره لتنفقها على

عصالح الجماعة ، وقد فعلت . ثم قلت : ومع ذلك فإن بعض الألسنة غير النظيفة تريد أن تتحرك بالباطل لتتهم الرجل بأنه استأثر بالهبة لنفسه ! وأطرق (فلان) .. وقد تذكر كل شيء ، ولكنه لم ينطق بحرف .. ثم انقض الاجتماع لصلاة الجمعة ، ففارقنا إلى غير رجعة !



واستأنف التقييد جهاده ، كشأنه المهود ، في نشاط لا يعرف الكسل .. وكانت طلائع المرض قد بدأت تدعه بين الحين والآخر ، فيرتفع ضفطه حتى يلزمه الفراش. ويلج على إخوانه بإعطائه من العمل لينصرف إلى معالجة طويلة . وقلت له ذات مرة وهو يصر على طلبه الإعضاء « إنني لراثق من الخطر الذي يتهدد صحتك ، ولكن هل يوسع العلاج أن يمد لحظة في أجلك المقرر ! .. إنك ميت على كل حال وأنا أود لك أن تقضى شهيداً في قلب المعركة ، على أن تموت حنتف أنفك على الفراش . »

وكان طبيعياً لجسد يسرف في إحراق وقوده ، أن ينطفئ أخيراً ، وفي سرعة . وهكذا وقع القدر ، ونزل به الشلل الذي انتهى به إلى الانقحار .. فالانطفاء ! ..

ولا أزال أذكر يوم وقعت عيني عليه بعد الإصابة فلم أستطع فمالك دمعي ، فجعل يسليني بما يذكرني من حكمة الله ، وجمال التسليم إليه .

وقصّ عليّ ظروف المصيبة وما لابسها من لطف الله ، إذ كان في خلوّة بعيدة عن الناس في فندق من (ضهور الشوير) بلبنان، حيث قضى أياماً في راحة لم يحلم بثلها من زمان ، ولكنه فوجيء أخيراً بانقباض في صدره لم يستطع تفسيره ، ما لبث أن استحال إلى قلق عنيف ، فدعا بالتبادل ، وطلب إليه أن يؤمن سفره عاجلاً إلى بيروت ومن ثم إلى دمشق . وهناك سأل أهله عن والدبه وتقدد أسرته ، فوجد كل شيء كما يحب ، إلا أنه ما كاد يستريح قليلاً حتى

وقعت المفاجعة .. فإذا هو في قبضة الشلل !.. وكان ذلك آية من راحة الله الذي لم يأذن بوقوعها في غرفته المنفردة في (ضهور الشوير) .. ولو حدث له ذلك هناك لكان متمذراً أن يعلم به أحد قبل ساعات ، لأنه موطن خدم الفندق أن لا يدلوا عليه أحداً وألا يواجهوه إلا بطلب منه !

وقال لي أبو حسان وهو يعبد الله على عنايته : لا أشك في أن هذه الإصابة كانت خيراً لي وأوفر أجراً .. ذلك لأن مشاغل الدعوة والسياسة كانت تستهلك وقتي جميعاً ، فلا أجد متسعاً للتأليف الذي أريد ، أما اليوم فقد أتاحت لي المصيبة فرصة ما كنت لأتصورها ، وهأنذا أكتب ما لم أستطع كتابته من قبل ، وكل ما أتمناه هو أن يمينني ربي على تسجيل كل ما لدي من أفكار في خدمة دينه ، ونصرة شريعته .

وحقق الله لأبي حسان رجاءه ، فإذا هو يضم إلى التراث الإسلامي باقة من أنفس ذخائره ، التي أخرجها الفكر المؤمن خلال هذا القرن .



ويشاء الله أن ألقاه أثناء موسم الحج - لعام ١٤٣٨٢ هـ - في مكة المكرمة ، ثم في منى . وشد ما أحزنتني منظره ، وقد بلغ منه الهزال والضعف مبلغاً كبيراً . وضبطت أعصابي وأنا أرقب شمته التي خيل إلي أنها على حافة النهاية . ثم خلوت لنفسي أبكيه وأدعوه ، وذكّرت رفاقي بحاله وسألتهم له الدعاء .. وأشهد ، لقد سمعت ضراعاتهم نصّاعد من حول الكعبة ، وفي الطريق إلى مدينة الرسول ، وعلى مقربة من الضريح المبارك .. تسأل الله العافية للرجل الذي أحرق قلبه ، وأذاب وجوده في سبيله .

ومن هنا كان عظم الفرحة التي اعترتني ، وأنا أسمع إلى أنباء تقدمه الصعيب عقيب عودته من الحرمين ، ثم عندما كنت أنظر إليه وهو يتقدم نحوي بنشاطه الجديد يوم اللقاء الأخير !

ولقد تركته يومئذ ، وأنا كبير الرجاء بأن يتكرر بيننا هذا التلاقي في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، إذ كان هو على أهبة السفر إلى مقر عمله الجديد في المسجد الحرام ، وكنت على أمل الانتقال إلى مدينة الحبيب ﷺ للعمل في جامعتها الإسلامية .

ولكن شاءت حكمة الله أن أتلقى خبر نبيه ، في الوقت الذي كنت أتربح نبأ سفره !

ومكذا قضى عليّ أن أحرم أنس أبي حسان ، وأنا أشد ما أكون رغبة فيه وشوقاً إليه !

ولكن ذكرى أبي حسان قلما تفارق خاطري .. إني لأذكره وأنا في الجامعة بين زملائي من علمائها الفضلاء ، ومع شبابها من جنود الإسلام ، الذين تعدم للشهوض بأعباء الرسالة ، التي أسلم الصباغي روحه وهو يجاهد لخدمتها ورفعتها . أتذكره وأنا أفكر في مصيره الأخير فلا أجد مندوحة عن الربط بينه وبين الظروف التي رافقت إصابته .

لقد أكرم الله أبو حسان يوم الإصابة ، فألهب مشاعره حتى انطلق إلى دمشق ليتلقى قدر ربه في بيته ، بين عطف الزوج الوفية ، ولحفة الصغار الأحبة ، وحنان الأبرين الشفيقين .

ثم أكرم الله أهله ومحبيه وزوجه وبنه ، فوفاه بالأجل المحتوم في فراشه ، وفي البلد الذي أحبه ، فأتيح لهم بذلك أن يتمتعوا بأبصارهم بشهده الأخير ، على فراش الموت ، وفوق راحات الأرقياء من تلاميذه في الدعوة ، التي أعطاه وجوده ، وفي كلية الشريعة التي شاء الله أن يحقق وجودها بجهوده ، ليخرج منها للإسلام صفوة جنوده !

وأخيراً ، إنها لكرامة ، أي كرامة ، أن تكون جنازة أبي حسان فرصة لإثارة الروح الإسلامي الذي توم كثير من قصار النظر أنه قد اندثر !

ولا حجب ، فإن هذا الإسلام الذي أراد الله أن يكون أبداً مدرسة الأبطال ، قد جعل مصطفى السباعي بطلاً يرفف في حياته العزائم ، ويبدع في مماته للمعظم .

وأعود إلى اللحظة الرهيبة ، التي تلقيت فيها النبأ المفاجع .

لقد كنت أطلع حياة الفاتحين من الصحابة في أرض العراق .

ووقفت ملياً عند نهاية البطل العظيم الذي بترت ساقه في ساحة المعركة ، فلم يبقه ذلك عن مواصلة النضال على الساق الأخرى حتى بترت هذه ، فإذا هو يتابع كفاحه زحفاً ، إلى أن وطئته الخيل وهو يضرب بسيفه في العدر !

وما نحن نتابع كفاح أبي حسان في مختلف مراحلها ، وعلى اختلاف ميادينها ، فتراها مقدماً بكل ما يملك من سلاح وخبرة ، لا يعوقه عن ذلك سجن في (المية ومية) ولا اعتقال في غيره .. ولا نفي في لبنان ، ولا مثل من حقه أن يقدم الأبطال ، حتى يفاجئهم الأجل وهو يواجه آخر طعناته إلى أعداء سنة رسول الله وصحابته الأجلة ، في مؤلفه الدامع « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » .

فألهم أرحم أبا حسان واغفر له ، واجزه عن دينك وكتابك خير ما تجزي العلماء العاملين .

اللهم قد روينا في السند الصحيح عن نبيك المصطفى ﷺ أن المرء مع من أحب ، فأحشره إليك مع صفوة خلقك ، واجمعنا به في مستقر رحمتك ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .



ويعد .. فهذه كلمات كتبها قبل أربع عشرة سنة ، وأعيد فيها النظر الآن ، فألفيها كبيرها الأول ، صورة حية للشعور الذي لا يزال يغمري كلما عادتني تلك الذكريات التي لا تنسى .

وأمسك القلم لأسجل ما يحسن أن يكون ترجمة صالحة لذلك الأخ الأثير
فلا أكاد أجد مزيداً على ما أسلفت يومئذ ، اللهم إلا أن أقول :

إنه مصطفى بن حسني السباعي .. ولد عام ١٣٣٣ هـ في حصص ، وفيها نشأ
وترعرع وتلقى تعليمة حق ما قبل الجامعة ، وأول المؤثرات في تكوينه الخلفي
والفكري ، بيته ذو الطابع الديني والعلمي ، فقد كان والده الشيخ حسني
خطيب الجامع الكبير في حصص ، وقد انتهت إليه هذه الخطابة عن آباءه وأجداده ،
وامتازت أسرته بكثرة العدد والعلماء ، وقد عوده أبوه أن يصحبه إلى مجالس
العلم وهو لما يتجاوز سن الحداثة ، ومنه تشرب حب الخير وكراهة الاستمرار ،
وشهد والده وهو يشارك في قتال الفرنسيين والمرتزقة من أعوانهم ، مع الشباب
والشايخ الذين أعادوا لمحص سيرة البسالة الإسلامية ، بما أوقعوا في قلوب العدو
من الرعب ، وبما قدموا لدينتهم ووطنهم من التضحيات ، فكانوا بذلك إحدى
الحلقات المتممة لسلسلة البطولات ، التي شاركت في تسجيلها أيامئذ معظم المدن
والجبال الشامية ، من حوران إلى أقصى الإسكندرون ، فلم يبق بلد من سورية
لم يلمح فيه اسم أو أسماء مغاوير أحيوا في الأذهان ذكريات الفرسان الذين ملأوا
تاريخ الجهاد دويلاً لا يخفت مدى الدهر .

دراسته :

بدأ حفظ القرآن الكريم قبل الالتحاق بالمدرسة ، ثم أقبل على الدراسة
النظامية حتى أتم المرحلة الثانوية وهو في الخامسة عشرة ، ولم يتقطع أثناء ذلك
عن مجالس المشايخ مع والده ، ودأب على المطالعة التي وسعت آفاق تفكيره ،
حتى كان ينوب عن والده أحياناً في خطبة الجمعة ، فيفيض على جموع المصلين
بكل ما يبعثهم على الإعجاب والانفعال .

ومن ثم شخص إلى مصر لاستكمال دراسته في كلية الشريعة ، واستمر في
طريقه هذا إلى أن نال شهادة الدكتوراه في التشريع الإسلامي عام ١٣٦٨ هـ

وكانت رسالته فيها كتاب « السنة ومكائنها... » الذي أحرز إعجاب المشرفين والمناقشين . وقد سد يومئذ فراغاً كبيراً في مجال السنة ، إذ كان تنقيداً علمياً قاهراً لأباطيل أبي ربة ومن وراءه من الهدوعين والمضلين ، وقال عنه علامة الشام المنفور له الشيخ بهجة البيطار : (لو أن العالم على مقدار العلم لكان من حق السباعي أن تلاءمته هذا المسجد بفضل هذا الكتاب) .

في التعليم :

بدأ عمله - قبل الدكتوراه - مدرساً للدين والعربية في بعض ثانويات حمص ، وقد أقبل على ذلك المسلك بنشاط وإيمان ، إذ كان على أتم اليقين بأن إصلاح التعليم هو المتطلب الذي لا مندوحة عنه لكل ما يحول في قلبه من آمال في مستقبل الإسلام ، ولما تحقق من قصور المناهج الرسمية ، وندرة النوعية المنشودة من المدرسين الواعين لحقائق الإسلام ، الناهضين بمسئولياتهم ، تحوّل من التعليم الرسمي إلى التعليم الخاص ، وأنشأ بالتعاون مع بعض العناصر الصالحة بدمشق (المعهد العربي الإسلامي) الذي كان له الفضل في تخريج أجيال من الشباب المزود بالوعي والخلق ، ولم يكف بذلك بل أحدث له فروعاً على شاكلته في عدد من المحافظات .

وشاء الله أن يتحول مرة ثانية من التعليم الخاص إلى التدريس الجامعي ، فمِن أستاذاً في كلية الحقوق عام ١٩٥٠ ، وهناك يلتقي بالكثيرين من خريجي المعهد وغيرهم من الطلبة الجامعيين ، الذين وجدوا فيه طرازاً جديداً من المدرسين لا يكتفي بالمحاضرات بلقيها ، بل لم يدع وسيلة تساعد على التقدم العلمي والتحرر العقلي إلا عمد إليها ، حتى أجمع الطلاب على تقديره وحبه ومتابعة حلقاته ومناقشاته بكل رغبة واجتهاد .

كلية الشريعة :

وفي ضوء هذه التجربة الجامعية ، مضافة إلى نجاحه وإخوانه في إسباح اللون الإسلامي على دستور البلاد الجديد كما سيأتي ، بدأ مساعيه الجبارة لإحداث كلية للشريعة في جامعة دمشق ، وزود البلاد بمحاجتها من الفقهاء الصالحين الذين تتطلبهم المرحلة الجديدة . وتوج الله مساعيه وإخوانه بالتوفيق ، فأُنشئت الكلية وعهد إليه بمبادئها الأولى ، فأنطلق بها في طريق النمو والعمل والتعميق ، حتى أصبحت على حدائق عهدها في طليعة الكليات تقدماً في ميدان العلم ، وتأثيراً في أوساط المجتمع ، وكان لها بمثابة الأب الحاني يقدم إليها كل يوم جديداً من التضييقات ، وقد كان له (قاعة البحث) التي أحدثها في هذه الكلية أثر بعيد المدى في تفجير المواهب ، وتوسيع آفاق المعرفة لدى الطلاب ، الذين وجدوا فيها متعة جذابة تقدم بزيادة التجارب العلمية ، وتصحح له مجالاً جديداً لبناء هذه العقول والنفوس المتفتحة لكل خير ، حتى إنه لم يكن بقادر على إغفال أي موعد له معها ، مهما يشتد عليه الأمل الذي شاء الله ألا يزياله منذ أم به .

الموسوعة :

ورأى من ضروريات العمل ، لتوسعة سلطان الفقه الإسلامي ، تيسير السبل الكفيلة بتقريبه من متناول القانونيين والماملين في نطاق التنظيمات القضائية والحقوقية ، ومن هنا انبثق اتجاهه وإخوانه ، من المشاركين في هذا المضمار إلى تكوين « موسوعة الفقه الإسلامي » ، فبدأ العمل فيها داخل كلية الشريعة ، ولكن المشروع أكبر من طاقة الكلية والجامعة ، ولا بد له من مساندة دولية تتعهد بالمخصصات المالية اللازمة ، وكانت الوحدة قد جمعت بين مصر وسورية ، فسكت التحركات السياسية ، وتوقع الناس عهداً جديداً من الخير ينعم به الإقليم ، وتنامى إخوان سورية جراحهم التي أزلها الحكم السابق ورجالها في مصر ، فتقدم السباعي باقتراح إلى جمال عبدالناصر يدعو إلى تبني أمر الموسوعة ، على اعتبارها من أهم الأعمال التي يستطيع تحقيقها ، واستجاب للاقتراح أول

الأمر ، وألفت اللجنة المختارة وأتمت بعض الخطوات المبدئية في المشروع ، ثم توقف العمل الذي لم يشأ الله إتمامه لأمر هو أعلم به ، ومن ثم انتقل إلى الكويت ، حيث تراوح المشروع وما يزال يتراوح بين مضي وتوقف ، وقد بدت تبشير استثنائه في عزيمة جادة وإمكانيات علمية .

في أثون السياسة :

وفي عام ١٩٤٩ بعد انحسار ظلمات الانتداب الفرنسي عن سماء سورية لم يكن بد من تنظيم قواعد الدولة ، بإقامة المؤسسات الدستورية الضرورية ، فاقترض ذلك إجراء انتخابات تقدم البلاد بها ممثلها لوضع قانونها الأساسي ، وكان على رجال العمل الإسلامي في دمشق ألا يغيبيوا عن هذه المناسبة ، التي كان لهم الفضل الأكبر في قيادة البلاد إليها ، فقرروا خوض الغمرة بطائفة من الرجال المؤثمين ، ليشاركوا في توجيه المستقبل ضمن الخط الإسلامي ، وقدر الله النجاح لهؤلاء بالكثرة من الأصوات ، وفي مقدمتهم الرجل الذي عرفته سورية كلها من خلال نشاطه الذي حرك الحامد من العقول والضمائر .

وسرعان ما لمع نجم الفقيه داخل المجلس التأسيسي كما كان خارجيه ، فاختير نائباً لرئيسه ، وكان أحد التسعة الذين عهد إليهم بوضع مسودة الدستور .

وكان على النواب الإسلاميين أن يخوضوا معركة حامية لتوكيد المقاصد الإسلامية في ذلك الدستور ، على وجه يحفظ للشام طابعها الموروث منذ عهد النبوة . وقد زاد المهمة تمقيداً فله عدد هؤلاء بالنسبة إلى مجموعة النواب ، إذ كان المهيمن على مسرح الانتخاب نواب من اتجاهات أخرى ، يضاف إلى ذلك فقدان الوعي الإسلامي الصحيح من أوساط العامة ، الذين لا يملكون القدرة على تصور النتائج ، التي تخطط لها الأيدي الخفية من وراء ألف ستار ، فهم مأخوذون بالدعايات الصارخة التي تجعل (الوطنية) الظاهرية هي المياس الأمثل لتقديم الأشخاص ، دون بحث عن وعما خلفهم من التيارات .

وشملت الحركة البلاد كلها لا المجلس وحده ، وقد قادها السباعي وإخوانه من التجمع الإسلامي بشجاعة قاهرة وعزيمة باهرة ، حتى تمكنوا من استبعاد الطابع الطائفي عن الدستور ، وتثبيت اللون الإسلامي على معظم أحكامه الأساسية .

في الصحافة :

وكانت الصحافة إحدى أهم الركائز التي أحسن السباعي استخدامها في تلك الحركة ، فمن طريق (المنار) - جريدة الدعوة يومئذ - كان يحرك الجماهير بالكشف عن محاذير المسلك غير الإسلامي ، وباقتراحاته البليغة بل الساحرة فكان يناقش المساندين لتجريد الدستور من اللون الإسلامي ، باسم العلوم الدستورية ، فيرد بالهجوم القانوني ، التي لا ترد دعاوهم الباطلة التي توم الجاهلدين وأنصاف المتعلمين بصحة مزاعمهم ، فتأتي هذه الاقتراحات لتحويل ما يتوه في الهواء هباء منثوراً ، وتستقطب كل يوم أفواجا من المؤيدين للاتجاه الإسلامي ، بعد أن كفوا من المعارضين له ، أو المترددين بشأنه ، حتى ليرتفع ثمن العدد الواحد بسبب هذه الاقتراحات إلى أضعاف أضعاف ثمنه .

ولم يقف نشاطه الصحفي عند معركة الدستور وحدها ، بل استمر مراقفاً له حتى العظمت الأخيرة من حياته ، إذ كان موقفاً بأن الصحافة - إلى جانب المدرسة - أفضل الوسائل في الإصلاح والإفساد ، وإذن فلا بد لفكر الإسلامي من صحافة تدافع وتهاجم وتنتشر الوعي بين الجماهير ، التي هي هدف التيارات الهدامة جميعاً ، ويجب أن تكون القاعدة الأساسية لكل عمل إسلامي صحيح . ومن هنا كان اهتمامه بهذا الجانب من وسائل الإعلام ، فأنشأ (المنار) يومية عام ١٩٤٧ ثم (الشهاب) شهرية ، التي استمر صدورها حتى عام ١٩٥٨ التي تمت فيه الوحدة بين القطرين ، فتوقف نشاط الجاهات وما لها من وسائل النشر . ومنذ توقفت مجلة (المسلمون) في مصر شرع في تجديد إصدارها من دمشق

على نفس الحطة التي عرفت لها من قبل ، ثم حولها إلى (حضارة الإسلام) الشهرية التي ظل قائماً عليها حتى توفاه الله ، ولا تزال حتى الساعة مواصلة صدورها وجهادها في خدمة الإسلام ، برئاسة أخيه في الدعوة الدكتور محمد أديب الصالح الأستاذ في جامعة دمشق .

في المعتقلات :

والسياسة بالنسبة إلى مثل شخصية السباعي جزء لا يتجزأ من الحياة ، لأنها العمل الذي يتولى الجانب الأكبر من قيادة المجتمع ، فلا سبيل إلى عزله عن مجال المصلحين ، إذ لا سبيل إلى تحديد منطقة كل من المصلح الاجتماعي والقائد السياسي في حياة الشعوب . وهكذا بدأ الفقيه نشاطه السياسي مطلع شبابه ، أيام كان يرسل خطبه الأولى من على منبر الجامع الكبير في حمص بلد ابن الوليد ، ثم مضى يحمل قسطه في عملية النضال ضد الاحتلال الفرنسي ووسائله المختلفة ، فقاوم مدارس التبشير بالمنشورات الدائمة ، وشارك في التظاهرات الوطنية لمكافحة الاستعمار . وفي مصر شارك في إثارة الوسط الأزهرى ضد الاحتلال الإنجليزي ، وأثناء الحرب العالمية الثانية عمل مع المؤيدين لثورة رشيد عالي الكيلاني لتحرير العراق من الإنجليز . وقد أدى به ذلك إلى عدد من الاعتقالات ، ففي عام ١٩٣١ سيق إلى سجون الفرنسيين بتهمة مسؤوليته عن منشورات وزعت في سورية احتجاجاً على سياستهم في المغرب ، وفي عام ١٩٣٢ اعتقل ثانية في سورية بسبب إحدى الخطب المثيرة ، وفي عام ١٩٣٤ اعتقله الإنجليز في مصر ، وعام ١٩٤٠ أعاد الإنجليز اعتقاله في قضية رشيد عالي ثم أبعده إلى فلسطين واحتجزوه في ممتقل (صرفند) وفي سنة ١٩٤١ اعتقله الفرنسيون مرة أخرى وجعلوا ينقلونه بين سجون حمص وبيروت والمية وصية وقلمة راشيا ، حيث بقي سنتين ونصف السنة معرضاً لأصناف النكال .

السباعي وفلسطين

وكانت الأحداث تتتابع بقوة مفزعة في قلب فلسطين ، وكلها تشير إلى النهاية المخططة من قبل الاستعمار وأعوانه . ولم يكن ليغوث الفقيد أبعاد المؤامرة بالنسبة إلى أقطار العرب ومستقبل الإسلام كله . ولم يجد سبيلاً للقيام بالواجب نحوها إلا الإقبال على جماهير المسلمين يفتح أعينها على الكارثة القربية ، فراح يتجول في المدن السورية موضعاً متنبهاً ، أخذاً عليها الموائيق المفلطة لنصرتها ، وكان ذلك عام ١٩٤٣ والبلاد السورية تحت كابوس الأحكام العرفية ، فلم يعبأ بمواقب ما يفعل . واستمر على ذلك في حامية ربه حتى ألحبت المشاعر وشهدت المآثر ، وهياً الجول للمركة الفاصلة .. حتى إذا دوتى تغير الجهاد عام ١٩٤٨ نهض لاستجابة الداعي يقود كتائب الإيمان إلى قلب فلسطين ، واختار مجال عملها منطقة القدس ، حيث حقلت أروع البطولات في قتال لم تشهد شوارع بيت المقدس له مثيلاً قط ، حتى استخلصت من العدو أجزاء كانت الأيدي المجرمة تتفانى في الحفاظ عليها ، ولم يتوقف ذلك الجهاد الرهيب إلا بعد أن توقفت الحرب كلها بخضوع الحكومات العربية للهدنة المفروضة ، وإكراهها المجاهدين على التراجع عن الأرض الحبيبة .

بعض لم يتوقف :

ولكن سكوت الرصاص لم يمنع السباعي من مواصلة طريق الواجب ، فعاد من جهاد البندقية إلى جهاد البيان ، ومضى يكشف للناس ستور المؤامرة الكبيرة ، والمخططين لها والضالعين معهم . وما زال يكافح في هذه السبيل حتى استطاع إقناع المسؤولين بإدخال القضية الفلسطينية كأداة دراسية في مناهج التعليم ، كي تظل الأجيال على ذكر منها ومن الوعي للإبانتها وأبعادها ، وراح في الوقت نفسه يطرد البحوث حولها بصورة مستمرة في مجلة (حضارة الإسلام) التي لا تبرح حتى الساعة تتابع طريقه في موضوع (الدررة المنتصبة) .

في قتال الفرنسيين :

وكان العام ١٩٤٥ موعد الحسم التاريخي للقضية السورية مع فرنسا بعد أن نقضت هذه عهداً ، ومزقت معاهدة الاستقلال التي عقدتها مع ممثلي الشعب السوري في باريس عام ١٩٣٦ فتحركت البلاد تطالب بجلاء المحتل ، ورد هذا على ذلك بوحشية تجاوزت كل جرائمه السابقة . ومن هنا كان لا بد من اللجوء إلى السلاح مرة أخرى ، فانطلقت القوى الشعبية لقتاله في كل بلد .

وكان لفقدنا الغالي جولات مذكورات في هذه المناسبة ، إذ وجد فيها المجال الذي طالما سعى إليه . وعرف بما خبره في حرب اليهود كيف يجعل من ضرباته للعدو ومن معه من المرتزقة مقاسمات مرعبة تزلزل الأرض تحت أقدامهم ، حتى أم الله فضله بطرد الأعداء الذين لم يلبثوا أن :

خرجوا في مواكب العار يحدوهم هتاف الهوان والإزدراء
وعلى الشام من طيوف مأسية بهم بقايا الآلام بعد الوباء

في ميادين الثورة :

أدرك النقد مبكراً أن طبيعة العمل الإسلامي قائمة على التعاون ، وهذا ما حداه إلى تأسيس وقيادة العديد من الحركات الإسلامية في سورية ، وأكد اهتمامه بهذا الجانب اتصاله بحركة (الإخوان المسلمين) بمصر تحت قيادة الإمام حسن البنا . إذ وجد في تنظيماتها الحكمة المجال الذي يتطلع إليه ، فما لبث أن ارتبط بها ، وشارك في أنشطتها المختلفة ، ومن ثم عمد إلى مد هذا النشاط المنظم إلى سورية ، فأنشأ بالتعاون مع إخوانه الجناح السوري لجماعة الإخوان المصرية عام ١٩٤٥ واختير مراقباً عاماً له .

وسرعان ما استطعت هذه المنظمة ذوي الاتجاه الإسلامي ، فإذا هي بعد قليل تحتل المرتبة العليا في توعية الجماهير وشحن كفاياتها ، ولما زحفت كتائب الإخوان لتجدة فلسطين مكان التعاون على أنه بين الأصل والفرع ، سواء

في جبهات القتال أو في ميادين التدريب ، ولما أوقع فاروق اغدرته في ظهور الإخوان ، وقام رئيس وزرائه إبراهيم عبد الهادي باغتيال الإمام البنا ، كان لا مندوحة لها من القضاء على نشاط رفيقه المختار مصطفى السباعي بالاعتقال أو بالاعتقال ، استكمالاً للمخطط المرسوم ، لتخلص من الجماعة التي يعتبر وجودها الخطر الأكبر على استمرار إسرائيل . ولحسن الله شاء غير ما أرادوا فحجزت وسائلهم عن الوصول إليه ، وانطلق بقود التظاهرات الهائلة تملأ شوارع دمشق لنصرة إخوان مصر ، حكماً نزلت بهم نكبة ، أو تحرك الطيشان لينزل بهم ضربة .

القناة والمدون الثلاثي :

والسباعي الذي بايع الله على الإسلام لا يستطيع بمجامل قضاياها حيناً كانت ، ومهما كانت الظروف التي تحيط بها ، وليس بوسعه التقرييق بين قطر وآخر من بلاد الإسلام في هذا المضمار ، لذلك كان في مقدمة المناضلين لمصلحة مصر يوم دعا الواجب إلى ذلك . ففي عام ١٩٥٢ ألقى في السجن لمدة أربعة أشهر بسبب تحريك الشعي لمؤازرة المثاليين للإنجليز في معركة القناة . وفي سنة ١٩٥٦ كان البركان المتدفق بالهلم أيام المدون الثلاثي على مصر ، وبمسانحه ولحمريضه استحالته الجامعة بدمشق معسكراً للتدريب ، ضم بين جناحيه الأساتذة والطلاب على سواء . وقد أعلن وإخوانه تأييدهم المطلق لرجال الثورة في موقفهم من أهداء مصر ، ناسياً كل ما أتزله النظام السابق من نكال في قادة الدعوة وشبابها .

السباعي والشيشكلي :

ويوم قام الزعيم أديب الشيشكلي بانقلابه على الحكومة القلاونية بسورية تقدم للتوسط بينه وبين رئيسها السجين الدكتور معروف الدواليبي ، وجهده لاقتناع الشيشكلي بتصحيح موقفه ، حتى إذا استياس من ذلك حالته بالعداء

فضمه إلى صديقه النواليبي في سجن المزة . ثم بعد مدة أفرج عنه واستدعاه ، وجعل يحاوره محتثراً إليه عما أسلفه نحوه ، محاولاً إقناعه بالتعاون معه على اعتبار أنه مسلم لا يريد بالإسلام إلا خيراً . ولكن الفقيه كان أكبر من محاولة الشيشكلي ، فأفهمه أن الإسلام يقتضيه أن ينسحب من الحكم ويتركه للبيئات الدستورية ، ولا مكان للتعاون بينها إلا على هذا الأساس ، فسقط في يد المسكري ، وأبلغه تصميمه على البقاء ، وعلى إلزامه بيته . ثم رأى أن سورية لا تتسع للثلاثين فأمر بإخراجه منفياً إلى لبنان .

موقفا لا ينسى :

ويأبى اندفاع الفقيه الانحصار في جانب من الأرض ، فكانت رحلاته إلى كراتشي سنة ١٩٥١ وأوربة سنة ١٩٥٦ وموسكو سنة ١٩٥٧ وفي كل منها كان له آثاره في الأفكار ، وفي خدمة الدعوة ، ونقف من هذه الزاوية على مؤتمر بجمدون^(١) سنة ١٩٥٤ بحاصة .

لقد دعت إلى هذا المؤتمر طائفة من رجال العلم والسياسة الأميركيين باسم (المؤتمر الإسلامي المسيحي) وكان الهدف الأبعد لهم هو تآريث العصبية الدينية ضد الشيوعية ، بوصفها عدوة الأديان جميعاً . وبعد تردد رأى دعاة الإسلام في دمشق حضور المؤتمر لقطع الطريق على المستقلين .

وفي بجمدون دار نقاش طويل عريض حول الدين والإلحاد والماركسية ، وكاد الأمر يتحول لمصلحة السياسة الأميركية ، فطلب وفد دمشق الكلام . وقدم السباعي لإيضاح رأيه ، قنلا عليهم كلمة جامعة مانعة في الموضوع ، كان لها أكبر الأثر في الأوساط الأميركية والإسلامية . إذ أوضحت للأعضاء الأميركيين أن عداة الإسلام للماركسية لا يمكن أن يُنسى المسلمين عدوانهم

(١) أحد الصايف اللبنانية بين بيروت ودمشق .

على فلسطين، وتسردهم أهلها لتوطين شذاذ الآفاق من يهود العالم ، بالتعاون أو
التنافس مع الاتحاد السوفييتي نفسه !

وهكذا استطاعت صراحة السباعي أن ترد الأميركيين إلى بعض الوعي ،
فيعتونا اعترافهم بظلم قومهم ، ويمدوا بأنهم سيمتلون على نوعية شعوبهم
بهذه الحقيقة .

وإيمان فوق الخوف :

ومن مآثره البطولية رحمه الله ذلك الموقف العجيب الذي واجهه به حكم
الإعدام ، الذي أصدر على شقيق له أيام رئاسة نور الدين الأتاسي على سورية .

لقد وزعت في المدن السورية منشورات تدعو إلى الإضراب إعلاناً لمعارضة
السلطان ، وخرج الناس يومئذ في حرس إلى الأسواق ليروا مدى استجابة الناس
لهذه الدعوة . ووقف ذلك الفتي السباعي أمام حانوته يجوار الجامع الصغير
منتظراً ماذا يجب أن يعمل ، أيفتح الناس فيفتح ، أم يضربون
فيضرب معهم !

وصدرت الأوامر العسكرية بسحق المحاولة دون رحمة ، وحل الفتى في من
حل إلى السجن ، ومن ثم حكم عليه مع آخرين بالموت . ولكن الله لم يقدر تنفيذ
الحكم فعال بين المحكومين وإعدامهم .

وحدثني الأخ الفقيه ، وكان المحكومون يتوقعون حبل المشنقة يومئذ ، فقال :
هذا الطاغية - نور الدين الأتاسي - يريد مني أن أزوره لأشفع لأخي ..
وهيأت له ذلك !

أجل .. لقد كان إعدام أخيه يومئذ أقرب إلى قبوله من التفريط بعزة
الإسلام أمام الطغيان . ولن يستغرب ذلك من رجل كصطفى السباعي مطمئن
القلب بالإيمان أن الخلق كلهم لو اجتمعوا على أمر لم يستطيعوه إذا لم يسبق به
قدر الله .

مؤلفاته أثناء المرض :

ولعل ملايسات مرضه لا تقل عظيمة عن هذه البطولة . فقد شاء الله ، جلّت حكمته ، أن يصاب بالشلل الجانبي ، وأن يعاني من ذلك ما تنوء به العزائم طوال سنوات ثمان ، لم يفتر خلالها عن التسبيح بحمد ربه والصبر على ما قدر له ، وعلى الرغم من الآلام المبرحة المتصلة ، لم يكف عن نشاطه في خدمة الكلمة المؤمنة مدرساً ومحاضراً ومؤلفاً ، حتى أسلم روحه لبارئته عام ١٩٦٤ .

وحسبنا أن نشير من عشرات مؤلفاته إلى كتبه الثلاثة واشتراكية الإسلام ، و « المرآة بين الفقه والقانون » و « هكذا علمتني الحياة » التي كتبتها في ظل المرض والألم . وكان الأول والثاني منها محاضرات أقيمت على طلاب كلية الشريعة ، ثم جمعت في هذين الكتابين .

أما الثاني والثالث فلم يختلف على روعتها وسدادها قارئان من المسلمين ، بخلاف الأول الذي قيل فيه الكثير ، وصنف في نقده أكثر من كتاب ، فليس حسناً أن نمر بذكره دون كلمة في تقييمه (١) .

من أجل الإنصاف :

لقد شاء بعض ذوي الأغراض من مدعي العلم استغلال الخلاف القائم بشأن هذا السفر ، فراح ينفث ذات صدره في منشورات لا يراد بها وجه الله ، وكان من ردوده الفعل لذلك ندوة أقيمت في الجامعة السورية ، تحدث فيها عدة من العلماء مؤيدين للكتاب ومؤلفه ، مفندين ادعاءات خصومه ، مفرقين بين أهل العلم منهم وأهل الأهواء .

وكذلك كان لحكام مصر في ذلك الوقت نصيبهم من هذا ، إذ رأوا في عنوان الكتاب ما يمنحهم مجالاً واسعاً للاستغلال ، فأخرجوا منه مئات الألوف

(١) نصر على صحة استعمال التقييم أسوة بقولهم (عيتد ونيتف) وكلاهما واوي الأصل

من النسخ في طبعة صغيرة ، وزعت على القوات المسلحة ، وفي مختلف الأوساط ، وأطلقوا لإذاعتهم المنان تقتطف منه ما يتفق مع أهواء الحكام ، ومساوئهم السذج بأن الإسلام هو تلك التصرفات التي يعالجون بها أمور الناس تحت ستار (الاشتراكية) في مجتمع (الكفاية والعدل) !

وقد أثار هذا الاستغلال سخط المؤلف في حينه ، فوجه إلى القارئين به تقريباً لإذاعاً قرأه الألو في الصحف السورية ، ولا بد أنهم اطلعوا عليه ، وإن لم يرتدعوا به .

أما نحن فنقول : إن قارئ الكتاب في روية وتجرد لا يجد أي صلة بين مضمونه وأي من المذاهب الاشتراكية المعروفة في العالم ، وليس له صلة بالاشتراكية خارج نطاق العنوان ، الذي كان ضرباً من المشاكلة اللفظية ، كالذي نقرؤه في قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله » ، وقوله عز من قائل : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم .. » وشتان بين المكورين والاعتداءين ، فإذا كان مكر الكافر احتيلاً على الحق لصرف الناس عنه ، فهو من الله رد له بما يبطله ، وإذا كان اعتداء الظالم تجاوزاً على الحق ، فهو من المؤمنين المدول دفع له بما يحقق الأمن ويمحق البغي . وإنما اختار له ذلك العنوان اجتذاباً لأذهان الجليل ، الذي زينت له الاشتراكية حتى باتت في نظره هي الحلم السعيد ، فكل حديث عن عدالة الإسلام وتفوقه على المحاولات البشرية ، لا يجد أذنأ مصنية إذا لم يحمل إشارة إلى ذلك الإطار السحري . أما مضمون الكتاب فبحث علمي في الحياة الإنسانية ، وما يحيط بها من مشكلات الفرد والمجتمع ، وما أزل الله من الحلول لكل معضلة منها ، على الوجه الضامن للتوازن ، المحقق للصحة والأمن ، وعلى صورة من الدقة لا تحمل بيمضها عقول المفكرين في سائر العصور ، ولو سكان بعضهم لبعض ظهيراً .

والسباعي في كتابه هذا يعالج الأوضاع البشرية على ضوء الشريعة الإسلامية بطلية العالم المجهتد الذي يحاول امتنباط الحل من منابع الوحي دون تعصب لمذهب بعينه ، وينقب في صفحات التاريخ عن المثل التطبيقية التي برز هذا الحل من خلالها ، وما أحسب ثاقداً بقادر على أن يدل على حكم واحد قال به المؤلف لا يعتمد فيه على أصل من الكتاب أو السنة أو التطبيق السليم من عصور السيادة الشرعية ، وقولنا هذا لا يعني أننا ندعي له العصمة من الخطأ ، بل نقول بأن كل خطأ صدر منه أثناء ذلك لا يمدد حدود الاجتهاد ، الذي يؤجر صاحبه على كل حال إن شاء الله . ولعل أكبر أخطائه تلك يتمثل في العنوان الذي وجد فيه المضللون كل مسوغات الاستغلال .

إيضاح لا بد منه :

بقيت كلمة أخيرة حول موقفه (المتطور) من جمال عبد الناصر ، فقد أخذ عليه بعض إخوانه القدامى مهادنته للرجل ، منذ العدوان الثلاثي إلى نهاية عهد الوحدة بين الإقليمين .. وهو حكم لا مسوغ له إلا عند الذين يعيشون خارج نطاق الأحداث ، وإلا فأي عذر للسباعي لو حكمتكم بواعت النعمة من رجال الثورة فمغذلم وهم في قلب المعركة دفاعاً عن مصر العزيزة .

أما مسألته القوم بعد الوحدة فعلى أساس الأمل الذي راود كل مسلم بأن يبدؤوا عهداً جديداً من الاعتدال الذي توجبهم إسلامية الشعب السوري ، الذي لم يتنكر لإسلامه قط ، على الرغم من كل المحاولات الهدامة التي اقتتلها المعارضون للإسلام .

ولا نفسي مع ذلك أن تلك الوحدة كانت بالنسبة إلى الأوضاع السورية آتخذ عملية إنقاذ أشبه شيء بحراة تجري لمريض لا سبيل إلى تخليصه من أوجاعه إلا بشق بطنه أو كشف دماغه .

فالشيعية الحمراء تنيخ بكلاكلها على صدور الناس ، وتخرج لهم كل يوم مسرحية تنشر الرعب في كل مكان .. والحزبية الصماء تنافس الشيطان في التضييل ، فتمزق البرلمان ، وتسوق كثرته إلى تجمع تعبث به الأيدي الملوثة ، وإلى جانب هذا وذاك تقوم المحاكم العرفية باسم الشعب ، للتخلص من حكل العناصر التي تتوسم فيها بقية من الأنفة والكرامة . وبذلك وضعت البلاد على شفا مجزرة أهلية يقتل فيها الأخ أخاه والولد أباه ، فكان ارتقاء الجميع في أحضان الثورة المصرية ، على عجزها ويجرها ، أهون الثرين وأيسر الهنتين على الشعب السوري ، الذي أصبح ذلك المريض الذي لا مناص من شق بطنه أو كشف دماغه .

وفي حال كهذه يكون من أسخف السخف أن يقف الساعي أو غيره في وجه السيل الجارف ، بدلاً من العمل على تنظيم مجاريه ، بالحكمة والموعظة الحسنة .

وهكذا كان موقف الفقيده من سلطان عبد الناصر في سورية أول الأمر ، حق تحقق له أن الرجل مدفوع في منزلق لا يستطيع فيه التماسك ولا نية له بالعودة عنه .

رؤيته الإسلامية :

ولئن سبق قدر الله فعالت وفاة الفقيده دون الوقوف على آرائه في مستقبل الجيل وواجب العلماء ، إن في آثاره التي خلفها مستدركا يمده بالمزيد من ذلك ، فليس ثمة كتاب أو مقالة أو خاطرة أنتجها قلبه إلا وهي حافلة بما يؤكد أنها أمالي مفكر درس تاريخ أمته ، وأوضاع جيله ، واستوعب الخطوط الكبرى لواقع العالم المعاصر ، ورصد ذلك كله من خلال الرؤية الإسلامية التي تنظر إلى الأشياء بنور الله .. فهو طيب من الطراز النادر ، يشخص الدواء كما هو ، ثم يصف له الدواء كما يجب . ولذلك تعددت جوانب جهاده ، ومحاولاته الإصلاحية ، ووسائله إلى تحقيقها .

موقفه من البدع :

لقد كافح البدع في الدين لأنها عناصر دخيلة تسلط إلى فهم الناس ، فأفسدت عليهم تصورهم للحق ، فكانت كالإضافات التي يضيفها الجاهل إلى وصفة الطبيب الحاذق ، تبطل صلاحيتها ولا تنفع المريض بشيء . وقد حدثناك عن عمله في إبطال بدعة (خيس المشايخ) وما أدى إليه من رفع كابوس الدجالين عن صدور المندوعين .

وبين يدي الآن الحلقة الثانية (من أحاديث الدعوة) التي كان يبشها عن طريق الإذاعة ، وتوزع على جواهر الشعب في كرايس مطبوعة ، وقد خص هذه الحلقة بالكلام عن (لية النصف من شعبان) وفيها يقول عن دعائها المشهور : « وإذن فهذا الدعاء من صنع المئات المتأخرة .. وهو من الناحية الشرعية غير جائز ، فقيه الزعم بأن لية النصف من شعبان هي التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، وهذا زعم باطل باتفاق جمهور العلماء . وفي هذا الدعاء نسبة الهو والإثبات إلى الله في أم الكتاب ، وهو محال عليه ، وعلم الله لا يتبدل ولا يتغير ، ومن زعم غير ذلك فقد سب إليه الجهل أو التردد ، وكلاهما على الله محال . »

ولا شك أن مكافحة البدع هو أول طريق الإصلاح للجيل المسلم ، الذي لا أمل له بالنصر إلا عن طريق الالتزام بمحائق الإسلام ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالوقوف عند حدود ما شرع الله وبلغ رسوله ﷺ . وفي هذا يقول ، غفر الله له ، في مقدمة هذه الحلقة : « فإن الله لا يقبل من الدين إلا ما كان خالصاً له ، ولا يقبل من العبادة إلا ما أمر بها ، وما أهلك أهل الديانات إلا تريدن فيها ، وابتداعهم ما لم يأذن به الله . »

لكي يتفهم المصلحون :

وما يدخل في تحديد مهام العلماء نحو مجتمعاتهم ، والخصائص التي لا مندوحة لهم عن التسلح بها لتمكينهم من التأثير في حياة الناس ، قوله بعد أن يحصر

معنى الحياة بكونها (فكرة وعقيدة) : « وأجدر الناس بالحياة الكريمة هم أرباب العقائد ، فهم الذين يتذوقون السعادة في غير ما يألفه الناس من معاني السعادة ، إن السعادة عندهم قد تكون سجنًا ، وقد تكون حرمانًا ، وقد تكون تشردًا ، وقد تكون عذابًا ، وقد تكون موتًا . فصي السجن والحرمان والتشرد والعذاب سعادتهم ولذتهم وهناءة تقوسهم ، وإن كان الناس يرون ذلك كله بلاء وشقاء ، وبذلك كان المصلحون يعيشون في مجتمعاتهم وكأنهم غرباء عنها ، إنهم ليخالفون الناس ويؤاكلونهم ويمازحونهم ويعاملونهم ، ولكن المقاييس التي يقيسون بها الفنى والفقر والمطاء والحرمان والسعادة والشقاء غير المقاييس التي يعرفها الآخرون ، وما رأينا مصلحاً في قومه قد سلم من أسنة المعاصرين واستهزأهم .. » (١)

كأنه يصف نفسه :

والعارفون لأخلاق الفقيد المتبعون لمسارح جهاده وصلابة عزمته في الحق ، وما لقيه من العنت والآلام ، ومن إساءات الذين كان من أحق الناس بهم ، يدركون أنه بتعديده هذه المعالم إنما ينطلق من خلال تجاربه الذاتية وميزاته الخلقية ، وهو ما تلحبه صريحاً في بعض شعره ، وبخاصة الذي أرسله مع أنفاس الأخيرة ، كقوله في قصيدة يصف بها أصناف الناس ومسلكه بينهم :

معارك في ساح الهدى وصعالكِ	هم الناس بين اثنين: حيدر تشوقهم
ففي الحق محرابي وفيه مناسكي	دعيني أعيش العمر في غربة الهوى
وفي العلم محرابي وفيه سباتكي	وفي النصح لذاتي وفي الخير فروتي

وفي حائيته الأخيرة يقول :

(١) « سفارة الاسلام » العدد الخامس بالرقم لعام ١٣٨٤ هـ .

يا سهام الأقدار خلي ثلاثاً هي عندي وجه الحياة الصحيح
 اركبي لي عجلي أفكر فيه وعيوني أروى بها وأروح
 ويدي تملأ الصحائف علماً وبلاغاً ، وبالشجون تبوح

ولقد استجاب الله رجاءه فلم يحجب نوره عن بصره ولا بصيرته ، وأمدّه
 بالمون فلم يشل قلبه عن الإنتاج الرشيد المفيد حق لقي وجه ربه الرؤوف الرحيم .

واخيراً :

وكان من حق التقيد أن نخص شعره ببعض الحديث ، فله في هذا الفن
 جولات موفقات ، وبخاصة في الجانب الديني والسياسي . وأذكر أنه أسمعي
 عقيب مغادرته سجن الشيشكلي قصيدة طويلة فيها من التوفيق الشيء الكثير ،
 وإن كان الغالب على منظومه طابع النثر الذي هو أداته المفضلة والأكثر استعمالاً .
 ولكننا نكتب هذه الأسطر وليس لدينا من شعره الكثير سوى القليل .

على أن إشارتنا لبعض أبياته الحانية تذكرنا ببعض الهفوات التي تعرض لها
 هناك عليه رحمت الله . ففي لحظات من طفيان الألم شط عن الخط فإذا هو
 يوجه شكواه إلى الحبيب ﷺ فيسأل أصفياه أن يحملوه إليه وأن يطرحوه
 بيابه ، ثم يعرض أوجاعه على رسول الله ﷺ ثقة ببركته ، سائلاً إياه الدعاء
 الذي لا يرد .. إلا أنه يستدرك أخيراً فيحصر آماله بالله وحده قائلاً :

حسي الله لا أريد سواه هو أنسي وفي حماه أريح
 رب لولاك ما استطعت ثباتاً في مسيري ولا سميت بي روح

ومها يقل في تأويل كلمات الفقيد فقد كان الأحب إلى قلوبنا أن يوجه مسأله
 كلها إلى الله وحده ، متوسلاً بطاعته لنبيه الأكرم ، وتضعياته الكثيرة لإعلاء
 كلمته ، فذلك هو السبيل الأقوم .

وجزاء الله من واسع مغفرته خير ما يجزي العاملين المصلحين ، إن رحمة الله
 قريب من المحسنين .

الدكتور مصطفى محمود

هو مصطفى كمال بن محمود حسين ، واشتهر في الوسط العلمي والأدبي باسم الدكتور مصطفى محمود .

وُلد في ١٩٢١/١٢/٢٧ في قرية شين الكوم بالمنوفية من مصر ، من أسرة متوسطة ، كان أبوه موظفاً برتبة أمين سر للمديرية الغربية . ويغلب على الأسرة الطابع الإيماني ، وقد اختار لها الأخ الدكتور هذا الوصف لخصائص مميزة لها ، فهو يصف أباه بأنه ملتزم لشعائر الإسلام اليومية ، يحافظ عليها ، مستغرق الوجود في معانيها حتى ليعده (من أهل الله) . ويزيد على ذلك اعتباره إياه أنموذجاً من الأولياء المستورين - على حد تعبيره - أما والدته فلا تختلف عن هذا الاتجاه ، إذ كانت كثيرة الاتصال بالقرآن ، تكثرت قراءته وتطبع بروحه . وهكذا غلب على بينته المنزلية ذلك الجو الروحي الذي سيرتلك آثاره عميقة في كيانه .

ولا يقف طويلاً على مسقط رأسه ، لأنه لم يلبث سوى أيام يعد ميلاده حتى انتقل مع أبويه إلى طنطا ، وبات عليه أن يتلقى مؤثرات هذه البيئة المميزة حتى سني المراهقة .

لقد فتح عينيه في طنطا على مقام البدوي ، فتحج إليه وفود المؤمنين به من كل فج ، والتدور تساق إليه بسخاء الوراقين بكراماته ، فلم يكن يوسعه التخلّص من هذه الموحيات ، فأقبل كغيره على توريد الأوراد وتقديس مشاهد الأولياء ، على الطريقة الاستسلامية التي لا تتسع لكلمة : لم ؟

دراساته :

وعلى دأب الموروث من التقاليد يبدأ دراسته في الكتاب حيث حفظ عدداً من قصار السور ، إلى جانب ما درب عليه من الخط والحساب .

وليست انطباعاته عن تلك الفترة مما يرضي إذ هو يشكو قسوة الشيخ التي جعلت حياته في الكُتّاب عبثاً لا يحتمل ، واضطرته إلى اللجوء للهروب منه كلما وجد إلى ذلك سبيلاً . ومن هنا كانت ملازمته للكتاب قصيرة العمر لا تتعدى بضعة أشهر ، انتقل بعدها إلى المدرسة الابتدائية ليبدأ مرحلتها وهو في السادسة من عمره .

ويستمر في الشكوى من طرائق التعلم لاشتراك الكتاب والمدرسة في شدة الضغط على الطفل ، وهو يعتبر هذه الشدة سبب رسوبه في امتحان السنة الأولى .. بيد أنه لم يلبث أن تغلب على ضيقه بذلك الجو وجعل ينسجم معه شيئاً فشيئاً حتى أتم المرحلة الابتدائية ، وفسح له الطريق للالتحاق بالقسم الثانوي ، الذي كانت سنواته الخمس تتصل بتير فاصل .

والظاهر أن دراسته الثانوية قد مضت في طريقها الطبيعي دون معوقات ، حتى إذا شارف نهايتها كان من المتفوقين ، وقد لاحظت يوازر نبوغه بما جعل يكتبه في مجلة المدرسة ، وبما يؤلف من القصص والروايات ، وقد مارس أحياناً صياغة الشعر الفصح ، وأقبل على التجارب العلمية في المختبر الصغير ، الذي اتخذ لنفسه .. وعن طريق هذا النشاط المتعدد الجوانب أحرز عدداً من الجوائز التشجيعية .

في كلية الطب :

وقد أعلته درجاته العالية في الثانوية للاتحاق بكلية الطب بالقلعة ،
وهنا وجد الجو المساعد لتنمية هواياته ، التي جمعت بين الفن والعلم ، والتي باشر
التمرس بها منذ عهد الطفولة ، إذ أقبل على الموسيقى وما إليها حتى تمكنت منه ،
وتمكن من استعمال بعض آلاتها . ولا ندري كيف تأتي له ذلك في ظل البيت
الذي أراه طابعمه الديني . إلا أن يكون لذلك علاقة قريبة أو بعيدة بالجو الطرقي
الذي كثيراً ما يستخدم الآلات لاستشارة الوجدانات .

مرحلة الرفض :

ويقول : إن ولعه بالمطالعات العلمية قد بدأ مع إحسانه القراءة ، حتى إذا
شارف الثالثة عشرة من سنه باشر الاتصال بمؤلفات شبلي شميل ، وإسماعيل
مطهر ، وسلامة موسى . وفي هذا الجو المشحون بالمؤثرات الغربية بدأت مرحلة
الرفض في حياته ، وقد ساعدت على تركيزه وإغائه نزعات التمرد الذي تطلقه
حوافز المراهقة ، ثم تلاقيه مع بعض الأقران الذين يعانون مثل تجربته الضيقة .
وقد يخطر في البال أن لبعض المدرسين أرواً ما في هذا التوجيه إلا أنه ينفي
ذلك ويؤكد أن ليس للمدرسة ولا للمدرسين أي يد فيه ، ولكننا لا نستبعد
أن يكون لبعضهم أثر غير مباشر في الإعداد لهذا المسلك ، وذلك عن طريق
صجزهم عن معالجة تلك المرحلة الثورية بما تقتضيه من الحكمة ، التي سبق أن
أكد لنا فقدانها في المدرسة الابتدائية ، ونتوقع أن يستمر الوضع على هذا النحو
في القسم الثانوي أيضاً ، وهو واقع لا تزال نعانيه في معظم المدارس ، التي
لا تكاد تتجاوز في عملها نطاق التلقين دون اهتمام بشكلات النفوس . ولعل
ما يضاف إلى هذه العوامل ما يذكره عن تسامح في البيت ، يتيح لكل فرد منه
أن يتخذ لنفسه المذهب الذي يشاء ، دون إكراه أو تزييب . على أنه ظل
يراري أفكاره الجديدة عن والده وحده ، فلم يعلم شيئاً عن ذلك الرفض ،
الذي لم يكن ليكن ليكنمه عن أحد سواه .

بواعث الشك :

ويحدد المترجم خصائص رفضه وتمرده ، فيقول : لقد كان شكاً حاداً ، ولكه مقصور على موضوع النبوات والرسالات فقط . أما ما يتعلق بوجود الخالق تبارك اسمه فقد ظل في قلبه وعقله فوق كل ريب .

ثم يعود لتعليل البواعث الأولى لتلك الشكوك ، فيعتبر معظمها نوعاً من رد الفعل لتلك المظاهر الشاذة ، التي كان يشاهدها من زوار ضريح البدوي وغيره في طنطا . ويعدد منها تقديس الأضرحة ، وما يستتبع ذلك من دعاء الأولياء ، واللباذا بالحن ، والتحصن بالتأثم والاستشفاء بجفلات الزار .

والذي نقدره نحن - قياساً على الكثير مما واجهناه من الأحداث الماثلة في الشباب الرافض - أن مفهوم الفتي - آنذاك - عن الإسلام لم يكن ليتمكن من التفريق بين الأصيل والدخيل ، فاختلف عليه الأمر حتى استيقن أن الدين ليس إلا هذه الحزعبلات التي يساق إليها أولئك الفوغاء بإيحاء من المشايخ الذين يعتبرونهم مورد رزقهم ، ومرتكز نفوذهم ، فما يفتنون يفتنونهم بهاتيك المهذرات ليستمر سلطانهم عليهم ، ولو أدى ذلك إلى فصلهم نهائياً عن الله .

ومع أن الأخ الدكتور قد شارف مطالع الطريق إلى الحقيقة ، وتكشف له الكثير من الحجب التي كانت تحول دونها ، فاستعاد إيمانه بالكتاب والنبين ، وأدرك مسافة الخلف ما بين المخرقين والمؤمنين ، فهو لا يزال في مسيس الحاجة إلى الاستزادة من قراءة الحديث الصحيح ، والاتصال بمؤلفات الصقوة من خدمة هذا العلم النبوي ، ليزداد قلبه إشراقاً بنور الوحي ، الذي لا يغني فيه القرآن عن الحديث ، ولا الحديث عن القرآن .

وقد قلنا له في أحد الاجتماعات بالمدينة المنورة : لقد أكترت قبلاً من مجالسة الزائغين فأرهبوك بما حملوك من ضلالاتهم ، ثم رددك الله إلى ضيائه ، فوجدت نفسك بعد التيه الطويل ، والآن أدعوك للإكثار من العيش مع الله

في قرآنه الخالد ، والاستزادة ما استطعت من مجالسة رسوله في ظل حديثه الراشد ، لتكامل لك سعادة الجمع بين كتاب الله وحكمة مصطفاه ، صلوات الله وسلامه عليه ، ولا حقيقة إلا من يليوعبها ، ولا إسلام إلا باجتماعها ، ولو أنكرك ذلك الجاهلون ، وحاول التشكيك بتلازمها الجاحدون والهدامون .

حب لم يجب :

ونعود إلى وصل ما انقطع من الكلام عن حياته الدراسية . يقول الدكتور : لقد مضى في خدمة هواياته مع دراسة الطب ، فزادت صلاته بالجوانب الفنية وبخاصة الموسيقى ، وزاد من اتصاله بالأدب الغربي فقرأ الكثير من المؤلفات الإنجليزية والمترجمات إليها ، فعنى من الإنجليز بأوسكار وايلد وبرنارد شو . ومن الفرنسيين بموباسان وغيره .. وكان أشدهم تأثيراً في نفسه أدباء الروس بما يمتازون به من طابع الواقعية والإنسانية .

وكان طبيعياً أن تثير هذه المطالعات حوافزه إلى الانتاج الأدبي ، فاستأنف تجاربه الكتابية ، ولكنها لم تبلغ المستوى الذي يرضي تطلعاته ، فطواها ولم يفسح لها السبيل إلى النشر .

ويقول : إنه كتب في هذه الفترة إحدى القصص ، ثم لم يلبث أن ألقاها ، ثم لجأ إلى الله يسأله أن يشرح صدره ويحل العقدة المستعصية عليه ، كي ينطلق إلى الانتساج الذي يجب بالقوة التي يتمنى . وجعل يردد في ضراعة : رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي .. فما لبث أن استشعر الارتياح ، وهبت عليه نقعة من وراء الحس ، قبضى . ويقول في تفسير هذا البكاء أنه رعشة الحب الذي لم يجب في قلبه قط ، وهو ما بقي له حتى ذلك العهد من علاقة بالدين الذي انقطعت كل صلة بينه وبين شمائه .

وتظل تلك الجلوات الروحية تعارده بين الحين والحين . وذات يوم من عام

١٩٤٨ وبعد عشرين سنة من ذلك اليوم ، وكان في إحدى مدن المغرب يلاحق رجال التصوف بحثاً عن الحقيقة - على تعبيرة - يقول : أخذتني غشوة قصيرة ، فرأيت مصحفاً مفتوحاً ، وكان اصعباً بوجه بصري منه إلى سورة (الانشراح) فأخذتني نشوة من الاطمئنان ، وانطبع في روحي أنت عناية الله تلاحظني وتسد خطاي .

ولا جرم أن استمرار صلته بالقرآن على هذا النحو من التوق الوجداني ، إنما يصور نوعاً من المراجعة لحساب هاتيك الشكوك ، التي كان يعتبرها حقاً أمس القريب حقاً مشروعاً لا تعارض بينه وبين إيمانه الفطري بالله .. أما اليوم فقد أقبلت طلائع فجر جديد ، تشد وجوده كله باتجاه ذلك المعين الأعلى ، لتفككك عن نفسه أغلال البيئة المزورة ، بيئة الأضرسة والندور واللتائم والزارات ، التي طبعت في ذهنه الغض صوراً للدين أبعد ما تكون عن حقيقته .

غير أن الطريق لم يزل متلفاً بالتموض ، فهو يسعى هنا ويسعى هناك ، ويتقلب عليه الفورة الداخلية فتقوده إلى التماس الري من كتوس أصحاب الطرق ، ظناً منه أنهم أهل الكشف الذين تجاوزوا حدود المحسوسات والتخمينات إلى نطاق المشاهدات .

وقد ضاعف اهتمامه بهذا المسلك ما قرأه في كتب أسلافهم من حِكْمَ بريدة النور ، تلاقى مع الكثير من أشواقه ، مضافة إلى ألوان من (الشطح) كأنها إشارات ذاهل يطل على العالم المجهول الذي يتطلع هو إلى آفاقه .

ومع أن الأخ الفاضل قد صحح الكثير من أخطاء الماضي ، وتحرر نهائياً ، بحمد الله ، من أصفاد الرب المرهقة ، فما برح مأخوذاً بهذه النوازع التي لا تروي غليلاً ، ولا تمنع سؤولاً .

ألوان التصوف :

قلت للدكتور - أثناء لقائنا في المدينة المنورة - : هذه التمرجات الصوفية الهادرة في أعماقك ليست هي المعالم الهادية إلى الحق الذي تتلطف إليه . إنها واحدة من مؤشرات الفطرة الموجهة إلى مصدر الخلق ، وهي القدر المشترك بين البشر جميعاً ، يستوي بإزائها المؤمن والكافر .. بصفي أحداً إلى هتافها فيتمدها بالمراجعة والذاكرة ، فتتوهج حتى تسيطر على كيانه ، وينقلها آخر فيعاملها بالإعراض والتجاهل ، فتتصاغر وتتضاءل حتى تصبح نسبياً منسياً .

إنها يا صديقي مجرد طاقة .. طاقة فقط .. إذا اكتفتها الحكمة الراشدة تفجرت نوراً وحياءً ، ولكنها الدمار والشقاء الأكبر عندما يتولى قيادها الخابطون في الظلمات .

ونظرة عجيبة إلى وقائع هذه الطاقة في مسالك الناس ، على اختلاف هوياتهم ومناطقهم ومفهوماتهم ، تريك المعجب من تباين الحصول . وهكذا تشاهد ألوان التصوف من نصراني ويهودي وإغريقي ويوناني وبرهمي ووجودي وقرمطي وباطني ، وما يسمى بالإسلامي .. ثم ما لا يخص من الأسماء والتحمل والمذاهب .

وبكلمة وجيزة أقول : إن هذه الطاقة إحدى قوى النفس البشرية الخاضعة لمختلف المؤثرات ، ولا ضمان لخيريتها إلا بانسجامها مع قوانين الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

بين التوليع والتركيب

ويستأنف الدكتور الكلام عن دراسته فيقول : لقد استشرى الخلاف بينه وبين والدته في هذه المرحلة ، فهي تريد منه أن يركز نشاطه في حقل العلم وحده ، وأن يقصر همه على الطب الذي يجب أن يكون مهنته المفضلة . ولكنه يأس الانصياع لهذه النصائح ، التي تقتضيه الانسلاخ من سائر هواياته الفنية .

ثم اضطر أخيراً إلى الاستجابة لما بعد مرض طويل ، جره إليه توزيعه لطاقاته على مختلف ألوان النشاط ، حتى انتهى إلى الاقتناع بوجود الوقوف على الطب وحده ولو إلى حين . . . وعاد إلى كتف والدته بعد أن باعد الخلاف بينها وقتاً بر قصير . ومنذ ذلك اليوم فترت العلاقة بينه وبين الموسيقى بعد أن تمكنت من نفسه ، وهو يرد ذلك أيضاً إلى عمل العناية الإلهية التي إليها يعود الفضل في إنقاذها من ذلك اللهو .

على أن انكبابه على الدراسة العملية لم يقطعه عن مواصلة العمل العلمي ، وربما كان ذلك عائداً لما يراه من انتفاء التمازج بين النشاطين ، إذ أحس أن الطب كغيره من التخصصات العملية ، أحوج بما يكون إلى الخبرات المتعددة الجوانب . ولا جرم أن كل عمل ثقافي سيكون رافداً يمدده بالتجارب الثرية ، وحين ينقطع الطبيب أو المهندس ومن في حكمها عن الموارد الثقافية الأخرى ، فيكون ذلك نذيراً بانفصالها عن الحياة نفسها ، وإيذاناً بحفاف عقلي يسلخها عن هويتها البشرية .

ومن هنا جاء اهتمام الصديق بذلك النشاط الأدبي من ممارساته القديمة ، إلى جانب الدراسة الجامعية المركزة . . فكان يكتب في العديد من الصحف الكبرى كالصري وأخبار اليوم وآخر ساعة . وعن طريق المرحوم العقاد اتصل بمجلة الرسالة ، إبان ارتفاعها الشاهق ، إذ أعجب ببعض ما قرأه ، وبخاصة في ميدان القصة ، ففتح له أبوابها ، والتي لم تكن لتفتح أيامئذ إلا للكبار الذين رسخت أقدامهم في حلبة البلاغة .

ومع وفرة إنتاجه الأدبي هذا لم يقصر في دراسته ولم يتخلف ، بل كانت موضع تقدير الكبار من أساتذته الذين أحاطوه بكل المشجعات ، ولا سيما بعد اطلاعهم على مقياس النبض الذي صنعه وأتقنه . ولما أحرز شهادة الكلية عام ١٩٥٢ لم يكتب بها ، بل واصل طريقه حتى أتم مرحلة التخصص في الأمراض الصدرية .

وهكذا وصل إلى نهاية المرحلة الدراسية طيبياً وأديباً ، يجعل في أحماقه بذور الحكمة الدافعة إلى البحث والتأمل والتفكير . وعلى الرغم من توجيهه قواء للناحية العلمية ، فقد أعطته الدراسة الطبية الضوء الذي يتعرف منه طريقه إلى المنهج العلمي .

ولعل في مقدمة هذا العطاء تلك النظرة الشمولية التي تربط وربط الأحداث الكونية في وحدة تامة ، لا سبيل إلى معرفة الجزء الواحد منها إلا بالنظر إلى الكل ، كتربط الأعضاء والأجهزة في الجسم الحي ، لا يفهم واقع أحدها إلا في ظل المعرفة الواسعة للجسم كله ، بل ولماضي هذا الجسم في رحلته البعيدة والقريبة .

إلا أن الغريب في أمر الطبيب أنه لم يكفد يتخرج في الطب حتى انصرف عنه إلى الأدب والفكر . ولعل كثيرين من قرائه ، والمستمعين بأحاديثه خارج مصر ، يظنون كزميله نجيب محفوظ واحداً من ذكارة الفلسفة ، وليس له أي علاقة بعلم الأمراض .

ضياع وندم :

ويحدثنا عن مؤلفاته فيذكر أن أولى بواكيره منها هي مجموعته القصصية « أكل عيش » وقد صدرت عام ١٩٥٤ وكان لنجاحها أثر غير يسير في تثبيت خطاه على طريق التأليف . ثم تلا تلك المجموعة كتابه الثاني « الله والإنسان » فكان طفرة واسعة ، قفزت به من معالجة الواقع الإنساني على صعيد الأحداث القصصية إلى محاولة التشكيك في كبرى اليقينيّات .

لقد حشد في هذا الكتاب كل المشكلات العقلية التي خضت وجوده ، فألقت به في صراع كاد يمزقه . صراع بين قراءاته غير الناجحة ، وشواذ البيئة التي أقصدت تصوراتها الفطرية عن الدين من ناحية ، وبين ضميره وبصاياه إيمانه الراسخ القديم من ناحية أخرى .

وقد سبق أن نقلنا تصويره لتلك الشكوك بأنها منصبة على موضوع الرسالة والرسول دون أن يتطرق شيء منها إلى مقام الألوهة ، الذي يؤكد أنه ظل مسيطراً على عقله وقلبه جميعاً . ويدخل في ذلك موضوع القرآن نفسه ، الذي كان محل نزاع كبير بين تفكيره الذي ما كان يستطيع أثناءه أن تصور صدوره عن الله ، وبين وجدانه الذي كان على أتم الاطمئنان إلى ذلك .

وكان عليه أن يتحمل تبعه تلك المغامرة غير المأمونة ولا المقبولة ، فيتلقى سهام الفئسّر من أهل العلم في كفاح لم يحمد حتى نهض الأزهر بواجبه فصودرت معظم نسخ الكتاب ، وقدم إلى محكمة أمن الدولة ، التي - لسبب مجهول - اختير قضاتها في هذه القضية من أهل التصوف .

ولقد عرف عماميه المتفلسف كيف يفيد من هذه الصفة ، فأعلن في مرافعته أن هذا الكتاب يسجل بداية متصوف لا تهجمات ملحد . وكانت النتيجة الاكتفاء بمصادرته ، والكف عن ملاحقة مؤلفه .

ولا شك أن لبراعة المهامي أثرها في هذه النتيجة ، لأن في (شطحات) المتصوفة متسعاً كبيراً لتأويل كل مزعم ، مما يبلغ من الغرابة أو الزينج ، على الوجه المقبول عند المأخوذين بهذه الشطحات .

ويرجع الدكتور إلى نفسه بعد سكون الزوبعة ليتولى هو بحأكمة كتابه ، وسرعان ما انتهى إلى البت بأنه عمل مشهور لا يرضى عنه قلبه ولا عقله ، لأنه خلا من أي حل مقبول لمشكلاته النفسية ، على حين ضاعف من الإشكالات الكثيرة التي حاول معالجتها .

يقول الدكتور : وكان ذلك بدء المرحلة الجادة في طلب الحقيقة ، ثم جاءت الكتب التالية خطوات متلاحقة في هذا الطريق .

للمعات الاستقرار :

ويكسب على الفلسفة قديمها وحديثها ، يقرأ بنهم ولكن في تسرع - كما يقول -
ووقف الكثير من جهده - كما يظهر - على علم النفس ، فلم يدع نظرية منه إلا
قلبا ظهراً على بطن ، وبخاصة نظرية التحليل النفسي لفرويد . . ثم خرج من
هذه العممة على يقين بأن الفلسفة على اختلاف مذاهبها ، لا تعدو كونها حجراً
يلقى في بحيرة مجهولة ، فيضاعف عكرتها ولا يرجع منها بصيد - على حد تعبيره -
لقد زادت حيرة وتخطأ ، ولكنها فادت عليه ببعض الخير ، إذ أمكنته من
الإحاطة بأخطاء الفرويدية والماركسية ، اللتين تحصران شخصية الإنسان في
حظيرة البهايم ، فتحرمان عليه كل الأحكام التي تخص الحيوان ^(١) .

وربما كان أكبر محاصيل هذه الرحلة الفكرية ما تكون لديه من رأي قاطع
أنت ليس في طوق العلم المادي تقديم الأجوبة المقتعة على أسئلة النفس
المتعلقة بالدين .

ومن هنا يتحول إلى مباحث الأدیان ، ابتداء من الوثنيات الهندية ، ومروراً
بالديانات ذات الأصل الساموي ، إلى النحل والفرق المعاصرة (البابية والبهاية
والقاديانية) . وقد عادت عليه هذه السياحة بكثير من الخير ، إذ وقفته من
خلافها على الأصيل والذخيل ، وفتحت عينيه على الكثير من الأسرار الخفية ،
التي عملت عملها في إفساد العلاقة بين الخالق وعباده ^(٢) ، ثم كانت نتيجة هذه
السياحة رسو زورقه الحائر على شاطئ القرآن .

ومنذئذ بدأ يستروح نعمات الاستقرار ، إذ أصبح على أتم اليقين أنه في
الطريق السوي .

(١) راجع الفصل الرابع «علم نفس قرآني» من كتابه «أسرار القرآن» .

(٢) اقرأ «التأمر على الأدیان» من كتابه هذا .

قراءات إسلامية :

يقول لنا الدكتور : واستحكمت صلتى بالقرآن . وشرعت الاتصال كذلك بأية التفسير ، أستطلع مفهوماتهم في ما يواجهني من غرائبه ، وكان أهمهم تأثيراً في سيد قطب « في ظلال القرآن » لما وفق إليه من معالجة للمشكلات المعاصرة ، واستنهاط للطوائف التي تمس أعماق النفس ، ثم ابن كثير في تفسيره الشهير ، لما عني به من اهتمام بالمأثور ، واستبعاد للروايات الضعيفة والدخيلة .

وكان طبيعياً أن يضم إلى عنايته بالتفسير مطالعات جديدة في كتب الكبار من أئمة التصوف ، فقرأ للإمام أبي حامد الغزالي « الإحياء » و « المنقذ من الضلال » و « المصنوع به على غير أهله » واعترف ما استطاع من حكم ابن عطاء الله . وطالع عدداً من مؤلفاتهم الأخرى .

ويقول : كان إحياء الغزالي أبعدها تأثيراً ، إذ دفعه إلى البحث في موضوع التصوف ، فانتهى إلى الرأي بأن « التصوف هو البحر الذي نصب فيه سائر الجداول .. » وقد أعجبني تشبيهه التصوف بالبحر نصب فيه الجداول . وإنه لكذلك حقاً ، فهو كالبحر يتسع للجيف والآلء ، ويجمع بين الفناء والجواهر . ولن يستطيع التمييز بين غثه وحمينه إلا الخذاق من أهل الفرقان ، ولن يحسن استخلاص نفاثته سوى القادرين على الغوص إلى الأعماق .

ولقد كان من الخير للدكتور ولقرائه لو قيس له الاتصال ببعض أئمة الفكر الإسلامي من أهل الحديث كاتصاله بأئمة التصوف ، ولو تيسر له ذلك لتم له التوازن الأكثر ضبطاً لمنهجه ؛ ولما أتعب نفسه في الركض وراء الطرفين في المغرب وغيرها ، بعد أن رأى ما رأى من سلوك زملائهم في كنف البدوي وأصحاب المقامات الأخرى في طنطا وغير طنطا .

إن القليل الذي قرأه من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية لا بد أنه وجد سبيله إلى عقله وصحح بعض تصوراته ، وسيكون الخير أكمل وأكبر إذا أطل

صحية هذا الطبر وتلاميذ مدرسته من المدول المجددين ، الذين استعملهم الله
لتطهير الدين من تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين .

وقد وعدنا الأخ الدكتور بذلك ، والله نسأل أن يعين على تحقيق وعده ،
ليكون نفع القراء به أعم ، وأجره عند الله أعظم .

مسالك غير مأمونة :

وكثيرون من قراء هذا الفكر أعجبوا به عن طريق كتابه « القرآن .
محاولة لفهم عصري » وغير قليل من المعنيين بعلوم القرآن قد قابلوا محاولته هذه
بالنقد والرد والإنكار . ولكل من الفريقين عذره .. فالأولون قد وجدوا فيه
ضروباً من الإشارات تتلاقى مع أحدث ما حققه الإنسان المعاصر في نطاق
العلوم الطبيعية ، والآخرون قد هالتهم تلك الجرأة التي تدفع صاحبها إلى ربط
المضمون القرآني بأفكار وتصورات قابلة للتبديل والتعديل ، وقد جربوا مثلها
من قبل في أعمال الشيخ محمد عبده ، والسالكين سبيله من المهورين بمكتشفات
العقل الغربي ، فكانت النتيجة بلبلة لا تزال نعاني الكثير من عقابيلها وبخاصة
في اضطرار هؤلاء - تحت تأثير ذلك المنهج - إلى صرف العديد من النصوص
القرآنية عن ظواهرها إلى تأويلات مهزوزة لم تعط فيها الكلمة الأخيرة بعد .

هذا إلى آخرين أقبلوا على التصفيق لغامرتهم من منطلق الحقد على علماء
الإسلام ، الذين تخصصوا في دراسة علوم القرآن ، ورفضوا بالمرصاد لكل
الخراف عن سبيله .

والحق أن في (محاولة ...) الدكتور مسالك غير مأمونة ، لأنها تشبه أن
تكون تحكماً في غيب لا تبليغه المقول ، ولم يسبق لأية التفسير فيه قول يؤنس
في هذه الوحشة .

إنه أحياناً لملقي بالرأي الشخصي كأنه تقرير في قضية قد فرغ منها ،

دون أن يكون له مستند من قول مأثور ، أو قياس على نظير ، وقل ما يقال في هذا أنه ضرب من التفسير بالرأي ، الذي أجمع علماء القرآن على أنه أخطر ما يعامل به كتاب الله .

مكتوب من الكتاب :

على أن هذا لا يعني إغلاق الأبواب دون ذوي العلم في المباحث الكونية بإزاء القرآن ، ففي هذا الكتاب المعجز الكثير من الأسرار التي لا تكشف أسرارها إلا لهذا النوع من الباحثين ، فمن حطهم أن يتأملوا فيها وأن يتدبروها وأن يبدوا من خبراتهم في هذا الجانب بما يزيدنا علماً على علم تحقيقاً لقوله تعالى : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (٥٣/٤١) وحسبنا من أدلة ذلك قوله قدس اسمه في موضوع الألوان : « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والنواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٣٥ - ٣٦/٢٧) فكل الناس يرون إلى هذه المعجزة اللونية مبثوثة في مختلف المخلوقات ، وجل ما يفيدون من هذا الوصف تذكرهم قدرة الله التي أخرجت من الماء الواحد ألواناً لا حصر لها ، فيزيدهم ذلك إيماناً وتقبيلاً للمعلم الحكيم .. ولكن علماء الكيمياء وإخوانهم هم المؤمنون لاستكشاف دقائق ذلك المصنع العجيب الذي سُخر بالقدرة الإلهية لإبراز هاتيك الأصباغ المختلفة ، فكانهم هم الممتنون بذلك التكريم الخالد في هذا التذليل العظيم « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وأذكر في هذا المقام حديثاً طيباً ألقاه علينا قبل أيام في المؤتمر العالمي للتعليم الإسلامي بمكة ، الطبيب المصري عبدالمعتم أبو الفضل حول قوله تعالى « يخلفكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث... » (٣٩ - ٦) وقد استعان لإيضاح ما يريد بالمسورات

الضوئية ، فإذا هو يكشف للسامعين ما لم يصل إليه علماء التفسير أجمعون ، وما لم يعرفه أكابر حذاق الطب إلا قبل وقت جد قريب .

وكم في كتاب ربنا من مثل هذه الكنوز التي تنتظر المكشفين ليصرفوا إليها أبصار النافلين ، وليسهوا بها في الدعوة إلى الدين المبين ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولا خلاف على أن في كتاب الدكتور موضوع البحث نقاش من هذا الضرب اليقيني ، لو وقف عندها واستكثر منها ، لما وجد من أهل العلم بالقرآن إلا الشاكرين المقدرين .. ولكنه شط عن الخط فخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وتلغى في ذلك نية غير متهمة إن شاء الله ، وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى .

القرآن والداروينية :

ولقد قلنا لصديق العزيز أثناء لقائنا في طيبة المباركة : حبذا لو انصرفنا إلى استنباط روائع الأسرار التي أودعها الله أنجس الحي من زاوية اختصاصك ، إذن لأحفقتنا بطائفة من الجوانب التي لا نقاد لها . إن فيلسوف المعرة مأخوذ بما سمع عن أجهزة الحياة في الأجسام ، فهو من أجل ذلك يقرع الأطباء الذين يرونها ويحسونها ثم لا تدفعهم دفماً إلى الإيمان ببارئها فيقول :

عجبا للطبيب يلحد في الرحمن من بعد درسه التشريحا!

فكيف إذا قبض لها الطبيب المؤمن مثلك ... إنها دون ريب ستكون إذ ذاك من أجل الخدمات للإيمان وللإنسان معاً ، ويومئذ لن تجد حاجة للخوض في نظريات لا تزال موضع الأخذ والرد بين أهلها ، حكما فعلت في موضوع الداروينية ، التي لا تبرح تشد على ذهنك منذ طالعتها صغيراً في كتاب «النشوء والارتقاء» لذلك المغرور المحبوب الدكتور شبلي شميل .

وكان جواب الصديق بومئذ : إن الثابت من قضايا العلم هو وحده الذي يستشهد به للقرآن ، أما المتغيرات من نظريات العلماء فلم يمد برضى وصلها به من قريب أو بعيد ، ولذلك يقف عن الداروينية عند الجانب الذي أثبتته التحقيق والمشاهدة .

ولكن هذا لم يكن بالجواب المنقح ، فالدكتور لا يزال حتى تلك اللحظة ، يربط بين قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » (١٢/٢٣) ونظرية دارون القائلة بنشوء الإنسان من خلال الأشكال الحيوانية الأخرى ، ولا دليل في الآية على ذلك ، وإنما تشير إلى أن الإنسان هو إحدى السلالات الحية التي صدرت كلها بأمره تعالى من الماء ، كما يقول سبحانه في الآية الأخرى : « وآله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع » (٤٥/٢٤) وقد قطع رسول الله ﷺ كل مرء في هذا الموضوع حين أخبر في الحديث الصحيح أن الله خلق آدم على صورته .. طوله ستون ذراعاً (١) .

فلا مجال يمد هذا القول بتطور الإنسان من الحلية الأولى إلى العديد من الأنواع حتى انتهى إلى شكله الأخير حسب تقولات دارون وفرويد وماركس ، بل الذي نؤمن به يقيناً أن آدم خلق من الطين على صورته المعروفة ابتداءً ، فلم يتغير فيه شيء سوى تضائل الهيكل ، الذي سيمود إليه وحائر أبنائه يوم البعث ، كما صح في الأمر الصحيح . وزد كل ما خلف ذلك من أقاويل لا سند لها سوى التمثل والظن من راجمين بالقيس . يقول ربنا في أشباههم : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضداً » (٥١/١٨) .

ولو هو قد اكتفى بهذه الحقائق الحامية اتجنب الكثير من تلك المشوشات

(١) من حديث الشيخين .

التي لا تعدو نطاق الأوهام ، ولأغنى نفسه وقراءه من ذلك التخمين الذي انتهى به إلى القول بأدمين اثنين ، على طريقة المعري الذي سبقه إلى مثل هذا التخليط حين يقول :

وما آدم في مذهب العقل واحد ولكنه عند العقول أوادم

« ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

وإن أملي لكبير بأن أشفي الدكتور سيميد النظر في بعض أفكاره المرجحة على ضوء هذه الحقائق التي صحت من كتاب الله وشهادة رسوله ﷺ .

صور من الإعجاز القرآني :

وعودة الصديق الفاضل إلى ظلال القرآن ، بعد ذلك الضياع الطويل ، تقتضي لنا أن نستطلع البواعث الكبرى التي فتحت قلبه على حقائق الكتاب الخالد .

وراح يعدد لنا صور الإعجاز القرآني التي أطل عليها من زاوية نظره الخاصة .

يبدأ بما يسميه « المعيار القرآني » ويريد به أسلوب التنظيم الذي أول ما يواجه به السمع والقلب فيهبه للانفعال والخشوع ، قبل أن يبدأ التفكير عمله في المعاني ، ثم يتحدث عن الجملة القرآنية وأثرها المعجيب في نسج هذا الجو إذ تشرع الوجدان المتفتح أنه تلقاه شيء يتمدر تحديده ، وتفتقر إلى بعضه أبلغ العبارات البشرية .

ثم يتطرق إلى موضوع الأحكام التشريعية فيركز على وفاتها بقتضيات الحياة على وجه من التوازن لا يتأني إلا من قبل خالق الحياة الذي لا يعزب عن علمه ما هو ولا حاضر ولا مستقبل .

ويقف على ظاهرة « الصدق القرآني » فيقول : نحن البشر لا نعرف إلا الصدق النسبي في تقريراتنا العملية جيداً . ويريد بذلك أن أحكامنا على الأشياء لا تتجاوز الحاضر الذي يواجهنا منها ، أما الصدق في القرآن فهو المطلق الذي لا يعتبره تفسير أبداً . ويمثل لذلك بتعبير القرآن عن الرياح بأنها (لواقح) فيرى أنها تحتل العديد من التفسيرات المنطبقة على الوراق ، من ذلك أنها تنظم عملية التلاقح بين الذكورة والأوتة في عالم الثبات وأنها المولفة بين السالب والموجب في كهربية السحاب المؤدية إلى المطر ، وبذلك يلتقي في كلمة (لواقح) كل ضروب الصدق من الجواز إلى الحقيقة إلى الملم .

وحتى الأحداث التي تعتبر من الحوارق لا تخرج عن نطاق الممكنات في نظر العقل السليم ، فانتقال عرش سبأ من اليمن إلى فلسطين مثلاً يمكن النظر إليه على ضوء المشاهد من انتقال الصورة والصوت واجتياز المسافات الهائلة في مثل لمح الطرف عن طريق السرعات المادية التي توصل الإنسان إلى استحداثها .

وعلى هذا الأساس يؤمن بحصول الإمراء والمراج بالروح والجسد جيداً . ويلحق بهذا في تقديره وجود الملائكة والجن من عالم الفيب ، وأثر كل من الفريقين في حياة البشر وفق المعلوم من أنباء الوحي . ومن أدلته على ذلك أحوال الذين يعملون في استحضار الأرواح ، فهم أدق صورة للوصف الوارد بشأن أمثالهم في القرآن العظيم حيث يقول سبحانه : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً » (٦/٧٢) فهؤلاء المضللون غارقون من الرهق في غمرات لا يعرفها إلا الذي يراقب سلوكهم عن كتب .

ولعل بعض الغافلين عن هذه الحقائق لا يزال ، بجانب من عماء عما وراء المادة ، يرفض الكلام عن الجن والملائكة ، وسكل حجة أنه

لا يشاهدكم بمبني رأسه ، في حين لا يستنكف عن الاعتراف بأن ما لا يراه من الحقائق أكثر مما يشاهده بما لا يحصى .. وإلا فكيف يؤمن بوجود الأشعة الكونية والأثير والذرة ومشتقاتها وهو لا يدري من واقعها سوى آثارها .

وأخيراً يرى الدكتور من ظواهر الصدق الأسمى ذلك التطابق للمجيب بين الإشارة القرآنية وأصح الكشوف الطبية .. ثم هذا السر الخفي الذي يربط ما بين الكلمة القرآنية والقطرة البشرية السوية ، فما أن تلامسها حتى تتفاعل معها ، على هذا النحو من العفوية ، التي يصف بها القرآن العظيم كيفية تلقي القلب المؤمن لذكر الله : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً » (٧/٨) .

ما يرفعه وما يقره :

والناظر في قائمة المؤلفات المطبوعة من عمل الدكتور يلاحظ ظاهرة تساعده على تتبع مجاري حياته الفكرية ومواضع اضطرابها وانسجامها ، تلك هي إثباته تواريخ كل من هذه يجانبه ، فكتاب « الله والإنسان » وضع عام ١٩٥٥ ولم يسبقه سوى مجموعته القصصية « أكل عيش » ثم يأتي كتابه الفكري الآخر « إبليس » وكان تأليفه عام ٥٨/٥٧ وقد رأينا حكمه على الأول بأنه أصبح مقطوع الصلة تماماً بالجماعة العقلي ، وكذلك قضى في شأن الثاني، الذي حاول تفسير قصة إبليس على طريقة فاضل عباس المهدي ، الذي أعلن في إحدى محاضراته الحراء ألا وجود لذات اسمها إبليس ، وإنما هو رمز للزغات الشريرة في النفس البشرية . ويقول الدكتور في تحليل رفضه لكتابه هذين بأنها كانت تعبيراً عن ذروة الشك ومتماطفين مع الفكر المادي الذي كفر به ، وقد صودر الأول ولن يطبع ثانية ، وصادرت أة الثاني فلا أسمح بإعادة طبعه ، وكل طبعة له ظهرت بعد الأولى فمن غارات السارقين في بيروت .

ويخلص بالذكر من كتبه « لفر الموت » ويعتبره مدخله إلى الإيمان ، ثم « المستحيل » . ويقول إنه سجل التفاعل الصوفي الذي يوسم طبيعة التغيير الذي انتهى إليه . ثم « رأيت الله » وقد ضمنه دراسات ونماذج من أعمال يعتقد أنها تصور الخط الإسلامي الصحيح البريء من التشويش ، ثم « من أسرار القرآن » وقد تكرم بإعدادني نسخة منه ، فرغت لمطالعتها أثناء كتابتي هذا الفصل عنه ، وقد سجلت في آخره « كلمات رائعة في تعابير ساحرة متوهجة أحياناً ولم يخل من نقاط صالحة للنقاش » ثم « الوجود والعدم » ويقول إنه آخر ما كتب حتى الآن ، ويصف مضمونه بأنه إجابة على موضوع الجبر والاختيار في ضوء الإسلام ، وأنه أقرب كتبه إليه وأشدها تشيلاً لأفكاره ومشاعره .

ويختتم الصديق هذا العرض بقوله: إنه يتحمل مسؤولية كل ما كتبه ، يستوي في ذلك ما يرفضه وما يقره ، لأنه إنما كتب كل أولئك تحت ضغط الواقع النفسي ، فكله تصوير صادق لمراحلته الفكرية .. لم يبتغ به شهرة ولا سمعة ، ولم تدفعه إلى شيء منه رغبة ولا رهبة . أما أنه يتحمل مسؤولية ما يقر وما يرفض من هذه الكتب فذلك أيسر جوانب المسؤولية ، لكن الأمم من ذلك هو ما تركه القسم المرفوض في بعض القلوب الهشة من جراح ليس من الميسور تضميدها مهما يرفع عقبرته بإنكارها . وأنا شخصياً كثيراً ما أتساءل : أتشمل مفرقة الله أصحاب البدع بمجرد تويتهم عنها ؟ .. ثم لا أنسى مع ذلك أن الأمر إلى الله ومن أحكامه سبحانه القنور الرحيم .

الطائف إلهية :

ويخلص رأيه في نفسه وأفكاره فيقول: إن الشكوك التي أحاطت بي ، ورحمت صورها في بعض هذه الكتب إنما مردها إلى غواش حالت بين بصيرتي والرؤية الصحيحة . ويمترف بأن تقتصص العلمي أثره في التمكين

هذه الموارد . ونحن نضيف إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من عوامل البيئة القبورية في طنطا ، والتي كانت بمثابة الصدمة الأولى التي رجحت مداركه ، وفتحت في نفسه الشغرات لتنتسل منها أفكار المصلين من أمثال شبلي شميل وسلامة موسى وأصراهما . . وإنا لنفأش من شأنها أن تعزله عن الحقائق - كما يقول - ولو إلى حين .

وحين يتحدث عن عوامل النجاة من هاتيك الغمرات لا يجد لها من وصف سوى أنها أطاف إلهية وصلته بحقائق القرآن فأخرجته من ظلمات الضياع إلى ساحة الضياء ، وبذلك أصبح ليس فقط من السامعين ، بل من الخابرين ، ومن أجل ذلك لا يفتأ كلما استحضر هذه النعمة يردد على نفسه : « الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » .

تفأوله بالمستقبل :

وحين نستطلع رأيه في مستقبل الإسلام لا يستطيع إخفاء تفأوله بأن العصر القادم إسلامي لا محالة إن شاء الله . وحبته الأولى في ذلك ما يلمسه من تعطش الشباب إلى حقائق هذا الدين الإلهي المحفوظ ، وحماسهم الغريبة للتضحية بكل شيء في سبيله . ويرد ذلك إلى الإخفاق الذي صارت إليه كل التجارب التي مرت بالبشرية .

وهو في هذه النقطة يلتقي مع فضيلة الشيخ الغزالي في جوابه عن هذا الاستطلاع . ويذكرني كلاهما برأي مماثل للداعية الراحل مالك بن نبي عليه رحمة الله ، إذ يرى في واحدة من أخريات محاضراته أن الثلث الأخير من القرن العشرين هو موعد الانطلاق العالمي للإسلام . ومستنده في هذا الاستبطاء هو إفلاس النصرانية واليهودية كدينين من أصل سماوي ، والوثنية الشرقية كلها بوصفها إحدى بقايا الفلسفات القديمة الكبرى ،

مضافاً إليها تهافت الماركسية التي لم يمد لوجودها من مسوخ سوى الإكراه ، وهو في طريق الزوال أمام الانتفاضات البركانية ، التي بدأت تولد عروش طواغيتها في كل مكان .

وقد حدث أن عقب على آراء الصديق الفقيه ، إثر إلقائه محاضراته في المدينة المنورة ، وكان من رأيه يومئذ أن تساقط هذه التيارات لا يعني حلول الإسلام مكانها على الوجه الختم ، لأن ذلك يقتضي لوافر النواهي الصالحة امرضه على الأمم الحائرة ، وإبراز حلوله الناجمة لمشكلاتها التي صبرت المذاهب الفكرية جميعاً عن حلها ، وكلا الأمرين بمثابة الحلقة المفقودة في بفيان الدعوة الإسلامية حسب واقعها الراهن ، للذي أكثر ما تشكوه هو إعراض المسلمين أنفسهم عن هداية الإسلام ، وانصراف حكاهم إلى محاربه وأهله بكل ما يملكونه من قوة .

ومما أحكم وأوجع كلمة ذلك الطالب الألماني في الجامعة الإسلامية بالمدينة ، الذي طلب إليه أن يتحدث عن بواعث إسلامه فبدأ كلامه بقوله : « الحمد لله على أن عرفت الإسلام قبل أن أعرف المسلمين » .

رؤية إسلامية :

وقفة ملامح غريبة في ترقعات الأخ الدكتور يمكن تحديدها في مجريين:

أما الأول فهو ما يسميه بالمعطيات الإلهية ، التي تتدفق على الأمة العربية من ينابيع النفط والحامات التي بها تتحرك العقول والمصانع في العالم المتحضرة . إنه يرى في هذه الفيوض الهائلة من الطاقات إرهاساً بتضخات فضحة في مسار البشرية بعامة والإسلام بخاصة .

وأما ثاني المجريين فتصل بالطلاع الخبرة التي أسلف الكلام عنها آنفاً ، إذ يرى في لوافرها وحماستها دعامة لإيمانه بفكرة المهدي المنتظر.. التي

لا يعدو في مفهومه كونه واحداً من المؤمنين قد زود بالمواهب التي تؤهله لقيادة هذه الطلائع ، وبما يؤكد إيمانه هذا ثقته بالمنابة الربانية التي لا يتصور أنها تاركة القطيع البشري يتخبط إلى الأبد في الظلمات ، محروماً من نور الإسلام الذي لا إنقاذ للإنسانية إلا به .

وقد لاحظ القاريء في أكثر من موضع من هذا العرض أن الدكتور شديد التعلق بالفتوحات الإلهية ، لا يتفك يتطلع إلى نقماتها في كل مازق بضيق عنه تدبير الإنسان . وقد يرد القاريء بزعة تلك ، مع إيمانه بفكرة المهديء ، إلى مصادر الصوفية . ولكنها على كل حال رؤية إسلامية لها سندها من الآثار، ولها كذلك مسوغاتها من التصور الإسلامي الذي يلا المسلم يقيناً منها اشتد عليه الحدثان أنه ليس وحده في الميدان، إلا أن المهدور في هذا الاتجاه هو الإغراق فيه إلى حد تعطيل العمل ، اكتفاء بالأمل، وفي ذلك انصراف عن السنن الإلهي المائل في قوله تعالى: « ليس بأمانيم ولا أماني أهل الكتاب . من يعمل سوءاً يُجْزَ به » (١٢٢/٤) .

تباير مبشرة :

كل ما تقدم من حديث عن هذا الفكر تلخيص مركز إجاباته على أسئلة ألقيناها عليه أثناء جلسة خاصة في مدينة رسول الله ﷺ .

واستكمالاً للصورة المنشودة أرى أن أضع بين يدي القاريء بعض الانطباعات التي استخلصتها من كتابيه « حوار مع .. ملحد » و « من أسرار القرآن » ففي هذه الانطباعات من المؤشرات الفكرية ما لا يحسن استبعاده من عرض كهذا ، وليس من الإنصاف أن نحجب عن هذا الأخ الذي قرأناه عن بعد فقدراًه ، ثم لقيناه عن قرب فأحبيناه في الله .

وقد آثرت الوقوف على هذين الكتابين بخاصة لما فيها من نباشير تسجل له غير قليل من الاعتدال في أفكاره الحادة ، التي طلع بها على الناس في كتابه « محاولة لفهم عصري للقرآن » وأصر على كلمة (غير قليل) لأنه حتى الآن لم يستطع التحرر نهائياً من ذلك الشطط الذي يعد به ، في كثير من تضاعيف الكتابين ، عن روح القرآن ، وعن مدلولاته اللغوية والبيانية والغائية جميعاً .

وإنها لتباشير مبشرة بأن ساعة الانتظام الكامل مع خط النبوة قد أوشكت قمر قلبه بأثوارها فلا يستطيع مفارقتها قيد أنملة إن شاء الله .

ولنمض الآن في الحديث عن الكتابين :

إن في هذين المؤلفين من الروائع ما يطرب القلب ويرضي اللب ، ولعل من ميزاتها أنها لم تحل من بعض الهفوات التي جرى بها إراعه انسياقاً مع الاجتهاد الشخصي ، أو تأثراً ببعض من وثق بتفوقهم من أهل الرياضات الروحية .

وسأبدأ من هذه الهفوات بما تضمنته أول الكتابين (حوار ...) مصحوباً بحل منها بالملاحظات التي يرجى أن يكون فيها شيء من الذكرى التي تنفع المؤمنين بفضل الله .

أفكار تقتضي التصحيح :

١ - في ص ٣٦ يتحدث عن أهل النار وموجبات عذابهم في تحليل رائع ، ولكنه سرعان ما يؤخذ بكلام أهل (الشطط) فيقرر قول ابن عربي « إن هؤلاء سينحدون النار.. وتصبح بيثتهم الملائمة » ويؤكد ذلك في ص ٣٣ حيث يقول: « إن التعذيب في الآخرة ليس تجبراً من الله على عباده ، وإنما هو تطهير وتعريف وتقويم ورحمة » .

ولا شك أن في هذا التقرير مجافاة لمفهوم العذاب في مصادر الوحي الذي يجبراً أنهم « لا يخفف عنهم العذاب » (١٦٢/٢) و « كلما تضجت جاودم بدلناهم

جلوداً غير ما ليدوقوا العذاب » (٥٥/٤) فمذايهم مستمر ومتجدد أبداً ، وهو العقوبة العادلة التي اقتضتها جرائمهم إذ يدعون إلى الإيمان فيكفرون . فلا مكان هنا لتطهير وتقويم وما إليها من تملات ، لأن ذلك من شأن الدنيا ، التي ترفع فيها التوبة والإصلاح ، وقد فوقهما على أنفسهم فلا مطمع بتلاقيهما وقد قطع بذلك رب العزة إذ يقولون له : « ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل » فيزجرهم قائلاً : « أولم نعلمكم ما يتذكّر فيه من تذكّر وجاءكم التذير .. فذوقوا فما للظالمين من نصير » (٣٧/٣٥) .

ولا مشاحة في أن هذا الشذوذ عن المعلوم بالضرورة من ينابيع الوحي ، إنما هو بقية من رواسب ما أسلف عن الموضوع نفسه في (محاولة ...) حيث يقطع « إن كل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو إلا ألوان من ضرب المثال وألوان من الرمز ... » ولكن هذا التقرير الصارم يخف كثيراً في كتابه « حوار ... » إذ يقول - ص ٣٢ - « ولا يجب أن يفهم من هذا الكلام أننا ننكر العذاب الحسي ، ونقول بالعذاب المنوي ... » ففي إقراره بالعذاب الحسي هنا صورة من المراجعة نتوقع أن تليها خطوات في طريق التصحيح .

تأثره بإقبال :

ويلاحظ لي أن الدكتور في هذا الجانب من أفكاره قد جمع إلى تأثره بابن عربي تأثره بالشاعر الإسلامي محمد إقبال (رح) عن طريق كتابه « تجديد الفكر الديني في الإسلام » الذي يبتدع فيه ذلك الشاعر الكبير من عجائب التفاسير للجنة والنار ما لا أصل له ولا مستند من قرآن ولا حديث ، ولم يرو عن ثقة من أهل العلم أو السابقين الصالحين من رجال التصوف .. من ذلك قوله عن النار إنها « تجربة للتقويم قد تجعل النفس المتحجرة تحس مرة أخرى بنفحات حية من رضوان الله .. » وذلك لأن الجنة والنار في تقديره الفلسفي حالتان لا مكانان

« فالتار هي إدراك ألم لإخفاق الإنسان ، أما اللجنة فهي سعادة للفوز على قوى التحلل . »

ويتأكد هذا التأثير والتأثير من التزام الدكتور مصطفى لبعض تعابير إقبال نفسها دون تعديل ، وكان جديراً ألا يتعرض لهذه التجربة لو تذكر أن إقبالاً مزدوج الشخصية ، فهو في شعره منتظم الخطى في الطريق السوي ، حتى إذا عمد إلى التفلس اضطربت به الخطى وشط بعيداً عن المطلق الإسلامي .

٢ - وفي ص ٦٣ بواجهنا بتلك (الشطحة) الأخرى وينقلها هذه المرة عن غلط اسمه محمد بن عبد الجبار ، يزعم أن الله يقول له في حديث قدسي : « كيف تياس مني وفي قلبك سفيري ومتحدثي ! » ومعلوم لدى الدكتور أن الحديث القدسي لا يكون إلا من وحي الله إلى رسوله ﷺ فكيف يخالف الإجماع ويقبل مثل هذه المزاعم التي تقف على بسطاء المسلمين باباً من الدجل لا يفتق . . . ورحم الله الشيخ عبد القادر الجيلاني لوقفه العظيم من مثل هذه التشرهات إذ سمع الشيطان يخاطبه باسم الله ، فلم يجد له جواباً أنسب من أن يهذفه بنعله .

٣ - ومثل هذه الخرقه ما ينقله في ص ٩٤ عن بعض هذه المصادر من هنر بارد يطلق عليه اسم « الحديث القدسي » أيضاً ، وفيه يقول عن لسان ربه - تعالى عن ذلك - « عبدي أطعني أجعلك ربانياً تقول للشيء كُن فيكون » ويستدل على صحة هذا اللفظ بالحوار التي أجراها الله على يد عبده المسيح (ع) . . . وما أدري كيف قامت الدكتور أنه قول مولد من أفكار نصرانية تنسب إلى نبي الله عيسى (ع) أنه قال - في الإنجيل - « لو أن في قلوبكم نرة من الإيمان وقلم للجيل انتقل لانتقل » هذا فضلاً عن الظلمة التي تنشئ هذه المقترحات فتنسب عن تقاضها وتهاونها .

ونكرر الإشارة هنا إلى تلاقبه مع إقبال أيضاً في التسليم بالأموال المرجوحة دون معالجتها بالتحقيق كما فعل - إقبال - حين نقل عن لسان رسول الله ﷺ أنه قال عن نفسه : (أنا الدهر) مع أن العبارة جزء من حديث قدمي عن الله تبارك اسمه . تماماً كما قيل الدكتور مصطفى بالكلم المطلق تسمية العبارتين السالفتين بالحديث القدسي .

ونكرر هنا التذكير بأنها بقايا من تملقاته الصوفية التي تدفعه إلى الإيمان بكل ما يهرفون ولو كان ما يقولونه كذياً صراحاً على الله ورسوله ... لجرده أنه وقتهم فلم ير ضرورة لمناقشتهم في أي ادعاء !

ومن هنا جاء قبوله تفسيرهم كرمي الله بقلب المؤمن وعرشه بالعقل ، ونعطي موسى (ع) بالنفس والجسد ... وما إلى ذلك من غرائب حشيت بها محاولته تفسير القرآن العظيم بما يسميه الفهم المصري . وقد فاتته - كما فات إقبال قبله - أن الله أنزل كتابه بلسان عربي مبين ، لا بطلاسم المشوفين والمضلين .

٤ - وفي ص ٤٠ يقول : « والفقير نصيب يؤخذ زكاة وإنفاقاً من $\frac{1}{4}$ من $\frac{2}{3}$ إلى $\frac{90}{100}$ جبراً واختياراً . ومعلوم أن الزكوات مختلفة المقادير لكل نوع من المراكبات نسبة الخاصة ، وليس بينها ما يبلغ التسعين . فمن أين جاء بهذا الرقم الأخير ؟ وما دام واقفاً في قسم التطوع كان الأصح أن يطلقه بغير تحديد ، لأن المؤمن قد يتبرع بكل ماله عند وقوع الحوائج أو الجوائح كما فعل الصديق (رضي) يوم العسرة .

٥ - في ص ١٢٥ يصف القرآن العظيم بأنه أتى على يد رجل بدوي في أمة متخلفة بعيدة عن نور الحضارات . وهو تكرر لما كتبه في (محاولة الفهم المصري) وقليل من التذكر لوقائع التاريخ تؤكد أن محمداً ﷺ لم يكن بدوياً قط ، وأنت مكة في مقدمة مدن الحضارة في عصر البعثة ، إذ كانت عاصمة التجارة في جزيرة العرب ، وحسبنا دليلاً على أهميتها تسمية القرآن بإياها

(أم القرى) وقد وصف رسول الله أثر البيئته في أخلاق أبنائها فقال :
« من بدا جفا ، فأين هو من البداوة . وهو الذي يقول ربه في مدحه :
« وإنك لملى خلق عظيم » - « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا
من حولك » .

٦ - وفي ص ٤٨ يقرر في شأن الأسرى أمرين : الغدية أو المن ، ونقي
شرعية الاسترقاق وقد فاتته - وبنت الشاطيء قبله - أن ثالث الأحكام من عمل
السنة ، وهي بيان لجمل القرآن وقد أطبق المسلمون على ذلك منذ عهد النبي
فأطلقوا ، وقُدُوا ، واسترقوا ، وقد 'رك' للأئمة الخيار بين الثلاثة
ليعملوا بما تقتضيه الظروف ومصصلحة الأمة . ولا مناص من تقرير ذلك لأن الحكم
في هذا الأمر وعلى هذه الوجوه الثلاثة من المحككات القاطعات ، عملاً بقوله تعالى :
« ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » هذا إلى أن من غير المعقول
أن يسترق العدو أسرى المسلمين ، ويرد المسلمون إليه أسراه مرفهين منعمين .

٧ - ويقول في ص ٩٤ « ونحن لا نعبده بأمر تكليف ، ولكننا نعبده لأننا
عرفنا جماله وجلاله ... » وأقل ما في هذا أنه جنوح إلى التمليل الفلسفي
لأسرار العبادات ، وهو مزلق خطر لأنه يعطي من لا يحسن التفاد إلى هذه
الأسرار بعض العذر في التهاون بها ، كما أنه يفتح الباب لدعي (المعركة) أنهم
وصلوا إلى مقام الكشف فلم يعد لهم حاجة إليها .. والذي عليه أهل الحق أن
العبادة تكليف يتساوى بإزائه الرسول وأي فرد من أمته ، ومع أن الله لم يخلق
إنساً ولا جنأ إلا لعبادته ، فهو لا يقبل من أحد عبادة إلا بما شرع وعلى الوجه
الذي شرع ، وقد وصف نبيه زكريا والمؤمنين معه فقال « ويدعوننا رغباً
ورهباً ٩٠/٢١ » ولو كانت العبادة مجرد استجابة لدواعي الجمال والجلال لما كان
ثمة داع للزغب والرهب . ويقول لحاتم رسله ﷺ : « أقم الصلاة لتلوك الشمس
إلى غسق الليل وقرآن الفجر . إن قرآن الفجر كان مشهوداً ٥٧٨/١٧ فإذا لم يكن
هذا تكليفاً له ولأمته فكيف يكون التكليف !

٨ - وفي ص ٤٤/٤٥ يقول الدكتور : « وكل شيء في ديننا يقبل التطوير ما عدا جوهر العقيدة وصلب الشريعة . وفيما عدا ذلك فالدين مفتوح للفكر والاجتهاد والإضافة والتطوير... » والذي أراه أن المبراة تموزها الدقة . فهو يستثني جوهر العقيدة وصلب الشريعة من إمكان التطوير ثم لا يلبث أن يحكم بأن الدين مفتوح ليس فقط للتطوير بل للإضافة أيضاً ! ونحن نذكر الأخ الكريم بأن الدين هو مجموع الأصول التي أنزلها الله وبلّغها رسوله . وقد أخبر بكامله في آخر ما أوحى به إلى رسوله : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ٣/٥ » . فكل محاولة للتطوير والإضافة على هذه الأصول فمدوان على الدين والحق وتشويه لمقاصده ، وفي الحديث الصحيح : « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » أي مردود ، وإنما يفسح مجال التطوير والإضافة في نطاق الاجتهاد الذي هو من عمل الفقهاء ، والظاهر أن الموضوع قد اختلط على الأخ فأطلق حكمه على الدين وهو يريد مجرد الاجتهاد .

٩ - ومع أن الصديق ، سدد الله خطاه ، قد أعلن كفره بالفلسفة كميّار لإدراك الحقائق فهو لم يستطع التحرر من مصطلحاتها المنافية للتوحيد . يقول في ص ٦٦ : « فلا شيء ثابت في الكون إلا الله . هو الصمد الصامد الساكن ، والكل في حركة حوله... » وهذا ما ذهب إليه فلاسفة الإغريق الذين اعتبروا الحركة من خصائص المحدثات . وأخذ هو تعبيرهم دون انقباض إلى تناقضه مع منطوق القرآن والحديث .

فلقد أخبرنا ربنا تبارك اسمه أن له مجيئاً وإتياناً فقال : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ٦/١٥٨ » « وجاء ربك والملك صفاً صفاً ٨٩/٢٢ » ونبأنا أعلم الخلق به صلوات الله

وعلى المؤمن أن يسلم بذلك كله في اطمئنان تام ، دون أن يسمح لنفسه بأي وصف لكيفية مجيئه وإتيانه ونزوله سبحانه لأنه « ليس كذلك شيء وهو السميع البصير ١١/٤٢ » .

١٠ - وقد بقي من هذه المشكلات قضية (الحروف والاعداد) التي تناولها في كلا الكتابين ، وخلاصتها أن أحد المتخصصين في شؤون الكمبيوتر قد اكتشف سرّاً لم يسبق لأحد علم به ، عن الملاقة ما بين الحروف المخطئة من أوائل بعض السور ومواطن ورود كل منها في السورة المتصلة بها .

والحق أن الموضوع مما يسترعي الانتباه ويستدعي التحقيق ، ولكننا مع ذلك نتساءل : أي مصلحة للناس في دراسة هذه القضية والاشتغال بها ؟ وما الذي نحسره لو ظفنا على جهلنا بوقائعها ؟

إن بعض ما نخشاه من هذا الامر أن يتخذ بعض الفارحين والفاستدين مجالاً للعبث بكتاب الله ، فيأتي ذات يوم من يخترع المزاعم حول كل سورة ، وحول أنواع من الحروف في كل سورة ، فيكون ذلك سبباً لانصراف المهذوعين - وما أكثرهم - عن مقاصد القرآن العليا إلى التلاعب الذي لا مردود له سوى التعمية والتضليل . ولا ينبغي أن نختلف على أن ما رجع سلفنا من قبل جدير أن يسعنا من بعد^(٢) .

تلايح من روايته :

ولنحس حين نعرض لهذه الفلتات من محتويات الكتابين إنما لفعل ذلك بدافع من الضيرة على مثل تلك الأعمال الباهرة التي وفق إليها أن يتخطاها ما بسوء إليها

(١) من حديث صحيح متعدد الطرق والرواة . انظر فتاوي شيخ الإسلام بن تيمية ج ٣٨٨/٥ .

(٢) لقد وقع ما توعدناه وكان ذلك على يد الرجل نفسه - رشاد خليفة - الذي بدأ الكلام عن قضية (الحروف والاعداد) إذ ما كاد يتشر غير كشفه بين الناس حتى أخذته نشوة الفرور فإذا هو لاحق بمنكري السنة وزاعم من العلم بكتاب الله ما لا يقول به عامل .. ولا حول ولا قوة إلا بالله ! ..

من أخبار يعوزها التدقيق ، أو اجتهادات مردها إلى الرأي في أمور لا صلاحية فيها لتعبir الوحي .

ولن يكون التعقيب مستوفياً عناصر الإنصاف إذا لم يحمل لغارثه بعض الغانج المقابلة في روائع الكتابين :

١ - في حوار مع ذلك العائد بالإلحاد من الغرب الضائع وأتساء الكلام عن بعض الحقائق التي ينكرها من عالم النيب ، يقول له الأخ الدكتور مصطفى (ص ٦٨/٦٩) : « بل نحن في عصر يسهل فيه تماماً أن تصدق بأن هناك ملائكة لا ترى ، وبأن الحقائق يمكن أن تلقى إلى الإنسان وحيًا ، فهم يتكلمون اليوم عن أطباق طائرة تنزل على الأرض من كواكب بعيدة ، وأشعة غير منظورة تقتل ، وأمواج لاسلكية تحدد الأهداف وتضربها ، وصور تتحول إلى ذبذبات في الهواء ، ثم تستقبل في أجهزة صغيرة ، وأجهزة أخرى تصور الأشباح ، وعيون ترى في الظلام ، ورجل يمشي على القمر ، وسفينة تنزل على المريخ .. وعلى ضوء هذا كله يصبح وجود جبريل (ع) من الحقائق البديهية ...

وما أحسب ثمة عقلاً سليماً يقبل الجنوح إلى الشك في وجود الملائكة أو الجن بعد التأمل الواعي في هذه المكتشفات الكونية .

٢ - وفي الرد على مزاعم المحدث في نسبة القرآن إلى محمد ﷺ بقوله له (ص ٦٩) : « فإذا نظرنا إلى القرآن في حياذ وموضوعية فسوف نسلعد تماماً أن يكون من تأليف محمد ﷺ أولاً لأنه لو كان هو مؤلفه لبث فيه همومه وأشجانه . ونحن نراه في عام واحد - بل في أسبوع واحد - يفقد زوجه خديجة وعمه أبا طالب ولا سند له من الناس غيرهما ، وفجيعته فيها لا تقدر .. ومع ذلك لا يأتي لهما ذكر في القرآن .. وكذلك يموت ابنه إبراهيم ويكيه ولا يرد له خبر فيه .. فالقرآن مزول تماماً عن الذات الحمديية ... »

ويا لها من حجة قيمية بأن تضم إلى قائمة الدلائل القاطمة بإهلية الكتاب الذي « ما كان حديثاً بفتري ... ١٩٢/١١١ » .

٣ - ويذكره الملعّد بماضيه الذي ملّته الشكوك والانحرافات ، وما كُتِبَ من كُفريات سابقة في كتابه «الله والإنسان» ويستوضحه عن العوامل التي غيرت مساره فنقلته من النقيض إلى نقيضه .

ويأتي جواب الدكتور - ص ١٢٤/١٢٥ - مستغلاً من خلال تأملاته في نظام الكون «... رأيت العالم حولي كله محكماً دقيقاً منضبطاً لا مكان فيه للهزل ولا للعبث .. رأيت النجوم تجري في أفلاكها بقانون . ورأيت الحشرات الاجتماعية تتكلم ، والنباتات ترى وتسمع وتحس .. ورأيت الحيوانات لها أخلاق .. ورأيت المخ البشري عجيبة المعائب يتألف من عشرة آلاف مليون عضل عصبي تعمل كلها في وقت واحد في كمال معجز .. ولو حدث بها عطل هنا أو هناك لجاء في أثره الشلل والعس والحرس والتخليط والهديان . فما الذي يحفظ لهذه الآلة الهائلة سلامتها ؟ ومن الذي زودها بكل تلك الكمالات ؟

أجل .. لقد رأيت الطبيعة بناء محكماً متكاملًا تستحيل فيه الصدفة والمشوائية بل كل شيء يكاد يصرخ : دبّرني مدبّر حكيم ، وخلقني مبدع قدير ... » .

وإنه للاستدلال القطري الذي يقطع بكمال العناية الإلهية ، ويرفض حكل ما يزعمه المضللون من الصدفة أو العشية في هذا الوجود الشاهد لواجب الوجود ، سبحانه .

٤ - وما يثلج الصدر بخاصة في تقارير هذا المفكر أن ، على الرغم من تقاعده مع الأفكار الصوفية ، لم يسمح لها بالتسلل إلى مكان المقيدة من قلبه . في الفصل الذي يسميه (علم نفس قرآني) من كتاب (أسرار القرآن) يتحدث عن آثار ذكر الله في حياة الإنسان فيقول (ص ٦٤/٦٥) «وذروة العلاج النفسي في الإسلام هي (الذكر) ذكر الله بالقلب واللسان والجوارح والسلوك والعمل . واستشعار الحضرة الإلهية على الدوام في كل قول وفعل .. وفي الذكر شفاه ووقاية وأمن وطمانينة ، لأن الذكر يعيد الصلة المقطوعة بين العبد والرب ،

ويربط النفس بينهما ، ويرد الصنعة إلى صانعها ، إذ هو الأعم بصيوها والأفقر على علاجها .

وعلى ضوء ذلك يمضي في المقارنة بين هذا النوع من العلاج الرباني في الإسلام وبين ضلالات اليهوديين الخبيثين قرويد وماركس ، اللذين وقفا بتصور النفس البشرية عند حدود الآلية الحيوانية ، فانتهى بها تصورهما هذا إلى اعتساف الأدلة وتزييف البراهين ، ومن ثم إلى إعطاء المفاسد الهدامة حق التدمير لكل الفضائل الإنسانية .

ولا ننسى البون الشاسع ما بين فهمه السوي للذكر كما هو في الكتاب والسنة وبين صور الذكر البدعي الذي استحال على أيدي الطرفين ضرورياً من اللهو والرقص والأشيد ، والقفو الذي لا يكاد يتصل من قريب أو بعيد باسم الله !

٥ - ومن هذه الزاوية ينظر الدكتور ، زاده الله هدى ، إلى موضوع (التوسل) فهو يرى (ص ٨٩) : « إن وسيلة كل إنسان عمله .. ولكن العمل الأمثل هو اتباع الرسول ﷺ واتخاذة قدوة في جميع الاعمال » .

ثم يقول ص ٩٠/٩١ : « هذا هو المعنى الإسلامي للشفاعاة والتوسل ، وهو غير ما يجري في أضرحة الأولياء من تقبيل النعاس وإلقاء الحطب والصراخ الساذج من المكلمين : مدد يارفاعي - نظرة يا سيد - يدك معنا يا بدوي - همتك معنا يا قطب الرجال - أغثنا يا رسول الله - الشفا بيدك يا سيدي إبراهيم الدسوقي - يا ست زينب الامر أمرك !! وقد نسي الككل التوجه إلى الله ، وتشبهوا بالقضبان يغمرونها بالدموع ، وضرب الفلاحون القادمون من أقاصي الريف خيامهم .. وترقص القوافي ، وينغي صاحب الرباية ، ويتحول السامر إلى سوق لبيع الأعراض أحياناً .. ومدد يا سيد .. » .

وهكذا يتفجر الاخ الفاضل سخطاً على هذه الجاهليات التي سلبته ذات يوم إيمانه كما تفعل بالكثيرين غيره ، دون أن تحرك ساكناً من (حياة الدين) الرحميين ،

الذين وجدوا أخيراً في هذه الاوضاع مورداً جديداً يسوقهم إلى تزيينها وحرمانها بدلاً من مكافحتها وملاحقة مجرميها .

والحق أن استقصاء هذه الروائع ، في ما يقدمه الصديق الكرم للفكر الإسلامي ، لأمر يستدعي الوقت الطويل ، والصفحات الأطول ، ولكن حسبنا من الفيض الثر كواب يدل على عذوبته .

وقد بقي من حق هذا المفكر علي* أن أسجل له ما وجدته في خلقه من دماثة وبراعة ، أبعد ما تكون عن التكلف ، حتى لكأنه ، وهو يصف المؤمن الحق بأنه دائماً طلق الوجه مشرق البسمة متفائلاً ، حثاداً لربه في جميع الحالات ، لا يسب الدهر ولا ينسب لربه نقصاً ولا قصوراً لكأنه في هذا الوصف إنما يصف نفسه هو .

وما يضاعف تقديري لهذا الاخ الكرم ما لمست من حبه للحق ، واستعداده للرجوع عن كل ما يخافيه ، وفي مقدمة ما أنتظره منه زيادة العناية بلغة العرب ، ليزداد تفوقه الرفيع لبيان القرآن ، وللتخرج من أية رواية لم يتيقن من صحة سندها ، ثم المزيد من عنايته بالحكمة النبوية على اعتبار أنها الدليل الذي لا مندوحة عن مصاحبتة في التعرف إلى الكتاب الذي هدي لتي هي أقوم .

وتبارك الله الذي هدانا وإياه ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

الشيخ مناع القطان

هو الشيخ مناع أبو محمد القطان .

ولد في شهر أكتوبر - ت ١ - عام خمسة وعشرين وتسعمئة وألف في قرية شدشور مركز أشمون من محافظة المنوفية بمصر ، ولإى قرينته هذه ينسب الشيخ الشنشوري شارح (الرحبية) في علم الفرائض .

والشيخ مناع من أسرة كثيرة العدد متوسطة الثراء تعرف بآل القطان .

وفي هذه البيئة كان منشأ الشيخ، وهي كشان البيئات القروية المصرية تمتاز بالمحافظة على الأعراف والتقاليد وترابط الأسر ، وما يتصل بذلك من حماية الأعراس والغيرة على حرمان الإسلام .

وقد بدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم في 'كتاب القرية' ، على دأب أمثاله من أبناء البيوت المحافظة في مصر أثناءئذ ، والتحق بمدرستها الابتدائية فآتم براجمها . ولما يتجاوز الثانية عشرة . ثم التحق في شبين الكوم بالمعهد الديني التابع للأزهر ، فحصل منه على الشهادة الابتدائية ثم الثانوية بترتيب متقدم . ومن أبرز مشايخه في هذه الفترة الشيخ عبد الرزاق عفيفي - وسنترجم له إن شاء الله - والشيخ عبد المتعال سيف النصر ، والشيخ علي شلبي .

ومن ثم التحق بكلية أصول الدين في القاهرة ، ومنها حصل على الشهادة العالية بتفوق ، والتحق بعدها بتخصص التدريس ، وقال الشهادة العالمية مع إجازة التدريس عام واحد وخمسين وتسمئة وألف للبلاد .

ويذكر الشيخ من أساتذته في هذه الفترة ، الشيخ محمد زيدان ، والدكتور محمد البهي ، والدكتور محمد يوسف موسى (رح) .

ويعدّ الشيخ مناع من الشخصيات التي أثرت فيه توجيهياً وتعليمياً وتربية : والده خليل القطان ، ويصفه بالتقوى والكرم والحزم .. ثم الشيخ عبد الرزاق عفيفي ، فقد تلقى عنه وعاشره وجالسه ، وهو في بلده شنشور ، فكان يرافقه في البلد ، ويلازمه في تنقلاته ودروسه ثم شاء الله أن يصاحبه مدرساً في كلية الشريعة ، وفي المههد العالي للقضاء بمدينة الرياض ، حيث لا يزالان معاً منذ سنة ١٣٧٢ هـ حتى يومنا هذا .

ثم يخص بالذكر الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ، فقد تعرفه ، واستمع إلى دروسه ومحاضراته وتوجيهاته ، فلم يلبث أن انضم إلى الجماعة ، واستمر يعمل في صفوفها منذئذ .

ومن بين العلوم التي تفتها الشيخ يرى التفسير وعلومه أحبها إليه ، لأنه يجد فيه - وهو المصدر الأول للتشريع الإسلامي - من الإعجاز التشريعي ما يكفل قيام الحضارة الفاضلة في كل عصر . ويدافع من هذا الإيثار بتولي تدريس التفسير وعلومه منذ تخرجه .

والقارىء لآثار الشيخ ، كتاباً أو مقالاً أو حديثاً أو محاضرة ، لا يفوته إدراك هذا الاتجاه ، لأن الإيحاءات القرآنية أشد العناصر بروزاً في هذه الآثار .

ويتأمل المترجم في الأحداث التي عاصرها ، وتركت طابعها عميقاً في تكوينه الفكري والروحي فيقصرها على ما يأتي :

أ - اتصاله بجماعة الإخوان المسلمين وإسهامه في جهادهم .

ب - مشاركته في الحركة الوطنية التي قام بها الشعب المصري ، وفي مقدمته الإخوان ، ضد الاستعمار الإنجليزي سنة ١٩٤٦م والتي انتهت بالقضاء على معاهدة ١٩٣٦م .

ج - مشاركته في حركة الجهاد بفلسطين عام ١٩٤٨م وذلك بتطوعه في سرايا الإخوان للعمل الفدائي ، في قتال اليهود الباغين .

د - الفترة التي قضاها في السجن حين حاربت حكومة إبراهيم عبدالمحادي جماعة الإخوان ، فعملت تطبيقاتها وصادرت ممتلكاتها واختالت مرشدتها العام الشهيد حسن البنا ، وأوقعت في أعضاء الجماعة مختلف أساليب التعذيب والإرهاب ، إذ كان أحد الذين اتهموا في قضايا الجماعة ، وزجوا في المعتقلات مع الفوج الأول من سجناء الإخوان بدءاً من عام ١٩٤٨م وما بعده .

هـ - مشاركته في حركة المقاومة السرية ضد الإنجليز في منطقة القناة سنتي ١٩٥١ و ١٩٥٢م .

ومعلوم أن تلك الأحداث كانت محور نشاط الشباب من جماعة الإخوان المسلمين ، ترموا خلالها بألوان من التربية الإسلامية ، التي توقظ الوعي وتوضح المفاهيم الصحيحة ، وتحقق التطبيق العملي للمعاني العليا ، التي تلهب في النفوس روح الجهاد الإسلامي ، لتخلص من القوى الاستعمارية على اختلاف ألوانها من شرقية وغربية ، وتوجه طاقات الشباب المؤمن إلى العمل على استعادة أجماع الإسلام ، واستئناف الحياة الإسلامية القوية ، التي يها يتأكد الانتعاش الحي لأمة القرآن .

وقد شاء الله أن يحرم الشيخ مناع من الإسهام في مجلة الإخوان التي نزلت بها عام ١٩٥٤م في مصر، إذ كان أيامئذ مغترباً في المملكة العربية السعودية، حيث لا يزال حتى الآن .

أحداث في التدريس :

وحق الآن لم نتلق جواباً على سؤالنا الثامن حول الأحداث التي قد تكون عرضت لأي من أصحاب القضية أثناء عملهم في التدريس أو القضاء وما إلى ذلك ، فجواب الأستاذ مناع إذن هو الأول من نوعه حتى الآن .

يقول الأستاذ : إن أم هذه الأحداث التي عرضت له في التدريس ما كان يراجه من بعض الطلاب المنحرفين المهدوعين الذين يعرفون اتجاهه الإسلامي فكان يأخذهم بالحكمة والهدر .. ويقول : إن له مع هؤلاء نوادر طريفة .. إلا أنه لم يشر إلى أي من هذه النوادر بالتفصيل ، وكل ما يعطينا به هو نتيجة أسلوبه الحكيم الحازم ، إذ يرينا أنهم أكبروا فيه صموده واستمساكه بمقيدته حتى لانت عريكهم له .

وفي ظننا أنه لا بد لكل مدرس إسلامي في هذه الأيام من مواجهة أمثال هذه المشكلات التي يشير إليها قضية الشيخ ، وهي أمر جد طيبي ، لأنها تمثل مرحلة الصراع التي يمر بها الجيل ، وبخاصة في الأقطار التي تسيطر عليها الاتجاهات غير الإسلامية ، إذ تعمل الدعايات الشيطانية عملها الدائب لزلزلة بقايا القيم في صدور الشباب، عن طريق المناهج الدراسية حيناً ، وعن طريق المدرس الزائغ حيناً آخر ، إلى المشرات في وسائل التخريب التي تنصب على الناس من كل صوب .

إن المدرس المستقيم الذي يستثمر المسؤولية أمام ربه ودينه وأمنته لن يكون سعيداً في مثل هذا الجو ، لأنه لا يستطيع كتمان الحقيقة التي تملأ كيانه ، ولا يستطيع تأييد الباطل الذي يريد أن يلغي هذه الحقيقة ، فإذا قال الحق

أثر عليه أهل الباطل ، وما أكثرهم في كل مكان ، وبخاصة في الأوساط التعليمية ، التي يركز عليها أصحاب السلطان من الذين حرموا نعمة الإيمان ، وحرموا في الوقت نفسه نعمة النظر في دلائل أهل الإيمان . وقد طالما هانينا من هذه المشكلات خلال عملنا في التدريس قصيراً ما وسعنا الصبر ونصرنا الحق ما وسعنا النصر .

ولا جرم أن هذا الضرب من عن المدرسين لم يعرفه أحد من أسلافهم ، أيام كان الإسلام هو الذي يسود المجتمع ، ويحكم الضمائر .

سور من نشاط الشيخ ،

لقد شغل نشاط المترجم ولا يزال يشمل جوانب متعددة في خدمة الإسلام والعلم ، ويمدده فضيلته بعضها ، فيخبرنا أنه كان عضواً في قسم الدعوة والإرشاد لجماعة الإخوان المسلمين ، مذ كان طالباً في المرحلة الثانوية ، فكان لا يفتأ يتجول في المدن والقرى للدعوة إلى الله في المساجد والأندية والحفلات ، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً .

وقد انتخب رئيساً لاجتهد الطلبة في كلية أصول الدين ، فقام بالاشتراك مع إخوانه بمحركة المطالبة بتجديد المناهج الأزهرية لتمكين الأزهر من النهوض بمسئولته بإزاء الدعوة ، وحول هذا الموضوع نشر عدداً من المقالات في جريدة « الشباب » جريدة الإخوان يومئذ .

ومنذ تخرجه التحق سبيلاً إلى التدريس ، فعمل في مصر إلى عام ١٩٥٣ م حيث أعيير إلى المملكة العربية السعودية للتدريس بالمعهد العلمي التي استمر فيها إلى سنة ١٩٥٨ م ، ومن ثم انتقل للتدريس في كلية الشريعة بالرياض ، ثم في كلية اللغة العربية ، وحين افتتح المعهد العالي للقضاء عام ١٣٨٧ هـ أصبح عضواً في مجلس المعهد ثم أميناً لسر المجلس ثم مديراً له ، إلى عضوية هيئة التدريس بدرجة أستاذ ، ثم مديراً للدراسات العليا بجامعة الإمام محمد بن سعود ..

يضاف إلى ذلك عضويته في كل من مجلس جامعة الإمام والمجلس الأعلى لهذه الجامعة سابقاً .. ثم رئاسة اللجنة العلمية لكلية البنات ، وكذلك إشرافه على مواد التشريع الإسلامية بكلية قوى الأمن الداخلي ، ثم عضويته في مجلس الإدارة لمدارس الرياض ..

وقد اختير فضيلته كذلك عضواً في اللجنة الفرعية للتعليم بالمملكة العربية السعودية ، عندما صدر الأمر الملكي بتشكيلها ، لوضع السياسة التعليمية على الأسس التي تتطلبها منزلة المملكة في العالم الإسلامي . ومن مهام هذه اللجنة النظر في مناهج التعليم بمراحله المختلفة ، وصياغتها صياغة جديدة تبتقى من السياسة التعليمية العليا ، وتراعى أحدث النظريات والأساليب التربوية ، وقد اختارته هذه اللجنة الفرعية للتعليم مقررأ لها .

ومن أعماله العلمية الإشراف على رسائل الماجستير ، وقد بلغ عدد الرسائل التي أشرف عليها في هذا القسم ، حتى موعد الطبعة الثالثة من هذا الكتاب ، ثلاثين رسالة ، وكذلك رسائل الدكتوراه التي بلغت عشرين ، إلى ست أخرى يقوم بالإشراف عليها في هذه الأيام .. هذا إلى مشاركاته في مناقشة محبين من رسائل القسمين .

وقد كلف من قبل كلي من جامعة الإمام محمد بن سعود وجامعة الملك سعود بالرياض ، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، بتقييم عدد من بحوث أساتذتها المساعدين والمشاركين المقدمة للحصول على الترقيات .. كما أحييت إليه من بعض الجامعات عدة مؤلفات لتقدير مدى صلاحيتها للنشر .

وفي ذلك كله معالم شاهدة بمكانة الشيخ الفكرية والثقة الكبرى التي يتمتع بها في أرقى المؤسسات العلمية .

في المؤتمرات والندوات :

ومما يتصل بهذا الجانب من نشاط الشيخ الفكري مشاركاته في الكثير من المؤتمرات والندوات ، نذكر منها :

- ١ — المؤتمر الأول لرابطة العالم الإسلامي .
- ٢ — المؤتمر الإسلامي العالمي في كراتشي .
- ٣ — المؤتمر الإسلامي العالمي في بغداد .
- ٤ — المؤتمر الإسلامي في القدس .
- ٥ — مؤتمر المنظمات الإسلامية .
- ٦ — مؤتمر رسالة الجامعة — الرياض .
- ٧ — أسبوع الفقه الإسلامي — الرياض .
- ٨ — أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب — الرياض .
- ٩ — المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي — مكة المكرمة .
- ١٠ — المؤتمر الجغرافي الإسلامي — الرياض .
- ١١ — ندوة رسالة المسجد — الرياض .
- ١٢ — مؤتمر الدعوة والدعاة — المدينة المنورة .
- ١٣ — مؤتمر مكافحة الجريمة — الرياض .
- ١٤ — ندوة مكافحة المخدرات — الرياض .
- ١٥ — مؤتمر الندوة العالمية للشباب المسلم — الرياض .
- ١٦ — ندوة انحراف الأحداث .

ولقد أقدر لنا أن نشارك في إحدى اللجان المنتهقة عن * مؤتمر رسالة الجامعة * الذي عقدته جامعة الرياض — الملك سعود — عام ١٣٩٤ هـ إذ كان الشيخ مناع هو الذي يرأس هذه اللجنة ، وكان له الأثر الطيب في نشاطها ، وفي ما انتهت إليه من توصيات نافعة ، على الرغم من إلغاء بعضها عند الصياغة الأخيرة ، وبخاصة ما يتعلق منها بضرورة الحفاظ على سلامة العربية وآدابها .

في نطاق التأليف

- ١ — مباحث في علوم القرآن .

- ٢ - تفسير آيات الأحكام .
- ٣ - التشريع والفقه في الإسلام تاريخاً ومنهجاً .
- ٤ - الحديث والثقافة الإسلامية .
- ٥ - نظام الأسرة في الإسلام .
- ٦ - الدعوة إلى الإسلام .
- ٧ - موقف الإسلام من الاشتراكية .
- ٨ - الإسلام رسالة الإصلاح .
- ٩ - الشريعة الإسلامية .
- ١٠ - رفع الحرج في الشريعة الإسلامية .
- ١١ - وجوب تحكيم الشريعة الإسلامية .
- ١٢ - الحاجة إلى الرسل في هداية البشرية .
- ١٣ - وهذه المؤلفات كلها قد طبعت وأعيد طبع بعضها ، وهناك مؤلفات ذكر فضيلته أنها معدة للنشر وسمى منها :

- ١ - مباحث في علوم الحديث .
- ٢ - تاريخ التفسير ومناهج المفسرين .
- ٣ - الفرق الإسلامية .
- ٤ - العقيدة والمجتمع .
- ٥ - القضاء في العهد النبوي والخلافة الراشدة .
- ٦ - الزواج بأجنبية .

ويقول الشيخ: إن أحب هذه الكتب إليه هو أولها، مباحث في علوم القرآن، ويعمل ذلك بأن أصول هذا الكتاب كانت باكورة تواليفه .

وهو تحليل معقول يثبت أثر الظروف النفسية في إثارة المؤلف بعض تأليفه على بعض، ولكنه لا يثبت أرجحية المختار على سواء في التقدير المطلق .
ونظرة مدققة في أسماء هذه الكتب تؤكد أنها على سواء في القيمة

الموضوعية ، إذ كل مباحثها من الضرب الذي تنطلق إليه حاجة الفكر المسلم في المرحلة الراهنة .

مستقبل الجيل الإسلامي :

ويرى قضية المترجم أن ثمة تشابهاً كبيراً في أوضاع المسالم الإسلامي على اختلاف دياره وأقطاره ، وأن التفاوت الذي يبدو في بعض أجزائه لا يعدو أن يسعون تفاوتاً في العوامل المؤثرة فيه قوة وضعفاً ، أو في مدى قابليته لتأثرها . ويوضح الشيخ رأيه قائلاً : إن التآمر الدولي الذي يحوكه خصوم الإسلام إنما يستهدف القضاء على كيان الأمة الإسلامية ومقومات شخصيتها حتى تظل نهب المطامع الغربية . ثارة والشرقية أخرى ، فلا يتحقق لها استقلال ذاتي ولا تنفض عن كاهلها غبار التبعية . والغزو العسكري يشق طريقه لتحقيق هذا الهدف بخطوات ثابتة ، ويقوم بتنفيذها أبناء جلدتنا باسم الحرية والتقدمية . وفي ظن الشيخ أن مستقبل الجيل الإسلامي الجديد سوف يكون أحسن حالاً من حاضره وعباً للإسلام وإدراكاً لمهمته وعملًا على النهوض بأمره .

أما لماذا وكيف . فيقول : لقد ذاق العالم الإسلامي مرارة الاستعمار الغربي ، واكتوى بنار فساد المدنية الحديثة ردماً من الدهر قاسى فيه ألواناً من المآسي أنهكت قواه ، وفرقت شمله وأشاعت فيه روح المروق والإباحية ، واستغلت مرافقه وخاماته وطاقاته ، فزرح تحت نير الاستعباد مكبلاً بأغلاله . ثم جاءت صحوة العالم الإسلامي بعد هذه الكبوة تشع بيوارق الأمل . إلا أن هذا الأمل ما لبث طويلاً حتى تبدد شعاعه في الظلام الكثيف الذي ساقه الثوار المتحررون في مؤامرة جديدة ، ترفع شعار الكفاية والعدل ، وتحفي وراءها الشيوعية الدولية مغلقة بالحرية والاشتراكية والقومية ، وحيث ظن الناس أنهم نجوا من مخلب قط وقموا بين فكي أسد . ويعرب الأستاذ عن تقاؤه بأن هذا الشعور يكمن اليوم بين جوانح الكثير من أبناء الأمة الإسلامية ، وستتاح له الفرصة قريباً للتعبير عن حاجاته ، وبومئذ تبدو بوادر اليقظة الواضحة التي تنفض يدها

من الشرق والغرب، وتراجع رصيدها الإسلامي من تاريخ أمنا المجيدة، فتتجدد في هذه الأمة بواعث الأمل وعوامل النهوض لبناء مجتمع إسلامي معاصر على مبادئ الإسلام وهدى شريعته، بقيم الإنسانية حضارة إسلامية فاضلة، تأخذ بيدها إلى سبيل الرشاد.

مسؤولية علماء الإسلام .

وبيض الشيخ في الحديث عن هذا الجانب قائلاً : على يد علماء الإسلام الذين يدركون واقع أمتهم ، ويفهمون حقيقة رسالتهم ، ويقدرّون أمانة الله في أعناقهم ، على يد هؤلاء العلماء يقع العبء الثقيل في مسيرة الجيل ، والوقوف في وجه التيارات الفازية ، واستئناف حياة إسلامية صحيحة . ومن أجل تحقيق هذه الغاية يتقدم دبتق إلى إخوانه العلماء بهذه التوصيات الأربع :

١ - أن يستثمروا خطورة المسؤولية ، وفداحة الخطب .. فإن الله قد أناط بهم ميراث النبوة من القيام بواجب الدعوة وهداية البشرية إلى الخير ، وهي مسؤولية جد خطيرة لا يحملها إلا أولئك الذين يتجردون لله من ذوي الإيمان الصادق والعزيمة القوية ، التي تمضي في طريقها بشبات وصبر : « يا مجيبى خذ الكتاب بقوة » « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » .

والتخلي عن أداء تلك المهمة أو التفتير فيها لا ينكب الأمة في خطب قوامى فيه بالاستماتة عنه ، وإنما ينكبها في أعلى شيء لديها لا تجد له عوضاً .

إن الأمة قد ترزأ في اقتصادها ، واحتلال أرضها ، أو تخلف حياتها ، ولكنها تظل أمة حية تنبض بعافى القوة ما دامت معتصمة بدينها ، مؤمنة بعقيدها ، واثمة بنصر الله لها . أما إذا فقدت الثقة والإيمان والدين فقدت روحها ، وأصبحت جثة هامدة لا حياة فيها ، وذلك هو الرزء الذي لا تجدي فيه المواسة ، ولا يستماض عنه بشيء ، فشعور علماء الإسلام بهذه الحقيقة هو بداية الطريق .

٣ - ومن شأن هذا الشعور أن يوقظ في نفوس العلماء ضرورة العمل الموحد ، وهذه هي الوصية الثانية : لقد كانت علماء الإسلام على مر العصور والأجيال يختلفون في المسائل الفرعية الاجتهادية ، ولكن هذا الاختلاف لم يفسد ما بينهم من رابطة الجهاد ووشيجة قرابته ، فقد كانوا يوقنون بأنهم جميعاً جتود للإسلام في صف المعركة . فالمعركة واحدة وصفها واحد وغايتها واحدة ، وهي تحرير الإنسان من عبوديته لأخيه الإنسان حتى يصير عبداً خالصاً لله ، وتلك هي الحرية بالمفهوم الإسلامي : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » .

وإذا كانت الاتجاهات المعادية للإسلام تذفن كل خلاف بينها لتقف على قلب رجل واحد في حرب الإسلام ولتعظيم كيانه ونزقي شمل أمته ، فكيف يسوخ لرجال الإسلام أن يواجهوا هذا التكتل أشتاتاً متنافرين . والله تعالى يقول : « ولا تنازعوها فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

٣ - ثم يأتي دور التخطيط للعمل الثمر المهادف - وهي الوصية الثالثة لقد تقدمت المعارف الإنسانية ، وكثرت فنونها وأصبح لكل فن شعبة الدراية . ولكل شعبة أبحاثها ، فلعلم الاقتصاد مبادئه ونظرياته ، وللعوم السياسية أسسها ومناهجها ، وللعوم الاجتماع قواعدا وفلسفتها ، ولكل أمة منهج فكري تصدر عنه في تنظيم شئون حياتها فتصوغ معارفها في قالبه . وتقدمت كذلك وسائل الإعلام والنشر والتوجيه تقدماً ممدوم النظر ، وأخذ أصحاب كل مبدأ بهذه الأساليب في نشر مبدئهم عن تخطيط مدروس .

فعلى رجال الحركة الإسلامية إذن أن يرتفعوا إلى هذا المستوى في الدراسة الواعية والأساليب المتكورة ، للذود عن حياض الإسلام ، والقيام بواجب دعوته .

٤ - وتأتي بعد ذلك الوصية الرابعة في الأدب والمثارة . إن العمل أياً كان نوعه أمر شاق على النفس ، ولكن الصبر عليه هو ضرورة الحياة الجادة النامية ،

وحين يتسرب اليأس إلى النفس يدرسها الخور وتتراهى أمامها الحياة بحيفة مقفرة .

ونحن المسلمين أصحاب عقيدة تصلنا بالله تعالى ، الذي بيده ملكوت السموات والأرض ، ومن هذه الصلة نستمد القوة المنوية الدافعة ، التي تبدد سحب المخاوف ، وتقضي على عوامل اليأس ، وتبعث فينا روح الأمل الباسم المشرق من خلال البلاء والهن «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ، إنه لا بد للحركة الإسلامية من أن تجمع شتاتها ، وتحكم خطتها ، وتستفيد من طاقات أبنائها ، وتدأب على الكفاح المرير في خطة مدروسة محكمة .

ولن تقضي عواطف الجماهير المسلمة شيئا ما دامت ساذجة غادرة حتى تتحول هذه العواطف إلى فهم ، ويتحول الفهم إلى وعي ، ويتحول الوعي إلى تنظيم ، ويتحول التنظيم إلى جهاد . وهذه المراحل منهاجها التربوي ، وسيلها العلمي وصفها المفراص «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص» وفي وعد الله للؤمنين العاملين ما يستنهض الحمم ويحفز العزائم ، ويستغفر قوى الإيمان للبذل والفداء « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا » .

مفردات من آثاره :

وعند الإجابة على هذه الفقرة لم يعرض الشيخ لذكر الشر . ولعل ذلك عائد إلى أنه لم يحاول ممارسته ، أو لم يجد فرصة لها ، لانصرافه مبكراً إلى الفكر العملي . وقد تفضل فاختار لنا المقاطع التالية من كتابه « الدعوة إلى الإسلام » .

يقول فضيلته : « وتفاوت الناس ، واختلاف طبائعهم وتباين أهزجتهم من الأمور التي يجب مراعاتها في الدعوة ، لتجد مسلكاً إلى القلوب يخاطب شغافها

ويروي ظمأها ، وينمّي فيها عوامل الخير وبعضها من مزلق الشر .

ولكل مجتمع آلامه وآماله التي تنبعث من صميم بيئته فهو يتطلع إلى مبعث يبرىء سقمه في لطف وبصيد إليه عافيته ، وما لم تلمس موعظة الداعية حقائق مشكلاته بسبر أغوارها وتشخيص علاجها صحت آذانه عن الاستماع إليها . ولكل عصر مشكلاته التي تتجدد معه بتجدد الحياة وأفكارها ونظرة الطفل البشري إليها ، فالذي يخاطب عصره بمشكلات عصر آياه وأجداده أو مضلات بيئة غير بيئته كالذي يصيح في واد ، أو ينفخ في رصاد - والناس يحدث لهم من الأفضيات بقدر ما يستحدث من مبادئ وعقائد ومذاهب وأعمال ، وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه يفتي في مصر بما لم يفت به في العراق ، حتى أصبحنا نقرأ في مذهبه : قال الإمام الشافعي في القديم ، وقال الإمام الشافعي في الحديث .

وقد عرّف أهل اللغة البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال وقالوا : لكل مقام مقال ، ولهذا كان من الواجب على الداعية في منهج دعوته أن يراعي اختلاف المقام ومقتضيات الأحوال ، وإذا كان السابقون قد وقفوا في هذا عند اختلاف أضرب الخبر في التجريد والتوكيد ومواضع الإيجاز والإطناب والمساواة ، فإنه في منهج الداعية يتجاوز هذا إلى الإلمام بالعلوم النفسية والدراسات الاجتماعية ، حتى تأتي موعظته بليغة في كل موقف من مواقفه تتحسس النفوس ، وتتمرف مداخنها . وقد أشار القرآن الكريم إلى مراعاة هذا مع طبقات الناس من العالم الذي يتطلب الحكمة بالبرهان ، والعامي الذي تكفيه الكلمة العاطفية المثيرة المؤثرة ، إلى الجاهل الذي يرفض الحق بالمكابرة ، يقول تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » (النحل : ١٢٥) وقد أصبح الصراع الفكري محتدماً في العالم المعاصر ولكل مبدأ شيعته بل دولته التي تبناه وتدعو إليه ، وتتفق بينذخ في سبيل قومه ، وتطورت وسائل الإعلام وتمايزت بدراسة عالية خاصة ، واستطاع

أصحاب المبادئ أنت يبشوها مطعمة في الأدب بالقصة والمقالة والقرص
والفكاهة ، وفي التأليف بالكتاب العمي والكتاب الروائي والرسالة الموجزة
والبحث العميق ، وفي التمثيل على خشبة المسرح ، وفي القرية بأشيد الناشئة
وصفوف الدراسة ، وفي التوجيه الفكري بالبعثات العلمية والإرساليات
التبشيرية . والدعوة الإسلامية تواجه هذا السبيل الفكري المتدفق بأواجه
العامرة فلا بد لها من تعبئة ترفعها إلى هذا المستوى ، مستندة إلى أحقيتها في
الحياة ، وتكامل عناصرها للتوجه بالإنسانية ، كي تكفي ثمارها بإذن الله .
وإذا لم تتوافر لها تلك التعبئة فهيئات أن نبلغ بامتنا إلى أملاها المنشود في العزة
والسؤدد والحضارة والجد . وتاريخ الدعوة إلى الله في حياة الرسل يبين لنا
منهجها السديد ، من رقة التعبير ، وإشراقه الديباجة ، وحسن العرض ، ولحن
الخطاب ، وجميل الملاحظة . فقد تابع على لسان نوح وهود وصالح من خطاب
قومهم لتبليغ الدعوة : « إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون » (الشراء ١٠٥)
« إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون » (الشراء ١٤١) ويستميلهم لوط بقوله :
« ألا تتقون إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه
من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » (الشراء ١٦٠ - ١٦٣) .
ويسترضيهم شعيب بالحسنى : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ،
إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ،
(هود ٨٨) . وفي ملائكة موسى وهارون لطفيان فرعون رجاء تذكرته ،
سبيل الدعوة السوي ، يقول تعالى : « اذهبوا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له
قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى » (طه : ٤٢ - ٤٣) . وبين الله سبحانه وتعالى
أثر هذا اللين لدى رسولنا ﷺ في التفات القلوب حول رسالته فيقول :
« فبارحني من الله إئت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ،
(آل عمران ١٥٩) . وأي أدب ألين عاطفة وعريكة من حكاية القرآن الكريم
عنه في خطاب المشركين : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين »
(سبا ٢٣) . فحق يسمو منهج الدعوة إلى الإسلام في عصرنا الحاضر إلى ذلك
المستوى الرفيع ؟ قل عسى أن يكون قريباً .

الدكتور يوسف القرضاوي

إنه يوسف عبد الله القرضاوي ، ويعرف في الأوساط الإسلامية والعلمية باسمه المختصر (يوسف القرضاوي) ويكنى أبا محمد بأكبر أبنائه منحه الله بصلاحهم وعتقهم بفضله .

ويحدد السجل الرسمي مولده بالتاسع من الشهر التاسع من عام ستة وعشرين وتسعمئة وألف للميلاد ، أي قبل خمسين سنة من كتابة هذه الأسطر ، وكانت ولادته في قرية (صفت تراب) من توابع المهلة الكبرى من أعمال المحافظة الغربية من القطر المصري ، ويصف الشيخ قريته هذه بأنها عريقة في القدم وقد شرفت بقبر آخر صحابي توفي في مصر ، هو عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي رضي الله عنه ، ويؤكد ذلك بما نص عليه ثقات المؤرخين كابن حجر في أخبار ذلك الصحابي الجليل .

ويصف أسرته كذلك بأنها متدينة رقيقة الحال ، يشتغل أفرادها من جهة أبيه بالزراعة إلى جانب بعض الحرف ، ومن جهة أمه يعملون بالتجارة ، وقد شاء الله أن يستأثر بوالده الذي لم ينجب سواه ، وهو في الثانية من سنه ، ولكنه عوضه عن الوالد بعم كريم تولى كفالته ، وأحاطه من الرعاية بما يفتقد لدى الكثير من الآباء ، ووجد في أبناء هذا العم الفاضل خير مما يلقاه أخ

من أخوته البررة ، فنشأ في هذا الجو الصالح يعتبر العم أبا وأبناء العم إخوة ، وقد اتسعت دائرة هذا المعطف حوله حتى كان موضع الرعاية من سائر أقاربه ، وفي ذلك يقول الشيخ : كأن هذا كان تعويضاً من القدر عن يتمي المبكر .

وفي الخامسة من عمره ألحق بأحد كتاتيب القرية الأربعة ليحفظ القرآن العظيم كما حفظه عمه من قبل ، حتى إذا وافته السابعة أدخل المدرسة الإلزامية التابعة لوزارة المعارف ليتلقى فيها المعارف العصرية : كالحساب ، والتقويم ، والتاريخ ، والصحة ، والأشياء ، فكان يجمع بين الكتاب والمدرسة ، هذا في نوبة الصباح وتلك في نوبة المساء .

يقول الدكتور: « وقبل أن أبلغ العاشرة أكرمني الله فأتممت حفظ القرآن الكريم حفظاً لا أكاد أضيع منه حرفاً مع الإمام بأحكام التجويد ، وإن أنس لا أنسى ذلك الحفل المتواضع الذي أقيم لي كالعادة في الكتاب ، حيث وزعت الحلوى والشربات وأطلقت الزغاريد ، وقرأت فيه آخر لوح من الصحف كتبته بيدي من سورة « الضحى » إلى سورة « الناس » كنت أتلو كل سورة ثم أهلل بعدها وأكبر: لا إله إلا الله ، والله أكبر ، والله الحمد . والتلاميذ يكبرون معي ، فكان حفاً بهيجاً يتطلع إليه كل تلميذ في الكتاب .

ويتابع الشيخ قائلاً: « ومن يومها أصبحت في نظر أهل قريتي (الشيخ يوسف) ويسبب ما من " الله به علي" من حسن التلاوة كثيراً ما كانوا يقدمونني لأومهم في الصلاة وبخاصة الصلاة الجهرية . وهذا التشيخ المبكر حرمني قرص اللعب (الشقاوة) التي يستمتع بها أقراني من الصبية . وقبل المضي في تتبع الإجابات أجدني مشدوداً إلى النظر من هذه المنافذ التي تفتحها لي ذكريات الصديق .

إننا هنا تلقاء صور حية من بقايا الحياة الإسلامية في هذه البقعة من الزيف المصري . ففي قريته (صفت تراب) قبر صعاي ، ولا بد أن يكون لهذا الصعاي موحياته العميقة في نفوس سكانها ، ولعل من ذلك إقبالهم على حفظ القرآن وتلاوته ، إذ كانت كتاتيبهم الأربعة كما يقول الشيخ تتنافس في تحفيظ القرآن ،

الذي اشتهرت به القرية ، كما اشتهرت بعدد من علماء الأزهر من أبنائها الذين هم موضع التبعة والاحترام من المجتمع كله .

وبجرد التنافس على تحفيظ القرآن دليل على أن الطابع الذي يسود القرية مستمد من هذه الروح ، وأن التنافس على حفظه والتحقق بمعانيه هو الغالب على ذلك الجو ، وأما لا أستطيع الفصل بين ذلك الجو وما يذكر الشيخ لبيت عمه من الخصائص الخلقية العالية ، فالوسط إذن إسلامي يحمل في ثناياه غير الحب والتعاون والصفاء ، وليست حفة ختم القرآن وما اشتملت عليه من ألوان البهجة الروحية ، والفيض للشموري ، إلا تركيداً لهذه المعاني التي كاد العالم الإسلامي ينقطع عنها نهائياً .

إنها لصور حبيبة من ذلك الماضي ، الذي كان العلم فيه مطلباً مقدساً لكل بيت مسلم .. يبدأ بحفظ كتاب الله واتقان قراءته ، ثم ينطلق في طريق الوحي ليشيع النور والخير والوردة الخالص في كل جانب من حياة الناس . فلا عجب إن استقبل ذلك الحفظ بمثل تلك الأحفال ، التي ترفع القلوب إلى هذه الأفاق ، وتشير التنافس الكرم على الفوز بأكبر حظ من رواياتها .

رأي نعمة أسعد من رؤية طفل في العاشرة من عمره ، قد طوى جوائحه على الكتاب الذي غير معالم التاريخ البشري ، وقدم إلى الإنسانية الضائعة الحضارة التي أضادت ظلمات الأرض ، فأبصرت في نورها ما لم تحمل به قط من بواهب الأمن والطمأنينة والحرية والتقدم العقلي .

أجل .. لقد كان احتفال المجتمعات الإسلامية بمثل هذه المناسبات حتى الأوس القريب تمييزاً عن غيرها عن إيمانهم بهذه الحقيقة ، حتى تسلفت إلى هذه المجتمعات مفهومات الحضارات الوثنية ، فإذا هم يتجردون اليوم من هذه المشاعر شيئاً بعد شيء ، إذ أصبح العلم عندهم مجرد شهادات تؤهل أبناءهم للحصول على مقاسم الدنيا ، ولو على أشلاء القيم التي ميز الله بها الجنس الآدمي .

والتفت معي إلى منظر ذلك الشيخ الصغير يقوم بإمامة المسلمين، وقد آثروه بذلك تقديراً للكتاب الذي أوتمن عليه، وتأثراً بما يتقن من تلاوته، وما يزين هذه التلاوة من نعمة توجه المشاعر الحاشمة إلى مضامين الآيات الإلهية. ومن هنا من هذه الإيماءات البالغة جاءت الحصانة التي أحاطت بهذا الصغير بحلال الشيوخ، فعالت بينه وبين (الشقاوة) التي يستهوي أقرانه ممن لم يتح لهم مثل جوهرة الوقور.

ولقد حدثنا أكثر من واحد من معارف الشيخ عن متعهم بصلاة التراويح وراه في قطر، فإذا هو في الحسين امتداد طبيعي لذلك الشيخ الأثير وهو في العاشرة من عمره الميمون، ويشاء الله أن يحفظ على الشيخ خصائص هذه النشأة، فستمر خطاه في الاتجاه نفسه، لا يفارق سبيل القرآن الذي حمل أمانته منذ طفولته، على الرغم من كل الأحداث التي واجهته والثقافات المختلفة التي واجهها.

إلى الأزهر:

وفي أعقاب تخرجه في المدرسة الإلزامية، بعد حفظ القرآن، كان لا بد له وعلى الأصح لآله من أن يختاروا له الطريق الذي سيسلكه من الحياة.

أما هو فلم يكن أحب إليه من متابعة المسلك العطي الذي اجتاز مرحلته الأولى، وراح يتطلع إلى ما وراءها، وقد شاقه ما تحقق للشايع المرموقين أبناء قريته من مستوى أهلهم لاحترام الناس، فودّ لو يتاح له مثل سيلهم إلى الأزهر. إلا أن عمه لم يكن على مثل رأيه، فهو على الرغم من حبه للعلم، وحرصه على تشجيع ربيبه الذكي، لا يرى ذلك من مصلحته لأن طريق العلم طويل طويل، ومع طولها لا يضمن لصاحبه العيش المشهود، هذا فضلاً عن أن انصرافه إلى طلب العلم يتطلب من النفقة ما تضيق عنه قدرتهم، ولهذا حاول إقناعه بتعلم حرفة توفر له وسائل العيش من أقرب طريق. غير أن رغبة الفتى كانت أقوى من حجة عمه، فما زال يجاوره في ذلك، ويسهل له الأمر بما يظهر من استعداده

للاكتفاء بأقل القليل من النفقة ، حتى انشرح صدر عمه لتحقيق أمنيته ، وساعده في ذلك أبناء عمه الذين أعلنوا استعدادهم للتضحية بكل شيء في سبيل تعليمه ، وكان لوجود ابن عمه له طالباً في الأزهر أثر مشجع على ذلك لأنه سرعاه هناك ويسكن معه .

وهكذا يسر الله لهذا اليتيم الاندماج التام في جو العلم ، فالتحق أولاً بمعهد طنطا الديني الابتدائي حيث قضى أربع سنوات ، انتقل بعدها إلى معهدها الثانوي الذي استمر فيه خمس سنوات ، ومن ثم رحل إلى القاهرة للدراسة العالية في الكليات .

وأثناء وجوده في المعهد الابتدائي أصيب بفقد والدته فتمت حلقة يتمه بفقد الأقران جميعاً .

تفوق مستمر ،

كانت دراسته الجامعية في كلية أصول الدين ، وفيها تخرج عام ٥٢ - ٥٣ م وكان ترتيبه الأول على مئة وثمانين ، ثم تابع بقسم التخصص في كلية اللغة العربية على نظام السنتين ، فحصل على العالمية مع إجازة التدريس حائزاً المرتبة الأولى على خمسة طالب من كليات الأزهر الثلاث ، ثم في العام ١٩٥٧ م التحق بمعهد البحوث والدراسات العربية العالمية التابع لجامعة الدول العربية ، فحصل منه على دبلوم عال في شعبة اللغة والآداب .

في هذه الفترة نفسها كان التحاقه بقسم الدراسات العليا في شعبة التفسير والحديث من كلية أصول الدين ، فاتم سنواتها الثلاث بنجاح ١٩٦٠ م على الرغم من صعوبة الامتحانات - أيامئذ - التي لم يثبت لها أحد سواء بعد السنة الأولى . ومن ثم شرع في إعداد أطروحته للدكتوراه عن « الزكاة في الإسلام » التي كان مقررأ أن ينتهي منها خلال سنتين ، إلا أن أقداراً غالبية حالت دون رغبته ، وجهات عهود الأحداث الزهية في مصر فأخرت موعد حصوله على الدكتوراه إلى ما بعد ثلاثة عشر عاماً حتى صيف ١٩٧٣ م .

شخصيات لا ينساها ،

يقول الشيخ : إن أعظم الشخصيات أقرأ في حياتي الفكرية والروحية هي شخصية الشهيد العظيم حسن البنا، مؤسس كبرى الحركات الإسلامية الحديثة.. هذا مع أنني لم أعيشه كما عايشه غيري ، فقد كان رضي الله عنه في القاهرة وكنت في طنطا طالباً ، ولكنني استمعت إليه في طنطا عدة مرات ، ورحلت وراءه إلى بمض البلاد لأراه وأستمع إليه ، كما قرأت تقريباً كل ما كتبه من رسائل ومقالات .

ويصف الشيخ انطباعاته عن الإمام البنا فيقول : « كان رحمه الله في حديثه إذا تحدث ، وفي كتاباته إذا كتب ، يمثل السهل الممتنع ، ويؤثر في العقل والقلب مما ، فهو معلم وواعظ بالفطرة الموهوبة والدربة المكتسبة جيداً . أذكر أنني استمعت إليه وأنا طالب في السنة الأولى من معهد طنطا الابتدائي يتحدث بمناسبة الهجرة النبوية ، فوعيت كلامه على صفر سني ، وأكاد أحفظه من ذلك اليوم . كان واسع المعرفة ، غزير المادة ، أخرج جملة « الشهاب » الشهرية وكان يحرر جل أبوابها بقلمه ، فهو يكتب في «التفسير» و«المقائد» و«مصطلح الحديث» و« التاريخ الإسلامي » وفي أصول الإسلام كنظام اجتماعي .. كل ذلك بإجادة وأصالة رغم أنه لم يكن متفرغاً للعلم والبحث ، فقد كانت الدعوة ومتطلباتها تستغرق معظم وقته ولذلك كان من وصاياه « الواجبات أكثر من الأوقات » فعاون غيرك على الانتفاع بوقته .

إن استرسال الشيخ في الحديث عن أستاذه إنما هو صورة حية من إعجابه البالغ بشخصيته ، وشهادة كبيرة على التأثير بحياتها ، وهو لا يكتبني بالإشارة إلى هذه الشخصية في عبارة جامعة ، بل يمضي في استقصاء خصائصها القيادية من خلال حضورها في ذهنه ، كما لو كان لا يزال يشاهدها ويتتبع ملامحها . لقد نأثر به كاتباً ومحدثاً وعالماً وواعظاً وبلغياً . وانتهى من ذلك إلى تحليل بمض توجيهاته الحكيمة فربط بينها وبين تجاربه الذاتية أحكم ربط .

ويتابع الشيخ حديثه عن الرجال الذين أثنوا في توجيهه فيذكر منهم الأستاذ البيه الحولي والشيخ محمد الفزالي ، على اعتبار أنها من المثلى لمدرسة الإخوان ، ويقرر جازماً أن تأثيره بهذه المدرسة كان أقوى من تأثيره بالدراسة الرسمية في الأزهر ومشايخه ، على الرغم مما له ولهم من فضل لا ينكر في تكوينه العلمي ، ثم يخص بالذكر من الشخصيات الأزهرية المقفور له الدكتور محمد عبدالله دراز ، واصفاً إياه بأنه كان نسيجاً وحده في غزارة علمه وأصالة تفكيره ، وفصاحة بيانه ، وقوة دينه وخلقه . والذين يعرفون المرحوم الشيخ دراز من خلال كتاباته ، وخاصة « فلسفة الأخلاق في الإسلام » يشاركون الدكتور القرضاوي في إثبات هذه الصفات كلها له ، ولا سيما أصالة التفكير التي مكنته من أن يتقصى مواطن الضعف في كل فلسفة أخلاقية دعا إليها البشر ، مبرزاً تفوق الأخلاق الإسلامية عليها جميعاً ، بالتزامها سبيل القطرة والساد الذي لا يعتره الخطأ . ويعدد من أساتذته الأزهريين الشيخ الأكبر محمود شلتوت الذي -يقول- كان له به صلة خاصة قبل أن يتولى مشيخة الأزهر وأثناءها ، وكذلك أستاذه الإمام الأكبر الدكتور عبد الحلیم محمود شيخ الأزهر الحالي ، فقد درسه الفلسفة الإسلامية في كلية أصول الدين ، واستمرت صلته به ولقاءاته إياه فيها بعد .

ويستدرك الشيخ ليصرفنا عن الظن بتقليده من يعجب بهم فيقول : « من فضل الله عليّ أن إعجابي بشخص ما لم يجعلني أحاول تقليده ، أو تقمص شخصيته فأنا - والله الحمد - لست نسخة من أحد سبقني ، بل قد تكون لي مأخذ فكرية أو سلوكية على بعض الشخصيات التي أحببتها أو أعجبت بها ، ولم يجعل هذا بيني وبين الانتفاع بها . »

والشواهد التي تؤكد براءة صديقنا الفاضل من تقليد الأفاضل بارزة ملموسة في معظم كتاباته وبخاصة مؤلفاته الأخيرة ، التي يبدو فيها متقياً مجتهداً مبدعاً ولو خالف المشهور من آراء الرجال .

ويعرج في هذه الإجابة على بعض الشخصيات التي لم يلقها ، وكان لها حيق الأثر في وجوده ، فمنهم السيد محمد رشيد رضا الذي أعجبه فيه سمة الأثق في فهم الإسلام وفهم العصر الذي يعيش فيه ، وتجرده من العصبية والتقليد ، وحرصه على الرجوع إلى الكتاب والسنة والاهتداء بمنهج السلف .

ثم يقول : « كنت مطلع حياتي من المعجبين بالإمام أبي حامد الغزالي ، إذ كان « إحياءه » من أوائل الكتب التي قرأتها في صغري ، ثم قدر لي فيما بعد أن أطلع على بعض تراث شيخ الإسلام ابن تيمية فتحول إعجابي إليه ، وملك عليّ عقلي ونفسي ، وأصبح هو الشخصية الفكرية الأولى بنظري ، وكلما ازدادت قراءته وتعمقا في كتاباته ازدادت له إعجابا وحباً ، ويأتي بعده تلميذه الحق الإمام ابن القيم رحمهما الله ورضي عنها ، ولكن لا ينبغي إعجابي الشديد بها أن أخالفها في بعض المسائل كما خالفا هما من قبلها » .

وهكذا تتكامل إجابة الشيخ حفظه الله عن الرجال الذين تركوا أثرهم في توجيهه فإذا هم من قم العلم الإسلامي ، وإن تفاوتت طرائقهم في خدمة الفكر والمجتمع الإسلاميين ، وقد أتاحت له صحبتهم وتبع آثارهم أن يكون أكثر تحمراً في ما يأخذ ويذر ، فيتم بذلك انتفاعه بمختلف المدارس الفكرية التي عرفتها حضارة الإسلام .

وهنا لا يحسن بنا أن نغفل تلك المؤثرات الروحية والتربوية التي أفادها من نشأته الأولى في تلك القرية المتنافسة في تحفيظ القرآن ، ومن ذلك البيت الذي أظله بالرعاية التي لا يعرف الناس لها مثيلاً إلا في ظل الحلق الإسلامي الأصيل .

ولعمر الحق إن فراغ هذه العناصر من حقها أن تأخذ بيد الإنسان إلى الجادة الزاشدة ، ولا سيما إذا توأمرت لهذا الإنسان الفطرة السليمة والموهبة المتأهبة للتفاعل مع عوامل الخير .

العلوم التي يؤثر :

يقول الدكتور : « الحقيقة إنني أحب كل العلوم الإسلامية وما يخدمها من العلوم الأخرى ولهذا أحببت علوم العربية لأن اللغة العربية لسان الإسلام ووعاؤه ، وإجادتها شرط لفهم القرآن والسنة والاجتهاد والاستنباط منها . ولقد وقفت في حياتي الدراسية مرتين لاختيار ما أخصص فيه . أولاً : بعد الشهادة الثانوية لاختيار أي الكليات أدخلها ، وكان الكثيرون ينصحونني بدخول كلية دار العلوم بجامعة قواد الأول (القاهرة فيما بعد) أو كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، بسبب ما عرفت به من قدرة في علوم العربية (نحو وصرف وبلاغة) وما عرف بي من اتجاه للأدب وإنشاء للشعر من عهد مبكر . ولكنني شخصياً آثرت كلية أصول الدين لأن علومها كانت أحب إلى نفسي ، ولأنني درست في المرحلتين الابتدائية والثانوية بالأزهر من علوم العربية ما يكفيني لأواصل بعد ذلك وحدي . أما أصول الدين فهي كلية التفسير والحديث والمعاني والفلسفة والأخلاق والتاريخ الإسلامي ، وهذه موارد لا بد منها لتكوين العقلية الإسلامية فدخلتها على بركة الله وتخرجت فيها .

والوقف الثانية ، بعد فتح قسم الدراسات العليا بكلية أصول الدين ١٩٥٧ م وقد كان فيه شعبتان : شعبة للتفسير والحديث وعلوم القرآن والسنة ، وشعبة للعقيدة والفلسفة . وكان لكل منهما مزية عندي ، فمزية الأولى ظاهرة ، ومزية الثانية أنها وسيلة لتابعة الفكر العالمي ، والفلسفات المعاصرة وجذورها في تاريخ الفكر ، والرد على أخطائها من وجهة النظر الإسلامية . وقد كنت حائزاً لشروط كلتا الشعبتين : إن كان مجموعي في علوم العقيدة والفلسفة أكبر نسبياً . وقد وقفت متردداً في الاختيار حتى لقيت أستاذي المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى ، الذي شجعني على دخول شعبة التفسير والحديث وقال عن نفسه : « لقد كنت أستاذاً للفلسفة ثم انتهيت الآن إلى الشريعة ، فالشريعة هي الأساس

والغاية ، وعندك من الدراسات الفلسفية ما تستطيع أن تتابع به الاطلاع والقراءة الحرة .

وأنا الآن أقرأ في كل العلوم الإسلامية تفسيراً وحديثاً وفقهاً وأصولاً ، وتوحيداً وتاريخاً ، وتصوفاً وأخلاقاً ، وقد ظن بعض الناس - لاشتغالي بالتواصي الفقهية والأصولية - أنني خريج كلية الشريعة ، والواقع أنني ابن أصول الدين ، ولكن نزعة التحرر من التقليد والعصبية جعلتني أهتم بفقه الكتاب والسنة ، وأعنى بالمقارنة بين الأقوال والمذاهب ، وأرجع إلى أصول الأدلة ، وبخاصة أنني اشتغلت بالفتوى من زمن غير قليل تحريراً ومشافهة (١) .

كما أنني لا أقف في اطلاعي عند العلوم الإسلامية الخالصة ، فإنا حريص على أن آخذ بمحظ في الاطلاع على الأدب والتاريخ والفلسفة والتربية وعلم النفس والاجتماع والاقتصاد ، ونحوها من العلوم الإنسانية ، ومكتبي الخاصة تحتوي مراجع لكل هذه العلوم ، ولكنني أقرأها بحذر ، لأنني أعلم أن الغزو الفكري قد أنشبت فيها أظافره ، وهي - في اتجاهاتها الثغالبية - غريبة المنزع والوجهة والصبغة ، هذا إلى اهتمامي بالقراءة في كتب الأديان والنحل المخالفة للإسلام ، والمذاهب العقائدية المعاصرة ، أو بما كتب عنها من جهة ناقدتها . فهذا كله لازم لتكوين العالم المسلم المعاصر .

علوم ومعلوم :

لقد وجهنا النظر في مطالع هذه الترجمة إلى البذور الأولى في تربية هذه النفس ، ولاحظنا مراحل تكوينها العلمي الذي يشير بأجلى بيانه إلى الاتجاه الذي انتهت إليه ، ولهذا لا نرى حاجة للتعقيب على ما حدده الشيخ حفظه الله من نوعية العلوم التي آثرها . إلا أن في عباراته الأخيرة مؤشرات ليست خاصة به وحده ، بل هي محرضات لكل طالب علم إسلامي ألا يفصل نفسه عن عصره ،

(١) بينت منهجي في الفتوى بتفصيل في مقدمة كتابي «هدى الإسلام» وهو تحت الطبع الآن.

ولا يحرم عقله الاتصال بما وراء معلوماته الإسلامية من منازع واجتهادات ، قد يكون في جهلها خطر كبير على أهل الإسلام وعلى الفكر الإسلامي .

بيد أن الاتصال بهذه المشارب الدخيلة يقتضي من المسلم أول كل شيء أن يكون على حصانة كافية من المسموم التي تنطوي عليها . ونظرة عميقة إلى الفرق الإسلامية الزائفة تكشف لأصحابها تلك الحقيقة الكبيرة ، وهي أن اقتحام هذه الميادين دون زاد من الحصانة الإسلامية هو الذي يمكن لها من قلوب المهذوعين ، وأن التاريخ - وبالأأسف - ليعيد نفسه هذه الأيام ، عن طريق الجليل الذي ألقى به في متاهات الغرب والشرق خسالي الذهن والقلب من كل أثر لحقائق الإسلام .

أحداث عاصرها :

ويعدتها الصديق عن أهم الأحداث التي عاصرها قائلا :

« لقد قدر الله لجيلنا أن يعاصر أحداثاً في غاية من العظم والأهمية . أما على المستوى المهلي والعالمي ، فأولها : الحرب العالمية الثانية ، وما تركت من آثار في حياة النام المادية والفكرية والأخلاقية ، وما صحبها وتبعها في مصر والعالم العربي من بظلة ووثبة لطرده الاستعمار ، وبخاصة الاستعمار الإنجليزي في مصر ، وكذلك وضوح الخطر الإسرائيلي على فلسطين والبلاد العربية حتى تجسد في قيام إسرائيل . ودخول الجيوش العربية حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م ، ووقوع النكبة الأولى ، التي كانت نذيراً بسقوط الاتجاه اليميني الليبرالي الرأسمالي الديموقراطي بما وراءه من التراجعي والتحلل والموالاة للغرب . ليحل محله الاتجاه الثوري الاشتراكي اليساري ، بلوازمه من الطفيان والإرهاب وكبت الحريات والولاء الدولي للشيوعية .

وقد انتهى هذا الاتجاه بنكبة ١٩٦٧م التي احتلت إسرائيل فيها ما بين

القطر والقطر والقطر وسقوط القدس والمسجد الأقصى في يد اليهود ، كما فصلت ذلك في كتابي « الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا » .

وفي الحقيقة لم أكن في عزلة عن هذه الأحداث ، فقد شاركت فيها - منذ كنت طالباً في الابتدائي - بقلبي وأعصابي وعقلي ولساني ، أنظم القصائد وألقي الخطب وأعرض جماهير الطلاب ، وأشارك في قيادة التظاهرات ، وأعرض لعصي الشرطة والمبيت في أقسام البوليس .

مع الإخوان :

ولعل الشيء الذي جعلني على صلة عميقة وحيّة ومباشرة بأحداث بلدي وقضايا وطني العربي والإسلامي هو : الاتصال المبكر بحركة الإخوان المسلمين ، فقد نقلتني من جو الشعر والأدب ، الذي كان هوايتي ، إلى جو الدعوة العامة ، ومن طريق الوعظ العام والدعوة والتدين الفردي ، إلى أفق الحركة الإيجابية الشاملة ، التي تعمل على خلق تيار إسلامي عام وتكوين جيل يفهم الإسلام فهماً صحيحاً ويؤمن به ويجاهد في سبيله . وأزالت الحاجز الذي كان قائماً بين ذوي الثقافة الإسلامية ، ممن تعلموا في الأزهر والمعاهد الدينية ، وبين المثقفين ثقافة حديثة ممن تعلموا في المدارس العامة والجامعات المدنية .

وقد أدى انتائي إلى دعوة الإخوان المسلمين إلى اعتقال عدة مرات . أولها : اعتقال سنة ١٩٤٩م نحو عشرة أشهر في عهد الملك فاروق ، وقد كنت طالباً في السنة الخامسة الثانوية . وقد ضاع عليّ امتحان الدور الأول للشهادة الثانوية ثم شاء الله أن أدرك الدور الثاني بعد الإفراج عني عقب سقوط وزارة إبراهيم عبد الهادي ، وكان من إكرام الله وتعويبه لي أن حصلت على الترتيب الثاني بين الناجحين في الدورين من طلاب المعاهد الثانوية الأزهرية على مستوى القطر المصري ، ثم كان اعتقالني في ٢ يناير ١٩٥٤م لمدة شهرين ونصف في عهد الثورة ، ثم في نوفمبر ١٩٥٤م ولمدة عشرين شهراً تقريباً ، ثم في يونيو ١٩٦٢م نحو

خمسين يوماً قضيتها في سجن انفرادي في مبنى مخابرات الثورة ، وكان يجوارني الأخ الداعية صديق العمر ورفيق السراء والضراء الدكتور أحمد المسأل . فقد اعتقلنا في وقت واحد ، وأفرج عنا معاً . وقد كان من ثمرات هذا الاتصال أن :

صححت فهمي للإسلام ورسالته في الحياة ، وراجب دعائه في هذا العصر نحو وطنهم الصغير ، ووطنهم الإسلامي الكبير .

وأصبحت مهتماً بأمر المسلمين جميعاً ، وبقضايا الإسلام الكبرى ، وبمؤامرات أعداء الإسلام ، ووسائلهم في الغزو والتدمير .

وحددت هدفي من الحياة ورسالي فيها ، وهي الدعوة إلى الإسلام كله عقيدة وشريعة وديناً ودولة وحضارة وأمة ، ولا يعني هذا أي من المتعصبين للحركة على العمياء ، فلي على مسيرها ملاحظات سجلتها في كتابي «الحل الإسلامي قريضة وضرورة» ولكن الدعوة ذاتها لا غبار عليها .

وقد كان حل الإخوان المسلمين سنة ١٩٥٤م كما كان حظر النشاط العلني للدعوة دافعاً لي إلى تغيير محور نشاطي ، فقد منعت من العمل في التدريس والوعظ فدفعني هذا إلى التفرغ للبحث العلمي والكتابة .

عن فيها منح :

ففي سني الدعوة العلنية لم أكن أجد وقتاً كافياً للكتابة المركزة .

فلما منعت من هذا ، كان المنع منحة في صورة محنة ، فاتجهت إلى البحث والتأليف . فكان باكورة هذا الاتجاه هو كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» سنة ١٩٦٠م .

كما أن بقائي في المعتقل نحو عشرين شهراً بين عدد كبير من الإخوان في سني المستويات أطلعني على أن هناك قصوراً في مجال العلم الإسلامي والفقه الناضج

الإسلام . وأن كثيراً من القضايا يختلط فيها الخطأ بالصواب ، واليقين بالظن ، ولا بد من تحقيقها وتمحيصها . وهذا يحتاج إلى دراسة علمية وافية ، فلا بد من توجيه الوقت والجهد إليها ، وعلى هذا فويت وعقدت العزم ، متوكلاً على الله .

في خدمة الدعوة :

وعن نشاط الدكتور في خدمة الإسلام يقدم إلينا الصور التالية :

أ - في المجال الجامعي حيث عمل أستاذاً ورئيساً لقسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية في قطر ، وذلك بعد أن عملت اثنتي عشرة سنة مديراً لمعهد قطر الديني الثاوري ، فأرست - والله الحمد - بنيانه على قواعد جعلته نسيج وحده ، وأصبح مشغلاً يحنى ، في الجمع بين القديم والحديث ، وتقريب علوم الدين والعربية وتيسيرها ، إلى جوار علوم العصر بحيث لا يحتاج إلى سنين أكثر من سني التحليم العام .

ب - في الميدان الشعبي ، عن طريق الخطابة والوعظ وإلقاء الدروس بالمساجد .

ج - في المجال الإعلامي ، عن طريق البرامج التي أقدمها في الإذاعة والتلفزيون ، ومنها برنامج أسبوعي لمدة نصف ساعة في إذاعة قطر لرد على رسائل المواطنين واستفتاءاتهم ، ومثله في التلفزيون ، وذلك بعد إنشاء الإذاعة والتلفزيون القطريين . هذا عدا برامج توجيهية أخرى أقدمها بين حين وآخر ، وبخاصة في شهر رمضان .

د - المحاضرات التي ادعى لإلقائها بتكليف من الجامعات والجمعيات والأندية والمؤسسات الثقافية وغيرها في بلاد العرب والإسلام ، وأحياناً خارج العالم الإسلامي .

هـ - المشاركة في المؤتمرات والندوات الإسلامية العلمية في البلاد الإسلامية وغيرها مثل ندوة التشريع الإسلامي في ليبيا ، والمؤتمر التاريخي

الأول في بيروت ، والمهرجان التعليمي لندوة العلماء بالهند ، والمؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي بمكة المكرمة ، ومؤتمر الفقه الإسلامي بالرياض ، ومؤتمر الدعوة والدعاة بالمدينة المنورة ، ومؤتمر اتحاد الطلاب المسلمين في الولايات المتحدة وكندا وغيرها .

و - كتابة المقالات والبحوث في المجلات الإسلامية ، التي تصدر في أنحاء شتى من عالمنا الإسلامي .

ز - تأليفاً لكتب في مختلف مجالات الثقافة الإسلامية .

ونحن نقول: إن الذي يعرفه المسلمون عن خدمات الأستاذ القرضاوي للإسلام أوسع من أن تحصره أسطر كهذه ، بل لعل بين القراء من يعرف عن جوانب هذا النشاط ما لا يذكره هو نفسه عن نفسه . ومع ذلك فهو يقول: إني والله مقصر في حق ديني وأمتي ، وأسأله تعالى أن يغفر لي ما مضى ، ويصلح لي ما بقي .

نشاطه في التأليف :

كانت أول محاولة للتأليف عندي مسرحية شعرية عنوانها «يوسف الصديق» ترسخت فيها خطي أمير الشعراء أحمد شوقي في «مجنون ليلي» و«مصرع كليوباترا» . وكنت وقتها طالباً بالسنة الأولى في المرحلة الثانوية (نظام السنوات الخمس) بالأزهر ، وكان الغالب على تلك المرحلة الأدب والشعر ، ثم شغلت بالخطابة والأحاديث والتنقل بين البلاد في قرى مصر ومدنها من الإسكندرية ودمياط إلى أسوان ، فكان سلاحي هو اللسان ، وقلما استخدم القلم إلا في كتابة الأفكار والعناصر الرئيسية للموضوعات التي أتحدث فيها ، أعني إني كنت أكتب لنفسني فقط .

وفي أوائل الخمسينات حاولت أن أقهر الواقع الذي يستغرق وقتي ويعتصرني

اعتصاراً ، فكتبت بعض الرسائل لأدفع بها إلى المطبعة .. كانت منها رسالة بعنوان « قطوف دانية من الكتاب والسنة » وقد طبعت مرتين .

ثم أخرى بعنوان « رسالتك أيها المسلم » وقد دفعت بها إلى المطبعة ودفعتها المطبعة بالتالي إلى الرقابة في أواخر سنة ١٩٥٣م ، فرفضتها الرقابة ، ولم تودها إليّ ، للأسف ، ولم يكن عندي نسخة أخرى ، وصدر قرار حل جماعة الإخوان المسلمين في يناير ١٩٥٤م فضاعت هذه الرسالة إلى اليوم . وبما ضاع في هذه الحقبة أجزاء من كتاب حميته « نفعات الحكمة » كان مجموعة خطب منبرية سجلها بقلمه أحد إخواني ، ونقّشت بعضها ، ولم يظهر هذا الكتاب إلى الوجود .

ورسالة أخرى دفعت بها إلى المطبعة في ذلك الوقت ثم حدثت الظروف السابقة فاستبعدت من المطبعة قبل أن تضيع ، وعنوانها « رسالتكم يا شباب الأزهر » وهي عندي لم تنشر حتى اليوم .

أما عنصر التأليف الحقيقي فبدأ بعد أن خرجت من المعتقل سنة ١٩٥٦م ، حين حرمت عليّ حكومة الثورة أن أتصل بالجمهير عن طريق الخطابة أو التدريس ، فلم أجد أمامي إلا القلم فأخاطب به الناس في صورة مقالات في مجلة « منبر الإسلام » و « مجلة الأزهر » وفي صورة كتب كان أولها « الحلال والحرام في الإسلام » .

وقد ظهر لي حتى الآن في عالم النشر أحد عشر كتاباً ، هي :

« الحلال والحرام في الإسلام » ، « العبادة في الإسلام » ، « مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام » ، « الناس والحق » ، « الإيمان والحياة » ، « فقه الزكاة » ، « عالم وطاغية » ، « درس النصيحة الثمانية » ، « شريعة الإسلام » ، « الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا » ، « الحل الإسلامي فريضة وضرورة » .

وقد اشتركت في تأليف أكثر من عشرين كتاباً مدرسياً لوزارة التربية في قطر مقررّة في مدارسها .

وتحت الطبع عندي عدة كتب ، منها :

«شبهات المرتابين والمشككين في الحل الإسلامي» ، «أعداء الحل الإسلامي» ،
«الصبر في القرآن» ، «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» ، «الفقه الإسلامي بين
الأصالة والتجديد» ، «هدى الإسلام» (مجموعة فتاوى وردود على أسئلة دينية) ،
«الخصائص العامة للإسلام» ، «قضية التكفير بين الغلو والتقصير» ، «معالم
الاقتصاد الإسلامي» .

آثر كتبه عنده :

أما أي هذه المؤلفات أحب إليّ ، فإن كتب المؤلف أشبه بأولاده ، يصعب
عليه أن يقول : هذا أحب إليّ من هذا ، وكلهم بضعة منه ، وإن كان لا يبد
من الإجابة ، فأحبها إليّ اثنان «الحلال والحرام» لأنه أول كتاب حقيقي أدخل
به عالم التأليف ، وإن كنت نشرت قبل ذلك رسالة سميتها «قطوف دانية
من الكتاب والسنة» في أوائل الخمسينات ، كما نشرت مسرحية شعرية في
الأربعينات عنوانها «يوسف الصديق» ، كنت فيها مقلداً لشوقي في مسرحياته
المعروفة - كما أسلفت - .

وقد بارك الله في هذا الكتاب ، وكتب له القبول في العالم الإسلامي كله ،
وطبع بالعربية تسع مرات في القاهرة ودمشق وبيروت (غير الطباعات المبرقة)
وترجم إلى أكثر من لغة ، منها التركية التي طبع فيها نحو أربع مرات ، ووزع
منه عشرات الألوف . وقام بعض الطلاب في جامعة البنجاب (لاهور - باكستان)
بدراسات حوله باللغة الأوردية حصلوا بها على الماجستير . وقال بعض فقهاء
العصر (الأستاذ مصطفى الزرقا) إن اقتناءه واجب على كل أسرة مسلمة .

أما الكتاب الثاني فهو «فقه الزكاة» الذي اعتبره علماء الشريعة ، ورجال
الاقتصاد على السواء ، فتحاً في بابهِ . وقال فيه الأستاذ محمد المبارك : «هو موسوعة
فقهية في الزكاة» استوعبت مسائلها القديمة والحديثة وأحكامها النصية والاجتهادية

على جميع المذاهب المدونة المعروفة .. مع ذكر الأدلة ومناقشتها ، وعرض لما حدث من قضايا ومساائل ، مع نظرات تحليلية عميقة ، وهو عمل تنوء بمثله الجامع الفقهية ويمتد حداً هاماً في التأليف الفقهي .

وقد حضرت المؤتمر الأول للاقتصاد الإسلامي بمكة المكرمة (صفر ١٩٦٦ هـ - فبراير ١٩٦٦ م) فلقيني أكثر الحضور يشنون على الكتاب ، ويشكرونني عليه ، والشكر لله والتوفيق به أولاً وآخراً . واقترح بعضهم على المؤتمر أن يتبنى ترجمته إلى اللغات الأخرى .

بقي أن نعلم مصير هذا الاقتراح الذي من شأنه لو تحقق أن يقدم للعالم أكمل صورة عرفها حتى الآن - في رأينا - عن أسلوب الإسلام في بناء العدالة الاجتماعية وتوفير الطمأنينة والحياة الكريمة للإنسانية جميعاً .

نصوص اختارها :

لعل من الصعب أن يختار الكاتب بعض ما كتبه على أنه أحب إليه ، فإن كان ولا بد ، فإني أختار الفقرة التالية من كتابي « شريعة الإسلام » وكان أصله بحثاً ألقيته في « ندوة التشريع الإسلامي » في ليبيا الشقيقة ، إذ قامت فيها حركة لتعديل القوانين الوضعية بما يتفق مع مبادئ الشريعة الإسلامية . وتوهم بعض الناس أن مجرد هذه المحاولة تقم الإسلام ويجمع الإسلام على الأرض . وإنا اخترت هذه الفقرة لأنها تمثل الفكرة التي أتيناها في إصلاح المجتمع الإسلامي .

قلت : إن تطبيق الشريعة بحذافيرها وأخذها كلا لا يتجزأ ضرورة لازمة لا يحل التغريط والتساهل فيها ، وأعني بالشريعة الإسلامية هنا الإسلام كلاً . عقائده ، وتصوراته ، وشمائره ، وعباداته ، وأفكاره ، ومشاعره ، وأخلاقه ، وقيمه ، وآدابه ، وتقاليده ، وقوانينه ، وتشريعاته .

فهذه كلها مقومات المجتمع المسلم ، والتشريع - رغم أهميته - ليس إلا واحداً

منها . فلا تظنوا أيها الأخوة أننا بمجرد إصدار تشريعات إسلامية ، قد أقمنا المجتمع المسلم المنشود .

فالتشريعات وحدها لا تصنع أمة ، ما لم يسندها تغيير فكري ونفسي يجعل أبناء الأمة في مستوى تشريعاته الرفيعة ، وفي هذا يقول القرآن الكريم :
« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

إن علينا - لكي ينجح التشريع الإسلامي في حياتنا الجديدة - أن نهيء له الفرد المسلم الذي يؤمن بعدالة هذا التشريع ويحتمك إليه راضياً مسلماً ، والقاضي المسلم الذي يؤمن بقديسية هذا التشريع ولا يتلاعب بتصومه ، طمعاً في دنيا أو اتباعاً لهوى .. والسلطة التنفيذية المسلمة التي تقوم على حراسة هذا التشريع وتطبيقه بلا محاباة ولا مدهانة ولا وهن .

وبعبارة موجزة ، لا بد من إيجاد « الروح الإسلامية » وبناء الشخصية الإسلامية التي يقوم عليها عبء تطبيق الإسلام ، وهذه الشخصية تعني « العقلية الإسلامية » التي تفكر بمنطق الإسلام في الحكم على الأشياء والأحداث والأشخاص والمواقف ، كما تعني « النفسية الإسلامية » التي تكيف تعاملها مع من حولها وما حولها وفقاً لمنهج الإسلام . لا بد إذن أن نعمل على تربية الجيل المسلم الذي يحمل رسالة الإسلام فكرة واضحة في رأسه ، وعقيدة راسخة في قلبه ، وعبادة خالصة لربه ، وعملاً صالحاً يركي به نفسه ، وينفع به غيره .

وهذا الجيل الصالح يعود الإسلام حقيقة إلى قيادته الحياة من جديد . ولا يوجد هذا الجيل إلا التصميم على العودة إلى الإسلام ككل الإسلام ، والتخلي عن فكرة الترفيع الجزئي الذي لا يجدي كثيراً في الوصول إلى الهدف المنشود .

إن جل القيم والأفكار والأنظمة والتقاليد التي تسود مجتمعاتنا اليوم إنما هي وليدة الاستعمار الدخيل ، الذي طارد - بالقوة والحيلة - القيم والأفكار والتقاليد الإسلامية الأصيلة .

ولا يتعمور مجتمعا إلا بإحداث انقلاب فكري ونفسي شامل ، إحداث تغيير جذري في أخلاقيات المجتمع وممنوباته كلها ، تغيير يرد المجتمع إلى أصوله وإلى حقيقة ذاته التي نسبها حين نسي الله وشرعه ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

وهذا التغيير المطلوب لا ينفع فيه أخذ أجزاء متفرقة من الإسلام ، لتكون بمثابة « قطع غيار » في « جهاز غير إسلامي » ، فتظل هذه القطع قلقة غير مستقرة ، رغم صلاحيتها في نفسها ، لأنها وضعت في نظام لا يلائمها ولا تلائمها .

لا بد أن نأخذ الإسلام كله كما أنزله الله وكما دعا إليه رسوله ، وكما فهمه الصحابة ومن تبعهم بإحسان ، وبذلك ننتفع حقا بشمراته المباركة في حياتنا كلها ، الروحية والمادية ، الفردية والاجتماعية .

إن العقيدة الإسلامية لها أثرها في إحسان العبادة ، والعقيدة والعبادة لها أثرها في تكوين الأخلاق ، والأخلاق لها أثرها في حراسة التشريع ، والتشريع له أثره في حماية الدولة ورقيتها ، والدولة لها دورها في الحفاظ على العقائد والعبادات والأخلاق والتشريعات ، فكل هذه الأمور يؤثر بعضها في بعض ولا يستغني بعضها عن بعض فلا بد من العناية بها جميعا إذا أردنا أن نقيم حياة متكاملة متوازنة كما أمر الله .

من أجل ذلك حذر القرآن من التهاون في بعض ما أنزل الله من أحكام فقال : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذروم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليكم » كما شدد التنكير على بني إسرائيل الذين آمنوا ببعض أحكام كتابهم وكفروا ببعض فقال تعالى : « أفؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » .

حوار حول هذه الأفكار :

لقد أحسن الدكتور - جزاء الله خيراً - الاختيار لهذه الأفكار المركزية المكتفة ، ففيها نموذج بارع لمداركه التي تنطلق من نفس تعيش مأساة الإسلام ، وتتحنن مواطن آماله وآلامه ، وهي من الرضوح والصراحة بحيث لا تستدعي تفسيراً ولا تمقياً ، غير أن ثمة نقطة أحب أن أدلي حولها ببعض الملاحظات .

لقد أشار ، وفقه الله ، إلى آثار الاستعمار الدخيل في مطاردة القيم والأفكار والتقاليد الإسلامية الأصيلة بالقوة والحيلة .

وإنها حقيقة لا نغاريه فيها ، غير أن ثمة حقيقة أخرى لا تنفك عنها ، هي استمداد المجتمع الإسلامي لقبول هذا التأثير ، واستعداده قبل ذلك لقبول الاستعمار نفسه ، ونحن لو دققنا في الظروف التاريخية لتسأل هذا الاستعمار إلى ديار المسلمين على اختلافها ، لأدهشنا ما وصلوا إليه من التحلل بطمع بهم كحل ذي طموح .. وأن لنا في واقع المسين اليوم لضروباً من هذه النماذج ، تؤكد لنا أن ذوي والأمزجة المتحرقة ، لم يكن لهم أن يقتحموا حرم الحكم في تلك الزبوع لو وجدوا أمامهم شعوباً تعيش حقائق الإسلام . وعلى هذا فليس من حقنا أن نلقي بالثبمة كلها على عاتق المستعمر الدخيل . وقد سبقنا الكاظمي إلى هذه الحقيقة عندما قال :

أنا لا ألوم (المستشار) إذا تجاوز أو تعدى
من شأنه أن يستبد وحققنا أن نستعدا

تعالج من منظومه :

وكان على الصديق الأثير أن يتخير لنا بعض منظومه ، ليساعدنا على إعطاء الصورة ، التي يحسن بنا أن نقدمها إلى قارىء هذه الترجمة عن مواهبه الفسحة .

يقول الدكتور : أما شعري فقد ذهب أكثره في دوامة المحن المتلاحقة التي أصابت الإخوان المسلمين ، إذ كان الأقارب والأصدقاء يتخلصون بما عندهم من أوراق خشية أن تجرهم إلى السجون والمعتقلات . وبقي منه شيء قليل من قصيدتي « النونية » التي نظمتها في السجن الحربي خلال سنة ١٩٥٤ وهي أشبه بلحمة تسجل أحداث هذا السجن الرهيب . وبما قلت في خواتيمها متحدثاً بعبوات الطغاة :

ضع في يديّ القيد ، ألق أضلعي بالسوط ، ضع عنقي على السكين
لن تستطع حصار فكري ساعة أو نزع إيماني ونور يقيني
فالتور في قلبي ، وقلبي في يدَيّ ربي ، وربّي ناصري ومعيّني
سأعيش منحصراً بحبل عقيدتي وأموت مبسماً ، ليحيى ديني

وحقاً إنها للحمّة ، بل أحق بصفة اللحمة من كثير من الطوال التي يسميها أصحابها ملاحم .. إنها سجل حي رهيب للصرع الذي شهدته مصر في ظل طغمة السجن الحربي .. بصور بالحروف وقائع لا تستطيع الأيام أن تذهب يحدتها . وقد ضاعف من قيمتها الفنية ما تحتفظ به من حرارة لاذعة يحس القارئ تحت لفتحها أنه يشم رائحة الأماسة ، ويشارك الشاعر المعاني الآلامه البالغة أقصى التوهج .

وقد شاء الله أن أكون أنا الذي أتولى إعدادها للنشر قبل عشر سنوات ، مع غيرها من المنشورات التي ذكرت المسلمين بأولئك الأحرار الذين يقاسون أمر العذاب من أجل الإسلام ، والذين كادوا ينسوتهم ، بل كادوا يصدقون فيهم كل ما تنقذه أفتية الأعلام الكذاب من مفتريات عاصفة مجنونة .. ولولا خشية الإطالة لأتحفنا القارئ بمقاطع ومقاطع من هاتيك الروائع ، ولكن حسب منها هذا النموذج الدالّ على أنه تلقاه شاعر مطبوع لو تفرغ للقريض لملأ القلوب والأصماع بالدهش المعجب .

تفاوت و تحذير :

ويحدثنا عن انطباعاته عن الشباب فيقول :

أنا مستبشر بمستقبل الجليل الإسلامي في مصر ، فبالرغم من الهن المتلاحقة والضربات الوحشية التي وجهت إلى شباب الدعوة الإسلامية هناك ، وبالرغم من وثوب الشيوعيين إلى أجهزة الإعلام والصحافة وغيرها من وسائل التوجيه والتأثير في العهد الناصري وذبوله ، لم يزل في مصر شباب يعيشون للإسلام ، ويتمنون أن يموتوا في سبيله .. تجد هؤلاء في كل مكان في المدن والقرى ، في المصانع والمدارس ، وأكثر ما تجدهم في الجامعات المدنية ، وبخاصة كلياتها العلمية مثل الهندسة والطب ونحوها .

وكل ما أخافه على هذا الجليل أمران :

١ - ألا يجد من يوجهه من العلماء وقادة الفكر المؤمنين الموثقين ، فيميل يمينا أو شمالا ، تحت تأثير الفلاة الذين يستغلون الشعلة المتقدة للإحراق لا للإضاءة ، وبذلك ينزلق إلى منعطفات خطيرة ، قد تنحرف بسيرته إلى العوج ، أو قودي به في النهاية .

ولأجل هذا وضعت يدي على قلبي حينما قرأت عن جماعة والتكفير في ناحية وأنصار البرهانية في ناحية أخرى . وهذا يضع على عاتق العلماء المستبصرين مسؤولية ثقيلة نحو هؤلاء .

٢ - أن تنبه القوى المعادية للإسلام إلى خطر هذا الجليل الإسلامي الناهض ، فتعمل على تمويق مسيرته وتعطيله عن هدفه ، يجره إلى غير طريقه ، وإدخاله في ما لا يحسن الخروج منه . وبذلك يتمزق من داخله ، ويتفرق شذر مذر ، دون أن يحقق غاية ، أو يرفع راية .

على أن هناك أعدادا كبيرة من أبناء الجليل تعيش في فراغ ، تحاول أن تملأ بالعبث والهجون ، أو بالانسياق وراء التيارات .

أما الجليل الإسلامي في منطقة الخليج ، التي أعمل بها منذ خمسة عشر عاماً ف فيه بذور طيبة ، وطلائع مؤمنة ، ولكنها قليلة بالنسبة إلى مجموع الجليل الناشئ ، الذي تحيط به فتن عارمة ، تضل العقول بالشبهات ، وتقوي القلوب بالشهوات ، يساعد على ذلك فراغ في الوقت والفكر والروح ، ومال يأتي بغير مشقة ، وينفق بغير حساب ، وخطط مبهوكة تدبر للمنطقة التي يتدفق فيها ذهب العالم ونقده ، تريد تبيد ثروتها بتعطيم شبابها ، وعدتها في ذلك مدرسة معروفة : الكأس والمرأة .

ولا غرو أن تتركز الأنظار ، وتعمل القوى المختلفة من يهودية وماسونية و صليبية وشيوعية لتزور هذه المنطقة الثرية غزواً ثقافياً وأخلاقياً واجتماعياً ، مستمنة بالأقليات المتسلطة والمعيلة .

ومن هنا يجب على علماء الإسلام في المنطقة أن يتيقظوا لما يحاك لها ، ويتفطنوا للألغام التي تزرع لتدميرها ، وألا يمشوا في عزلة عما حولهم ظانين أن الإسلام بخير ، بل عليهم أن يقاوموا الخطط الكافرة ، بخطط مؤمنة ، وأن يجمعوا من أجل حقهم ، في مواجهة تجمع خصومهم من أجل باطلهم ، وإلا كانت الماقبة كما قال الله تعالى : « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، إلا تقطعوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

وعلى الأسرة مسئولية لا تتكرر في حماية شبابها ، وعلى الدولة مسئولية أكبر في تطهير المجتمع من عوامل الفساد ومعاول الهدم و « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

وقد زرت عدداً من الأقطار في الوطن الإسلامي الكبير ، فوجدت الأجيال المسلة فيها تعاني محنة مشتركة . إنها تعاني نفسياً من التناقض البعيد بين عقيدتها وواقعها ، بين ما يحسه ضميرها وما يعيشه مجتمعها . . بين الإسلام الذي تؤمن بوجوده تطبيقه ، وتحكيمه ، وبين الحياة البعيدة عن الإسلام في أكثر جوانبها . إنها محنة الفرد المسلم في مجتمع غير ملتزم بأحكام الإسلام .

ولهذا كان لا بد من العمل للعودة بالمجتمع إلى الإسلام، ليستأنف حياة إسلامية صحيحة، توجهها عقيدة الإسلام، وتحكمها شريعة الإسلام، وتسودها أخلاق الإسلام. وهذا العمل لا يثمر إلا إذا كان عملاً جماعياً منظماً مخططاً، كما بينت ذلك في القسم الأخير من كتابي «الحل الإسلامي فريضة وضرورة».

مهمة العلماء :

يستطيع علماء الإسلام المعاصرون أن يعملوا الشيء الكثير، لضبط مسيرة الجيل بأحكام الإسلام، وللوقوف في وجه التيارات الفازية، ولتحقيق قيام المجتمع الإسلامي المتكامل :

أ - فهم يستطيعون أن يعملوا من المساجد التي يخطبون بها ويدرسون، مراكز إشعاع، ومعاور لنشاط إسلامي متعدد الألوان إذا هم وهو رسالة المسجد وأعادوا لها مكانتها الأولى. ولا زال رواد المساجد - ولا سيما في أيام الجمع ورمضان - يمثلون أكرية المواطنين في العالم الإسلامي.

ب - ويستطيعون أن يجوبوا البلاد فرادى ومثنى وثلاث ورباع، داعين إلى الإسلام، مذكرين به، ذابئين عنه، وخاصة في المناسبات الإسلامية كشهر رمضان وغيره، وأن ينتقلوا إلى الناس بدل أن ينتظروا انتقال الناس إليهم.

ج - ويستطيعون أن يؤلفوا الرسائل والنشرات والكتب التبصير بالإسلام، وإيجاد رأي عام يلتزم به ويناصر دعائه، ويقف في وجه أعدائه.

د - ويستطيعون أن يكونوا في مواقعهم رواداً ومصلحين اجتهائين إلى جوار كونهم موجبهين دينيين. ومعنى هذا أن يتحوا بأحوال المجتمع، والاتصال بأفراده وأسره وجماعته ومؤسساته، والعمل على تفهم أوضاعه وأمراضه ومشكلاته الدينية والسلوكية والفكرية والاجتهادية

والاقتصادية والسياسية، وأن يسهموا في تشخيصها ووصف الدواء لها على هدي الكتاب والسنة .

هـ - ويستطيع العلماء بكل ما ذكرناه وبغيره أن ينلقوا من الشعب قوة إسلامية تطالب الحكام بالرجوع إليه ، وبإقامة الحدود ، والالتزام بقشريعه وتوجيهه ، بل تلزمهم به وتدفعهم إليه دفعاً . وخاصة في البلاد الديمقراطية التي لها حق اختيار ممثليها في البرلمان .

و - ويستطيع علماء الإسلام أن يعقدوا ما بين حين وآخر مؤتمرات إسلامية لها صبغة عالمية ، يلتقون فيها من كل بلد ، لينتقدوا أوضاعهم ، ومواضع القوة لديهم ، ونقاط الضعف عندهم ، ومكامن الخطر التي يتربص بها عدوهم ، ليقدموا الحلول لأمتهم الكبرى ، ويضعوا أيدي زعمائها على الطريق الصحيح ، ويصبروا بمكامن الخطر ونقاط الضعف لتتلاقى ، وينبها على مواطن القوة المستغل .

ز - ويستطيع علماء الإسلام أن يعملوا على تكوين مجامع علمية متخصصة في شتى جوانب الثقافة الإسلامية مهمتها أن تقدم البحوث العميقة ، والدراسات المستفيضة التي تضع الحلول لمشكلات العصر ، وتبشر الطريق لمن يريد العودة إلى الإسلام . على أن تناقش هذه البحوث وتمحصها لنصل من وراء ذلك إلى اجتهاد جماعي معتبر ، هو صورة « الإجماع » في عصرنا .

الوصايا العشر :

لكن علماء الإسلام المعاصرين لا يستطيعون أن يقوموا بما ذكرت إلا بشروط يجب أن يرعوها :

١ - أن يكون ولاؤهم لله سبحانه ولدينه وحده ، لا لتومية ولا لوطنية ولا لأنظمة ولا لأحزاب ولا لأشخاص إلا بقدر اتصالها بالإسلام وقربها منه .

٢ - أن يجعلوا مستندهم في كل قضية الرجوع إلى كتاب الله وما سح من سنة رسوله ، مهتدين بهدي السلف الصالح لهذه الأمة في فهمهم لروح الإسلام ، واتباعهم لمناهجه ، عاملين على تحرير الإسلام مما شابهه وابتدع فيه - على مر القرون - من تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

٣ - أن يجهروا بكلمة الحق في وجوه الطغاة والمتألمين ، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، لا يخافون في الله لومة لائم ، ولا سطوة ظالم ، كالذين وصفهم الله بقوله : « الذين يبلتغون رسالات الله ويخشونه ، ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً » .

٤ - أن يضعوا نصب أعينهم وصية النبي ﷺ لمعاذ وأبي موسى حين بعثها إلى اليمن وقال لهما: «يسرا ولا تمسرا، وبشرا ولا تتفرا، وتطاوعا ولا تختلفا». لسا أحوج العلماء والدعاة إلى هذه الوصية في كل وقت ، وما أشد حاجتهم إليها في عصرنا خاصة !

ومعنى هذا ، أن يكون شعارهم الرفق لا العنف ، والتساهل لا التشدد ، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله ، وقد قال الله لحير خلقه : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك » .

والتساهل الذي أعنيه هو التساهل في الفروع والوسائل ، لا في الأصول والأهداف ... وعلى هذا الأساس يجب أن نعامل الناس .

يجب أن نعدّ لكل مسلم أدى الفرائض واجتنب الكبائر في هذا العصر صديقاً لنا ، ونشعره بأنه منا ، وإن كان على بعض المكروهات والشبهات والصنائر التي لا يصر عليها . مع دعوتنا له بالحكمة والموعظة الحسنة أن يرتقي إلى ما هو أفضل .

ومن الخطأ والخطر أن نعادي هذا الصنف ونعتبره ضد الدين فيختطفه عدو الإسلام ، ويحتضنه ويميل منه معولاً لهدم دينه وأمته .

٥ - أن يعرفوا عصرهم وعدومهم ومعركة وقتهم .. فلا يشغلوا أنفسهم وطلابهم وجمهورهم بمعارك جانبية أو فرعية أو تاريخية، غافلين عن معركة الوقت ومعركة المصير ، أعني معركة الإسلام والتيارات الفازية من الشرق والغرب ، تحمل إلى أبنائنا الإلحاد والتحلل ، والاستخفاف بقيمتنا وشرائنا . فهذه التيارات الهدامة هي العدو الأكبر الذي ينبغي أن نوجه إليه جل اهتمامنا ، وجل تفكيرنا ، وجل سمينا ، لنحفظ على أمتنا شخصيتها وأصالتها ونحميها من الدوبان والقنناء في غيرها .

٦ - أن يتخذوا من قاعدة المنار الذهبية شعاراً لهم ودستوراً يتعاملون به فيما بينهم : نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه .

٧ - أن يتسلحوا بما استطاعوا من معارف المصير ، فالإمام الغزالي ما استطاع أن يهزم الفلسفة ، ويحيي علوم الدين ويبين تهافت الفلاسفة إلا بعد هضم الفلسفة ، وأصبح فيها كأحد أساطينها .

وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ، ما رد على كل الفئات المنحرفة وبين عوارها إلا بعد دراسة عقائدها وتعاليمها من كتبها ، دراسة واعية فاحصة ، حتى اليهودية والنصرانية ، ولهذا لم يكن إماماً في الشرعيات فحسب ، بل في العقليات أيضاً ، كما يدل على ذلك تراثه القوي . فلا غنى للعالم في عصرنا عن دراسة الثقافة الحديثة - قدر الاستطاعة - كعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد السياسي والأخلاق والفلسفة ومذاهبها وتاريخها .

٨ - على أن هذا كله لا يتم إلا بتحررهم من الشعور بأنهم مجرد موظفين رسميين في معاهد الدولة ومدارسها وجوامعها ، وليشعروا بأنهم أصحاب دعوة ، ورجال فكرة . ففرق بين الموظفين والدعاة ، فالأولون يمشون بالإسلام ، يأكلون به ، والآخرين يمشون للإسلام ويموتون في سبيله .

٩ - أن يترابطوا ويتواصلوا فيما بينهم - على مستوى العالم الإسلامي - فعطاء المسلمين قوة كبيرة لها جمهورها وأتباعها وتأثيرها ، لو أنهم اتحدوا داخل كل بلد ، ثم حاولوا التنسيق والتعاون على المستوى الإسلامي العام .

إن أعداء الإسلام يعرفون الخلافات الصغيرة التي تفرق بين علماء المسلمين ، فهم لهذا يقوونها ويضضونها ويعملون على إبقائها حية بارزة ، ويستخدمونها عند الزوم لضرب بعضهم ببعض . . موهين فريقاً منهم أنهم معهم ضد خصومهم في الفكر ، والحقيقة أنهم ضد الجميع ، وعدو الجميع ، وإفنا هو التكتيك للقدر الملعون .
وعلينا - نحن المسلمين - أن نكون أبصر منهم وأوعى ، وأن نرد كيدهم في محورهم .
١٠ - أن يقفوا إلى جانب كل حركة إسلامية سليمة الاتجاه ، تعمل على العودة بالإسلام إلى قيادة الحياة من جديد ، وصيخ المجتمع بصيغة الإسلام ، فلي علماء الإسلام أن يشدوا أزرها ، ويأخذوا بأيديها ، ويسدوا خطاها ويمدوها بكل ما استطاعوا من قوة ، إن لم يكونوا هم في مقدمة صفوفها فوجيها وعملاً وتضحية وبذلاً : « ومن أحسن قولاً من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » !

ملاحظات تستحق الالتباه :

ويعد ، فإن فضية الأخ في فقراته العشر يقدم لنا أفضل (ورقة عمل) للمعالجة واقع العالم الإسلامي ، وإعداد المجتمع الصالح الذي نتطلع إليه . ولكن في بعض هذه الفقرات متسماً كبيراً لتساؤلات لا بد أن تتحرك في صدور الكثيرين من قرائها ، ولا يحسن أن نمر بها دون أن نعقب عليها ببعض القول :

في الفقرات (أ - ب - و) « نظريات » تتجاوز نطاق الواقع ، وكأنها ضروب من الأحلام التي من شأنها التعويض عن المستحيل بتحقيق التخيلات .
في الفقرة (أ) يكلف علماء الإسلام أن يجعلوا من المساجد مراكز إشعاع ومحاور لنشاط متعدد الألوان في توجيه روادها من المصلين الذين - في رأيه - لا يزالون يؤلفون كثرة المواطنين في العالم الإسلامي .
وهو تكليف بما فوق الإمكان ، لأنه يتجاهل وجود السلطة القاهرة التي تهيمن على وضع المسجد ، ولا تسمح بالكلام فيه إلا لنوعية معينة من رجال الدين الذين كل منهم (بعدد أياما ليقبض راتباً) .

وفي الفقرة (ب) يدعو العلماء لجوب البلاد لبث الدعوة ونشر الوعي الإسلامي . وهو أيضاً اقتراح خيالي يتصور هؤلاء العلماء مطلقى التصرف في خدمة الإسلام حيث شاءوا .. ولو خفض بصره إلى واقع الناس قليلاً لأبصر ركام العقبات التي تقام بوجوههم فتحول بينهم وبين الاتصال بأي جانب من العالم الإسلامي .

كذلك الأمر في الفقرتين (و- ز) فكأنني به يفترض لعلماء الإسلام مثل النفوذ الذي كان لهم في دولة ابن ناشفين بالأندلس ، فهو يحضهم على أن يخلقوا من الشعب قوة إسلامية تلزم الحكام إقامة الإسلام .. وأن يعقدوا المؤتمرات العالمية لتدارس أوضاع المسلمين ، وللمعدل على تكوين الجامعات العلمية التي تقدم الحلول لمشكلات العصر .

وليس أجدر من الأستاذ القرضاوي بتقدير ظروف هؤلاء العلماء الذين حيل بينهم وبين ما يشتهون ، فلا إذاعة تستقبلهم ، ولا تلفاز يقبلهم ، ولا صحافة تحمل كلامهم إلا في حدود لا يكاد يحس بها أحد .. وليست مواكب شهدائهم ولا زمر سجنائهم دون محاكمة ، عن ذاكرته وعلمه ببعيد .

ثم إن (الامكانات) التي يتخيلها هؤلاء العلماء توهم كان الأستاذ يتصور العالم الإسلامي دائرة مغلقة لا نفوذ فيها لغير الإسلام ، وقد نسي تدفق السموم عليه من كل صوب ، ولا سيما عن طريق تلك البعثات التي احتواها الغرب والشرق ، فربها على عينه ، وجردها من كل احترام لدينها وموارثها الروحية ، حتى إذا عادت إلى أهلها لم تجد أرواح لقلبها من إعلان الحرب على كل مقدس في هذه الأمة !

ويلاحظ أن فضيلة الأخ يلح في أكثر من موضع على أن يقف العلماء بجانب كل حركة إسلامية تبين لهم سلامتها ، وهو إلحاح ينطوي على تقريب كبير لأولئك المعممين الكبار ، الذين سخرتهم السياسة الباغية لقلب الحقائق ، وإصدار الفتاوى بإهدار دماء الدعوة إلى الإسلام ، دونما ذنب جنود سوى أن يقولوا : ربنا الله ..

وما أكثر هؤلاء في ديار المسلمين .. وما أخطر ما جنوه على الإسلام من الهن التي لا تكاد تنتهي ! ..

فهرس العُلماء المترجمين في الكتاب

الصفحة	الاسم
٥	الإهداء -
٧	هذا الكتاب -
١٣	الأستاذ أحمد محمد جمال - ١
٢٧	الشيخ جابر أبو بكر الجزائري - ٢
٤٩	الشيخ حماد محمد الأنصاري - ٣
٦٣	الشيخ عبدالرحمن الإفريقي - ٤
٧٧	الشيخ عبدالعزیز بن باز - ٥
١٠٧	الشيخ عبدالله القرعاوي - ٦
١٢١	الشيخ عثمان أحمد العسيلي - ٧
١٣٥	الشيخ علي أبو الحسن الندوي - ٨
١٥٥	الدكتور علي محمد جريشة - ٩
١٧١	الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - ١٠
١٩٣	الدكتور محمد تقي الدين الحلالي - ١١
٢٢٩	الأستاذ محمد عبدالقادر المبارك - ١٢
٢٦٥	الشيخ محمد الغزالي السقا - ١٣
٢٨٧	الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - ١٤
٣٢٧	اللواء محمود شيت خطاب - ١٥
٣٤٩	الشيخ محمود عبد الوهاب فايد - ١٦
٣٧٩	الدكتور مصطفى حسني السباعي - ١٧
٤١٣	الدكتور مصطفى محمود - ١٨
٤٤٧	الشيخ مناع القطان - ١٩
٤٦١	الدكتور يوسف القرضاوي - ٢٠